«تفسير ابن عطية»

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء السادس

تحقيق وتعليق

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري — السيد عبد العال السيد إبراهيم

محمد الشافعي صادق العناني

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

«تفسيرُ ابن عطية خيرٌ من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا وبحثاً ، وأبعد عن البدع .... بلْ هو خير منه بكثير ، بل لعله أَرجح هذه التفاسير» .

(ابن تيميـة)

«لـمَّا رجع النَّاسُ إلى ٱلتَّحقيق والتَّمحيص ، وجاءَ أَبو محمد عبد الحق ابن عطية من المتأَخرين بالمغرب ، فلَخَّص تلك التفاسير كلها ، وتَحَرَّى ما هو أَقرب إلى الصحة منها» .

(ابن خلدون)

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

تقدم القول في معنى [الْمَلَأ] ، وفي معنى الاستكبار . وقولهم : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾ تهديد بالنفي . والقرية : المدينة الجامعة للناس لأَنها تَقَرَّت أَي اجتمعت ، وقولهم : ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ معناه : أَو لَتَصيرُنَّ . و(عاد) تجيءُ في كلام العرب على وجْهَيْن ، أَحدهما : عاد الشيءُ إلى حالٍ قد كان فيها قبل ذلك ، وهي – على هذه الجهة – لا تَتعَدى ، فإِن عُدِّيَتْ فبحرف ،

ومنه قول الشاعر :

إنْ عادَتِ العَقْرَبُ عُدْنَا لهَـا وكانتِ النَّعْلُ لَهَا حـاضِرَهْ (١)

ومنه قول الآخر :

ألا ليْتَ أَيَّامَ الشَّبابِ جَايـدُ وعَصْراً تَوَلَّى يا بُثَيْنُ يَعُودُ (٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (٣) . ومنه قول الشاعر:

فإنْ تَكُن الأَيَّامُ أَحْسَنَّ مَـرَّةً إليَّ فَقَدْ عَادَتْ لهُنَّ ذُنُوبُ (٤)

والوجه الثاني : أَن تكون بمعنى (صار) ، وعاملةً عملها ، ولا تتضمن

---

(١) العَقْرب : واحدة العقارب، من الهوام، للذكر والأنثى بلفظ واحد، والغالب عليها التأنيث ، وهذا البيت قاله الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب ضمن أبيات يذم بها رجلا اسمه «عَقْرَب بن أبي عَقْرب» ، وكان من تجار المدينة ، عرف بالمَطْل ، وقيل في المثل : «أمْطَلُ من عَقْرب ، وأتْجَر من عقرب» ، وقد حكى الزُّبَيْرُ بن بَكَّار قصة التاجر هذا مع الفضل ابن عباس . وذكر أن (عَقْرب) هذا حدث بينه وبين الفضل تعامل تجاري ، وكان الفضل من أشد الناس اقتضاءً ، ولا يسكت عن حقه ، فلزم بيت (عَقْرب) زماناً ، فلما لم يحصل على حقه قال :

قَدْ تَجِرَتْ في سُوقِنَـا عَقْرَبٌ لا مَرْحَباً بالعَقْرَبِ التَّـاجِرَهْ

كُلُّ عَدُوٍّ يُتَّقَى مُقْبِـلا وَعَقْرَبٌ يُخْشَى مِنَ الدَّابِـرَهْ

إنْ عَادَتِ العَقْرَبُ عُدْنَا لَهَا وكَانَتِ النَّعْلُ لَهَا حَاضِـرَهْ

كُلُّ عَدُوٍّ كَيْدُهُ في اسْتِـهِ فَغَيْرُ مَخْشِـيٍّ وَلا ضَائِـرَهْ

(٢) هذا البيت مطلع قصيدة لجميل بن عبد الله بن معمر بن الحارث المعروف بجميل بثينة، وهي بنت عمه بثينة بنت حبأ بن ثعلبة، ويروى البيت : «وعهداً تولى» بدلا من «وعصراً تولى» .

(٣) من الآية (٢٨) من سورة (الأنعام) .

(٤) هذا البيت للأحوص ، وقبله يقول مخاطباً أم جعفر :

تَبِيني امرأً إمَّا بَرِيئاً ظَلَمْتِـهِ وَإمَّا مُسِيئاً مُذْنِباً فَيَتُـوب

فَلا تَتْرُكي نَفْسي شَعَاعاً فإنَّهَـا مِنَ الحُزْنِ قَدْ كادتْ عَلَيْكِ تَذوبُ

أَن الحال كانت متقدمة ، ومن هذه قول الشاعر :

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لا قَعْبَانِ مِنْ لَبَــن شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالا[١]

ومنه قول الآخر :

* وَعَادَ رَأْسِي كَالثَّغَامَةْ * [٢]

ومنه قوله تعالى : ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[٣] ، على أَن هذه محتملة ، فقوله في الآية : [أَوْ لَتَعُودُنَّ] – وشعيب عليه السلام لم يكن قطُّ كافراً – يقتضي أَنها بمعنى صار ، وأَما في جهة المؤمنين بعد كفرهم فيترتب المعنى الآخر ويخرج عنه شعيب إلا أَن يريدوا عودته إلى حال سكوته قبل أَن يبعث .[٤]

---

(١) قائل هذا البيت أمية بن أبي الصلت ، وقد أعاد ابن عطية الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى في هذه السورة : ﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ وذكر أنه لأمية . ونقل كلامه واستشهاده القرطبي في تفسيره .

والقَعب بفتح القاف : القدح الضخم الغليظ الجافي ، وقيل : قدح من خشب مقعَّر ، والجمع القليل : أَقْعُب ، والكثير : قِعَابٌ وقِعَبَةٌ . والأبوال : جمع بول ، وهو معروف .

(٢) في التهذيب : « الثَّغامة نبات ذو ساق جُمّاحته مثل هامة الشيخ . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه أُتي بأبي قُحافَة يوم الفتح وكأن رأسه ثغامة فأمرهم أن يغيروه » . وقال ابن الأعرابي : الثغامة شجرة تَبْيَضُّ كأنها الثلج ، وأنشد :

إذا رأيت صَلَعاً في الْهامَــهْ وحَدَباً بعــد اعتدال القَــامَهْ
وصار رأسُ الشَّيْخ كالثَّغامَــهْ فَايْأَس مِن الصِّحَّةِ والسَّلامَهْ

(٣) من الآية (٣٩) من سورة (يس) .

(٤) وقد ناقش بعضهم هذه الإجابة فقال : إن عودته إلى حال سكوته قبل أن يبعث لا تجعله في ملتهم . ولهذا أجيب بوجهين آخرين – الأول : أن يكون هذا من باب تغليب حكم الجماعة على الواحد لما عطفوا أتباعه على ضميره في الإخراج ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ =

وقوله تعالى : ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ توقيف منه لهم على شنعة المعصية ، وطلب أَن يقروا بأَلسنتهم بإِكراه المؤمنين بالله على الإخراج ظلماً وغشماً .

والظاهر في قوله تعالى : ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ أنه خبر منه ، أَي : لقد كنا نواقع عظيماً ونفتري على الله الكذب في الرجوع إلى الكفر . ويحتمل أَن يكون على جهة القَسَم الذي هو في صيغة الدعاءِ ، مثل قول الشاعر :

بَقَّيْتُ وَفْرِي ....(١)

وكما تقول : « افتريتُ على الله إن كلمت فلاناً » . و [افْتَرَيْنَا] معناه : شققنا بالقول واختلفنا ، ومنه قول عائشة رضي الله عنها : « من زعم أَن محمداً صلى الله عليه وسلم رأَى ربَّه فقد أَعظم على الله الفِرية » .

= والَّذينَ آمَنُوا مَعَكَ ﴾ سحبوا عليه حكمهم في العود وإن كان شعيب بريئاً مما كان عليه أتباعُه قبل الإيمان . والثاني : أن رؤساءهم قالوا ذلك على سبيل التلبيس على العامة والإيهام بأنه كان منهم .

(١) هذا جزء من بيت للأشتر النخعي وهو مالك بن الحارث من أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد سبق لابن عطية أن استشهد به عند تفسير الآية (١٦٥) من سورة البقرة (ج ٢ ص ٥٧) من هذا التفسير – ولكن برواية أخرى هي : (بَقَّيْتُ نفسي) والبيت بتمامه على الرواية الواردة هنا :

بَقَّيْتُ وَفْري وانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلا وَلَقِيتُ أضْيافي بوجْهِ عَبُوسِ

قال أبو حيان في « البحر المحيط » : ولم ينشد ابن عطية البيت الذي يُقَيِّد قوله : (بَقَّيْتُ) وما بعده بالشرط وهو قوله :

إنْ لمْ أشُنَّ على ابْنِ هِنْدٍ غارَةً لَمْ تَخْلُ يوْماً مِنْ نِهَابِ نُفُوسِ

ونجاة شعيب من ملتهم كانت منذ أول أمره ، ونجاة من آمن معه كانت بعد مواقعة الكفر .

وقوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ يحتمل أن يريد : إلّا أن يسبق علينا من الله في ذلك سابق سوءٍ وينفذ منه قضاءٌ لا يردّ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمؤمنون هم المجوّزون لذلك ، وشعيب قد عصمته النبوّة ، وهذا أظهر ما يحتمل القول . ويحتمل أن يريد استثناءَ ما يمكن أن يتعبد الله تعالى به المؤمنين مما تفعله الكفار من القُرُبات ، فلما قال لهم : إنا لا نعود في ملتكم ، ثم خشِيَ أن يتعبد الله بشيءٍ من أفعال الكفرة فيعارض مُلْحد بذلك ويقول : هذه عودة إلى ملتنا – استثنى مشيئة الله تبارك وتعالى فيما يمكن أن يتعبّد به . ويحتمل أن يريد بذلك معنى الاستبعاد كما تقول : لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب وحتى يلج الجمل في سمّ الخياط – وقد علم امتناع ذلك – فهو إحالة على مستحيل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تأْويل إنما هو للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئة من الله تعالى ، فلا يترتب هذا التأْويل إلا عندهم ، وهذا تأْويل حكاه المفسرون ولم يشعروا بما فيه ، وقيل : إن هذا الاستثناءَ إنما هو تستُّر وتأَدب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويقلق هذا التأْويل من جهة استقبال الاستثناء ، ولو كان في الكلام «إنْ شَاءَ الله» قوِيَ هذا التأْويل [1] .

وقوله : ﴿وَسِـعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ معناه : وسِـعَ علم ربنا كل شيءٍ ، كما تقول : تصبّب زيد عرقاً ، أي : تصبَّب عرق زيد ، و[وسِـعَ] بمعنى أحاط .

وقوله : [ٱفْتَحْ] معناه : احكم ، والفاتح والفتاح : القاضي بلغة حمير ، وقيل : بلغة مراد ، وقال بعضهم :

أَلَا أَبْلِـغْ بني عُصْم رَسُـولاً فَإِنِّـي عَنْ فُتَاحَتِكمْ غَنِـيّ [2]

وقال الحسن بن أبي الحسن : إن كل نبي أراد الله هلاك قومه أمره بالدعاء عليهم ثم استجاب له فأهلكهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما كنت أعرف معنى هذه اللفظة حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها : تعال أُفاتحك ، أي : أُحاكمك .

---

(١) عقَّبَ أبو حيان في «البحر» على كلام ابن عطية هذا بقوله : «وليس بقوي هذا التأويل . لافرق بين «إلا أن يشاء» وبين «إلا أن شاء» لأن (أنْ) تخلص الماضي للاستقبال» .

(٢) هذا البيت للأسْعَر الجُعفي ، ولفظه كما في (اللسان والتاج) : «ألا من مبْلغ عمراً رسولاً» . والبيت دليل على أن الفتاحة (بضم الفاء وبكسرها) معناها : الحكم بين خصمين . قال الأزهري : «الفتح : أن تحكم بين قوم يختصمون إليك . كما قال سبحانه مخبراً عن شعيب : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحقّ وأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ . قال : وأهل اليمن يقولون للقاضي : الفتَّاح ، ويقول أحدهم لصاحبه : تعال حتى أُفاتحك إلى الفتَّاح» (عن اللسان) .

وقوله : ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ استسلام لله وتمسّك بلفظه ، وذلك يؤيد التأويل الأول في قوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

هذه المقالة قالها المَلأُ لتباعهم وسائر الناس الذين يقلدونهم .

و [ٱلرَّجْفَةُ] : الزلزلة الشديدة التي ينال معها الإنسان اهتزاز وارتعاد واضطراب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن فرقة من قوم شعيب أهلكت بالرجفة ، وفرقة بالظُّلَّة . ويحتمل أن الظلة والرجفة كانتا في حين واحد . وروي أن الله تبارك وتعالى بعث شعيباً إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة . وقيل : هما طائفتان ، وقيل : واحدة ، وكانوا — مع كفرهم — يبخسون الكيل والوزن فدعاهم فكذبوه فجرت بينهم هذه المقاولة المتقدمة . فلما عتَوا وطالت بهم المدة فتح الله عليهم باباً من أبواب جهنم فأهلكهم

الحرُّ منه فلم ينفعهم ظل ولا ماءٌ ، ثم إنه بعث سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برْد الريح وطيبها فتنادوا : عليكم الظُّلَّة ، فلما اجتمعوا تحت الظُّلَّة وهي تلك السحابة انطبقت عليهم فأَهلكتهم .

قال الطبري : فبلغني أَن رجلا من أَهل مَدْيَن يقال له عمرو بن جلهاء قال لمَّا رآها :

يا قَوْم إنَّ شُعَيْباً مُرْسَـلٌ فَـذروا عَنْكُمْ سَمِيراً وعِمْرَان بْنَ شَدَّادِ
إنِّي أَرَى غَيْمَةً يا قَوْم قَدْ طَلَعَت تَدْعو بِصَوْتٍ على صمَّانَةِ الوادي
وإنَّكُمْ إنْ ترَوْا فيها ضَحَاةَ غَـدٍ إلَّا الرَّقيمَ يُمَشِّي بَيْنَ أَنْجَادِ (١)

وسمير وعمران : كاهناهم ، والرقيم : كلبهم . ورُوي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر شعيباً قال : (ذلك خطيبُ الأَنْبياءِ) (٢) لقوله لقومه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِـي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٣)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يريد : لِحُسْن مراجعته وجميل تلطفه .

---

(١) أورد الثعلبي هذه الأبيات في كتابه « عرائس المجالس » المعروف باسم « قصص الأنبياء » . وبدلا من (سمير) جاء (شُمَيْر) بالشين المعجمة وبالتصغير ، وجاء (حنَّانة) بدلا من (صَمَّانة) . ورواية البيت الأخير : (فإنَّه لَن يرى ...) إلخ يعني شعيباً . يريد أن الزلزال سيصيبهم بالدمار ، وستصبح ديارهم خراباً لا يرى فيها شعيب إلا الرقيم .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ، والحاكم — عن ابن إسحق ، عن يعقوب بن أبي سلمة ، وكذلك أخرجه عنهما ابن جرير (الدر المنثور وتفسير الطبري) .

(٣) من الآية (٨٨) من سورة (هود) .

وحكى الطبري عن أبي عبد الله البجلي أنه قال : أَبوجاد ، وهَوز ، وحُطي ، وكَلَمُن ، وسَعَفَصْ ، وقرشت : أَسماءُ ملوك مَدْيَن ، وكان الملك يوم الظُّلَّة (كَلَمُن) فقالت أُختُه ترثيه :

كَلَمُنْ قَدْ هُدَّ رُكْـــني هُلْكُهُ وَسْطَ الْمَحلَّـــهْ
سَيِّدُ الْقَوْمِ أَتَـــاهُ الْـــ حَتفُ نارٌ وَسْـــطَ ظُلَّـــهْ
جُعِلَتْ ناراً عَلَيْهِــــمْ دارُهُمْ ... كالمُضْمَحِلَّـهْ [1]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه حكاية مظنون بها ، والله أَعلم .

وقد تقدم معنى [جَاثِمِينَ] . وقوله تعالى : ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ لفظ فيه الإِخبارُ عن قُوَّةِ هلاكهم ، ونزول النقمة بهم ، والتنبيهُ على العِبْرَة بهم ، ونحو هذا قول الشاعر :

كَأَنْ لمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا . . . . [2]

و [يَغْنَوْا] معناه : يقيموا ويسكنوا .

---

(١) أيضاً أورد الثعلبي هذه الأبيات في « قصص الأنبياء » ، ونلاحظ أن ابن عطية يرفض القصة كلها ، وتأمل قوله تعقيباً عليها : « وهذه حكاية مظنون بها ، والله أعلم » . ولاشك أن الصنعة بادية فيها .

(٢) هذا البيت المشهور قاله الحارث الجرهمي ، ونسبه في اللسان إلى عمرو بن الحارث ابن مُضاض ، قال :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بيْنَ الْحَجُونِ إلى الصَّفَا أنيسٌ ولَمْ يَسْمُرْ بمَكَّةَ سَامِـــرُ
بَلَى ، نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا ، فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالي والجُـــدودُ الْعَوَاثِرُ

والحَجُون بفتح الحاء : جبل بمكة ، والجدود : الحظوظ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

و «غَنيت في المكان» إنما يقال في الإقامة التي هي مقترنة بِتَنَعُّم وعيش رخيّ[١] ، هذا الذي استَقْريْتُ من الأَشعار التي ذكرت العرب فيها هذه اللفظة ، فمن ذلك قول الشاعر :

وقَدْ نَغْنَى بِهَـــا وَنَرَى عُصُوراً   بِهَا يَقْتَدْنَنَا الخُرُدَ الْخِـــذَالَا[٢]

ومنه قول الآخر :

وَلَقَدْ يَغْنَى بِهَا جيرانُكِ الْـــ   ـمُمْسِكو مِنْكِ بِعَهْدٍ وَوِصَالِ[٣]

---

(١) جاء في إحدى النسخ : « وعيش مرضي » ، واخترنا التي تتفق مع النص الذي ذكره أبو حيان في « البحر المحيط » نقلا عن ابن عطية .

(٢) معنى (نغنى) على ما وضحه ابن عطية : نقيم في تَنَعُّم وعيش رغيد ، و (يَقْتَدْنَ) من : اقتاد ، ومعناها : أن يقودَ مِن أمام ، أما السَّوْق فهو أن يقود مِنْ خَلْف . والخُرُدُ : جمع خريدة ، وهي من النساء : البكر التي لم تُمْسس قط ، وقيل : هي الحَيِيَّةُ ، الطويلة السكوت ، الخافضة الصوت ، المتستِّرَة . والخاذل والخذول من الظباء : التي تخذل صاحباتها وتتركهن في المرعى وتنفرد بنفسها ، وهذا الجمع على (خِذالٍ) غير مقيس . وقيل : هو على القلب ، فهي المخذولة التي تركها القطيع وحدها وليست هي الخاذلة . ومنه قول طرفة :

خـذولٌ تُراعي رِبْرَباً بخميلةٍ   تَناوَلُ أطْرَافَ البَرير وتَرتدي

(٣) البيت لِعَبيد بن الأبرص ، والرواية في ديوانه : (أَصْحَابُكِ) بدلا من (جيرَانُكِ) ، و (بِأسباب الوصال) بدلا من (بعَهْدٍ ووصال) ، وفي الخزانة أنه من شواهد النحويين ، إذ استدل به الخليل على أن حرف التعريف هو (ألْ) لا (اللام) وحدها ، لأنه فصلها عن المعرف ، ولو كانت اللام وحدها هي حرف التعريف لما جاز فصلها لاسيما واللام ساكنة ، و (المُمْسِكو) أصلها (المُمْسِكون) ، قال ابن جني : « أراد المُمْسِكون ولكنه حذف النون لطول الاسم لا للإضافة » .

أَنشدهُ الطبري ، ومنه قول الآخر :

أَلَا حَيِّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ المَغَانِيا . . . . (١)

ومنه قول مُهَلْهِل :

غَنِيَتْ دارُنَا تِهَامَةَ فِي الدَّهْـ ـرِ ، وفيها بَنُو مَعَدٍّ حُلُولَا (٢)

ويشبه أَن تكون اللفظة من الاستغناءِ . وأَما قوله تعالى : ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ (٣) ففيه هذا المعنى ، لأَن المراد : كأَن لم تكن ناعمة نضرة مستقلة ، ولا توجد – فيما علمتُ – إلا مقترنة بهذا المعنى ، وأَما قول الشاعر :

غَنِينَا زَماناً بالتَّصَعْلُك والْغِنَـى وَكُلاًّ سَقَانَاهُ بِكاسِهِمَا الدَّهْرُ (٤)

---

(١) هذا صدر البيت ، وهو بتمامه :

ألا حَيِّ مِنْ أجْلِ الحَبِيبِ المَغَانِيَا لَبِسْنَ البِلَى مِمَّا لَبِسْنَ اللَّيَالِيَا

(٢) مُهَلْهِل : امرؤُ القيس بن ربيعة ، أبو ليلى ، وهو خال امرئ القيس ، ولقب مهلهلا لأنه أول من هلهل الشعر أي رققه وزينه . ويفهم من كلام ابن عطية أن (غنيت) هنا بمعنى الإقامة في تنعم ، أو بمعنى الاستغناء عن غيرها ، لكن في (تاج العروس) وفي (اللسان) أن (غَنِيَ) هنا بمعنى (كان) وأن (دار) اسمها و (تِهَامَةَ) خبرها ، وهي بالنصب لذلك .

(٣) من الآية (٢٤) من سورة (يونس)

(٤) هذا البيت لحاتم الطائي ، لكن الرواية في الديوان تجعله ضمن أبيات كالآتي :

غَنِينَا زماناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى كما الدَّهْرُ في أيَّامِهِ العُسْرُ واليُسْرُ
كَسَبْنَا صُروفَ الدَّهْرِ لِيناً وغِلْظَةً وكُلاًّ سَقَانا بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ
فَمَا زادَنَا بَغْياً على ذي قَرَابَةٍ غِنَانَا ولا أزْرَى بِأحْسَابِنَا الفَقْرُ

ومن هذه القصيدة البيت المشهور :

أمَاوِي إنَّ المَالَ غادٍ ورائحٌ ويبقى مِنَ المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ =

فمعناه : استغنينا بذلك ورضيناه ، مع أن هذه اللفظة ليست مقترنة بمكان .

وقوله تعالى : ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ إلى آخر الآية كلام يقتضي أن شُعيباً عليه السلام وجد في نفسه لما رأى هلاك قومه حزناً وإشفاقاً إذ كان أمله فيهم غير ذلك ، فلما وجد ذلك طلب أن يثير في نفسه سبب التَّسَلِّي عنهم والقسوة عليهم ، فجعل يُعَدِّدُ عليهم معاصيهم وإعراضهم الذي استوجبوا به ألَّا يتأسف عليهم ، فذكر أنه بلَّغ الرسالة ونصَحَ . والمعنى : فأَعرضوا وكذَّبوا ، ثم قال لنفسه لما نظَرَتْ في هذا وفكرت فيه : فكيف آسَى على هؤلاءِ الكفرة ؟ ويحتمل أن يقول هذه المقالة على نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم لأَهل قليب بدر[١] ، وقال مكي : وسار شعيب بمن معه حتى سكن مكة إلى أن ماتوا بها .

و [آسَى] : أحزن . وقرأ ابن وثاب ، وطلحة بن مصرف ، والأَعمش : [إيسى] بكسر الهمزة وهي لغة ، كما يقال : إخال وإمن

= ويروي البيت موضع الاستشهاد: (عنينا) بالعيْن المهملة بدلا من (غَنَينا) . وفي (اللسان) : «وغني القومُ بالدار غِنىً : أقاموا ، وتقول : غَنِيَ بالمكان يغْنى ، والمغْنى : المنزل الذي غَنِي بهِ أهلُهُ» .

(١) حديث النبي لأهل قليب بدر رواه البخاري عن أبي طلحة – وهو حديث طويل – وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قام على شفة الرَّكي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ، يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، أيسرُّكُم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قال : فقال عمر : يا رسول الله ، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لا إخاله ، وقال ابنه عبد الله ابن عبد الله بن عمر في كتاب الحج : لا إيمن ، وجميع ذلك في البخاري ، وهذه اللغة تطرد في العلامات الثلاث : همزة التكلم ونون الجماعة وتاءِ المخاطبة . ولا يجوز ذلك في ياءِ الغائب ،كذا قال سيبويه ، وأما قولهم مِنْ (وَجِل) : يِيجَل فلَعَلَّه من غير هذا الباب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

هذه الآية خبر من الله عزَّ وجلَّ أنه ما بعث نبيًّا في مدينة – وهي القرية – إلا أَخذ أَهلها المكذبين له بالبأْساءِ وهي المصائب في الأَموال والهموم وعوارض الزمن ، والضراءِ وهي المصائب في البدن كالأَمراض ونحوها ، هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه وكثير من أَهل اللغة ، وحكي عن السدي ما يقتضي أَن اللفظتين تتداخلان (١)

(١) في الأصول : تتداخل – وهو قطعاً من خطأ النساخ .

فتقال كل واحدة على المعنيين ، و [لَعَلَّهُم] ترَجٍّ بحسب اعتقاد البشر وظنونهم ، و [يَضَّرَّعونَ] أي ينقادون إلى الإيمان . وهكذا قولهم : «الحمَّى أَضرعتني لك» (١) .

ثم قال تعالى إنه بعد إنفاذ الحكم في الأَولين بدَّل للخلق مكان السيئة – وهي البأْساءُ والضراءُ – الحسنَةَ – وهي السراءُ والنعمة – وهذا بحسب ما عند الناس ، وإلا فقد يجيءُ الأَمر كما قال الشاعر(٢):

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بالبَلْوَى وإنْ عَظُمَتْ ويَبْتَلي اللهُ بعض الْقَوْم بالنِّعَم

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا إنما يصح مع النظر إلى الدار الآخرة والجزاءِ فيها ، والنعمة المطلقة هي التي لا عقوبة فيها ، والبلوى المطلقة هي التي لا ثواب عليها .

---

(١) قال أبو عبيد : يضرب هذا في الذل عند الحاجة تنزل ، قال المفضل : أول من قاله رجل من كليب يقال له : مُرَيْر ، وكان له أخوان أكبر منه ، وقد اختطفتهما الجن في غيابه ، فلما عاد خرج في البحث عنهما ، فمكث أياماً ثم رأى ظليماً فرماه فأصابه . ثم عندما وجبت الشمس أبصر بشخص قائم على صخرة ينادي :

يأيُّهَـــا الرامي الظليم الأسـوَدِ تَبَّتْ مَراميكَ التي لَمْ تَرْشُـد

فأجابه مرير :

يأيُّهَا الهاتف فوق الصَّخْـــرَةِ كَمْ عَبْرةٍ هَيَّجْتَهَا ... وعَبْـرَة

فتوارى الجني عنه – ثم أصابته الحمى فغلبته عيناه ، فأتاه الجني واحتمله وقال له : ما أنامك وقد كنت حذراً ؟ فقال : « الحمى أضْرعتني للنوم » فذهبت مثلا . (عن مجمع الأمثال للميداني) .

(٢) هو أبو تمام .

و [حَتَّى عَفَوْا] معناه : حتى كثروا ، يقال : عفا النباتُ والريشُ يعفو – إذا كثر نباته ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

ولكنَّا نُعِضُّ السَّيْفَ مِنْهـــا بأَسْؤُقِ عافِيَاتِ الشَّحْمِ كُومِ (١)

وعليه قوله صلى الله عليه وسلم : (احفوا الشوارب وأعفوا اللِّحى)(٢)، وعَفا أيضاً في اللغة بمعنى دَرَسَ وبَلِــي ، فقال بعض الناس : هي من الألفاظ التي تستعمل للضدين ، وأما قول زهير :

. . . . على آثارِ مَنْ ذَهَبَ العفــاءُ (٣)

فيحتمل ثلاثة معان : الدعاءُ بالدرْس ، والإخبار به ، والدعاءُ بالنمو للنبات ، كما يقال : جادته الدِّيَمُ وسقته العِهَادُ(٤) ، ولما بدَّل

(١) الشاعر هو لبيد ، والبيت من قصيدة له يفتخر بمآثره ويذكر سخاءه وسخاء قومه . ونُعِضُّ السيف : نجعله يَعَضُّ كناية عن الضرب العنيف ، وأسْؤُق : جمع ساق والباءُ زائدة ، والعافيات : الكثيرة اللحم وهي موضع الشاهد هنا ، وكُوم : جمع كَوْماء ، وهي الناقة العظيمة السنام . وهذه هي رواية الديوان .

(٢) رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي – عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ورواه ابن عديّ في « الكامل » عن أبي هريرة . ورواه الطحاوي عن أنس مع زيادة (ولا تشبَّهوا باليهود) ، ورواه ابن عدي أيضاً في « الكامل » والبيهقي في شعب الإيمان مع زيادة (وانتفوا الشعر الذي في الآناف) ، والرواية الأخيرة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه (راجع الجامع الصغير) .

(٣) هذا عجز بيت لزهير ، وقد استشهد به صاحب اللسان على أن (عَفَا) تأتي بمعنى (هَلَكَ) ، وهو المعنى الذي أشار إليه ابن عطية في أول المعاني الثلاثة المحتملة لكلمة العفاء في البيت . والبيت في وصف دار ، وهو بتمامه :

تَحَمَّلَ أهْلُها مِنْهَا فَبَــانُوا عَلَى آثَــارِ مَنْ ذَهَبَ الْعَفَـــاءُ

(٤) العِهَادُ – بكسر العين – أول المطر وهو الوسْمي أيضاً ، وهو جمع مفرده : عَهْدَة والدِّيَم : جمع دِيمة وهي المطر يطول زمانه في سكون . (المعجم الوسيط) .

الله حالهم بالخير لطفاً بهم فنموا رأى الخلق بعد ذلك ـ للكفر الذي هم فيه ـ أن إصابة الضراءِ والسراءِ إنما هي بالاتفاق ، وليست بقصد كما يخبر النبي ، واعتقدوا أن ما أصابهم من ذلك إنما هو كالاتفاق الذي كان لآبائهم فجعلوه مثالا ، أي : قد أصاب هذا آباءَنا فلا ينبغي لنا أن ننكره ، فأخبر الله تعالى أنه أخذ هذه الطوائف التي هذا معتقدها . وقوله : [بَغْتَةً] أي فجأَة وأَخْذة أَسف وبطشاً للشقاءِ السابق لهم في قديم علمه . والسرَّاءُ : السرور والحَبَرَة. ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ معناه : وهم مكذبون لا يتحسسون لشيءٍ منه ولا يستشعرونه باستدلال ولا غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَى آمَنُوا وَٱتَّقَوْا ﴾ الآية . المعنى في هذه الآية أَنهم لو كانوا ممَّن سبق في علم الله أن يكتسبوا الإيمان والطاعات ويتَّصفوا بالتقى لتَبع ذلك من فضل الله ورحمته وإنعامه ما ذكر من بركات المطر والنبات ، ولكنهم لما كانوا ممن سبق كفرهم وتكذيبهم تبع ذلك أَخْذ الله لهم بسوءِ ما اجترموه . وكلٌّ مقدور ، والثواب والعقاب متعلق بكسب البشر ، وبسببه أُسندت الأَفعال إليهم في قوله : ﴿آمَنُوا وَٱتَّقَوْا﴾ وفي [كَذَّبُوا] .

وقرأَ السِّتَّة من القراءِ السبعة : [لَفَتَحْنَا] بتخفيف التاءِ ، وهي قراءَة الناس ، وقرأَ ابن عامر وحده ، وعيسى الثقفي ، وأبو عبد الرحمن : [لَفَتَّحْنَا] بتشديد التاءِ . وفتح البركات : إنزالها على الناس ، ومنه

قوله تعالى : ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ (١) ، ومنه قالت الصوفية : الفتوح والبركات : النُّمُوُّ والزيادات . و [مِنَ ٱلسَّمَاءِ] لِجِهَةِ المطر والريح والشمس ، [وَالأَرْضِ] لِجِهَةِ الإِنبات والحفظ لما ينبت ، هذا هو الذي يدركه نظر البشر ، ولله خدام غير ذلك لا يُحصى عددهم ، وما في علم الله أكثر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

هذه الآية تتضمن وعيداً للكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأَنه لما أَخبر عما فعل في الأُمم الخالية قال : ومن يؤمن هؤلاءِ أَن ينزل بهم مثل ما نزل بأُولٰئِك؟ وهذا استفهام على جهة التوقيف .

والبأْس : العذاب ، و [بَيَاتاً] نصب على الظرف ، أَي وقت مبيتهم بالليل ، ويحتمل أَن يكون هذا في موضع الحال .

---

(١) من الآية رقم (٢) من سورة (فاطر) .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : [أَوْ أَمِنَ] بسكون الواو وإظهار الهمزتين ، وقرأ ورش عن نافع : [أَوَامِنَ] بفتح الواو وإلقاءِ حركة الهمزة الثانية عليها ، وهذه القراءة في معنى الأُولى ولكنها سهلت . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [أَوَأَمِن] بفتح الواو وإظهار الهمزتين ، ومعنى هذه القراءة أنه دخل ألف الاستفهام على حرف العطف ، ومعنى القراءة الأُولى أنه عطف بـ (أَوْ) والتي هي لأَحد الشيئين ، والمعنى : أفأَمنوا هذا أَو هذا ؟ كما تقول : «أَجاءَ زيد أَو عمرو» ؟ وليست هذه (أَو) التي هي للإضراب عن الأَول ، كما تقول : «أَنا أَقوم أَو أَجلس» وأَنت تقصد الإضراب عن القيام والإثبات للجلوس وتقريرَه ، وقولنا : التي هي لأَحد الشيئَيْن يعمُّ الإباحة والتخيير ، كقولك : جالس الحسن أَو ابن سيرين ، أَو قولك : جالس الحسن أَو جالس ابن سيرين ، وقوله : [يَلْعَبُونَ] يريد : في غاية الغفلة والإعراض .

و [مَكْرَ اللهِ] هي إضافة مخلوق إلى خالق ، كما تقول : ناقة الله ، وبيت الله ، والمراد فعل يعاقب به مَرَدَة الكفار ، وأُضيف إلى الله لما كان عقوبةَ الذنب ، فإن العرب تسمِّي العقوبة ـ على أَي وجه كانت ـ باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة ، وهذا نصٌّ في قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ [1] وهذا الموضع أَيضاً [2] ، كأَنَّ كُفْرَهم بعد الرسالة

(١) من الآية (٥٤) من سورة (آل عمران) .

(٢) يريد أن تسمية العقوبة باسم الذنب نص في قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ وفي هذا الموضع أيضاً .

وظهور دعوة الله مكرٌ(١) وخديعة واستخفاف . وقيل : عومل – في مثل هذا وغيره – اللفظ دون المعنى في مثل قوله تعالى : ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾(٢) و (إن الله لا يَمَل حتى تملّوا)(٣) وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ﴾ الآية . هذه ألف تقرير دخلت على واو العطف ، و [يَهْدي] معناه : يبين ويوضح ، والهدى : الصباح ، وأنشدوا على ذلك :

حَتَّى اسْتَبَنْتُ الهُدَى والْبيدُ هاجِمَة يَسْبَحْنَ في الآل غُلْفاً أَوْ يُصَلِّينا(٤)

ويحتمل أن يكون المبيّن الله تعالى ، ويحتمل أن يكون المبين قوله : ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ﴾ أي عِلْمهم بذلك . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد : [يَهْدِي] معناه : يتبيَّن ، وهذه أيضاً آية وعيد ، أي : ألم يظهر لوارثي الأرض بعد أولئك الذين تقدم ذكرهم وما حل بهم

---

(١) (مكرٌ) هذه خبر (كأن) واسم (كأن) هو (كفرهم) – والكلام باختصار : كأن كفرَهم مكرٌ .

(٢) من الآية (١٥) من سورة (البقرة) .

(٣) الحديث متفق عليه – وهو عن عائشة رضي الله عنها ، فقد (دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وعندها امرأة فقال : من هذه ؟ قالت : هذه فلانة تذكر من صلاتها ، قال : مَه ، عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تملّوا ، وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه) .

(٤) البيت لتميم بن أُبيّ بن مقبل – أبو كعب – شاعر جاهلي أسلم وعاش نيفاً ومائة سنة ، وعُدَّ من المخضرمين . كان له عشرة أبناء كلهم شعراء . خلف أباه على زوجه الدهماء وفرّق الإسلام بينهما . والهدى : الصباح كما قال ابن عطية هنا ، وقال في اللسان : « الهُدى : النهار كما قال ابن مقبل ، وساق البيت » . وفيه (يَتَخَشَّعْن) بدلا من (يسْبَحْن) . وهاجمة : ساكنة من قولهم : هجم الشيء : سكن وأطرق . والبيدُ : جمع بيداء وهي الصحراء . والآل : السراب . ويُصَلِّينا : يَسْجُدْن – وغُلْفاً : جمع أغلف وهو ما عليه غلاف من الشيء . والشاعر يصور الصحراء في سكونها وهدوئها في ضباب أواخر الليل ، ويشبه ما فيها من آكام وتلال بالراكعين الساجدين – إلى أن تبين له الصباح خلف هذه الصورة .

أَنا نقدر لو شئنا أَن نصيبهم إِصابة إِهلاك بسبب معاصيهم كما فعل بمن تقدم ، وكنا نطبع أي نختم عليها بالشقاوة ، وفي هذه العبارة ذكْر القوم الذين قصد ذكرهم ، وتعديد النعمة عليهم فيما ورثوا ، والوعظ بحال من سلف من المهلكين . و [نَطْبَعُ] عطف على [أَصَبْنَا] إذ المراد به الاستقبال ، ويحتمل أَن يكون [ونَطْبَعُ] منقطعاً إخباراً عن وقوع الطبع لا أَنه متوعد به ، ويبقى التوعد بالإِهلاك الذي هو بعذاب كالصيحة والغرق ونحوه ، وقرأَ أَبو عمرو : [ونَطْبَع علَى] بإدغام العيْن في العين وإشمام الضم ، ذكره أَبو حاتم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

[تِلْكَ] ابتداءٌ ، و [الْقُرَى] قال قوم : هو نعت والخبر [نَقُصُّ] ، ويؤيد هذا أَن القصد إِنما هو الإِخبار بالقصص.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والظاهر عندي أَن [الْقُرَى] هي خبر الابتداءِ ، وفي ذلك معنى التعظيم لها ولمهلكها ، وهذا كما قيل في ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ﴾[1] : إِنه

(١) من الآية (٢) من سورة (البقرة) .

ابتداءٌ وخبر وكما قال صلى الله عليه وسلم : (أُولئك الملأُ)(١) وكقول أَبي الصلت :

تِلْكَ المكَارِمُ . . . .(٢)

وهذا كثير . وكأَن في اللفظ معنى التحسُّر على القرى المذكورة ، والمعنى : نقصُّ عليك من أَنباءِ الماضين لتتبيَّن العِبر وتعلم المَثُلات التي أَوقعها الله بالماضين .

ثم ابتدأَ الخبر عن جميعهم بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا الكلام يحتمل أَربعة وجوه من التأْويل : أَحدها أَن يريد أَن الرسول جاءَ لكل فريق منهم فكذبوه لأَول أَمره ، ثم استبانت حجته ، وظهرت الآيات الدالة على صدقه مع استمرار دعوته ، فَلَجُّوا هم في كفرهم ، ولم يؤمنوا بما تبيَّن به تكذيبهم من قبل . وكأَنه وصفهم – على هذا التأْويل – باللجاج في الكفر والصرامة عليه ، ويؤيد هذا

(١) هذا جزء من حديث رواه سلمة بن سلامة بن وقش ، وسبق الحديث عنه عند تفسير قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾ الآية (٦٠) من هذه السورة (الأعراف) .

(٢) هذا جزء من بيت سبق الحديث عنه في هذا الجزء عند تفسير قوله تعالى : ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾ . والبيت بتمامه :

تِلكَ المكارمُ لا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ شيبًا بماءٍ فعَادا بَعْدُ أَبْوَالا

قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الكَافِرِينَ﴾ . ويحتمل ـ في هذا الوجه ـ أن يكون المعنى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أي : ما كانوا ليوفقهم الله إلى الإيمان بسبب أنهم كذبوا من قبل فكان تكذيبهم سبباً لأن يمنعوا الإيمان بعد .

والثاني من الوجوه أن يريد : فما كان آخرهم في الزمن والعصر ليهتدي ويؤمن بما كذب به أولهم في الزمن والعصر ، بل كفر كلُّهم ، ومشى بعضهم على سنَن بعض في الكفر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أشار إلى هذا القول النقاش ، فكأن الضمير في قوله : [كانوا] يختص بالآخرين ، والضمير في قوله : [كذّبوا] يختص بالقدماءِ منهم .

والثالث من الوجوه يحتمل أن يريد : فما كان هؤلاءِ المذكورون بأجمعهم ـ لو رُدُّوا إلى الدنيا ومُكِّنوا من العودة ـ ليؤمنوا بما كذبوا في حال حياتهم ودعاءِ الرسول لهم ، قاله مجاهد وقرنه بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾(١) ، وهذه أيضاً صفة بليغة في اللجاج والثبوت على الكفر ، بل هي غاية في ذلك .

والرابع من الوجوه أنه يحتمل أن يريد وصفهم بأنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما قد سبق في علم الله تبارك وتعالى أنهم مكذبون به ، فجعل

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الأنعام) .

سابق القدر عليهم بمثابة تكذيبهم بأنفسهم لاسيما وقد خرج تكذيبهم إلى الوجود في وقت مجيء الرسل . وذكر هذا التأويل المفسرون وقرنوه بأن الله عزَّ وجلَّ حتم عليهم التكذيب وقت أخذ الميثاق ، وهو قول أُبيّ بن كعب رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ﴾ الآية . أخبر تعالى أنه لم يجد لأكثرهم ثبوتاً على العهد الذي أخذه على ذرية آدم وقت استخراجهم من ظهره . قاله أبو العالية عن أُبيّ بن كعب . ويحتمل أن يكون الكلام عبارة عن أنهم لم يصرفوا عقولهم في الآيات المنصوبة ، ولا شكروا نعم الله ، ولا قادتهم معجزات الأنبياء ، لأن هذه الأمور عهد في رقاب العقلاء كالعهود ينبغي أن يوفّى بها ، وأيضاً فمن لدن آدم عليه السلام تقرر العهد الذي هو بمعنى الوصية ، وبه فسر الحسن هذه الآية ، فيجيءُ المعنى : وما وجدنا لأكثرهم التزام عهد وقبول وصاة . ذكره المهدوي . و [مِنْ] في هذه الآية زائدة ، إلا أنها تعطي استغراق جنس العهد ، ولا تجيءُ هذه إلا بعد النفي ، و [إنْ] هي المخففة من الثقيلة عند سيبويه ، واللام في قوله : [لَفَاسِقِينَ] للفرق بين (إن) المخففة وغيرها ، و [إنْ] عند الفراء هي بمعنى (ما) ، واللام بمعنى (إلا) ، والتقدير عنده : وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [مِنْ بَعْدِهِمْ] عائد على الأَنبياءِ المتقدم ذكرهم وعلى أُمَمِهِم ، والآيات في هذه الآية ـ عامٌّ في التِّسْع وغيرها (١) ، وقوله تعالى : [فَظَلَمُوا بِهَا] المعنى : فظلموا أَنفسهم فيها وبسببها وظلموا أَيضاً مُظهِرها ومتَّبعي مظهرها . وقيل : لما نُزِّلت [ظَلَمُوا] منزلة (كفروا) و (جحدوا) عديت بالباءِ ، كما قال : (٢)

قَدْ قَتَلَ اللهُ زياداً عَنِّي

فأَنزل (قَتَل) منزلة (صَرَف) ، ثم حذر الله تعالى من عاقبة المفسدين الظالمين ، وجعلهم مثالا يتوعَّد به كفرة عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) يريد الآيات التسع التي ذكرها الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسى تِسْعَ آيات بَيِّنَات ﴾ الآية (١٠١) من سورة (الإسراء) .

(٢) أي الفرزدق ، وقبله يقول: كيفَ تراني قالباً مِجَنِّي أُقلِّبُ أَمري ظَهرَه للبَطنِ

وفرعون : اسم كل ملك لمصر في ذلك الزمان ، فخاطبه موسى عليه السلام بأعظم أسمائه وأحبها إليه إذ كان من الفراعنة كالنمارذة في اليونان وقيصر في الروم وكسرى في فارس والنجاشي في الحبشة . وروي أنه موسى بن عمران بن فاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم خليل الرحمن ، وروي أن اسم فرعون موسى عليه السلام الوليد بن مصعب ، وقيل : هو فرعون يوسف ، وأنه عمّر نيّفاً وأربعمائة سنة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن قال إن يوسف المبعوث الذي أشار إليه موسى في قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾[1] هو غير يوسف الصديق فليس يحتاج إلى نظر ، ومن قال إنه يوسف الصديق فيعارضه ما يظهر من قصة يوسف ، وذلك أنه ملك مصر بعد عزيزها ، فكيف يستقيم أن يعيش عزيزها إلى مدة موسى ؟ فينفصل أن العزيز ليس بفرعون الملك ، إنما كان حاجباً له .

وقرأ نافع وحده [عَلَيَّ] بإضافة (عَلَى) إليه ، وقرأ الباقون [عَلَىْ] بسكون الياءِ ، قال الفارسي : معنى هذه القراءة أن (على) وضعت موضع (الباءِ) ، كأنه قال : «حقيق بألا أقول على الله إلا الحق» كما وضعت (الباءُ) موضع (عَلَى) في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ

(١) من الآية رقم (٣٤) من سورة (غافر) .

صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾(١) فيتوصل إلى المعنى بهذه وبهذه ، وكما تجيءُ (عَلَى) أيضا بمعنى (عن) ، ومنه قول الشاعر في صفة قوسه :

أَرْمِي عَلَيْها وَهْيَ فَرْعٌ أَجْمَــعُ وَهْيَ ثلاثُ أَذْرُعٍ وإصْبَــعُ(٢)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

و [حَقيقٌ] – على هذا – معناه : جدير وخليق ، وقال الطبري : قال قوم : [حَقيقٌ] معناه : حريص فلذلك وصلت بِعَلَى ، وفي هذا القول بُعْد ، وقال قوم : [حَقيقٌ] صفة لِ [رَسُولٌ] ، تمَّ عندها الكلام ، و [عَلَى] خبرٌ مقدم ، و [أَنْ لَا أَقُولَ] ابتداءٌ تقدم خبره ، وإعراب [أَنْ] على قراءة من سكَّن الياءَ خفض ، وعلى قراءة من فتحها مشدَّدةً رفعٌ ، وقال الكسائي : في قراءة عبد الله : [حَقيقٌ بِأَلا أَقولَ](٣) ، وقال أبو عمرو : في قراءة عبد الله : [حَقيق أَن أَقولَ](٤) وبه قرأَ الأَعمش. وهذه المخاطبة – إذا تأملت – غاية في التلطف في القول اللِّين الذي أُمر عليه السلام به (٥) .

(١) من الآية (٨٦) من سورة (الأعراف) .

(٢) البيت في (اللسان) غير منسوب . قال : «يقال : قوسٌ فرْعٌ أي غير مشقوق . وقوسٌ فِلْقٌ أي مشقوق» ثم ذكر البيت .

(٣) جاء في «البحر» أن هذه هي قراءة أُبيّ .

(٤) أي من غير (عَلَى) .

(٥) إشارة إلى مافي قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة (طه) : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ .

وقوله : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الآية . البَيِّنَة هنا إشارة إلى جميع آياته ، وهي على المعجزة هنا أَدلُّ ، وهذا من موسى عرض نبوته . ومن فرعون استدعاءُ خرق العادة الدال على الصدق .

وظاهر الآية وغيرها أن موسى عليه السلام لم تَنْبَن شريعته إلا على بني إسرائيل فقط ، ولم يدع فرعون وقومه إلا إلى إرسال بني إسرائيل ، وذكَّره لعله يخشى أَو يزكى ويوحد كما يذكر كل كافر ، إذ كل نبي داع إلى التوحيد وإن لم يكن آخذاً به ومقاتلا عليه ، وأَمَّا أَنه دعاه إلى أَن يؤمن ويلتزم جميع الشرع فلم يرد هذا نصاً ، والأَمر محتمل . وبالجملة فيظهر فرق ما بيْن بني إسرائيل وبين فرعون والقبط . أَلا ترى أَن بقية القبط وهم الأَكثر لم يرجع إليهم موسى عليه السلام أَبداً ولا عارضهم ، وكان القبط مثل عبدة البقر وغيرهم؟ وإنما احتاج إلى محاورة فرعون لتملكه على بني إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ ﴾ الآية . رُوي أَن موسى عليه السلام قلق به وبمحاورته ، فقال فرعون لأَعوانه : خذوه . فأَلقى موسى العصا فصارت ثعباناً وهمت بفرعون فهرب منها ، وقال السدي : إنه أَحدث وقال : يا موسى كُفَّه عني فكفَّه ، وقال نحوه سعيد بن جبير .

و [إذا] ظرف مكان في هذا الموضع عند المبرد من حيث كانت خبراً عن جُثَّة ، والصحيح الذي عليه الناس أَنها ظرف زمان في كل موضع ، ويقال : إن الثعبان وضع أَسفل لَحْيِيه في الأَرض وأَعلاهما

في شرفات القصر . والثعبان : الحية الذكر ، وهو أَهول وأَجرأُ ، قاله الضحاك ، وقال قتادة : صارت حيَّة شعراءَ ذكراً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : غرزت ذنبها في الأَرض ورفعت صدرها إلى فرعون . وقوله : [مُبين] معناه : لا تخييل فيه ، بل هو بين أنه حقيقة ، وهو من أَبان بمعنى بان ، أَو من بان بمعنى سُلب عن أَجزائه .

وقوله : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ معناه : من جيبه أَو كُمه حسب الخلاف في ذلك ، وقوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ ﴾ قال مجاهد : كاللبن أَو أَشد بياضاً ، ورُوي أَنها كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تأْتلق ، وكان موسى عليه السلام ذا دم أَحمر إلى السواد ، ثم كان يردُّ يده فترجع إلى لون بدنه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهاتان الآيتان عرضهما موسى عليه السلام للمعارضة ، ودعا إلى الله تعالى بهما ، وخرق العادة بهما ، وتحدى الناس إلى الدين بهما ، فإذا جعلنا التحدي الدعاءَ إلى الدين مطلقاً فبهما تحدى ، وإذا جعلنا التحدي الدعاءَ بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك فتنفرد حينئذ العصا بذلك ، لأَن المعارضة والعجز فيها وقعا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويقال : التحدي هو الدعاءُ إلى الإتيان بمثل المعجزة ، فهذا نحو ثالث ، وعليه يكون تحدي موسى بالآيتين جميعاً ، لأَن الظاهر من

أَمره أَنه عرضهما للنظر معاً وإن كان لم ينص على الدعاءِ إلى الإتيان بمثلهما ، وروي عن فرقد السنجي أَن فم الحية كان ينفتح أَربعين ذراعاً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

الساحر كان عندهم في ذلك الزمن أَعلى المراتب وأَعظم الرجال ، ولكن وصفهم موسى بذلك مع مدافعتهم له عن النبوة ذمٌّ عظيم وحط ، وذلك قصدوا إن لم يمكنهم أكثر ، وقولهم : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ يعنون بأَنه يحكم فيكم بنقل رعيتكم في بني إسرائيل فيفضي ذلك إلى خراب دياركم إذا ذهب الخدمة والعمرة ، وأَيضاً فلا محالة أَنهم خافوا أَن يقاتلهم ، وجالت ظنونهم في كل مجال ، وقال النقاش : كانوا يأْخذون من بني إسرائيل خرجاً كالجزية فرأَوا أَن ملكهم يذهب بزوال ذلك . وقوله : [فَمَاذَا تَأْمُرون] الظاهر أَنه

من كلام الملأ بعضهم إلى بعض . وقيل : هو من كلام فرعون لهم ، وروى كروم عن نافع [تأمُرونِ] بكسر النون ، وكذلك في الشعراء(١) . و [ما] استفهام ، و [ذا] بمعنى (الذي) . فهما ابتداءٌ وخبر ، وفي [تأمُرونَ] ضمير عائد على (الذي) تقديره : تأمرون به ، ويجوز أَن تجعل [ماذا] بمنزلة اسم واحد في موضع نصب بـ [تَأْمرون] ولا يضمر فيه على هذا . قال الطبري : والسحر مأْخوذ من: سَحَرَ المطرُ الأَرض إذا جادها حتى يقلب نباتها ويقلعه من أُصوله ، فهو يسحرها سحراً ، والأَرض مسحورة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وإنما سحر المطر الطين إذا أفسده حتى لا يمكن فيه عمل ، والسحر : الأَخْذة التي تأْخذ العين حتى ترى الأَمر غير ما هو ، وربما سحر الذهن ، ومنه قول ذي الرُّمَّة :

وسَاحِرَةُ السَّـراب مِن الْمَـوَامي تُرَقَّصُ في نَوَاشِـزِهَا الأُرُومُ (٢)

أَراد أَنه يخيل نفسه ماءً للعيون .

---

(١) في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ أنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ الآية (٣٥) .

(٢) البيت في (اللسان) وفي تفسير الطبري . والرواية فيهما : « وساحرة العيون » بدلا من « وساحرة السراب » ورواية الديوان : « وساجرة » بالجيم يريد أنها ممتلئة بالسراب – والموامي : جمع موماء (وموماة) وهي المفازة الواسعة ، والنواشز : جمع ناشز وهو هنا المكان المرتفع من الأرض ، إذ يريد الأماكن العالية المتناثرة في الموامي ، والأُروم : جمع إرَم على وزن =

ثم أَشار الملأُ على فرعون بأَن يؤخر موسى وهارون ويدع النظر في أَمرهما ويجمع السحرة من كل مكان حتى تكون غلبة موسى بحجة واضحة معلومة بينة .

وقرأَ ابن كثير : [أَرْجِئْهُو] بواو بعد الهاءِ المضمومة وبالهمز قبل الهاءِ ، وقرأَ أَبو عمرو : [أَرْجِئْهُ] بالهمز دون واو بعدها ، وقرأَ نافع وحده في رواية قالون : [أَرْجِهِ] بكسر الهاءِ ، ويحتمل أَن يكون المعنى أَخِّره فسهل الهمزة ، ويحتمل أَن يكون من الرجا بمعنى : أَطْمِعْه ورَجِّه ، قاله المبرد . وقرأَ ورش عن نافع : [أَرْجِهِي] بياءٍ بعد كسرة الهاءِ ، وقرأَ ابن عامر : [أَرْجِئْهِ] بكسر الهاءِ وبهمزة قبلها . قال الفارسي : وهذا غلط [1] . وقرأَ عاصم والكسائي : [أَرْجِهُ] بضم الهاءِ دون همز ، وروى أَبان عن عاصم : [أَرْجِهْ] بسكون الهاءِ ، وهي

= (ضِلَع وضُلُوع) الأعلام ، وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة يهتدى بها ، وقيل: هي قبور عاد — وعمَّ به أبو عبيد في تفسير بيت ذي الرمة هذا كما قال في (اللسان) فهي عنده كل الأعلام التي تنصب في الصحراء للاهتداء بها ، وكلمة (ترقص) إما أن تكون مبنية للفاعل ، فالأروم فاعل ، أو مبنية للمفعول ، فالأروم نائب فاعل ، ويمكن أن يكون الفاعل ضميراً يعود على السراب والأروم مفعول ، والشاعر يصور ما في سراب الصحارى الواسعة من سحر ، فهو يبدو كأنه ماء للعيون ينعكس أثره على النواشز والأروم حتى لتبدو راقصة .

(١) قال أبو حيان في « البحر » : « ونسبة ابن عطية هذه القراءة لابن عامر ليس بجيد ، لأن الذي روى ذلك هو ابن زكوان لا هشام ، فكان ينبغي أن يُقَيِّد فيقول : وقرأ ابن عامر في رواية ابن زكوان » — ثم علَّق على قول الفارسي بأن هذا غلط فقال : « وما ذهب إليه الفارسي قول فاسد لأنها قراءة ثابتة متواترة روتها الأكابر عن الأئمة ، وتلقتها الأمة بالقبول ، ولها توجيه في العربية ، وليست الهمزة كغيرها من الحروف الصحيحة لأنها قابلة للتغيير » . والحقيقة أنه يجب ألا نخضع القرآن لآراء علماء النحو أو اللغة — فما دامت القراءة ثابتة فهي فوق كلام النحويين واللغويين ، وهي مصدر يؤخذ عنه ولا يُحْكَمُ عليه .

لغة تقف على هاءِ الكناية إذا تحرك ما قبلها ، ومنه قول الشاعر :

أَنْحَى عَلَيَّ الدَّهْرُ رِجْــلا وَيَداً يُقْسِمُ لا يُصْلِــحُ إِلَّا أَفْسَــــدَا

فَيُصْلِــحُ الْيَوْمَ ويُفْسِدُهُ غَداً [(١)]

وقال الآخر :

لمَّا رأى أَنْ لا دَعَهْ وَلَا شِبَــــعْ مَالَ إلى أَرْطاةِ حِقْفٍ فَاضطَجَعْ [(٢)]

وحكى النقاش أنه لم يكن يجالس فرعون وَلَدُ غَيَّة[(٣)] وإنما كانوا أَشْرَافاً ، ولذلك أشاروا بالإرجاءِ ولم يشيروا بالقتل وقالوا : إن قتلته دخَلَت على الناس شبهةٌ ، ولكن اغْلِبْه بالحجة . و [المَدَائِن] جمع مدينة ، وزنها فعيلة من مَدَن ، أَو مَفعلة من دان يدين ، وعلى هذا يهمز مدائن أَو لا يهمز ، و [حَاشِرِينَ] معناه : جامعين ، قال المفسرون : وهم الشُّرَط ، وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : [بِكُلِّ سَاحِرٍ] ، وقرأَ حمزة والكسائي : [بِكُلِّ سَحَّارٍ]

---

(١) الأبيات الثلاثة لدريد بن زيد بن نهد — وهو أحد المعمرين — راجع « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، وأمالي السيد المرتضى ١—١٧٢ — والرواية في « الشعر والشعراء » هي :

أَلْقَى عليَّ الدَّهر رجْلا ويداً والدهر ما أَصْلَحَ يوماً أفسدا يُصْلِحهُ اليومَ ويُفْسِده غَداً

(٢) الرواية المشهورة في البيت : « فالطَّجع » أراد : فاضطجع فأبدل الضاد لاماً ، وهو إبدال شاذ . وقد روي : فاطَّجع بإبدال الضاد طاء ثم بإدغامها — وروي : فاضَّجع بإبدال الطاء ضاداً ثم إدغامها ، قال المازني : إنَّ بعض العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول : الْطَجَع ويبدل مكان الضاد أقرب الحروف إليها وهو اللام ، وهو نادر والبيت في اللسان — وقد نسبه للراجز — ولم يحدده — وابن عطية يستشهد بقوله : « لادَعَهْ » على إجراء الوصل مجرى الوقف فيقلب تاء التأنيث هاءً مع إسكانها ، وأصله : « لادَعَة » .

(٣) يقال : « هو وَلَدُ غَيَّة » بفتح الغين وبكسرها أي : هو ولَدُ زنْية ، بمعنى أنه كان نتيجة لإغواءٍ وإغراء ، وهو نقيض قولهم « ولد رَشْدَه » . عن « المعجم الوسيط » .

على بناءِ المبالغة ، وكذلك في سورة يونس[١] ، وأَجمعوا على [سَحَّار] في سورة الشعراءِ[٢] ، وقال قتادة : معنى الإِرجاءِ الذي أَشاروا إليه : السجن والحبس .

وقوله تعالى : ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ﴾ الآية . هنا محذوفات يقتضيها ظاهر الكلام ، وهي أَنه بعث إلى السحرة وأَمرهم بالمجيءِ . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه بعث غلماناً فعلّموا بالفَرَمَا[٣] .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم في رواية حفص: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْراً ﴾ على جهة الخبر ، وقرؤُوا في الشعراءِ[٤] : [آنَّ لَنَا] ممدودة مفتوحة الأَلف غير عاصم فإِنه لا يمدها ، قال أَبو علي : ويجوز أَن تكون على جهة الاستفهام وحذف أَلفها ، وقد قيل ذلك في قوله : ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِــيٓ إِسْرَائِيلَ ﴾[٥] ، ومنه قول الشاعر :

أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِرَامَ . . . .[٦]

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٧٩) من سورة (يونس) : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيم ﴾ .

(٢) في قوله تعالى في الآية (٣٧) من سورة (الشعراء) : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سحَّار عَلِيم ﴾.

(٣) الفَرَمَا – بالفاء والألف المقصورة – : مدينة بمصر – وفي معجم ياقوت أن الإسكندر والفرماء أخوان بنى كل منهما مدينة بأرض مصر وسماها باسمه .

(٤) تكررت الإشارة هنا إلى سورة الشعراء ، والمراد الآية رقم (٤١) من هذه السورة . ﴿ فَلَمَّا جاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْن أَئِنَّ لَنَا لأجْراً إنْ كُنَّا نَحْن الغَالِبينَ ﴾ .

(٥) من الآية (٢٢) من سورة (الشعراء) .

(٦) هذا بيت لشاعر يسمَّى حضرميُّ بن عامر – وكان له تسعة إخوة فماتوا وورثهم ، وكان له ابن عم اسمه جَزْءٌ وكان ينافسه ، فزعم أن حضرمياً هذا سُرَّ بموت إخوته لأنه ورثهم ، =

وقرأَ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي هنا وفي الشعراءِ : [آئِنّ] بأَلف الاستفهام قبل [إنّ] ، وقرأَت فرقة : [أَئِنَّ] بدون مدّ ، وقرأَ أَبو عمرو هنا وفي الشعراءِ : [أَيِنَّ] (١).

والأَجر هنا : الأُجرة ، فاقترحوها إن غَلبوا ، فأَنعم فرعون لهم بها وزادهم المنزلة والجاه ، ومعناه : المقربين منِّي . ورُوي أَن السحرة الذين جاؤُوا إلى فرعون كانوا خمسة عشر أَلفاً ، قاله ابن إسحق ، وقال ابن جريج : كانوا تسعمائة ، وذكر النقاش أَنهم كانوا اثنين وسبعين رجلا ، وقال عكرمة : كانوا سبعين أَلفاً ، وقال محمد بن المنذر : كانوا ثمانين أَلفاً ، وقال السدي : مائتي أَلف ونيفاً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه الأَقوال ليس لها سند يوقف عنده ، وقال كعب الأَحبار : كانوا اثني عشر أَلفاً ، وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين أَلف رجل مع

= فقال حضرميٌّ :

أَفْرَحُ أَن أُرزَأَ الــكرامَ وأن أُورَثَ ذَوْداً شَصائصــاً نَبَلا ؟

إن كنْتَ أَزْنَنْتَني بهــا كَذِباً جَزْءُ فلاقَيْتَ مثلَهــا عَجَــلا

والذَّوْدُ : القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشرة (مؤنث) — وفي المثل : « الذَّوْدُ إلى الذَّوْد إبل » أي : القليل إلى القليل من الإبل كثير — والشصائص : جمع شَصُوص القليلة اللبن ، والنَّبَل بفتح النون والباء هي الصغار من الإبل .

يريد : أأفرح لموت الكرام من إخوتي لأرث هذه الشصائص القليلة العدد القليلة اللبن ؟ وهو يقول على سبيل الاستنكار . وروي أن جَزْءًا هذا فقد إخوته بعد هذا الشعر بقليل ، فلما سمع حضرميٌّ الخبر قال : إنا لله ، كلمةٌ وافقت قَدَرا ، يريد قوله : « فلاقيت مثلها عَجَلا » .

(١) أي بتسهيل همزة (إن) بعد همزة الاستفهام . قاله ابن خالويه في كتاب « الحجة في القراءات السبع » .

كل رجل حبل وعصا ، وقال أبو ثمامة : كانوا سبعة عشر ألفاً .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِــيَ ﴾ الآية . [أَنْ] في قوله : [إِمَّا أَنْ] في موضع نصب ، أي : إما أن تفعل الإلقاءَ ، ويحتمل أن تكون في موضع رفع ، أي : إما هو الإلقاءُ . وخيَّر السحرة موسى في أن يتقدم في الإلقاءِ أو يتأخر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا فعل المُدِلِّ الواثق بنفسه ، والظاهر أن التقدم في التخيلات والمخارق والحجج ، لأن بديلتها تمضي بالنفس ، فَلِيُظْهِرَ اللهُ أمر نبوة موسى قوّى نفسه ويقينه ، ووثق بالحق فأعطاهم التقدم ، فنشطوا وسروا حتى أظهر الله الحق وأبطل سعيهم .

وقوله تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ نص في أن لهم فعلا ما زائداً على ما يحدثونه من التزييف والآثار في العصا وسائر الأجسام التي يصرفون فيها صناعتهم . [وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ] بمعنى : أرهبوهم ، أي : أفزعوهم ، فكأن فعلهم اقتضى واستدعى الرهبة من الناس ، ووصف الله تبارك وتعالى سحرهم بالعظم ، ومعنى ذلك : من كثرته ، ورُوي أنهم جلبوا ثلاثمائة وستين بعيراً موقرة بالحبال والعصي فلما ألقوها تحركت وملأت الوادي يركب بعضها بعضاً ، فاستهول الناس ذلك واسترهبوا ، قال الزجاج : قيل : إنهم جعلوا فيها الزئبق فكانت لا تستقــر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾
فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾
وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾
قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

[أَنْ] في موضع نصب بـ [أَوْحَيْنَا] أي بأَن أَلْقِ ، ويحتمل أن تكون مفسرة بمعنى (أي) ، فلا يكون لها موضع من الإعراب .

وروي أن موسى عليه السلام لما كان يوم الجمع خرج متكئاً على عصاه ويدُه في يد أَخيه ، وقد صُفَّ له السحرة في عدد عظيم حسبما ذكر ، فلما أَلقوا واسترهبوا أَوحى الله تعالى إليه فأَلقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، فعظم حتى كان كالجبل ، وقيل : إنه طال حتى جاز النيل ، وقيل : كان الجمع بالإسكندرية وطال حتى جاز مدينة البحيرة ، وقيل : كان الجمع بمصر وأَنه طال حتى جاز بذنبه بحر القلــزم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول بعيد من الصواب مفرط الإغراق لا ينبغي أَن يلتفت إليه ، وروي أَن السحرة لما أَلقوا وأَلقى موسى عصاه جعلوا يرقون ، وجعلت حبالهم وعصيهم تعظم ، وجعلت عصا موسى تعظم حتى سدَّت الأُفق وابتلعت الكل ورجعت بعد ذلك عصاً فعندها آمن السحرة . ورُوي أَن عصا موسى كانت عصا آدم عليهما السلام ، وكانت من الجنة ،وقيل : كانت من العين الذي في وسط ورق الريحان[١] ، وقيل : كانت غصناً من الخبيز . وقيل : كانت لها شعبتان ، وقيل : كانت عصا الأَنبياءِ مختزنة عند شعيب عليه السلام فلما استرعى موسى قال له : اذهب فخذ عصا فذهب إلى البيت فطارت هذه إلى يده ، فأَمره شعيب بردها وأَخذ غيرها ففعل فطارت هي إلى يده ، فأَخبر بذلك شعيباً فتركها له ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن ملكاً من الملائكة دفع العصا إلى موسى في طريق مدين .

و[تَلْقَفْ] معناه : تبتلع وتزدرد ، و [مَا يَأْفِكونَ] معناه : ما صوروا فيه إفكهم وكذبهم ، وقرأَ جمهور الناس : [تَلَقَّفُ][٢]، وقرأَ عاصم

(١) هكذا في جميع الأصول « من العَيْن » ، ولا نعرف المعنى الذي يريده ، ولعلها من « العود » وأخطأ النساخ، أو لعلّه أراد: من خيار مافي وسط الريحان ، فإن لكلمة (العيْن) معاني كثيرة ، ومن هذه المعاني : خيار الشيء ، يقال : عين المتاع والمال : خياره وأفضله ، ويقال : خرج في عينَةِ ثيابه ، أي في أحسنها ، بل يقال للشيء إذاكان حسناً في مرْآة العَيْن : هذا عينَةٌ ، ولكن كل هذه هذه محاولات لا تصل بنا إلى الحقيقة .

(٢) أي بفتح اللام وتشديد القاف .

في رواية حفص : [تَلْقَفُ] بسكون اللام وفتح القاف ، وقرأ ابن كثير في بعض ما روي عنه : [تَّلَقف] بتشديد التاء على إدغام التاءَيْن من (تتلقف) ، وهذه القراءة لا تترتب إلا في الوصل ، وأما في الابتداء في الفعل فلا يمكن ، وقرأ سعيد بن جبير : [تَلْقَم] بالميم ، أي تبتلع كاللقمة .

ورُوي أَن الثعبان استوفى تلك الحبال والعصي أَكْلا وأَعدمها الله عزَّ وجلَّ ، ومد موسى يده إلى فمه فعاد عصاً كما كان ، فعلم السحرة حينئذ أَن ذلك ليس من عند البشر فخروا سجداً مؤمنين بالله ورسوله .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية . [وَقَع] معناه : نَزَل وجدّ ، و [ٱلْحَق] يريد به سطوع البرهان وظهور الإعجاز واستمرار التحدي إلى الدين [١] على جميع العالم . و ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لفظ يعم سحر السحرة وسعي فرعون وشيعته . والضمير في قوله : [فَغُلِبُوا] عائد على جميعهم من سحرة ومن سعي فرعون وشيعته ، وفي قوله ﴿وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ إن قدّرنا انقلاب الجمع قبل إيمان السحرة فهم في الضمير ، وإن قدرناه بعد إيمانهم فليسوا في الضمير ، ولا لحقهم صَغَارٌ يصفهم الله تبارك وتعالى به لأَنهم آمنوا واستشهدوا رضي الله عنهم .

---

(١) لعلَّ هنا نقصاً في الكلام نتج عن سقوط كلمات من النساخ ، ولعل الأصل أن يكون ـ «واستمرار التحدي في الدعوة إلى الدين » ، أو « واستمرار التحدي إلى يوم الدين » .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ الآيات ـ لما رأى السحرةُ من عظيم القدرة ما تيقنوا به نبوَّة موسى عليه السلام آمنوا بقلوبهم ، وانضاف إلى ذلك الاستهوال والاستعظام والفزع من قدرة الله تبارك وتعالى ، فخروا سجداً لله تعالى متطارحين ، وآمنوا نطقاً بألسنتهم ، وتَبَيَّنُهم الربَّ بذكر موسى وهارون زوالٌ عن ربوبية فرعون وما كان يتوهم فيه من الجهال من أنه رب الناس ، وهارون أَخو موسى أَسَنُّ منه بثلاث سنين .

وقول فرعون : ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ دليل على وهَن أمره ، لأَنه إنما جعل ذنبهم مفارقة الإذن ولم يجعله نفس الإيمان إلا بشرط . وقرأ عاصم في رواية حفص عنه في كل القرآن : [آمَنْتُمْ] على الخبر ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [آمَنْتُمْ] بهمزة ومدة على الاستفهام ، وكذلك في طه والشعراء [(١)] ، وقرأ حمزة والكسائي في الثلاثة مواضع : [أَآمَنْتُمْ] بهمزتين الثانية ممدودة ، ورواها الأَعمش عن أَبي بكر عن عاصم ، وقرأ ابن كثير في رواية أَبي الإخريط عنه : [وَامَنْتُمْ] وهي على ألف الاستفهام إلا أنه سهّلها واوا فأجرى المنفصل مجرى المتصل في قولهم (تُوَدَه) في (تؤده) . وقرأ قنبل عن القواس : [وآمَنْتُمْ] وهي على القراءة بالهمزتين (أَآمنتم) إلا أنه سهل أَلف الاستفهام واوا ، وترك أَلف أَفعلتم على ما هي عليه .

---

(١) أما في (طه) ففي الآية (٧١) ـ وأما في (الشعراء) ففي الآية (٤٩) .

والضمير في [بِهِ] يحتمل أَن يعود على اسم الله تبارك وتعالى ، ويحتمل أَن يعود على اسم موسى عليه السلام . وعنفهم فرعون على الإِيمان قبل إِذنه ثم أَلزمهم أَن هذا كان على اتفاق منهم ، ورُوي في ذلك عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم أَن موسى عليه السلام اجتمع مع رئيس السحرة واسمه شمعون ، فقال له موسى : أَرأَيت إِن غلبتكم أَتؤمنون بي ؟ فقال له : نعم ، فعلم بذلك فرعون ، فلذلك قال : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ، ثم قال للسحرة : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ الآية ، فرجع فرعون في مقالته هذه إِلى الخذلان والغشم وعادة ملوك السوءِ إِذا غولبوا .

وقرأَ حميد المكي ، وابن محيصن ، ومجاهد : [لَأَقْطَعَن] بفتح الهمزة والطاءِ وإِسكان القاف ، [وَلَأَصْلُبَنَّ] بفتح الهمزة وإِسكان الصاد وضم اللام ، ورُوي بكسرها . و [مِنْ خِلَافٍ] معناه : يُمنَى ويُسرى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والظاهر من هذه الآيات أَن فرعون توعد ، وليس في القرآن نصٌّ على أَنه أَنفذ ذلك وأَوقعه ، ولكنه رُوي أَنه صلب بعضهم وقطع . قال ابن عباس رضي الله عنهما : فرعون أَول من صلب وقطع من خلاف ، وقال ابن عباس وغيره فيهم : أَصبحوا سحرة وأَمْسَوْا شهداءَ ، وأَما التوعد فلجميعهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

هذا تسليم من مؤمني السحرة واتكال على الله وثقة بما عنده .

وقرأ جمهور الناس : [تَنْقِمُ] بكسر القاف ، وقرأ أبو حيوة ، وأبو البرهشم ، وابن أبي عبلة ، والحسن بن أبي الحسن : [تَنْقَم] بفتحها ، وهما لغتان . قال أبو حاتم : الوجه في القراءة كسر القاف ، وكلُّ العلماءِ أنشد بيت ابن الرُّقَيَّاتِ :

ما نَقَمُوا مِنْ بني أُمَيَّـةَ. . . . .(١)

بفتح القاف . ومعناه : وما تعد علينا ذنباً وتُؤاخذنا به .

وقولهم : ﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ معناه : عُمَّنَا كما يَعُمُّ الماءُ من أُفرغ عليه ، وهي هنا استعارة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل ، وحكى

(١) البيت من قصيدة لعُبَيْد الله بن قيس الرُّقَيَّات مطلعها :

عادَ لهُ مِن كَثيرَة الطَّرَبُ فعَيْنُهُ بالدُّموع تَنْسَكِبُ

والبيت بتمامه : ما نقَموا من بني أُمَيَّةَ إلا أنَّهُم يحلمونَ إن غَضِبُوا

النقاش عن مقاتل أنه قال : مكث موسى بمصر بعد إيمان السحرة عاماً أو نحوه يريهم الآيات .

وقول ملإ فرعون : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴾ مقالة تتضمن إغراء فرعون بموسى وقومه ، وتحريضَه على قتلهم أو تغيير ما بهم حتّى لا يكون لهم خروج عن دين فرعون . ومعنى [أَتَذَرُ مُوسَى] : ؟ أتترك ؟ وقرأ جمهور الناس : [وَيَذَرَكَ]، ونصبه على معنيين : أحدهما أن يقدر : «وأن يذَرك» فهي واو الصرف [1] ، فكأنهم قالوا : أتذره وأن يذرك ؟ أي : أتتركه وتركك ؟ . والمعنى الآخر أن يعطف على قوله : [لِيُفْسِدُوا] . وقرأ نعيم بن ميسرة ، والحسن بخلاف عنه : [وَيَذَرُكَ] بالرفع عطفاً على قولهم : [أَتَذَرُ] ، وقرأ أنس بن مالك : [وَنَذَرُكَ] بالنون ورفع الفعل على معنى توعد منهم ، أو على معنى إخبار أن الأمر يؤول إلى هذا ، وقرأ أُبيّ بن كعب ، وعبد الله : «في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك» ، قال أبو حاتم : وقرأ الأعمش : «وقد تركَكَ وَآلِهَتَكَ» ، وقرأ السبعة وجمهور من العلماء : [وَآلِهَتَكَ] على الجمع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا على ما رُوي أن فرعون كان في زمنه للناس آلهةٌ من بقر وأصنام وغير ذلك ، وكان فرعون قد شرع ذلك وجعل نفسه

---

(١) واو الصرف هي واو تقابل واو العطف ، فقد جعلها الكوفيون قسماً مقابلا للعاطفة وسموها كذلك لأنها صرفت المضارع عن الرفع إلى النصب . والبحث طويل يمكن الرجوع إليه في مباحث العطف في كتب النحو .

الإلٰه الأَعلى ، فقوله – على هذا – ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾[1] إنما هو بمناسبة بينه وبين سواه من المعبودات . وقيل : إن فرعون كان يعبد حجراً كان يعلقه في صدره كياقوتة أَو نحوها ، قال الحسن : كان لفرعون حنَّانة [2] معلقة في نحره يعبدها ويسجد لها . وقال سليمان التَّيْمي : بلغني أَنه كان يعبد البقر ، ذكره أَبو حاتم .

وقرأَ ابن عباس ، وعلي بن أَبي طالب ، وابن مسعود ، وأَنس ابن مالك رضي الله عنهم أَجمعين ، وجماعة غيرهم : [وَإِلَاهَتَكَ] ، أَي : وعبادتك والتذلل لك ، وزعمت هذه الفرقة أَن فرعون لم يُبح عبادة شيءٍ سواه ، وأَنه في قوله [الأَعْلَى] إنما أَراد : «الأَعظم والأَكبر» دون مناسبة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان فرعون يُعْبَد ولا يَعْبُد .

وقرأَ ابن كثير : [سَنَقْتُل] بالتخفيف ، [ويُقَتِّلُون] بالتشديد ، وخففهما جميعاً نافع . وقرأَ أَبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [يُقتّلون] – و[سَنُقَتّل] بالتشديد على المبالغة ، والمعنى : سنستمر على ما كنا عليه من تعذيبهم وقطعهم .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُم قَاهِرُونَ﴾ يريد : في المنزلة والتمكن من الدنيا ، و [قَاهِرون] يقتضي تحقير أَمرهم ، أَي : هم أَقل من أَن يهتم بهم .

(١) من الآية (٢٤) من سورة (النازعات) .
(٢) حنَّانة (بتشديد النون) : القوسُ المُصَوِّتَةُ ، وهي (صفة غالبة) . عن «المعجم الوسيط» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ
قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ
﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

لما قال فرعون سنقتل أبناءهم وتوعدهم قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل يثبتهم ويعدهم ما عند الله : ﴿ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوا ﴾ ، وظاهر هذا الكلام كله وعد بغيب فكأَن قوته تقتضي أَنه من عند الله ، وليس في اللفظ شيءٌ من ذلك ، و [ٱلْأَرْضَ] أَرض الدنيا وهو الأَظهر ، وقيل : المراد هنا أَرض الجنة ، وأَما في الثانية فأَرض الدنيا لا غير[١] .

وقرأَت فرقة : [يورَثها] بفتح الراءِ ، وقرأَ السبعة : [يورِثها] ساكنة الواو خفيفة الراءِ مكسورة ، وروى حفص عن عاصم - وهي قراءَة الحسن - [يورِّثها] بتشديد الراءِ على المبالغة . والصبر في هذه الآية يعُمّ الانتظار الذي هو عبادة والصبر في المناجزات .

---

(١) يريد بالثانية كلمة (الأرض) في قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ فهي أرض الدنيا بدون خلاف .

وقولهم : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ يعنون به الذبح الذي كان في المدة التي كان فرعون يتخوف فيها أن يولد المولود الذي يخرب ملكه ، والذي من بعد مجيئه يعنون به وعيد فرعون وسائر ما كان خلال تلك المدة من الإخافة لهم . وقال السدي ، وابن عباس رضي الله عنهما : إنما قالت بنو إسرائيل هذه المقالة حين اتبعهم فرعون واضطرهم إلى البحر فضاقت صدورهم ورأوْا بحراً أمامهم وعدواً كثيفاً وراءهم فقالوا هذه المقالة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبالجملة هو كلام يجري مع المعهود من بني إسرائيل من اضطرابهم على أنبيائهم وقلة يقينهم وصبرهم على الدين ، واستعطافُ موسى لهم بقوله : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ ، ووعدُه لهم بالاستخلاف في الأرض يدل على أنه يستدعي نفوساً نافرة ، ويقوّي هذا الظن في بني إسرائيل سلوكُهم هذه السبيل في غير قصة . وحكى النقاش أنهم قالوا ذلك بمصر حين كلفهم فرعون من العمل مالا يطيقون . ورُوي أنه كان يكلفهم عمل الطوب ويمنعهم التبْن ليشق عليهم عمله .

وقوله تعالى : ﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ تنبيه وحضٌّ على الاستقامة ، وإن قُدّر هذا الوعد أنَّهُ من عند الله فيتخرج عليه قول الحسن بن أبي الحسن : (عسى) من الله واجبة ، وقد استخلفوا في مصر في زمن داود وسليمان ، وقد فتحوا بيت المقدس مع يوشع .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ الآية . أخبر أَنه أَخذ آل فرعون في تلك المدة التي كان موسى يدعوهم فيها بالسنين وهو : الجدوب والقحوط ، وهذه سيرة الله في الأُمم ، وكذلك فعل بقريش . والسَّنَة في كلام العرب : القحط ومنه قول ليلى : «والناسُ مُسْنِتُونَ» ، وسَنَة وعِضَة وما جرى مجراهما من الأَسماءِ المنقوصة تجمع بالواو والنون ليس على جهة السلامة لكن على جهة العِوَض مما نقص ، وكذلك (أَرض) توهموا فيها نقص هاءِ التأْنيث لأَنه كان حقها أَن تكون (أَرضة) ، وأَمَّا (حرَّة وإِحَرُّون)[1] فلأَن التضعيف أَبداً يعتل فتوهموه مثل النقص ، وكسر السين من (سِنون وسِنين) وزيادة الأَلف في (إحرين) دليل على أنه ليس بجمع سلامة .

وقوله تعالى : ﴿ونَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ رُوي أَن النخلة كانت لا تحمل إلا ثمرة واحدة ، وقال نحوَه رجاءُ بن حيْوة ، وأَراد الله عزَّ وجلَّ أَن ينيبوا ويزدجروا عما هم عليه من الكفر ، إذ أَحوال الشدة ترق القلوب وتُرغب فيما عند الله .

---

(١) الحرَّة : الأَرض ذات الحجارة السوداء النخرات كأنها أحرقت بالنار ، والجمع حرّات وحرار ، قال سيبويه : «وزعم يونس أنهم يقولون : حرَّة وحرُّون جمعوه بالواو والنون يشبهونه بقولهم : أرض وأرضون لأنها مؤنثة مثلها» . قال : «وزعم يونس أيضاً أنهم يقولون : حرَّة وإحرُّون يعني الحرار ، كأنه جمع إحَرَّة ولكن لا يتكلم بها» ، (عن اللسان ــ حرر) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

كان القصد من إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أن يُنيبوا ويرجعوا فإذا بهم قد ضلوا وجعلوها تشاؤُماً بموسى ، فكانوا إذا اتفق لهم اتفاق حسن في غلات ونحوها قالوا : هذا لنا وبسببنا وعلَى الحقيقة لنا ، وإذا نالهم ضر قالوا : هذا بسبب موسى وشؤمه ، قاله مجاهد وغيره . وقرأ جمهور الناس بالياءِ وشدّ الطاءِ والياءِ الأَخيرة [يَطَّيَّرُوا] ، وقرأ عيسى بن عمر ، وطلحة بن مصرف بالتاءِ وتخفيف الطاءِ : [تَطَيَّرُوا] ، وقرأ مجاهد : [تَشَاءَمُوا بموسَى] بالتاءِ من فوق وبلفظ الشؤم .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُم ﴾ معناه : حظهم ونصيبهم ، قاله ابن عباس ، وهو مأْخوذ من زجر الطير ، فسمّي ما عند الله من القدر للإنسان طائراً لما كان الإنسان يعتقد أن كل ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر ، فهي لفظة مستعارة ، وقرأ جمهور الناس :

[طَائِرهُمْ] ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن : [طَيْرُهم] . وقال تعالى : [أَكْثَرهم] وجميعهم لا يعلم إما لأَن القليل عَلِمَ كالرجل المؤمن وآسية امرأة فرعون(١) ، وإما أَن يراد الجميع وتُجوّز في العبارة لأَجل الإِمكان ، ويحتمل أَن يكون الضمير في قوله : [طَائِرُهُمْ] لجميع العالم ويجيءُ تخصيص الأَكثر على ظاهره ، ويحتمل أَن يريد : ولكن أَكثرهم ليس قريباً أَن يعلم لانغمارهم في الجهل ، وعلى هذا فيهم قليل مُعَدّ لأَن يعْلَم لو وفّقه الله .

و (مَهْمَا) أَصلها عند الخليل (ماما) فبدلت الأَلف الأُولى هاءً ، وقال سيبويه : هي (مه ما) خلطتا ، وهي حرف واحد ، وقال غيره : معناها : (مَهْ ومَا) جزاء ، ذكره الزجاج ، وهذه الآية تتضمن طغيانهم وعتوهم وقطعهم على أَنفسهم بالكفر البحت .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ الآية . قال الأَخفش : الطوفان : جمع طوفانة ، وهذه عقوبات وأَنواع من العذاب بعثها الله عليهم ليزدجروا ويُنيبوا . والطوفان : مصدر من قولك : طاف يطوف

---

(١) الرجل المؤمن هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ الآية (٢٨) من سورة (غافر) .
وآسية امرأة فرعون نص القرآن الكريم على إيمانها في الآية (١١) من سورة (التحريم) حيث يقول عزّ من قائل : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ ﴾ الآية .

فهو عامٌّ في كل شيءٍ يطوف ، إلَّا أَن استعمال العرب له كثر في الماءِ والمطر الشديد ، ومنه قول الشاعر :

غَيَّرَ الجِدَّةَ مِنْ آيَاتِهَــــا خُرُقُ ٱلرِّيح وطوفانُ المَطَــر [1]

ومنه قول أَبي النجم :

قَدْ مَدَّ طوفَانٌ فَبَثَّ مَـــدَداً شَهْراً شَآبِيبَ وَشَـــهْراً بَرَداً [2]

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : إن الطوفان في هذه الآية المطر الشديد أَصابهم وتوالى عليهم حتى هدم بيوتهم وضيق عليهم . وقيل : طَمَّ فيض النيل عليهم ، وروي في كيفيته قصص كثير . وقالت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الطوفان المراد في هذه الآية هو الموت) [3] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض ما روي عنه : هو مصدر معمى ، عُني به شيءٌ أَطافه الله تبارك وتعالى بهم .

---

(١) البيت في (اللسان – طوف) غير منسوب ، والجِدَّة : وجه الأرض ، وآياتها : ما فيها من علامات ، وخُرُق الريح : اشتداد هبوبها ، يقال : خَرُقت الريح (من باب ظرف وفرح) فهي خرقاءُ ، وطوفان المطر : المطر الغالب الذي يُغْرق من كثرته ، يقول : غيَّر معالم هذه الأرض شيئان : شدة هبوب الريح ، ودوام هطول الأمطار الغزيرة .

(٢) الطوفان : المطر الغزير المغرق ، والشآبيب : جمع شُؤْبوب وهو الدفقة من المطر ، والبَرَد (بفتح الباء والراء) : ما جمُد من المطر ، ويسمَّى حبَّ الغمام .

(٣) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه . عن عائشة رضي الله عنها . (الدر المنثور) .

والجراد معروف ، قال الأَخفش : هو جمع جرادة للمذكر والمؤنث ، فإن أَردت الفصل قلت : رأَيت جرادة ذكراً ، وروي أَن الله عزَّ وجلَّ لما والى عليهم المطر غرقت أَرضهم ومنعوا الزراعة ، فقالوا : يا موسى ادْع في كشف هذا عنا ونحن نؤمن ، فدعا فدفعه الله عنهم فأَنبتت الأَرض إنباتاً حسناً ، فطغوا وقالوا : ما نود أَنَّا لم نمطر ، وما هذا إلا إحسان من الله إلينا ، فبعث الله حينئذ الجراد فأَكل جميع ما أَنبتت الأَرض ، وروى ابن وهب عن مالك أَنه رَوى أَنه أَكل أَبوابهم وأَكل الحديد والمسامير ، وضيَّق عليهم غاية التضييق ، وترك الله من نباتهم ما يقوم به الرمق فقالوا لموسى : ادع في كشف الجراد ونحن نؤمن ، فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم ، ورأَوا أَن ما أَقام رمقهم قد كفاهم ، فبعث الله عليهم القُمَّل وهي الدَّبَى صغار الجراد الذي يثب ولا يطير [١] ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة . وقيل : هو الحَمْنَان وهو صغار القردان [٢] . وقيل : هو البراغيث ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : القُمَّل : السُّوس الذي يخرج من الحنطة . وقيل : القُمَّل : حيوان صغير جداً أَسود ، وأَنه بأَرض مصر حتى الآن ، قال حبيب بن أَبي ثابت : القُمَّل: الجِعلان [٣] ، وقرأَ الحسن : [الْقَمْل] بفتح القاف

(١) الدَّبى : بفتح الدال المشددة والباء الخفيفة والألف المقصورة : الجراد قبل أن يطير ، والواحدة دباة ، وأرضٌ مدْبية إذا أكل الدَّبى نباتها .

(٢) الحَمْنَان : ضرب من القردان ، والواحدة : حَمْنَانة . والقِرْدان بكسر القاف جمع قُراد بضمها ، والواحدة قُرادة ، وهي دويبة معروفة تتعلق بالحيوانات كالقمل في تعلقه بالإنسان.

(٣) الجِعلان (بكسر الجيم) : جمع جُعَل (كَصُرَد) ،وهو دابَّة سوداءُ من دواب الأرض .

وسكون الميم ، فهي – على هذا – بيِّنة ، إذ هو القمل المعروف . ورُوي أن موسى مشى بعصاه إلى كثيب أُهيل فضربه فانتشر كله قملا في مصر ، ثم إنهم قالوا : ادع في كشف هذا فدعا،ورجعوا إلى طغيانهم وكفرهم .

وبعث الله تبارك وتعالى عليهم الضفادع فكانت تدخل في فرشهم وبين ثيابهم ، وإذا هم الرجل أن يتكلم وثب الضفدع في فمه . قال ابن جبير : كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كانت الضفادع برية فلما أُرسلت على آل فرعون سمعت وأَطاعت فجعلت تقذف أَنفسها في القدور وهي تغلي فأَثابها الله بحسن طاعتها برْدَ الماءِ . فقالوا : ادع في كشف هذا فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم وعتوهم فبعث الله عليهم الدم فرجع ماؤُهم الذي يستقونه ويحصل عندهم دماً ، فروي أَن الرجل منهم كان يستقي من البئر فإذا ارتفع إليه الدلو عاد دماً . وروي أنه كان يستقي القبطي والإسرائيلي بإناءٍ واحد فإذا خرج الماءُ كان الذي يلي القبطي دماً والذي يلي الإسرائيلي ماءً ، إلى نحو هذا وشبهه من العذاب بالدم المنقلب عن الماءِ ، هذا قول جماعة المتأَولين . وقال زيد ابن أَسلم : *إنما سلط الله عليهم الرعاف فهذا معنى قوله تعالى : [والدَّمَ]* .

وقوله تعالى : ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾ . التفصيل أَصله في الأَجرام إزالة الاتصال ، فهو تفريق شيئين ، فإذا استعمل في المعاني فيراد

أنه فرق بينها وأُزيل اشتراكها وأشكالها ، فيجيءُ من ذلك بيانها ، وقالت فرقة من المفسرين : [مُفَصَّلَات] يراد به مفرقات بالزمن ، والمعنى أَنه كان العذاب يرتفع ثم يبقون مدة - قيل : شهراً ، وقيل : ثمانية أَيام - ثم يرد الآخر ، فالمراد أَن هذه الأَنواع من العذاب لم تجىْ جملة ولا متَّصلة . ثم وصفهم الله عزَّ وجلَّ بالاستكبار عن الآيات والإِيمان ، وبأَنهم كان لهم اجترام على الله تبارك وتعالى وعلى عباده .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

[الرِّجْز] : العذاب ، والظاهر من الآية أَن المراد بالرجز العذاب المتقدم الذكر من الطوفان والجراد وغيره ، وقال قوم من المفسرين : الإِشارة هنا بالرجز إنما هي إلى طاعون أَنزله فيهم فمات منهم في ليلة واحدة سبعون أَلف قبطي ، وروي في ذلك أَن موسى عليه السلام أَمر بني إسرائيل بأَن يذبحوا كبشاً ويُضَمِّخُوا أَبوابهم بالدم ليكون ذلك فرقاً بينهم وبين القبط في نزول العذاب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، وهذه الأخبار وما شاكلها إنما تؤخذ من كتب بني إسرائيل فلذلك ضعفت ، وقولهم : [بِمَا عَهِدَ] يريدون : بذمامك ومانّتك إليه ، فهي تعم جميع الوسائل بين الله تبارك وتعالى وبين موسى من طاعة موسى ونعم من الله تبارك وتعالى . ويحتمل أن يكون ذلك منهم على جهة القسم على موسى ، ويحتمل أن يكون المعنى : ادع لنا ربَّك ماتًّا إليه بما عهد إليك ، ويحتمل – إن كان شعر أن بين الله تعالى وبين موسى في أمرهم عهْد ما – أن تكون الإشارة إليه . والأَول أعم وألزم ، والآخر يحتاج إلى رواية .

وقولهم : [لَئِنْ كَشَفْتَ] أي بدعائك [لَنُؤْمِنَنَّ] [وَلَنُرْسِلَنَّ] قسمٌ وجوابه ، وهذا عهد من فرعون وملئه الذين إليهم الحل والعقد ، ولهم ضمير الجمع في قوله : [لَنُؤْمِنَنَّ] .

وألفاظ هذه الآية تعطي الفرق بين القبط وبين بني إسرائيل في رسالة موسى ، لأَنه لو كان إيمانهم به على حدّ إيمان بني إسرائيل لما أرسلوا بني إسرائيل ولا فارقوا دينهم ، بل كانوا يشاركون فيه بني إسرائيل . ورُوي أنه لما انكشف العذاب قال فرعون لموسى : اذهب ببني إسرائيل حيث شئت فخالفه بعض ملته فرجع فنكث . وأخبر الله عزَّ وجلَّ أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم الذي أعطوه موسى ، و [إِذَا] ها هنا للمفاجأة ، و [إلى] متعلقة بـ [كَشَفْنَا] ،

والأَجل يراد به غاية كل واحد منهم بما يخصه من الهلاك والموت ، هذا اللازم من اللفظ كما تقول : أَخذت كذا إلى وقت ، وأَنت لا تريد وقتاً بعينه . وقال يحي بن سلَّام[1] : الأَجل هنا : الغرق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما قال هذا القول لأَنه رأَى جمهور هذه الطائفة قد اتفق أَن هلكت غرقاً فاعتقد أَن الإِشارة هنا بالأَجل إنما هي إلى الغرق ، وهذا ليس بلازم لأَنه لابد أَنه مات منهم قبل الغَرَق عالَمٌ وهم مِمَّن أُخِّر وكشف عنهم العذاب إلى أَجل بلغه ودخل في هذه الآية ، فأَين الغرق من هؤلاءِ ؟ وأَين هو مِمَّن بقي بمصر ولم يغرق ؟

وذكر بعض الناس أَن معنى الكلام : فلما كشفنا عنهم الرجز المؤجل إلى أَجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ، ومحصول هذا التأْويل أَن العذاب كان مؤجلا ، والمعنى الأَول أَفصح لأَنه تضمن توعداً مَّا .

وقرأَ أَبو البرهشم ، وأَبو حيوة : [يَنْكِثُون] بكسر الكاف ، والنّكث : نقْض ما أُبرم ، ويستعمل في الأَجسام وفي المعاني ، وقرأَ

---

(١) هو يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة ، مفسر ، فقيه ، عالم بالحديث واللغة ، أدرك نحو عشرين من التابعين وروى عنهم ، ولد بالكوفة ، ونشأ بالبصرة ، ورحل إلى مصر وأفريقية فاستوطن ، وتوفي بمصر بعد عودته من الحج . من كتبه : « تفسير القرآن » (خ) ، قال ابن الجزري : « ليس لأحد من المتقدمين مثله » وله أيضاً « الجامع ». وقال ابن الجزري : «وكان ثقة ثبتاً ذا علم بالكتاب والسُّنَّة » . وقال العسقلاني : « ضعفه الدارقطني في الحديث » ، وذكره ابن حبان في الثقات . (الأعلام) .

ابن محيصن ، ومجاهد ، وابن جبير : [الرُّجز] بضم الراءِ في جميع القرآن ، قال أَبو حاتم : إلا أَن ابن محيصن كسر حرفين : ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ﴾[1] ، ﴿وَٱلرِّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[2] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

رآهما بمعنى آخر بمثابة الرِّجز والنَّتَن الذي يجب التطهر منه .

و [ٱلْيَمّ] : البحر ، ومنه قول ذي الرّمّة :

دَوِّيَّةٌ ودُجَى لَيْلٍ كَأَنَّهمـا يَمٌّ تراطنُ في حافاتِهِ الـرُّومُ[3]

والباءُ في قوله : [بِأَنَّهُم] باءُ التسبيب ، ووصف الكفار بالغفلة- وهم قد كذبوا وردوا في صدر الآيات - من حيث غفلوا عما تتضَمَّنه الآيات من الهدى والنجاة ، فعن ذلك غفلوا .

---

(١) من الآية (١١) من سورة (الأنفال) : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيكُم من السَّماء ماءً ليُطَهِّرَكُمْ به ويُذْهِبَ عَنْكُم رجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ .

(٢) الآية (٥) من سورة (المدثر) .

(٣) هذا البيت من قصيدته المعروفة التي مطلعها : « أأَن تَوَسَّمْتَ من خَرْقَاءَ مَنْزِلَةً » والدَّوِّيَّة (ويروى : داويَّة) الفلاة . واليَمُّ : البحر . والدُّجى : الظلام . والرِّطانة : كلام العجم وماليس بعربي من اللغات . وحافاته : جوانبه . يُشَبِّه الفلاة وما تراكم عليها من ظلام الليل والبحر وأمواجه . وهو يريد البحر الذي يسكن على جوانبه الرومان وغير العرب كأنه يعني « البحر المتوسط » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ كناية عن بني إسرائيل لاستعباد فرعون لهم ، وغلبته عليهم . وقوله تعالى : ﴿ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ قال الحسن ، وقتادة ، وغيرهما : يريد أَرض الشام ، وقال أَبو جعفر النحاس : «وقيل : يراد أَرض مصر وهو قول الحسن في كتاب النقاش» . وقالت فرقة : يريد الأَرض كلها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا يتجه إمَّا على المجاز لأَنه مَلَّكهم بلاداً كثيرة ، وإما على الحقيقة في أَنه ملَّك ذريتهم ، وهو[1] سليمان بن داود عليهما السلام ، ولكن الذي يليق بمعنى الآية وروي فيها هو أَنه ملَّك أَبناءَ المستضعفين بأَعيانهم مشارق الأَرض ومغاربها لاسيما بوصفه الأَرض بأَنها التي

(١) هكذا في الأصول التي بين أيدينا ، ولعله ذكر الضمير وأفرده تبعاً للخبر عنه (سليمان) ولعلّ أصلها : « ومنهم سليمان » .

بارك فيها ، ولا يتصف بهذه الصفة وينفرد بها أكثر من غيرها إلا أرض الشام لما بها من الماءِ والشجر والنعم والفوائد .

وحكى الطبري عن قائل لم يسمّه ــ وذكر الزهراوي أنه الفراءُ ــ أن ﴿ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ نصب على الظرف ، أي : يستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن قوله تبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ معمول لـ [أَوْرَثْنَا] . وضعفه الطبري [1] ، وكذلك هو قول غير متجه . و [الَّتِي] في موضع خفض نعت للأرض ، ويجوز أن يكون في موضع نصب نعت لـ [مَشَارِقَ] و [مَغَارِبَ] .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي ما سبق لهم في عِلْمِه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوهم والظهور عليه ، قاله مجاهد ، وقال المهدوي : وهي قوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلأَرْضِ ﴾ [2] ، وقيل : هي قوله : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ [3] الآية . وروي عن أبي عمرو : [كلِمات] .

و [يَعْرِشُونَ] قال ابن عباس ومجاهد : معناه : يَبْنون ، وعرش البيت : سَقَفه ، والعرشُ : البناءُ والتنضيد ، وقال الحسن : هي في

(١) قال في تعليله للضعف : « ذلك قول لا معنى له ، لأن بني إسرائيل لم يكن يستضعفهم أيام فرعون غير فرعون وقومه ، ولم يكن له سلطان إلا بمصر ، فغير جائز ــ والأمر كذلك ــ أن يقال : الذين يُستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها » . فإن قال قائل : فإن معناه : في مشارق أرض مصر ومغاربها ، فإن ذلك بعيد من المفهوم في الخطاب مع خروجه عن أقوال أهل التأويل والعلماء بالتفسير .

(٢) من الآية (٥) من سورة (القصص) .

(٣) سبقت في الآية (١٢٩) من هذه السورة (الأعراف) .

الكروم وما أشبهها ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : بكسر الراءِ ، وقرأ الباقون «ابن عامر ، وعاصم فيما رُوي عنه ، والحسن ، وأبو رجاءٍ ، ومجاهد» : بضمها ، وكذلك في سورة النحل [١] . وهما لغتان . وقرأ ابن أبي عبلة : [يُعَرِّشُونَ] و [يُعَكِّفُون] بضم الياءِ فيهما وفتح العين وتشديد الراءِ والكاف مكسورتين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ورأيت الحسن البصري أنه احتج بقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية على أنه لا ينبغي أن يُخرج على ملوك السوءِ ، وإنما ينبغي أن يُصبر عليهم فإن الله تعالى يدمرهم ، ورأيت لغيره أنه قال : إذا قابل الناس البلاءَ بمثله وكَلَهم الله إليه ، وإذا قابلوه بالصبر وانتظار الفرج أتى الله بالفرج . وروي هذا القول أيضاً عن الحسن .

وقرأ جمهور الناس : [وَجَاوَزْنَا] ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [وَجَوَّزْنَا] [٢] ، ذكره أبو حاتم والمهدوي ، والمعنى : قطعناه بهم وجزعناه [٣] ،

(١) في قوله تعالى في الآية (٦٨) : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ .

(٢) قال أبو حيان في «البحر» : «هذا مما جاء فيه فعَّل بمعنى فَعَل المجرد نحو قدَّر وقدَر . وليس التضعيف للتعدية» .

(٣) من قولهم : جَزَع الوادي جزْعاً بمعنى قطعه عرضاً . (المعجم الوسيط) .

وهذه الآية ابتداءُ خبر عنهم ، قال النقاش : جاوزوا البحر يوم عاشوراءَ ، وأُعطي موسى التوراة يوم النحر القابل ، فبين الأَمرين أَحد عشر شهراً ، وروي أَن قطعهم كان من ضفَّة البحر إلى الضفَّة المُنَاوِحَة[1] للأُولى ، ورُوي أَنه قطع من الضفة إلى موضع آخر منها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فإما أَن يكون ذلك بوحي من الله وأَمر لينْفُذ أَمرُه في فرعون وقومه ، وهذا هو الظاهر ، وإما بحسب اجتهاد موسى في التخلص بأَن يكون بين موضعين أَوعار وحايلات ، ووقع في كتاب النقاش أَنه نيل مصر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا خطأٌ لا تساعده رواية ، ولا يحتمله لفظ إلا على تحامل ، وإنما هو بحر القلزم . والقوم المشار إليهم في الآية العرب ، وقيل : هم الكنعانيون ، وقال قتادة وأَبو عمرو الجوني : هم قوم من لخم وجذام . والقوم في الكلام : الرجال خاصة ، ومنه قول زهير :

وَلَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آل حِصْنٍ أَمْ نِسَـاءُ[2]

---

(١) المُنَاوِحَة : المقابلة . يقال : داره تُنَاوِحُ داري ، بمعنى تقابلها (المعجم الوسيط) .

(٢) الرواية في (اللسان) : « وما أدري » — وقد استشهد بالآية الكريمة ﴿ لا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ على أن كلمة (قوم) للرجال خاصة دون النساء ، قال : « فلو كانت النساء من القوم لم يقل : ﴿ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ﴾ ، ثم قال : « وكذلك قول زهير » وساق البيت .

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ ، ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ﴾ (١).

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : [يَعْكُفُونَ] بضم الكاف . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو عمرو في رواية عبد الوارث عنه : [يَعْكِفُون] بكسرها ، وهما لغتان . والعكوفُ : الملازمة بالشخص لأمر مَّا ، والإكباب عليه ، ومنه الاعتكاف في المساجد ، ومنه قول الراجز :

. . . . عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الفَنْزَجَا (٢)

والأصنام في هذه الآية قيل : كانت بقراً على الحقيقة ، وقال ابن جريج : كانت تماثيل بقرٍ من حجارة وعيدان ونحوه ، وذلك كان أول فتنة العِجْل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى : ﴿ ٱجْعَلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم ، فأرادوا

(١) من الآية (١١) من سورة (الحجرات) .
(٢) البيت للعجاج يصف ثوراً ، وهو بتمامه :
فَهُنَّ يَعْكُفْنَ به إذْ حَجَا عكْفَ النَّبيط يلعبونَ الْفَنْزَجَا
بمعنى : يقبلن عليه . ومعنى حَجَا : وقف ، من قولهم : حَجَا بالمكان : أقام وثبت . والنَّبيط والنَّبط كالحبيش والحبش في التقدير : جيل ينزلون سواد العراق ، وهم الأنباط ، والمعنى المراد الآن : الأخلاط من الناس من غير العرب ، والفَنْزج والفنزجة : النزوان ، أو هو اللعب الذي يقال له : الدَّسْتَبَند ويعني به رقص المجوس . وفي الصحاح : هو رقص للعجم يأخذ بعضهم بيد بعض . قاله في «تاج العروس» واستشهد عليه ببيت العجَّاج هذا . وقد سبق أن استشهد ابن عطية بهذا البيت .

أَن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يُتقرب به إلى الله ، وإلا فبعيدٌ أَن يقولوا لموسى : اجعل لنا صنماً نفرده بالعبادة ونكفر بربِّك . فعرفهم موسى عليه السلام أَن هذا جهل منهم إذ سأَلوا أَمراً حراماً فيه الإشراك في العبادة ، ومنه يتطرق إلى إفراد الأَصنام بالعبادة والكفر بالله عزَّ وجلَّ . وعلى هذا الذي قلت يقع التشابه الذي قصه النبي صلى الله عليه وسلم في قول أَبي واقد الليثي له في غزوة حنين إذ مرُّوا على دوح سدرة خضراءَ عظيمة : اجعل لنا يا رسول الله ذات أَنواط كما لهم ذات أَنواط ، وكانت ذات أَنواط سرْحة لبعض المشركين يعلقون بها أَسلحتهم ، ولها يوم يجتمعون إليها فيه ، فأَراد أَبو واقد وغيره أَن يشرع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام ، فرأَى رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنها ذريعة إلى عبادة تلك السرْحة فأَنكره وقال : (الله أَكبر ، قلتم والله كما قالت بنو إسرائيل : ﴿ ٱجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ ، لتتبعن سَنَنَ مَنْ قَبْلكُمْ)(١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولم يقصد أَبو واقد بمقالته فساداً . وقال بعض الناس : كان ذلك من بني إسرائيل كفراً ، ولفظة (الإِلٰه) تقتضي ذلك ، وهذا محتمل ، وما ذكرته أَولا أَصح عندي ، والله تعالى أَعلم .

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وغيرهم . (فتح القدير) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ﴾

أَعلمهم موسى عن الله عزَّ وجلَّ بفساد حال أُولٰئك القوم ليزول ما استحسنوه من حالهم فقال : [إِنَّ هَؤُلاءِ] إشارة إلى أُولئك القوم ، [مُتَبَّرٌ] أَي مهلك مدمرٌ رديءُ العاقبة ، قاله السدي ، وابن زيد . والتبار : الهلاك وسوءُ العقبى ، وإناءٌ متبَّر أَي مكسور وكِسارته تِبْر ، ومنه تِبْر الذهب لأَنه كِسارة ، وقوله [ما هُمْ فِيهِ] لفظ يعُمُّ جميع حالهم ، [وَبَاطِلٌ] معناه : فاسد ذاهب مضمحل .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللهِ ﴾ الآية . أَمر الله تعالى موسى عليه السلام أَن يوقفهم ويقررهم على هذه المقالة ، ويحتمل أَن يكون القول من تلقائه عليه السلام ، و [أَبْغِيكُم] معناه : أَطلب لكم ، من بَغَيْت الشيءَ إذا طلبته ، و [غَيْرَ] منصوبة بفعل مضمر ، هذا هو الظاهر ، ويحتمل أَن ينتصب على الحال ، كأَن تقدير الكلام : قال أَبغيكم إلٰهاً غير الله ؟ فهي في مكان الصفة ، فلما قدمت نصبت على الحال . و [ٱلْعَالَمِينَ] لفظ عام يراد به تخصيص عالم زمانهم ، لأَن أُمة محمد صلى الله عليه وسلم أَفضل منهم بإجماع ، ولقوله تعالى :

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] ، اللهم إلا أن يراد بالفضل كثرة الأنبياء منهم فإنهم فضلوا في ذلك على العالمين بالإطلاق .

ثم عدد عليهم في هذه الآية النِّعَمَ التي يجب من أجلها ألا يكفروا به ولا يرغبوا عبادة غيره . وقرأت فرقة : [نَجَّيْنَاكُمْ] ، وقرأ جمهور الناس : [أَنْجَيْنَاكُمْ] وقد تقدم ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : [وَإِذْ أَنْجَاكُمْ] أي : أنجاكم الله ، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام ، و [يَسُومُونَكُمْ] معناه : يحملونكم ويكلفونكم ، تقول : سامه خطة خسف ، ونحو هذا ، ومساومة البيع ينظر إلى هذا وأن كل واحد من المتساومين يكلف صاحبه إرادته ، ثم فسَّر سوءَ العذاب بقوله : [يُقَتِّلُونَ - وَيَسْتَحْيُونَ] . و [بَلَاءٌ] - في هذا الموضع - معناه : اختبار وامتحان ، وقوله : [ذَلِكُمْ] إشارة إلى سوء العذاب ، ويحتمل أن يشير إلى التنجية ، فكأنه قال : وفي تَنْجِيَتِكُمْ امتحان لكم واختبار ، هل يكون منكم وفاءٌ بحسب النعمة ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
والتأويل الأول أظهر .

وقالت فرقة : هذه الآيات خاطب بها موسى من حضره من بني إسرائيل . وقال الطبري : بل خوطب بهذه الآية من كان على عهد محمد صلى الله عليه وسلم تقريعاً لهم بما فعل بأوائلهم وبما جازوا به .

---

(١) من الآية (١١٠) من سورة (آل عمران) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
والأول أظهر وأبين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾

قرأ أبو عمرو ، وأُبي بن كعب ، وأبو رجاءٍ ، وأبو جعفر ، وشيبة : [وَوَعَدْنَا] ، وقد تقدم في البقرة ، وأخبر الله تعالى موسى عليه السلام بأن يتهيأ لمناجاته ثلاثين ليلة ثم زاده في الأجل بعد ذلك عشر ليال ، فذكر أن موسى عليه السلام أعلم بني إسرائيل بمغيبه ثلاثين ليلة ، فلما زاده العَشْر في حال مغيبه دون أن تعلم بنو إسرائيل ذلك وجَسَت نفوسهم(١) للزيادة على ما أخبرهم به ، فقال لهم السامري: إنَّ موسى قد هلَك وليس براجع وأضلهم بالعجل فاتّبعوه ، قاله كله ابن جريج . وقيل : بل أخبرهم بمغيبه أربعين ، وكذلك أعلمه الله

(١) يقال : وجَسَ – من باب وَعَد – يَجِس وجْساً ووجَسانا بمعنى فزع مما وقع في قلبه أو سمعه من صوت .

تبارك وتعالى ، وهو المراد بهذه الآية ، قاله الحسن . وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾(١) ، وأنهم عدوا الأيام والليالي فلما تم أربعون من الدهر قالوا : قد أخلف موسى فضلوا ، قال مجاهد : إن الثلاثين هي شهر ذي القعدة ، وإن العشر هي عشر ذي الحجة ، وقاله ابن عباس ، ومسروق ، وروي أن الثلاثين إنما وعد بأن يصومها ويتهيأ فيها للمناجاة ويستعد ، وأن مدة المناجاة هي العشر ، وقيل : بل مدة المناجاة الأربعون ، وإقبال موسى على الأمر والتزامه يُحَسِّن لفظ المواعدة ، وحيث ورد أن المواعدة أربعون ليلة فذلك إخبارٌ بجملة الأمر ، وهو في هذه الآية إخبار بتفصيله كيف وقع . و [أَربَعينَ] في هذه الآية وما بعدها في موضع الحال ، ويصح أن تكون [أَرْبعين] ظرفاً من حيث هي عدد أزمنة . وفي مصحف أُبي بن كعب [وَتَمَّمْنَاهَا] بغير ألف وبتشديد الميم ، وذكر الزجاج عن بعضهم قال : لما صام ثلاثين يوماً أنكر خلوف (٢) فمه فاستاك بعود خروب ، فقالت الملائكة : إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فزيدت عليه عشر ليال ، و [ثَلَاثِينَ] نصب على تقدير : أجلناه ثلاثين ، أو مناجاة ثلاثين ، وليست منتصبة على الظرف لأن المواعدة لم تقع في الثلاثين ، ثم

(١) من الآية (١٩٦) من سورة (البقرة) .

(٢) خَلَفَ الشيءُ خلوفاً : تغير وفسد ، يقال : خَلَفَ الطعام وخَلَفَ فم الصائم ، وفي الحديث (لَخَلُوفُ فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك) .

ردد الأَمر بقوله سبحانه : ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ، قيل : ليبيِّن أن العشر لم تكن ساعات ، وبالجملة تأْكيد وإيضاح [1] .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ﴾ الآية . المعنى : وقال موسى حين أَراد المضي للمناجاة والمغيب فيها ، و [ٱخْلُفْنِي] معناه : كن خليفتي ، وهذا استخلاف في حياة كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكل أَو موته ولا يقتضي أَنه متماد بعد وفاة ، فينحَلُّ ـ على هذا ـ ما تعلق به الإِمامية في قولهم : إن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف عليّاً بقوله : (أَنت مني كهارون من موسى) [2] ، وقال موسى : اخلفني فيترتب على هذا أن عليّاً خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما ذكرناه يحل هذا القياس .

وأَمره في هذه الآية بالإِصلاح ، ثم من الطريق الآخر في أَلا يتبع سبيل مفسد . قال ابن جريج : كان من الإِصلاح أَن يزجر السامري ويغيِّر عليه .

ثم أَخبر الله تبارك وتعالى عن موسى عليه السلام أَنه لما جاءَ إلى الموضع الذي حُدِّدَ لَه ، وفي الوقت الذي عُيِّنَ له ، وكلَّمه ربه قال

(١) يبين المؤلف السبب في هذه الجملة ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ ربه أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقد عُلم أن ثلاثين وعشرة أربعين فقال : ليُبَيِّن أن العشر أيضاً من جنس الليالي ، وفي الجملة كذلك تأكيد للعدد وإيضاح للمراد ، وقيل : فائدتها إزالة توهم أن العشر من الثلاثين .

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ، والترمذي في المناقب ، وابن ماجة في المقدمة ، والإمام أحمد في مواطن كثيرة . وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص ، ونصه : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي حين خلفه في بعض مغازيه : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي») .

تَمَنِياً منه : ﴿ رَبِّ أَرِنِــي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ ، وقرأ الجمهور : [أَرِني] بكسر الراءِ ، وقرأ أبو عمرو ، وابن كثير : [أَرْني] بسكون الراءِ .

والمعنى في قوله تعالى : [كَلَّمَهُ] أي : خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديم الذي هو صفة ذات . وقال ابن عباس ، وابن جبير : أدنى الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام حتى سمع صريف الأَقلام في اللوح ، وكلام الله عزَّ وجلَّ لا يشبه شيئاً من الكلام الذي للمخلوقين ولا في جهة من الجهات ، وكما هو موجود لا كالموجودات ، ومعلوم لا كالمعلومات ، كذلك كلامه لا يشبه الكلام الذي فيه علامات الحدوث . والواو عاطفة [كَلَّمَه] على [جاءَ] ، ويحتمل أن تكون واو الحال ، والأَول أَبْين. وقال وهب بن منبه : كلم الله موسى في ألف مقام ، كان يُرى نور على وجهه ثلاثة أيام إثر كل مقام ، وما قرب موسى النساءَ منذ كلمه الله تعالى . وجواب [لَمَّا] في قوله تعالى : [قَالَ] ، والمعنى أنه لما كلمه وخصه بهذه المرتبة طمحت همته إلى رتبة الرؤْية وتشوّق إلى ذلك فسأَل ربه أن يريه نفسه ، قاله السدي ، وأبو بكر الهذلي ، وقال الربيع : قربناه نجيّاً حتى سمع صريف الأَقلام .

ورؤْية الله عزَّ وجلَّ عند الأَشعرية وأهل السنة جائزة عقلا ، لأَنه من حيث هو موجود تصح رؤيته ، قالوا : لأَن الرؤية للشيءِ لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود ، إلا أَن الشريعة قررت رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة نصاً ، ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر من الشرع ، فموسى عليه السلام لم يسأَل ربّه محالا وإنما سأَل جائزاً .

وقوله تعالى : ﴿ لَنْ تَرَانِــي وَلَٰكِنِ ٱنْظُرْ إِلَىٰ ٱلْجَبَلِ ﴾ الآية . ليس بجواب من سأل محالا ، وقد قال تبارك وتعالى لنوح : ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾[1] ، فلو سأل موسى محالاً لكان في الكلام زجرٌ ما وتبيين . وقوله عزّ وجلّ : [لَنْ تَرَانِــي] نص من الله تعالى على منعه الرؤية في الدنيا ، و [لَنْ] تنفي الفعل المستقبل ، ولو بقينا مع هذا النفي بمجرده لقضينا أنه لا يراه موسى أبداً ولا في الآخرة ، لكن ورد من جهة أُخرى بالحديث المتواتر أَن أَهل الإيمان يرون الله تعالى يوم القيامة ، فموسى عليه السلام أَحرى برؤيته[2] . وقال مجاهد وغيره : إنَّ الله عزّ وجلّ قال لموسى : [لَنْ تَرَانِــي] ولكن سأَتجلى للجبل الذي هو أَقوى منك وأَشد فإن استقر وأَطاق الصبر لِهَيْبَتِي فستمكنك أَنت رؤيتي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فعلى هذا إنما جعل الله الجبل مثالا[3] وقالت فرقة : إنما المعنى :

(١) من الآية (٤٦) من سورة (هود) .

(٢) من الأحاديث المتواترة في هذا المقام ما جاء في الصحيحين أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ قالوا : لا ، قال : (إنكم ترون ربكم كذلك) . وفي الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال : (إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا) . والأحاديث الثابتة في ذلك كثيرة . ولا مجال للمناقشة معها في أن المؤمنين سيرون ربهم يوم القيامة . وإذا ثبت الحديث فلا حجة أمامه .

(٣) معنى هذا الكلام أن الرؤية علقت هنا باستقرار الجبل ، وهذا دليل على الجواز ضرورة أن المعلَّق بالممكن ممكن – ولو كانت الرؤية مستحيلة لعلقها بمستحيل. قال الإمام =

سأتبدى لك على الجبل فإن استقر لعظمتي فسوف تراني ، وروي في كيفية وقوف موسى وانتظاره الرؤية قصص طويل اختصرته لبعده ولكثرة مواضع الاعتراض فيه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

قال المتأولون كالقاضي الباقلاني [١] وغيره : «إن الله عزَّ وجلَّ خلق للجبل حياة وحسّاً وإدراكاً يرى به ثم تجلى له ، أي ظهر وبدا

= ابن كثير : «وقد أشكل حرف (لن) هاهنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة . وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة .»

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر — أبو بكر ، قاض ، من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة . ولد في البصرة . وسكن بغداد وبها مات . كان جيد الاستنباط ، سريع الجواب ، أوفده عضد الدولة إلى ملك الروم فناظر علماء النصرانية بين يدي ملكها ، من كتبه : «إعجاز القرآن — ط» «الانصاف — ط» و «دقائق الكلام» و «الملل والنحل» و «كشف أسرار الباطنية» «و تمهيد الدلائل — خ» وغيرها . عن (وفيات الأعيان ودائرة المعارف الإسلامية) وعن (الأعلام) .

سلطانه ، فاندك الجبل لشدة المطلع ، فلما رأى موسى ما بالجبل صعق» ، وهذا المعنى هو المروي عن ابن عباس . وأسند الطبري عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : فوضع الإبهام قريباً من خنصره ، قال : فساخ الجبل ، فقال حميد لثابت : تقول هذا ؟ فرفع ثابت يده فضرب صدره وقال : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقوله أنس وأكتمه أنا ؟ (١) .

وقالت فرقة : المعنى : فلما تجلى الله للجبل بقدرته وسلطانه اندك الجبل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأويل يتمسك به المعتزلة تمسكاً شديداً لقولهم : إن رؤية الله عزَّ وجلَّ غير جائزة ، وقائله من أهل السُّنَّة إنما يقوله مع اعتقاده جواز الرؤية ، ولكنه يقول : إنه أليق بألفاظ الآية من أن تحمل الآية أن الجبل خلق له إدراك وحياة ، وقال الزجاج : من قال : إن التقدير : «فلما تجلى أمرُ ربّه» فقد أخطأ ، ولا يعرف أهل اللغة ذلك . وردّ أبو علي في «الأغفال» عليه .

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده . وابن جرير الطبري ، والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب . ورواه الحاكم وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ، ورواه ابن مردوية من طريقين . راجع تفسير ابن كثير .

والدَّكُّ : الانسحاق والتَّفَتُّت . وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ، وابن مسعود ، وأنس بن مالك ، والحسن ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، ومجاهد ، وابن كثير ، وأَبو عمرو ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : [دَكًّا] . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عباس ، والربيع بن خيثم ، وغيرهم : [دَكَّاءَ] على وزن حمراءَ ، والدكَّاءُ : الناقة التي لا سنام لها ، فالمعنى : جعله أرضاً دكاءَ تشبيهاً بالناقة . فروي أنه ذهب الجبل برمته ، وقيل : ذهب أعلاه وبقي أكثره ، وروي أَن الجبل تفتت وانسحق حتى صار غباراً تذروه الرياح ، وقال سفيان : روي أَنه ساخ في الأَرض وأَفضى إلى البحر الذي تحت الأَرضين . قال ابن الكلبي : فهو يهوي فيه إلى يوم القيامة ، وروي أَنه انكسر ستّ فرق ، فوقعت منها ثلاث بمكة : ثبير ، وغار ثور ، وحراء ، وثلاث بالمدينة : أُحد ، وورَقان ، ورضوى ، قاله النقاش . وقال أَبو بكر الهذلي : ساخ في الأَرض فلا يظهر إلى يوم القيامة .

و [صَعِقاً] معناه : مغشياً عليه كحال من تصيبه الصعقة وهي الصيحة المفرطة ، قال الخليل : وهي الوقع الشديد من صوت الرعد ، قاله ابن زيد وجماعة من المفسرين . وقال قتادة : كان موتاً ، قال الزجاج : وهو ضعيف ، ولفظة [أَفاقَ] تقتضي غير هذا ، وقوله : [سُبْحَانَكَ] أي : تنزيهاً لك ، كذا فسره النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله : [تُبْتُ إِلَيْكَ] معناه : من أن أَسأَلك الرؤْية في الدنيا وأَنت لا تبيحها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل عندي أنه لفظ قاله عليه السلام لشدة هول ما اطلع ، ولم يعن به التوبة من شيء معين ، ولكنه لفظ يصلح لذلك المقام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يتحرز منه أهل السُّنَّة أن تكون توبة من سؤال المحال كما زعمت المعتزلة .

وقرأ نافع : [وَأَنَا] بإثبات الألف في الإدراج ، قاله الزهراوي ، والأولى حذفها في الإدراج ، وإثباتها لغة شاذة خارجة عن القياس . وقوله : [أَوَّلُ] إما أن يريد : من قومه بني إسرائيل ، وهو قول ابن عباس ومجاهد ، أو من أهل زمانه إن كان الكفر قد طبق الآفاق ، وإما أن يريد أول المؤمنين بأنك لا تُرى في الدنيا ، قاله أبو العالية .

ثم إن الله تعالى قرّر موسى على آلائه عنده على جهة الإخبار وقنّعه بها وأمره بالشكر عليها ، وكأنه قال : ولا تتعداها إلى غيرها . واصطفى أصله : اصتفى ، وهو افتعل من صفا يصفو انقلبت التَّاءُ طاءً لمكان الصاد ، ومعناه : تخيَّرتك وخصصتك ، ولا تستعمل إلا في الخير والمنن ، لا يقال : اصطفاه لِشَرٍّ ، وقوله تعالى : [عَلَى ٱلنَّاسِ] عام والمراد الخصوص فيمن شارك موسى في الإرسال ، فإن الأنبياءَ المرسلين كلهم مشاركون له بما هم رسل ، والظاهر من الشريعة أن موسى مخصص بالكلام وإن كان قد روي في تكليم الله غيره

أَشياءَ بما يشاءُ ، من أَعظمها أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن آدم فقال : (هو نبي مكلم) [١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

إلا أَن ذلك قد تؤول بأَنه كان في الجنة فيتحفظ ـ على هذا ـ تخصيص موسى . ويصح أَن يكون قوله : [عَلَىٰ ٱلنَّاسِ] عموماً مطلقاً في مجموع الدرجتين : الرسالة والكلام . وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : [بِرِسَالَاتِـي] على الجمع ، إذ الذي أُرسل به ضروب . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، [بِرِسَالَتِي] على الإفراد الذي يراد به الجمع ، وتحل الرسالة ها هنا محل المصدر الذي هو الإرسال . وقرأَ جمهور الناس : [وَبِكَلَامِي] ، وقرأَ أَبو رجاءٍ : [بِرِسَالَتِي وبِكَلِمِي] ، وقرأَ الأَعمش : [بِرِسَالاتي وبِكَلِمِي][٢] ، وحكى عنه المهدوي : [وَتَكْليمي] على وزن تفعيلي . وقوله تعالى : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ ﴾ تأْديب وتقنيع وحمْلٌ على جادَّة السلامة ، ومثال لكل أَحد في حالِهِ ، فإن جميع النعم من عنده بمقدار ، وكل الأُمور بمرأَى من الله ومسمع .

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه الإمام أحمد في مسنده (٥ـ١٧٨) عن أبي ذرٍّ ، وفيه : (قلت يا رسول الله أيُّ الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم ، قلت : يا رسول الله ونبي كان ؟ قال : نعم ، نبيٌّ مكلم) .

(٢) عبارة «البحر» هنا هي : «وقرأ الأعمش برسالاتي وتكلُّمي» .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ ﴾ الآية . الضمير في [لَهُ] عائد على موسى عليه السلام ، والألف واللام في [ٱلْأَلْوَاحِ] عِوض من الضمير الذي يقدر وصلة بين [ٱلْأَلْواحِ] و (موسى) عليه السلام ، تقديره : في ألواحه ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَى ﴾(١) أي : مأواه . وقيل : كانت الألواح اثنين ، وقيل : سبعة ، وقال مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما : كانت الألواح من زمرد ، وقال ابن جبير : من ياقوت أحمر ، وقال أبو العالية أيضاً : من بَرَد (٢) ، وقال الحسن : من خشب ، وقوله : ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لفظه عموم ، والمراد به كل شيءٍ ينفع في معنى الشرع ويُحتاج إليه في المصلحة ، وقوله : [لِكُلِّ شَيْءٍ] مثله ، قال ابن جبير : ما أُمروا به ونهوا عنه ، وقاله مجاهد ، وقال السدي : الحلال والحرام . وقوله : [بِقُوَّةٍ] معناه : بِجِدّ وصبر عليها واحتمال لمؤنتها ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والسدي ، وقال الربيع بن أنس : [بِقُوَّةٍ] هنا : بطاعة . وقال ابن

---

(١) الآية (٤١) من سورة (النازعات) .

(٢) الذي في القرطبي أن أبا العالية يقول : إنها من زبرجد ــ والذي في البحر نسبة القول بأنها من زبرجد إلى ابن عباس وأبي العالية ــ ثم قال : وعن أبي العالية أيضاً أنها من بَرَد ــ وهذا يفسر هنا كلمة (أيضاً) بعد قوله : « وقال أبو العالية » . ــ ولا ندري كيف تكون من بَرَد مع أن البَرَد هو ماءٌ متجمد ينزل من السماء قطعاً صغاراً ، ويسمى : حبَّ الغمام وحبَّ المزن ، ولهذا قال الألوسي : لا يخفى أن أمثال هذا يحتاج إلى النقل الصحيح .

عباس رضي الله عنهما : أُمر موسى عليه السلام أَن يأْخذ بأَشد مما أُمر به قومه ، وخُذْ أَصله : أُؤْخذ ، حذفت الهمزة التي هي فاءُ الفعل على غير قياس فاستغني عن الأَول ، وقوله : [بِأَحْسَنِهَا] يحتمل معنيين : أَحدهما التفضيل ، كأَنه قال : إِذا اعترض فيها مباحان فيأْخذون الأَحسن منهما كالعفو والقصاص ، والصبر والانتصار .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

هذا على القول أَن أَفعل التفضيل لا يقال إِلا لما لهما اشتراكٌ في المفضَّل فيه . وأَما على القول الآخر فقد يراد بالأَحسن المأْمور به بالإِضافة للمنهي عنه لأَنه أَحسن منه ، وذلك كالناسخ بالنسبة للمنسوخ ونحو هذا . وذهب إِلى هذا المعنى الطبري .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويؤيد هذا التأْويل أَنه تدخل فيه الفرائض وهي لا تدخل في التأْويل الأَول ، وقد يُمكن أَن يتصور اشتراك في حُسْن من المأْمور به والمنهي عنه ولو بحسب الملاذ وشهوات النفس الأَمارة . والمعنى الآخر الذي يحتمله قوله تعالى : [بِأَحْسَنِهَا] أَن يريد بـ [أَحْسَن] وصف الشريعة بجملتها ، فكأَنه قال : قد جعلنا لكم شريعة هي أَحسن ، كما تقول :

« اللهُ أكبر » دون مقايسة ، ثم قال : فمرهم يأْخذوا بأَحسنها الذي شرعناه لهم ، وفي هذا التأْويل اعتراضات (١) .

وقرأَ جمهور الناس : [سَأُوْرِيكُمْ] ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : [سَأُوْرِيكُمْ](٢) ، قال أَبو الفتح : ظاهر هذه القراءَة مردود وهو أَبو سعيد المأْثور فصاحته . فوجهها أَن المراد (أُريكم) ثم أُشبعت ضمة الهمزة ومُطِلَت حتى نشأَت عنها واو ، ويحسن احتمال الواو في هذا الموضع أَنه موضع وعيد وإغلاظ فمكن الصوت فيه (٣) . وقرأَ قسامة ابن زهير : [سَأُوَرِّثُكُمْ] ، قاله أَبو حاتم ، ونسبها المهدوي إلى ابن عباس رضي الله عنهما . وثبتت الواو في خط المصحف (٤) فلذلك أَشكل هذا الاختلاف مع أَنَّا لا نتأَول إلا أَنها مرويات . فأَما من قرأَها : [سَأُوْرِيكُمْ](٥) فالمعنى عنده: سأَعرض عليكم وأَجعلكم تحِسُّون (٦)

---

(١) معنى هذا أن (أحسن) ليست أفعل تفضيل ، وذلك كقول الشاعر : « بيتاً دعائمه أعزُّ وأطْول » أي : عزيزة طويلة ، فعلى هذا أمروا بأن يأخذوا بحُسْنها وهو ما يترتب عليه الثواب دون المناهي التي يترّتب على فعلها العقاب ــ قاله قطرب وابن الأنباري .

(٢) الواو في القراءة الأولى تكتب ولا تنطق وفي القراءة الثانية تكتب وتنطق .

(٣) قال أبو حيان في « البحر » : « وهذا التوجيه ضعيف لأن الإشباع بابه ضرورة الشعر » . ثم ذكر توجيهاً آخر نقله عن الزمخشري هو أنها لغة فاشية بالحجاز ، يقال : أوْرني كذا وأوْريته، فوجْهُهُ أن يكون من أوْريت الزند ، كأن المعنى : بيّنه لي وأنِره لأستَبينَه . ثم قال أبو حيان : « وهي أيضاً في لغة أهل الأندلس كأنهم تلقفوها من لغة الحجاز وبقيت في لسانهم إلى الآن ، وينبغي أن ينظر في تحقق هذه اللغة ، أهي في لغة الحجاز أم لا ؟ »

(٤) يقصد بذلك القراءة الأولى التي قال إنها قراءة الجمهور .

(٥) أي برسم الواو دون نطقها ــ وهي قراءة جمهور الناس .

(٦) في بعض النسخ : تخشون من الخشية .

لتعتبروا حال دار الفاسقين . والرؤية هنا رؤية العيْن إلا أَن المعنى يتضمن الوعد للمؤمنين والوعيد للفاسقين . ويدل على أَنها رؤْية العين تعدي فعلها ، وقد عُدي بالهمزة إلى مفعولين ، ولو كان من رؤْية القلب لتعدي بالهمزة إلى ثلاثة مفاعيل ، ولو قال قائل : المفعول الثالث يتضمنه المعنى فهو مقدر ، أي : مُدَمَّرَة أَو خَرِبَة أَو مُسْعَرَة — على قول من قال : هي جهنم — قيل له : ولا يُجَوِّز حذف هذا المفعول والاقتصار دونه أَنها داخلة على المبتدإ والخبر ، ولو جُوِّز لكان على قبح في اللسان لا يليق بكتاب الله عزَّ وجلَّ (١) .

وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، ومقاتل ، وقتادة في كتاب النقاش : دار الفاسقين مصر ، والمراد آل فرعون . وقال قتادة أَيضاً : دار الفاسقين الشام ، والمراد العمالقة الذين أُمر موسى عليه السلام بقتالهم ، وقال مجاهد والحسن : دار الفاسقين جهنم ، والمراد الكفرة بموسى عامة ، وقال النقاش عن الكلبي : دار الفاسقين دور ثمود وعاد والأُمم الخالية ، أَي : سنقصها عليكم فترونها .

---

(١) نقل أبو حيان هذا الكلام عن ابن عطية — ثم علق عليه بملحوظتين :
الأولى : أن حذف المفعول الثالث في باب (أعلم) لدلالة المعنى عليه جائز .
الثانية : أن تعليله بأنها داخلة على الابتداء والخبر لا يدل على المنع لأن خبر المبتدأ يجوز حذفه اختصاراً ، والثاني والثالث في باب (أعلم) يجوز حذف كل واحد منهما اختصاراً — ثم إن قوله : « سأريكم داخلة على المبتدأ أو الخبر » فيه تجوز . فهو يعني أنها كانت داخلة على المبتدأ والخبر قبل النقل بالهمزة . (البحر المحيط ٤—٣٨٩) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

المعنى : سأَمنع وأَصد ، وقال سفيان بن عُيَيْنَة : الآيات هنا كل كتاب منزّل .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فالمعنى : عن فهْمها وتصديقها . وقال ابن جُرَيج : الآيات : العلامات المنصوبة الدالة على الوحدانية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فالمعنى : عن النظر فيها والتفكير والاستدلال بها . واللفظ يعم الوجهين .

والمتكبرون بغير حق في الأَرض هم الكفرة ، والمعنى في هذه الآية : سأَجعل الصرف عن الآيات عقوبة للمتكبرين على تكبُّرهم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَة لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ حتم من الله عزَّ وجلَّ

على الطائفة التي قدّر ألا يؤمنوا . وقراءة الجمهور : [يَرَوا] بفتح الياء ، قرأها ابن كثير ، وعاصم ، ونافع ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وشبل ، وابن وثاب ، وطلحة بن مصرف ، وسائر السبعة ، وقرأها مضمومة الياءِ مالك بن دينار (١) .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : [الرُّشْد] ، وقرأ ابن عامر – في بعض ما روي عنه – وأبو الرهشم : [الرُّشُد] بضم الراءِ والشين ، وقرأ حمزة ، والكسائي على أن [الرُّشْد] بضم الراءِ وسكون الشين ، و [الرَّشَد] بفتحهما بمعنى واحد ، وقال أبو عمرو بن العلاءِ : الرُّشْد بضم الراءِ : الصلاح في النظر ، والرَّشَد بفتحهما : الدِّين ، وأما قراءة ابن عامر بضمهما فأتبعت الضمة الضمة .

وقرأ ابن أبي عبلة : [لا يَتَّخِذُوهَا] و [يَتَّخِذُوهَا] على تأْنيث السَّبيل . والسَّبيل تؤنث وتذكَّر ، وقوله تعالى : [ذَلِكَ] إشارة إلى الصَّرف ، أي صَرْفنا إياهم وعقوبتنا لهم هي بكفرهم وتكذيبهم وغفلتهم عن النظر في الآيات والوقوف عند الحجج ، ويحتمل أن يكون [ذلِكَ] خبر ابتداءٍ تقديره : الأَمر ذلك ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بفعل تقديره : فعلنا ذلك (٢) .

---

(١) هو مالك بن دينار البصري ، أبو يحيى ، من رواة الحديث ، كان ورعاً يأكل من كسبه ، ويكتب المصاحف بالأجرة ، توفي بالبصرة ١٣١ هـ . (وفيات الأعيان – وتهذيب التهذيب ، وحلية الأولياء – وقد اختلفوا في تاريخ وفاته) .

(٢) قال أبو حيان : « والظاهر أن (ذلك) مبتدأ وخبره (بأنهمْ) أي ذلك الصَّرف كائن بأنهم كذبوا » .

وقوله تعالى : ﴿ والَّذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ ﴾ الآية . هذه الآية مؤكدة للتي قبلها ، وسوقها في جملة المكذب به . ولقاءُ الآخرة لفظ يتضمن تهديداً ، أَي : هنالك يفتضح لهم حالهم . و [حَبِطَتْ] معناه : سقطت وفسدت ، وأَصل الحبط فيما تقدم صلاحه ، ولكنه قد يستعمل في الذي كان من أَول أَمره فاسداً ، إذ مآل العاملين واحد .

وقوله تعالى: ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير ، أَي: يستوجبون بسوءِ فعلهم العقوبة [١] ، وساغ أَن يستعمل [حَبِطَت] هنا إذ كانت أَعمالهم في معتقداتهم جارية في طريق صلاح ، فكأَن الحبط فيها إنما هو بحسب معتقداتهم ، وأَما بحسب ما هي عليه في أَنفسها ففاسدة منذ أَول أَمرها ، ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أَو يلم)[٢] أَي فساداً لكثرة الأَكل بعد الصلاح الذي كان أَولا ، وقرأَ ابن عباس ، وأَبو السمال : [حَبَطَتْ] بفتح الباءِ .

---

(١) قال أبو حيان في « البحر » : « والظاهر أنه استفهام بمعنى النفي ولذلك دخلت (إلا) ، والاستفهام الذي هو بمعنى التقرير هو موجب من حيث المعنى فيبعد دخول (إلا) ولعلّه لا يجوز ».

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد في مسنده ، وابن ماجه – وقد رواه البخاري في الجهاد وفي الرقاق – عن أبي سعيد ، ومنه : (إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةَ ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبَطاً أو يُلمُّ إلا آكلة الخضِرَة أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجْتَرَّت وثَلَطَتْ وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال حُلْوَة ، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

اتَّخَذَ أَصله : إيتَخَذ ، وزنه افتعل ، من تَخِذ . هذا قول أَبي علي الفارسي . والضمير في [بَعْدِهِ] عائد على موسى ، أَي بعد مُضيِّه إلى المناجاة ، وأَضاف الحليّ إلى بني إسرائيل وإِن كان مستعاراً من القبط — إذ كانوا قد تملكوه — إمَّا بأَن نفلوه كما روي[1] ، وحكى يحيى بن سلام عن الحسن أَنه قال : استعار بنو إسرائيل حليّ القبط ليوم الزينة ، فلما أَمر موسى أَن يسري بهم ليلا تعذر عليهم رد العواري . وأَيضاً فخشوا أَن يفتضح سرُّهم ، ثم إن الله نفلهم إياه ، ويحتمل أَن يضاف الحليّ إلى بني إسرائيل من حيث تصرفت أَيديهم فيه بعد غزو آل فرعون .

ويروى أَن السامري — واسمه موسى بن ظفر وينسب إلى قرية تسمى سامرة — قال لهارون حين ذهب موسى إلى المناجاة : يا هارون

---

(١) النفل هنا : الهبة ، والجمع : أنفال .

إن بني إسرائيل قد بدَّدوا الحليّ الذي استعير من القبط وتصرفوا فيه وأَنفقوا منه ، فلو جمعته حتى يرى موسى فيه رأيه ، قال : فجمعه هارون ، فلما اجتمع قال للسامري : أَنت أَولى الناس بأَن يختزن عندك ، فأَخذه السامريُّ – وكان صائغاً – فصاغ منه صورة عجل ، وهو ولد البقرة . [جَسَداً] أَي جثة وجماداً ، وقيل : كان جسداً بلا رأَس . وهذا تعلق بأَن الجسد في اللغة ماعدا الرأْس ، وقيل : إن الله جعل له لحماً ودماً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف لأَن الآثار في أَن موسى بَرَدَهُ بالمبارد تكذب ذلك .

والخوار : صوت البقر ، ويروى أَن هذا العجل إنما خار مرة واحدة ، وذلك بحيلة صناعية من السامري أَو بسحر تركب له من قبضه القبضة من أَثر الرسول ، أَو بأَن الله أَخار العجل لفَتْن بني إسرائيل . وقرأَت فرقة : [لَهُ جُوار] بالجيم وهو الصياح ، قال أَبو حاتم : وشدة الصوت . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وأَبو عمرو ، والحسن ، وأَبو جعفر ، وشيبة : [مِنْ حُلِيِّهِمْ] بضم الحاءِ وكسر اللام ، وهو جمع حَلْي – على مثال ثَدْي وثُدِيّ ، وأَصله : حُلُوي ، قلبت الواو ياءً وأُدغمت فجاءَ (حُلُيّ) فكسرت اللام لتناسب الياءَ ، وقرأَ حمزة والكسائي : [مِنْ حِلِيِّهم] بكسر الحاءِ على ما قدمنا من التعليل ، قال أَبو حاتم : إلا أَنهم كسروا الحاءَ إتباعاً لكسرة اللام ، قال أَبو علي :

وقوي التغيير الذي دخل على الجمع على هذا التغيير الأَخير ، قال : ومما يؤكد كسر الفاءِ في هذا النحو من الجمع قولهم : قِسِـيّ . قال أَبو حاتم : وقرأَ هكذا يحيى بن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش ، وأَصحاب عبد الله . وقرأَ يعقوب الحضرمي : [مِنْ حَلْيِهِمْ] بفتح الحاءِ وسكون اللام ، فإما أَن يكون مفرداً يراد به الجمع ، وإما أَن يكون جمع حِلْيَة كتَمْرة وتَمْر . ومعنى الحليّ : ما يُتَجَمَّل به من حجارة وذهب وفضة .

ثم بين الله تعالى سوءَ فطرتهم وقرر فساد اعتقادهم بقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ الآية . وذلك أَن الصامت الجماد لا يتصف بالأُلوهية ، والذي لا يرشد إلى خير ولا يكشف غماً كذلك . والضمير في [اتَّخَذوه] عائد على العجل . وقوله : [وكانوا] إخبارٌ لنا عن جميع أَحوالهم ماضياً وحالا ومستقبلا ،ويحتمل أَن تكون الواو واو حال ،وقد مرَّ في سورة البقرة سبب اتخاذ العجل وبسط تلك الحال بما أَغنى عن إعادته هنا.

وقرأَ جمهور الناس بكسر القاف وضم السين : [سُقِط في أَيْدِيهِمْ] ، وقرأَت فرقة : [سَقَط] بفتح السين والقاف ، حكاه الزجاج ، وقرأَ ابن أَبي عبلة : [أُسْقِط] وهي لغة حكاها الطبري بالهمزة المضمومة وسين ساكنة ، والعرب تقول لمن كان ساعياً لوجه أَو طالباً غاية ما فعرض[1] له ما غلبه وصدّه عن وجهته وأَوقفه موقف العجز عن بغيته ،

(١) الذي في الأصول : « فعرضه ما غلبه » ولما كان هذا مخالفاً لقواعد اللغة أكدنا أن الخطأ من النساخ بدليل أن أبا حيان في « البحر المحيط » نقل العبارة كما أثبتناها هنا قائلا في نقله عن ابن عطية : « فعرض له ما غلبه وصده » .

وتيقن أنه قد عجز : سُقِط في يد فلان ، وقال أَبو عبيدة : يقال لمن أَقدم على أَمر وعجز عنه : سُقِط في يده .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والندم عندي عرض يعرض لصاحب هذه الحال ، وقد لا يعرض له ، فليس الندم بأَصل في هذا ، أَما إن أَكثر أَصحاب هذه الحال يصحبهم الندم ، وكذلك صحب بني إسرائيل المذكورين في الآية ، والوجه الذي يصل بين هذه الأَلفاظ وبين المعنى الذي ذكرناه هو أَن السعي أَو الصرف أَو الدفاع سقط في يد المشار إليه فصار في يده لا يجاوزها ولا يكون له خارجها تأْثير . وقال الزجاج : المعنى أَن الندم سقط في أَيايهم ، ويحتمل أَن الخسران والخيبة سقط في أَيديهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا كله يلزم أَن يكون [سُقِطَ] يتعدى ، فإن [سُقِطَ] يتضمن مفعولا وهو هنا المصدر الذي هو الإسقاط ، كما يقال : ذُهب بزيد ، وفي هذا عندي نظر (١) .

وأَما قراءَة من قرأَ : [سَقَطَ] على بناءِ الفعل للفاعل ، أَو [أُسْقِط] على التعدية بالهمزة فبين في الاستغناءِ عن التعدي . ويحتمل أَن يقال :

(١) النظر الذي يُشير إليه وضحه صاحب البحر حيث قال : « وصوابه : وهو هنا ضمير المصدر الذي هو السقوط ، لأن سُقط ليس مصدره الإسقاط ، وليس نفس المصدر هو المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله بل هو ضميره » .

«سقط في يديه» على معنى التشبيه بالأَسير الذي تكتف يداه ، فكأَن صاحب هذه الحال يستأْسر ، ويقع ظهور الغلبة عليه في يده ، أَو كأَن المراد سقط بالغلب والقهر في يده ، وحُدِّثت عن أَبي مروان بن سراج[1] أَنه كان يقول : قول العرب «سقط في يده» مما أَعياني معناه ، وقال الجرجاني : هذا مما دَثَر استعماله مثل ما دَثَر استعمال قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ ﴾[2] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا الكلام ضعف ، والسِّقاط في كلام العرب كثرة الخطإِ والندم عليه ، ومنه قول سويد بن أَبي كاهل :

كَيْفَ يَرجونَ سِقاطي بَعْدَمَا لَفَّعَ الرَّأْسَ مَشِيبٌ وصَلَع ؟[3]

وقول بني إسرائيل : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ إنما كان بعد رجوع موسى وتغيره عليهم ، ورؤْيتهم أَنهم قد خرجوا على الدين ووقعوا في الكفر . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ، والحسن ، والأَعرج ، وأَبو جعفر ، وشيبة بن نصاح ، ومجاهد

(١) هو أحد أئمة اللغة بالأندلس — قال ذلك أبو حيان في «البحر المحيط» .

(٢) من الآية (١١) من سورة (الكهف) .

(٣) سويد شاعر جاهلي أدرك الإسلام وعمر طويلا ، متقدم في قول الشعر ، شعره وجداني عذب ، والبيت من قصيدة له تسمى في الجاهلية «اليتيمة» ، وهي في المفضليات (دار المعارف ص ١٩٠ — ٢٠٢) ومنها :

هَلْ سوَيْد غير لَيْثٍ خَادر ثئِدَتْ أَرْضٌ عَلَيْه فَانْتَجَع

والرواية في (اللسان) : «جَلَّل الرأس» بدلا من : لَفَّع الرأسَ . وقد استشهد به على أن السِّقاط مثل السقطة ، وأن معناه : العثْرةُ والزَّلَّة .

وغيرهم : ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بالياءِ في [يَرْحَمنا] وإسناد الفعل إلى الرب تعالى ، [ويَغْفِر] بالياء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، والشعبي ، وابن وثاب ، والجحدري ، وطلحة بن مصرف ، والأعمش ، وأيوب : [تَرْحَمْنَا رَبَّنَا] بالتاءِ في [تَرْحَمْنا] ونصب لفظة [رَبَّنا] على جهة النداءِ [وَتَغْفر] بالتاءِ من فوق ، وفي مصحف أُبي ﴿قالوا ربَّنَا لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا وَتَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

يريد : رجع من المناجاة . ويروى أنه لما قرب من محلة بني إسرائيل سمع أصواتهم فقال : هذه أصوات قوم لاهين ، فلما تحقق عكوفهم على عبادة العجل داخله الغضب والأسف وألقى الألواح ، قاله ابن إسحٰق ، وقال الطبري : أخبره الله تعالى قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل فلذلك رجع وهو غاضب ، والأسف قد يكون بمعنى الغضب الشديد ، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن ، والمعنيان مترتبان ها هنا ،

و (ما) المتصلة بـ (بئس) مصدرية ، هذا قول الكسائي ، وفيها اختلاف قد تقدم في سورة البقرة، أي : بئس خلافتكم لي من بعدي. ويقال : خَلَفه بخير أو بشر إذا فعله بمن ترك من بعده ، ويقال : عَجِل فلان الأَمر إذا سبق فيه ، فقوله [أَعَجِلْتُمْ] معناه : أسابقتم قضاء ربكم واستعجلتم إتياني قبل الوقت الذي قدر به .

وقوله تعالى : ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ﴾ الآية . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان سبب إلقائه الأَلواح غضبه على قومه في عبادتهم العجل وغضبه على أَخيه في إهمال أَمرهم . وقال قتادة – إن صح عنه – : بل كان ذلك لما رأَى فيها من فضيلة أُمة محمد صلى الله عليه وسلم فرغب أَن يكون ذلك لأُمته ، فلما علم أَنه لغيرها غضب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ رديءٌ لا ينبغي أَن يوصف موسى عليه السلام به ، والأَول هو الصحيح . وبالجملة فكان في خُلُق موسى ضيق وذلك مستقر في غير موضع ، وروي أَنها كانت لوحان وجمع إذ التثنية جَمْعٌ ، وروي أَنها كانت وِقْر سبعين بعيراً يُقرأ منها الجزءُ في سنة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف مُفْرط ، قاله الربيع بن أَنس . وقال ابن عباس : إن موسى لما أَلقاها تكسرت فرفع أَكثرها الذي فيه تفصيل كل شيءٍ ،

وبقي الذي في نسخته الهدى والرحمة ، وهو الذي أخذ بعد ذلك ، وقد تقدم القول من أي شيءٍ كانت الألواح ، وأَخذُه برأْس أخيه ولحيته من الخُلُق المذكور[١] ، هذا هو ظاهر اللفظ ، وروي أن ذلك إنما كان ليُسارّه فخشي هارون أن يتوهم الناظر إليهما أنه لغضب فلذلك نهاه ورغب إليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، والأول هو الصحيح لقوله : ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[٢]. وقوله : [ابْنَ أُمَّ] استلطاف برحم الأُم إذ هو أَلصق القرابات . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : [ابن أُمَّ] بفتح الميم ، فقال الكوفيون : أَصله : ابن أُمَّاهُ ـ فحذفت تخفيفاً ، وقال سيبويه : هما اسمان بنيا على الفتح كاسم واحد لخمسة عشرَ ونحوها . وقرأ ابن عامر ، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ وحمزة ، والكسائي : [ابنَ أُمِّ] بكسر الميم ، فكأَن الأَصل : ابنَ أُمِّي فحذفت الياءُ ، إما على حدّ حذفهم من : لَا أُبالِ ، ولا أَدرِ تخفيفاً ، وإما كأَنهم جعلوا الأَول والآخر اسماً واحداً ثم أَضافوا ، كقولك : يا أَحد عشرَ أَقبلوا . قاله سيبويه ، وهذا أَقيس من الحذف تخفيفاً ، ثم أَضافوا إلى ياءِ المتكلم ، ثم حذفت الياءُ من (أُمِّي) على لغة من يقول : يا غلامِ فيحذفها من المنادى ، ولو لم

(١) يريد بالخلق المذكور ما عرف عن موسى من سرعة الغضب .

(٢) من الآية (٩٤) من سورة (طه).

يُقَدَّر جعل الأَول والآخر اسماً واحداً لما صح حذفها ، لأَن الأُم ليست بمناداة .

و [ٱسْتَضْعَفُونِي] معناه : اعتقدوا أني ضعيف . وقوله : [كادُوا] قاربوا ولم يفعلوا ،

وقرأ جمهور الناس : ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ بضم التاءِ وكسر الميم ونصب [الأَعْدَاء] . وقرأ مجاهد – فيما حكاه أبو حاتم – : [فَلَا تَشْمَتْ بي] بفتح التاءِ من فوق والميم ورفع [الأَعداء] . حكاها أبو حاتم ، وقرأ مجاهد أيضاً – فيما حكاه أبو الفتح – : [فَلَا تَشْمَت بيَ الأَعْداءَ] بفتح التاءِ من فوق والميم ونصب [الأَعداء] هذا على أن يعدَّى شمت يشمت ، وقد روي ذلك . قال أبو الفتح : فلا تشمت بي أنت يا رب ، وجاز هذا كما قال تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾(١) ونحو ذلك . ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا نصب به [الأَعْدَاءَ] ، كأنه قال : لا تُشْمت بي الأَعداءَ كقراءَة الجماعة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي كلام أبي الفتح هذا تكلف ، وحكى المهدوي عن ابن محيصن [تَشْمِت] بفتح التاءِ وكسر الميم و [الأَعداءَ] بالنصب . والشماتة : فرحة العدو بمصاب عدوّه . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ يريد عَبَدَة العجْل .

(١) من قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة (البقرة) : ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم ويَمُدُّهُمْ في طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ
رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

استغفر موسى من فعلة أخيه ، ومن عَجَلته في إلْقاءِ الأَلْواح ، واستغفر لاخيه من فعله في الصبر لبني إسرائيل ، ويمكن أن الاستغفار كان لغير هذا مما لا نعلمه ، والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ﴾ الآية ، مخاطبة من الله تعالى لموسى عليه السلام لقوله تعالى : [سَيَنَالُهُمْ] ، ووقع ذلك النَّيْل في عهد موسى عليه السلام ، والغضب والذلة هو أمرهم بقتل أنفسهم ، هذا هو الظاهر . وقال بعض المفسرين : الذلَّة : الجزية ، ووَجْهُ هذا القول أن الغضب والذلة بقيت في عقب هؤلاءِ المقصودين بها أولاً ، وكأن المراد : سينال أعقابهم . وقال ابن جريج : الإشارة في قوله : [ٱلَّذِينَ] إلى من مات من عبدة العجل قبل التوبة بقتل النفس ، وإلى من فَرَّ فلم يكن حاضراً وقت القتل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والغضب – على هذا – والذلة هو عذاب الآخرة ، والغضب من الله عزَّ وجلَّ إنْ أُخذ بمعنى الإرادة فهو صفة ذات ، وإن أُخذ بمعنى العقوبة وإحلال النقمة فهو صفة فعل ، وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ المراد أَولاً أُولئك الذين افتروا على الله في عبادة العجل ، وتكون قوة اللفظ تعم كل مفتر إلى يوم القيامة ، وقد قال سفيان بن عُيَيْنة وأَبو قلابة وغيرهما : كل صاحب بدعة أَو فرية ذليل ، واستدلوا بالآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ﴾ الآية . تضمنت هذه الآية الوعد بأَن الله عزَّ وجلَّ يغفر للتائبين ، والإشارة إلى من تاب من بني إسرائيل ، وفي الآية ترتيب الإيمان بعد التوبة ، والمعنى في ذلك أَنه أَراد بقوله [وآمَنُوا] أَن التوبة نافعة لهم منجية فتمسكوا بها ، فهذا إيمانٌ خاص بعد الإيمان على الإطلاق ، ويحتمل أَن يريد بقوله : [وَآمَنُوا] أَي وعملوا عمل المؤمنين حتى وافوا على ذلك ، ويحتمل أَن يريد التأْكيد فذكر التوبة والإيمان إذ هما متلازمان ، إلا أَن التوبة – على هذا – تكون من كُفْر ولابد فيجيءُ [تَابُوا – وآمَنوا] بمعنى واحد ، وهذا لا يترتب في توبة المعاصي ، فإن الإيمان متقدم لتلك ولابُد ، وهو وتوبة الكفر متلازمان . وقوله : [إِنَّ رَبَّكَ] إيجاب ووعد مرجّ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويحتمل قوله : [تَابُوا – وَآمَنوا] أَن يكون لم تقصد رتبة الفعلين على عرف الواو في أَنها لا توجب رتبة ، ويكون [وآمنوا] بمعنى : وهم مؤمنون قبل وبعد . كأَنه قال : ومن صفتهم أَن آمنوا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

معنى هذه الآية أَن موسى عليه السلام لما سكن غضبه أَخذ الأَلواح التي كان ألقى ، وقد تقدم ما روي أنه رفع أَكثرها أَو ذهب في التكسر ، وقوله : [سَكَتَ] لفظة مستعارة ، شبّه خمود الغضب بانقطاع كلام المتكلم وهو سكوته ، قال يونس بن حبيب : تقول العرب : «سالَ الوادي يومين ثم سكت» ، وقال الزجاج وغيره : مصدر قولك : «سَكَتَ الْغضب» : سَكتٌ ، ومصدر قولك : «سكت الرجل» : سُكوتٌ ، وهذا يقتضي أَنه فعل على حدة وليس من سكوت الناس ، وقيل : إنَّ في المعنى قلباً والمراد : ولما سكت موسى عن الغضب ، فهو من باب : أَدخلت فمي في الحَجَر ، وأَدخلت القلنسوة في رأْسي ، وفي هذا أَيضاً استعارة ، إذ الغضب ليس بتكلم فيوصف بالسكوت ، وقرأَ معاوية بن قرّة : [وَلمَّا سَكنَ] ، وفي مصحف حفصة : [وَلمَّا سَكَتَ] ،

وفي مصحف ابن مسعود : [ولما صبر عن موسى الغضبُ] . قال النقاش : وفي مصحف أُبي : «ولما اشتق عن موسى الغضب» .

وقوله تعالى : [وفي نُسْخَتِهَا] معناه : وفيما ينسخ منها ويقرأُ ، واللام في قوله : [لِرَبِّهِم] يحتمل وجوها - مذهب المبرد أَنها تتعلق بمصدر كأَنه قال : الذين رهبتهم لربهم ، ويحتمل أَنه لما تقدم المفعول ضعف الفعل فقوي على التعدي باللام ، ويحتمل أَن يكون المعنى: هم لأَجل طاعة ربهم وخوف ربهم يرهبون العقاب والوعيد ونحو هذا .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾ الآية . معنى هذه الآية أَن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العِدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهال ودعاءٍ ليكون منه ومنهم اعتذارٌ إلى الله عزَّ وجلَّ من خطإٍ بني إسرائيل في عبادة العجل وطلبٌ لكمال العفو عمن بقي منهم . ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَن اختيارهم كان بسبب قول بني إسرائيل : إن موسى قتل هارون حين ذهب معه ولم يرجع ، فاختار هؤلاءِ ليذهبوا فيكلمهم هارون بأَنه مات بأَجله ، وقوله تعالى : [لِمِيقَاتِنَا] يؤيد القول الأَول وينافر هذا القول ، لأَنها تقتضي أَن ذلك كان عن توقيت من الله عزَّ وجلَّ وعدة في الوقت والموضع ، وتقدير الكلام : «واختار موسى من قومه» ، فلما انحذف الخافض تعدى الفعل فنصب ، وهذا كثير في كلام العرب [(١)] .

---

(١) ومنه ما أنشده سيبويه من قول الفرزدق :

منَّا الذي اختيرَ الرِّجَالَ سَمَاحَةً وبِراً إذا هبَّ الرياحُ الزَّعَازعُ =

واختلف العلماءُ في سبب الرجفة التي حلَّت بهم – فقيل : كانت عقوبة لهم على سكوتهم وإغضائهم على عبادة العجل . وقيل : كانت على عبادتهم العجل بأَنفسهم وخفي ذلك عن موسى في وقت الاختيار حتى أعلمه الله ، قاله السدي . وقيل : كانت عقوبة لهم لأَنهم لما دنوا وعلموا أَن موسى يسمع كلام الله قالوا له : «أَرنا ربَّك» فأَخذتهم الرجفة . وقيل : كانت عقوبة لتشططهم في الدعاءِ بأَن قالوا : اللَّهم أَعطنا ما لم تعطه أَحداً قبلنا ولا تعطيه أَحداً بعدنا ، فأَخذتهم الرجفة ، وقيل : إنما أَخذتهم لما سمعوا كلام هارون وهو ميت ، وذلك أَن موسى وهارون ذهبا إلى التعبد أَو نحوه فمات هارون فدفنه موسى وجاءَ ، فقالت بنو إسرائيل : أَين هارون ؟ فقال : مات . فقالوا : بل أَنت قتلته لأَنك حسدتنا على حسن خلقه وعشرته ، فاختار السبعين ليمضوا معه حتى يروا برهان ما قال لهم ، فلما وصلوا قال له موسى : يا هارون أَقُتِلْت أَم مت ؟ فناداه من القبر : بل متُّ – فأَخذت القوم الرجفة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وروي أَنهم ماتوا في رجفتهم هذه ، ويحتمل أَن كانت كالإِغماءِ ونحوه . والرجفة : الاهتزاز والتقلقل للهول العظيم ، فلما رأَى موسى ذلك أَسف عليهم ، وعلم أَن أَمر بني إسرائيل سيتشعب عليه إذا لم يأْت

= وقول الراعي يمدح رجلا :

اخْتَرْتُكَ النَّاسَ إذْ رَثَّتْ خَلائقُهُم واختَلَّ مَنْ كانَ يُرْجَى عنده السُّولُ

والتقدير في البيت الأول : اختير من الرجال – وفي البيت الثاني : اخترتك من الناس . ومعنى (اختلّ) فيه : افتقر . والسُّولُ : هي السُّؤْل .

بالقوم ، فجعل يستعطف ربه ، أي ربِّ لو أهلكتهم قبل هذه الحال وإيايَ لكان أحق علي . وهذا وقتٌ هلاكُهم فيه مُفْسد عليّ مؤذٍ لي . ثم استفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل . ويحتمل قوله : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وإِيَّايَ ﴾ أن يريد وقت إغضائهم على عبادة العجل ، أي وقت عبادتهم – على القول بذلك – ، وفي نفسه هو وقت قتله القبطي . أي : فأنت قد سترت وعفوت حينئذ ، فكيف الآن إذ رجوعي دونهم فسادٌ لبني إسرائيل ، فمنحي الكلام – على هذا – محض استعطاف ، وعلى التأويل الأول منحاه الإدلاءُ بالحجة في صيغة استعطاف ، وإذا قلنا : إن سبب الرجفة كان عبادة العجل كان الضمير في قوله : [أَتُهْلِكُنَا] له وللسبعين ، و [السُّفَهَاءُ] إشارةٌ إلى العبدة من بني إسرائيل ، وكذلك إذا كان سببها قول بني إسرائيل له : قتلتَ هارون . وإذا كان سببَ الرجفة طلبُهم الرؤْية وتشطُّطهم في الدعاءِ أو عبادتُهم بأنفسهم العجلَ فالضمير في قوله : [أَتُهْلِكُنَا] يريد به نفسه وبني إسرائيل ، أي : بالتفرق والكفر والعصيان يكون هلاكهم ، ويكون قوله : [السُّفهاءُ] إشارة إلى السبعين ، ورُوي أن السبعين لم يكن فيهم من زاد على الأربعين ولا من قصر عن العشرين ، ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم أُحيوا وجُعلوا أنبياءَ كلهم .

وقالت فرقة : إن موسى عليه السلام لما أعلمه الله عزَّ وجلَّ أن السبعين عبدوا العجل تعجَّب وقال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضلُّ بِهَا

مَنْ تَشَاءُ ﴾ أي : الأُمور بيدك تفعل ما تريد ، وقيل : إن الله تعالى لما أَعلم موسى بعبادة بني إسرائيل العجل وبصفته قال موسى : أَي ربّ ومن أَخاره ؟ قال : أنا ، قال موسى : فأَنت أَضللتهم ، إن هي إلا فتنتك ، ويحتمل أَن يشير بـ [هِيَ] إلى قولهم : [أَرِنَا الله] إذ كانت فتنة من الله أَوجبت الرجفة ، وفي هذه الآية ردٌّ على المعتزلة (١) ، واغْفر معناه : استر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

[اكْتُبْ] معناه : أَثبت واقض ، والكتب مستعمل فيما يخلد . و [حَسَنَة] لفظ عام في كل ما يحسن في الدنيا من عافية وغنى وطاعة الله تبارك وتعالى وغير ذلك ، وحسنة الآخرة الجنة لا حسنة دونها ولا مرمى وراءها ، و [هُدْنا] بضم الهاءِ معناه : تُبْنَا ، وقرأَ أَبو وَجْزَة (٢)

(١) في أنهم ينفون الإضلال عن الله تعالى ، وقد ذهب الزمخشري إلى أن الله امتحنهم وابتلاهم فافْتَتَنُوا وضلوا هم ،وقد جُعل ذلك إضلالا من الله وهدى منه لأن محنته كانت سبباً في ضلالهم وهدايتهم ، فكأنه أضله وهداهم بها على الاتساع في الكلام . لكن الآية واضحة في نسبة الإضلال لله كنسبة الهداية إليه سبحانه .

(٢) هو يزيد بن عبيد السعدي ، أبو وجْزَة ، شاعر محدّث مقرئ ، من التابعين ، أصله من بني سليم ، نشأ في بني سعد بن بكر فنسب إليهم ، وسكن المدينة وانقطع إلى آل الزبير ، ومات بالمدينة سنة ١٣٠ هـ (غاية النهاية والقاموس) .

[هِدْنَا] بكسر الهاءِ ، ومعناه : حركنا أنفسنا وجذبناها لطاعتك ، وهو مأْخوذ من هاد يهيد إذا حرَّك .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ الآية . قال الله عزَّ وجلَّ : إن الرجفة الّتي أُنزلت بالقوم هي عذابي أُصيب به من شئت ، ثم أَخبر عن رحمته ، ويحتمل – وهو الأَظهر – أن الكلام قُصد به[1] الخبر عن عذابه وعن رحمته من أَول ما ابتدأَ ، ويندرج أَمر أَصحاب الرجفة في عموم قوله : ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ . وقرأَ الحسن ، وطاوس ، وعمرو بن فائد : [مَنْ أَسَاءَ] من الإساءة ، أَي من عمل غير صالح . وللمعتزلة بهذه القراءة تعلق من وجهين : أَحدهما إنفاذ الوعيد ، والآخر خلْق المرءِ أَفعاله ، وإن [أَساءَ] لا فعل لله فيه ، وهذان التعلقان فيهما احتمال ينفصل عنه كما ينفصل عن سائر الظواهر ، إلا أَن القرأَة أَطنبوا في التحفظ من هذه القراءة ، وقال أَبو عمرو الداني : لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاوس ، وعمرُو بن فائد رجلُ سوءٍ ، وذكر أَبو حاتم أَن سفيان بن عُيَيْنة قرأَها مرة واستحسنها فقام إليه عبد الرحمن المقري وصاح به وأَسمعه ، فقال سفيان : لم أَدر ولم أَفطن لما يقول أَهل البدع . وهذا إفراط من المقربين ، وحملهم على ذلك شحهم على الدين وظنهم أَن الانفصال عن تعلق المعتزلة متعذر .

(١) سقطت لفظة (به) في بعض النسخ .

ثـم وصف الله تبارك وتعالى رحمته بـأَنها وسعت كل شيءٍ ، فقال بعض العلماءِ : هو عموم في الرحمة وخصوص في قوله : ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ، والمراد مَن قد سبق في علم الله أَن يرحمه دون من سواهم . وقال بعضهم : هو عموم في رحمة الدنيا لأَن الكافر والمؤمن والحيوان كاله متقلب في رحمة الله الدنياوية . وقالت فرقة : قوله تعالى : [وَرَحْمَتِي] يراد به التوبة ، وهي خاصة ــ على هذا ــ في الرحمة وفي الأَشياء لأَن المراد مَنْ قد تقع منه التوبة . وقال نوف البِكَالي[1] : إنَّ إبليس لما سمع قول الله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ طمع في رحمة الله ، فلما سمع ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ﴾ يئس إبليس وبقيت اليهود والنصارى ، فلما تمادت الصفة تبيَّن أَن المراد أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ويئس اليهود والنصارى من الآية ، وقال نحوه قتادة .

وقوله تعالى : [فَسَأَكْتُبُهَا] أَي أُقدرها وأَقضيها ، وقال نوف البِكَالي : إن موسى عليه السلام قال : يا رب جعلت وفادتي لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال نوف البِكَالي : فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم ، وقوله : [يَتَّقُونَ] في هذه الآية ــ قالت فرقة معناه : يتقون الشِّرك ، وقالت فرقة : يتقون المعاصي .

(١) هو نوف بن فضالة الحميري البكالي ، إمام أهل دمشق في عصره ، من رجال الحديث ، ورد ذكره في الصحيحين ، وكان راوياً للقصص ، وهو ابن زوجة كعب الأحبار ، ذكره البخاري في فصل مَن مات ما بين التسعين إلى المائة . (تهذيب التهذيب ــ الأعلام) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن قال : «الشِّرك لا غير» خرج إلى قول المرجئة ، ويَردُ عليه من الآية شرط الأَعمال بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ﴾ ، ومن قال : «المعاصي ولا بُدّ» خرج إلى قول المعتزلة ، والصواب أَن تكون اللفظة عامة ولكن ليس بأَن نقول : «ولا بُدّ من اتقاءِ المعاصي» ، بل أَن نقول : «مع أَن مواقع المعاصي في مشيئة الله تعالى» ، ومعنى [يَتَّقُونَ] : يجعلون بينهم وبين المتَّقَي وقاية وحجاباً ، فذكر الله تعالى الرتبة العالية ليتسابق السامعون إليها .

وقوله تعالى : ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ﴾ الظاهر من قوله [يُؤْتُونَ] أنها الزكاة المختصة بالمال ، وخصها هنا بالذكر تشريفاً لها ، وجعلها مثالاً لجميع الطاعات ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه : وَيُؤْتون الأَعمال التي يزكُّون بها أَنفسهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

هذه الأَلفاظ أَخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذي يظهر في قوله : ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ، وخلَّصت هذه العِدَةَ لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم . قاله ابن عباس ، وابن جبير ، وغيرهما .

و [يَتَّبِعُونَ] معناه : في شرعه ودينه ، و [ٱلرَّسُولَ] و [النَّبِي] اسمان لمعنَيَيْن ، فإنَّ الرسول أَخص من النبي ، هذا في الآدميين لاشتراك المَلَك في لفظة الرسول . والنبي مأْخوذ من النبأ ، وقيل : لما كان طريقاً إلى رحمة الله تبارك وتعالى وسبباً شبّه بالنبي الذي هو الطريق ، وأنشدوا :

لأَصْبَحَ رَتْماً دُقَاقَ الْحَصى مَكَانَ النَّبِيِّ مِنَ الكَاثِبِ (١)

وأَصله الهمز ولكن خفف ، كذا قاله سيبويه ، وذلك كتخفيفهم خابية وهي من خبأ ، واستعمل تخفيفه حتى قد روي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تنبروا اسمي)(٢) . وقدم الرسول اهتماماً

---

(١) البيت لأوس بن حَجَر يرثي فُضالة بنَ كَلَدَةَ الأسديّ ، وقبله يقول :

على السَّيِّد الصَّعْبِ لَوْ أنَّهُ يَقومُ على ذِرْوَةِ الصَّاقِبِ

وأوس من فحول الجاهلية ، ومن الذين يأخذون شعرهم بالإصلاح ، وقد انقطع إلى فضالة هذا يمدحه . ورَتْماً يعْني مرتُوماً، من رتم الشيء كَسَرَهُ . ودُقاق بضم الدال : فتات كل شيء ، والنَّبيْ : المكان المرتفع ، والكاثب : الرمل المجتمع ، وقيل: النبي : ما نَبا من الحجارة إذا نجلتها الحوافر ، ويقال : الكاثب : جَبَل وحوله رواب يقال لها : النبيّ ، يقول أوس : لو قام فضاله على الصاقب (وهو جبل) لذلّله ولتسهّل له حتى يصير كالرمل الذى في الكاثب . قال ابن بري : الصحيح في النبي ها هنا أنه اسم رمل معروف ، والكاثب اسم قُنّة في الصاقب . (عن اللسان) .

(٢) الرواية في (النهاية) وكذلك في (اللسان) أن رجلا قال له : يا نبيء الله ، فقال : (لا تنبر باسمي، إنما أنا نبي الله). وقد سبق لابن عطية رحمه الله أن نقل عن أبي علي تضعيف سند هذا الحديث ، واستدل على ذلك بأن المادح — وهو العباس بن مرداس — قد مدحه بقوله :

يا خاتِمَ النُّبَآءِ إنَّكَ مُرْسَلٌ بالحقِّ ، كلُّ هُدَى الإلهِ هُدَاكا

ولم يؤْثر في ذلك إنكار ، وأن الجمع كالواحد — (راجع ج ١ ص ٣٢١ ، ٣٢٢) .

بمعنى الرسالة عند المخاطبين بالقرآن ، وإلا فمعنى النبوة هو المتقدم ، وكذلك ردَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على البراءِ بن عازب حين قال : «آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبرسولك الذي أرسلت» ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَبنبيِّك الذي أرسلت)(١) ليترتب الكلام كما ترتب الأمر في نفسه ، لأنه نُبِّئَ ثم أُرسل ، وأيضاً ففي العبارة المردودة تكرار الرسالة وهو معنى واحد .

و [الأُمِّيّ] بضم الهمزة . قيل : نُسب إلى أُم القرى وهي مكة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واللفظة – على هذا – مختصة بالنبي صلى الله عليه وسلم وغير مضمنة معنى عدم الكتابة . وقيل : هو منسوب – لعدم الكتابة والحساب – إلى الأُم ، أي : هو على حال الصدور عن الأُم في عدم الكتابة . وقالت فرقة : هو منسوب إلى الأُمة ، وهذا أيضاً مضمن عدم الكتابة لأن الأُمة بجُملتها غير كاتبة حتى تحدث فيها الكتابة كسائر الصنائع . وقرأ بعض القراءِ فيما ذكر أبو حاتم : [الأَمّيّ] بفتح الهمزة ، وهو منسوب إلى الأَمّ وهو القصد ، أي لأن هذا النبي مقصد للناس وموضع

(١) هذا الحديث رواه البخاري في (الوضوء) و (الدعوات) ، ورواه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجة . والدارمي ، والإمام أحمد . وهو حديث طويل يعلّم النبي صلى الله عليه وسلم فيه البراء دعوات يقولها إذا أتى مضجعه – وفي آخر الحديث : (فرددتُها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغت : اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت قلت : ورسولك ، قال : لا ، ونبيك الذي أرسلت) (البخاري ١–٦٧ ط دار الفكر) .

أَمٍّ يؤُمّونه بأَفعالهم وتشرعهم ، قال ابن جني : وتحتمل هذه القراءة أَن يريد الأُمّيّ فغيّر تغيير النسب .[١]

والضمير في قوله : [يَجدونَهُ] لبني إسرائيل ، والهاءُ منه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد صفته ونعته . ورُوي أَن الله عزَّ وجلَّ قال لموسى : قل لبني إسرائيل : أَجعل لكم الأَرض مسجداً وطهوراً ، وأَجعل السكينة معكم في بيوتكم ، وأَجعلكم تقرؤُون التوراة عن ظهر قلوبكم . فأَخبر موسى بني إسرائيل فقالوا : إنما نريد أَن نصلي في الكنائس ، وأَن تكون السكينة كما كانت في التابوت ، وأَن لا نقرأَ التوراة إلا نظراً ، فقيل لهم : فنكتبها للذين يتقون يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في البخاري وغيره أَن في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم : (يأَيُّها النَّبي ، إنا أَرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأُميين ، أَنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأَسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن أَقبضه حتى أُقيم به الملة العوجاء بأَن يقولوا لا إلٰه إلا الله ، فنقيم به قلوباً غُلفا ، وآذاناً صما ، وأَعيناً عميا) . وفي البخاري : (فنفتح به عيوناً عميا ، وآذاناً صما ، وقلوباً غلفا)[٢].

---

(١) وذلك كما قيل في النسب إلى أُمَيَّة : أَمويٌّ بالفتح . فهذا يسمونه تَغْيير النَّسَب .

(٢) أخرجه ابن سعد ، والبخاري ، وابن جرير ، والبيهقي في الدلائل — عن عطاء بن يسار . قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن — يأيُّها النبي ... الخ الحديث . (الدر المنثور) .

ونص كعب الأَحبار نحو هذه الأَلفاظ إلا أَنه قال : (قلوباً غلفا ، وآذاناً صموما) قال الطبري : وهي لغة حميرية ، وقد رويت (غلوفيا وصموميا) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَظن هذا وهماً وعجمة .

وقوله تعالى : ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يحتمل أَن يريد ابتداءً وصف الله تبارك وتعالى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أَن نجعله متعلقاً بـ [يَجِدُونَهُ] في موضع الحال على تجوّز ، أَي : يجدونه في التوراة آمراً بشرط وجوده ، فالمعنى الأَول لا يقتضي أَنهم علموا من التوراة أَنه يأْمرهم وينهاهم ويُحل ويُحرم ، والمعنى الثاني يقتضي ذلك ، فالمعنى الثاني – على هذا – ذمٌّ لهم ، ونحا إلى هذا أَبو إسحق الزجاج . وقال أَبو علي الفارسي في «الأغفال» : [يَأْمُرُهُم] عندي تفسير لما كتب من ذكره ، كما أَن قوله تعالى : ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ تفسير للمثل[1] . ولا يجوز أَن يكون حالاً من الضمير في [يَجِدُونَهُ] لأَن الضمير للذكر والاسم ، والذكر والاسم لا يأْمران .

---

(١) وهذا في الآية (٥٩) من سورة (آل عمران) . ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ . فقوله سبحانه : ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ تفسير لِلمثل في رأي أبي عليّ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما قدمته من التجوّز وشرط الوجود يقرب مما منع منه أبو علي ، وانظر . و [بِالْمَعْرُوفِ] ما عرف بالشرع ، وكل معروف من جهة المروءة فهو معروف بالشرع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : (بعثت لأُتَمِّمَ محاسن الأَخلاق)[١] ، و [الْمُنْكَر] مقابله .

و [الطَّيِّبَات] قال فيها بعض المفسرين : إنها إشارة إلى البَحيرة ونحوها ، ومذهب مالك رحمه الله أنها المحلَّلات ، فكأنه وصفها بالطيب إذ هي لفظة تقتضي مدحاً وتشريفاً ، وبحسب هذا يقول في [ٱلْخَبَائِث] إنها المحرَّمات . وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : الخبائث : هي لحم الخنزير والربا وغيره ، وعلى هذا حلَّل مالك المتقذرات كالحيَّات والخنافس والعقارب ونحوها ، ومذهب الشافعي رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطعم إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير ، بل يراها مختصة فيما حلَّله الشرع ، ويرى الخبائث لفظاً عاماً في المحرمات بالشرع وفي المتقذرات فيحرم العقارب والخنافس

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطّأ ، ولفظه : (بُعثت لأتمِّم حُسْنَ الأَخْلاق) — وقد قال في شرح الزرقاني إن الحديث مروي برجال الصحيح عن محمد بن عجلان عن القعقاع ابن حكيم عن أبي صالح ، عن أبي هريرة . رواه أحمد وقاسم بن أصبغ ، والحاكم وغيرهم . والرواية المشهورة : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

والوزغ وما جرى هذا المجرى ، والناس على هذين القولين إلا أن في تعيين الخبائث اختلافاً ليس هذا موضع تقصيه .

وقوله تعالى : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُم إِصْرَهُمْ﴾ الآية . [يَضَع] كان قياسه أَن يكون (يضِع) بكسر الضاد لكن ردّه حرف الحلق إلى فتح الضاد ، قال أَبو حاتم: وأَدغم أَبو عمرو [يَضَع عَنْهُمْ] العين في العين . وأَشمها الرفع وأَشبعها أَبو جعفر وشيبة ونافع ، وقرأَ طلحة : «ويُذْهِبُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ» . والإِصْر : الثقل ، وبه فسّر - هنا - قتادة ، وابن جبير ، ومجاهد . والإِصْر أَيضاً : العهد ، وبه فسّر ابن عباس ، والضحاك ، والحسن ، وغيرهم . وقد جمعت هذه الآية المعنيين ، فإن بني إسرائيل قد كان أُخذ عليهم عهد أَن يقوموا بأَعمال ثقال فوضع عنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك العهد وثِقَل تلك الأَعمال . وحكى أَبو حاتم عن ابن جبير قال : الإِصر : شدة العبادة . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، والناس : [إِصْرَهُمْ] ، وقرأَ ابن عامر وحده ، وأَيوب السختياني ، ويعلى بن حكيم ، وأَبو سراج الهذلي ، وأَبو جعفر : [آصارَهم] بالجمع ، لما كانت الأَعمال كثيرة كانت أَثقالها متغايرة ، ومن وحّد الإِصْر فهو مفرد اسم جنس يرادُ به الجمع ، قال أَبو حاتم : في كتاب بعض العلماء : «أَصرهم» واحد مفتوح الهمزة عن نافع ، وعيسى ، والزيات ، وذلك غلط . وذكرها مكيٌّ عن أَبي بكر عن عاصم وقال : هي لغة .

﴿وَالأَغْلالَ التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ عبارة مستعارة أيضاً لتلك الأثقال ، كقطع الجلد من أثر البول ، وأن لا ديَة ، ولابُدَّ من قتل القاتل ، وترك الأشغال يوم السبت ، فإنه رُوي أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه ، هذا قول جمهور المفسِّرين، وهذا مثل قولك : « طُوِّق فلانٌ كذا » إذا أُلزمه ، ومنه قول الشاعر :

اذهَبْ بها اذهَبْ بِهـــا طُوِّقْتَها طَوْقَ الْحَمَامَهْ (١)

أي : لزمك عارها .

ومن هذا المعنى قول الهذلي :

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يا أُمَّ مَالِكٍ ولكِنْ أَحَاطَتْ بالرِّقَابِ السَّلاسِلُ
وعَادَ الفَتى كالكَهْلِ ليْسَ بِقَائِلٍ سِوى الحقِّ شيئاً فاستَراح العَوَاذِلُ(٢)

يريد أوامر الإسلام ولوازم الإيمان الذي قيّد الفتك كما قال صلى الله عليه وسلم(٣) . وقال ابن زيد : إنما المراد هنا بالأغلال قول الله عزَّ وجلَّ

---

(١) قاله أبو أحمد بن جحش لأبي سفيان . قال ذلك القرطبي في تفسيره .

(٢) شبَّه الشاعر حدود الإسلام وموانعه عن التخطي إلى المحظورات بالسلاسل التي أحاطت بالأعناق ، وهو يقول لصاحبته : لم يعد الأمر كعهدنا في الماضي ، لقد أحاطت بنا القيود والموانع وصرنا جميعاً مطالبين بالعدل والحق ، ويروى البيت الثاني : « سوى العدل » بدلا من « سوى الحق » .

(٣) نص الحديث كما رواه في الجامع الصغير : (الإيمان قيْدُ الفَتْك ، لا يفتك مؤمن) ، وقال : أخرجه البخاري في التاريخ ، وأبو داود في سننه ، والحاكم في مستدركه — عن أبي هريرة — والفَتْك : ركوب ما تدعو إليه النفس دون مبالاة — كالغدر والاغتيال — والقتل مجاهرة — والمبالغة في الخبث — والسلوك الماجن — وكل هذه المعاني محرمة بالإيمان . فالإيمان قيد للمؤمن يمنعه منها .

في اليهود ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾[(١)]، فمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم زالت عنه الدعوة وتغليلها .

ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين فقال : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ﴾، وقرأ الجحدري ، وسليمان التيمي ، وقتادة ، وعيسى : [عَزَرُوه] بالتخفيف ، وجمهور الناس على التشديد في الزاي ، ومعناه في القراءتين : وقّروه . والتعزير والنصر مشاهدة خاصة للصحابة ، واتباع النور يشترك فيه معهم المؤمنون إلى يوم القيامة . والنور كناية عن جملة الشرع . وقوله : [مَعَهُ] فيه حذف مضاف والتقدير : مع بعثه أو نبوته أو نحو هذا ، وشبّه الشرع والهدى بالنور إذ القلوب تستضيءُ به كما يستضيءُ البصر بالنور . و [الْمُفْلِحُونَ] معناه : الفائزون ببغيتهم ، وهذا يعم معاني الفلاح فإن من بقي فقد فاز ببغيته .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

هذا أمر من الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه بإشهار الدعوة والحضّ على الدخول في الشرع ، وذلك أنه لما رَجّى الأُمة المتبعة للنبي الأُمي التي كتب

(١) من الآية (٦٤) من سورة (المائدة) .

لها رحمته عقَّب ذلك بدعاءِ الناس إلى الاتباع الذي تحصل معه تلك المنازل . وهذه الآية خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم بيْن الرسل ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الناس كافة وإلى الجن ، قاله الحسن ، وتقتضيه الأَحاديث ، وكل نبي إنما بعث إلى فرقة دون العموم ، ثم إنه لما أَعلن بالرسالة من عند الله تبارك وتعالى أَردف بصفة الله التي تقتضي الإذعان له وهي أَنه مالك السموات والأَرض بالخلق والإبداع والإحياءِ والإماتة ، لا إِلٰه إلا هو ولا معبود سواه .

وقوله تعالى : ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية . هو للحض على اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ٱلَّذِي يُؤْمِنُ﴾ يريد : الذي يصدق ﴿بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ ، والكلمات هنا الآيات المنزلة من عنده كالتوراة والإنجيل.

وقرأَ جمهور الناس : [كَلِمَاتِهِ] بالجمع ، وقرأَ عيسى بن عمر : [كَلِمَتِهِ] بالإفراد الذي يراد به الجمع ، وقرأَ الأَعمش : ﴿ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وآيَاتِهِ﴾ بدل [كَلِمَاتِهِ] ، وقال مجاهد ، والسدي : المراد بـ [كلماته] أَو [كَلمته] عيسى بن مريم .

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أَي على طمعكم وبحسب ما ترونه ، وقوله : [وَاتَّبِعُوهُ] لفظ عام يدخل تحته جميع إلزامات الشريعة ، جعلنا الله من متَّبعيه على ما يلزم بمنِّه ورحمته .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ الآية . [يَهْدُونَ] معناه : يرشدون أَنفسهم ، وهذا الكلام يحتمل أَن يريد به وصف المؤمنين المتقين

من بني إسرائيل على عهد موسى وما والاه من الزمن ، فأخبر أنه كان في بني إسرائيل على عُتُوّهم وخلافهم من اهتدى واتقى وعدل ، ويحتمل أن يريد الجماعة التي آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم ، ويحتمل ما رُوي من أن بني إسرائيل لما تقطعوا مرّت أُمة منهم واعتزلت ودخلت تحت الأرض فمشت في سرب تحت الأرض سنة ونصف سنة حتى خرجوا وراءَ الصين ، فهم هنالك خلف واد من شهد يقيمون الشرع ويهدون بالحق ، قاله السدي وابن جريج ، ورُوي بعضه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا حديث بعيد ، وقرأ بعض من الناس : [وَقَطَّعْنَاهُمُ] بشد الطاءِ ، وقرأ أبو حيوة ، وابن أبي عبلة : [وَقَطَعْنَاهُمُ] بتخفيف الطاءِ ، ورواها أبان عن عاصم ، ومعناه : فرّقناهم ، من القطع ، وقرأ جمهور الناس [عَشْرَةَ] بسكون الشين ، وهي لغة الحجاز ، وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش ، وطلحة بن سليمان بخلاف : [عَشَرَة] بفتح الشين ، وقرأت هذه الجماعة أيضاً ، وطلحة بن مصرف ، وأبو حيوة : [عَشِرَة] بكسر الشين ، وهي لغة تميم . وقال أبو حاتم : والعجب أن تميماً يخففون ما كان من هذا الوزن ، وأن أهل الحجاز يشبعون ، وتناقضوا في هذا الحرف . وقوله : [أَسْبَاطاً] بدل من [اثْنَتَيْ] ، والتمييز الذي بيّن العدد محذوف مقدر : اثنتي عشرة

فرقة أو قطعة أسباطاً ، وإمَّا أَن يزول عن التمييز ويقدر : وقطعناهم فرقا اثنتي عشرة ، ثم أبدل [أَسْبَاطاً] ، والأَول أَحسن وأَبين . ولا يجوز أَن يكون [أَسْباطاً] تمييزًا لأَن التمييز لا يكون إلا مفرداً نكرة ، وأَيضاً فالسِّبْط مذكر وهو قد عُدَّ مُؤَنَّثاً ، على أَن هذه العلة لو انفردت لمنعت إذ السبط بمعنى الأُمة ، قال الطبري : وقال بعض الكوفيين : لما كان السِّبط بمعنى الأُمة غلب التأْنيث ، وهو مثل قول الشاعر :

فَإِنَّ كِـلاباً هـــذِهِ عَشْرُ أَبْطُنٍ وَأَنْتَ بَرِيءٌ من قَبَائِلِهَا العَشْرُ (١)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَغفل هذا الكوفي جمع الأَسباط وأَن ما ذهب إليه إنما كان يجوز لو كان الكلام : «اثنتي عشرة سبطا» ، والسبط في ولد إسحق كالقبيلة في ولد إسماعيل ، وقد قال الزجاج وغيره : إن السِّبط من السَّبَط وهو شجر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وإنما الأَظهر فيه أَنه عبراني عرّب .

---

(١) قال العيني في شرح شواهد شروح الألفية : «قائله رجل من بني كلاب يسمى النواح ، والشاهد في قوله : «عشْر أَبطن» ، وكان القياس : «عشْرة أَبطن» لأن البطن مذكَّر ، لكنه كنّى عن الأبطن بالقبائل بدليل قوله : «من قبائلها العشر» . وقال في (اللسان) : «البطن دون القبيلة ، وقيل : دون الفخذ وفوق العمارة . مذكّر ، والجمع : أبطن وبطون ، فأما قوله : وإن كلابا ... الخ فإنه أنث على معنى القبيلة ، وأبان ذلك بقوله : من قبائلها العشر» . وفي خاتمة المصباح : «البطن مذكر ولا يؤنث» . وأشار في نهاية الأرب (٢-٣٣٨) إلى البيت ، وهم (يعني العشرة أبطن) : جعفر ، وأبو بكر واسمه عبيد ، ومعاوية وهو الضباب بن كلاب ، وعامر ، وربيعة ، والأضبط ، وعمرو ، وعبد الله ، ورُؤَاس ، وقيل (رَوَاس) ، وكعب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

قد تقدم في سورة البقرة أمر الْحَجَرِ والاستسقاءِ ، وأين كان ، وأمر التظليل وإنزال المنّ والسلوى ، وذكرنا ذلك بما يغني عن إعادته هنا .

و [انْبَجَسَتْ] معناه : انفجرت إلا أن الانْبِجَاس أَخف من الانفجار ، وقرأَ الأَعمش ، وعيسى الهمداني : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْتُكُمْ ﴾ بتوحيد الضمير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

المعنى : واذكر إذ قيل لهم ، والمراد مَن سلف من بني إسرائيل ، وذلك أنهم لما خرجوا من التِّيه قيل لهم : اسكنوا هذه القرية ، والقرية

في كلام العرب : المدينة مجتمع المنازل ، والإشارة هنا إلى بيت المقدس. قاله الطبري ، وقيل : إلى أَريحا . و ﴿حَيْثُ شِئْتُم﴾ أَي : هي ونعمها لكم مباحة .

وقرأَ السبعة ، والحسن ، وأَبو رجاءٍ ، ومجاهد ، وغيرهم : [حِطَّةٌ] بالرفع ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : [حِطَّةً] بالنصب . الرفع على خبر ابتداءٍ تقديره : طلبُنا حطةٌ ، والنصب على المصدر ؛ أَي حط ذنوبنا حطةً ، وهذا على أَن يكلفوا قول لفظة معناها : حطة . وقد قال قوم : كلفوا قولا حسناً مضمنه الإِيمان وشكر الله ليكون حطة لذنوبهم ، فالكلام ــ على هذا ــ كقولك : قل خيراً . وتوفية هذا مذكور في سورة البقرة .

وقرأَ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [نَغْفِرْ] بالنون ﴿لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ بالتاءِ مهموزاً على الجمع . وقرأَ أَبو عمرو : [نَغْفِر] بالنون ﴿لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ ونحو «قضاياكم » ، وهي قراءة الحسن والأَعمش . وقرأَ نافع : [تُغْفَر] بتاءٍ مضمومة ﴿لَكُمْ خَطِيئَاتُكُمْ﴾ بالهمز وضم التاءِ على الجمع ، ورواها محبوب عن أَبي عمرو . وقرأَ ابن عامر : [تُغْفَر] بتاءٍ مضمومة ﴿لَكُمْ خَطِيئَتُكُمْ﴾ واحدة مهموزة مرفوعة ، قال أَبو حاتم : وقرأَها الأَعرج وفرقة [تَغْفِر] بالتاءِ وفتحها على معنى أَن الحطة تَغفر إذ هي سبب الغفران .

و [بَدَّلَ] معناه : غيّر اللفظ دون أن يذهب بجميعه ، وأبدل : إذا ذهب به وجاءَ بلفظ آخر (١) ، والإشارة بالقول إلى قول بني إسرائيل : «حبة في شعرة أو حنطة في شعيرة» . والرجز الذي أُرسل عليهم : طاعون ، يقال : مات منه في يوم سبعون ألفاً . وتقدم أيضاً استيعاب تفسير هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿وَٱسْأَلْهُمْ عَنْ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ الآية . قال بعض المتأولين : إن اليهود المعارضين لمحمد صلى الله عليه وسلم قالوا : إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عصيان ولا معاندة لما أُمروا به ، فنزلت هذه الآية موبخة لهم ومُقَرِّرة ما كان من فعل أهل هذه القرية ، فسؤالهم إنما كان على جهة التوبيخ ، والقرية هنا : مَدْيَن ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل : أيلة ، قاله ابن عباس ، وعبد الله بن كثير ، وعكرمة ، والسدي ، والثوري . وقال قتادة : هي «مقْنا» بالقاف ساكنة ، وقال ابن زيد : هي مقْناة ساحل مدين ، ويقال فيها مغَنّى . «بالغين مفتوحة ونون مشددة» . وقيل : هي طبرية ،

(١) قال في «البحر المحيط» : وهذه التفرقة ليست بشيء ، وقد جاء في القراءات بدّل وأبْدل بمعنى واحد ، قُرئ : ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً﴾ ، و ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ﴾ ، و ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا﴾ بالتخفيف والتشديد ، والمعنى واحد وهو إذهاب الشيء والإتيان بغيره بدلاً منه ، والتشديد قد جاء حيث يذهب الشيءُ كله نحو ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ﴾ .

قاله الزهري ، و [حاضِرَةَ] يحتمل أن يريد معنى الحضور ، أي : البحر فيها حاضر ، ويحتمل أن يريد معنى الحضارة على جهة التعظيم لها ، أي : هي الحاضرة في مدن البحر .

و [إِذْ يَعْدُونَ] معناه : يخالفون الشرع ، من عدا يعدو . وقرأ شهر بن حوشب ، وأبو نهيك : [يَعَدُّون] ، قال أبو الفتح : أراد (يعتدون) فأسكن التاءَ ليدغمها في الدال ، ونقل فتحتها إلى العين فصار [يَعَدُّون] بفتح العيْن وشد الدال المضمومة . والاعتداءُ منهم في السبت هو نفس العمل والاشتغال كان صيداً أو غيره إلا أنه كان في هذه النازلة بالصيد ، وكان الله عزَّ وجلَّ ابتلاهم في أمر الحوت بأن يغيب عنهم سائر الجمعة فإذا كان يوم السبت جاءهم في الماءِ شارعاً ، أي مُقبلا إليهم مصطفاً ، كما تقول : أُشرعت الرماح إذا مُدت مصطفة ، وهذا يمكن أن يقع من الحوت بإرسال من الله كإرسال السحاب ، أو بوحي وإلهام كالوحي إلى النحل ، أو بإشعار في ذلك اليوم على نحو ما يشعر الله الدواب يوم الجمعة بأمر الساعة حسبما يقتضيه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة حتى تطلع الشمس فرقاً من الساعة)(١) ، ويحتمل أن يكون ذلك من الحوت شعوراً بالسلامة في ذلك اليوم على نحو شعور حمام الحرم بالسلامة . قال رواة هذا القصص : فيقرب الحوت

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ ، ورواه أيضاً النسائي . (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث) .

ويكثر حتى يمكن أخذه باليد ، فإذا كان ليلة الأَحد غاب بجملته ، وقيل : غابت كثرته ولم يبق منه إلا القليل الذي يتعب صيده ، قال قتادة : فَفتنهم ذلك وأَضرَّ بهم فتطرقوا إلى المعصية بأَن حفروا حُفَراً يخرج إليها ماءُ البحر على أُخدود ، فإذا جاءَ الحوت يوم السبت وحصل في الحفرة أَلقوا في الأُخدود حجراً فمنعوه الخروج إلى البحر ، فإذا كان الأَحد أَخذوه ، فكان هذا أَول التطرق ، وروى أَشهب عن مالك قال : زعم ابن رومان أَنهم كانوا يأْخذ الرجل خيطاً ويصنع فيه وهقة[1] ويلقيها في ذنب الحوت ، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد مضروب ، ويتركه كذلك إلى الأَحد ، ثم تطَرَّق الناس حين رأَوا من صنع هذا لا يُبْتَلَى حتى كثر صيد الحوت ومشي به في الأَسواق ، وأَعلن الفسقة بصيده وقالوا : ذهبت حرمة السبت ، فنهضت فرقة من بني إسرائيل ونهت وجاهرت بالنهي واعتزلت ، والعامل في قوله : ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ قوله ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وهو ظرف مقدم .

وقرأَ عمر بن عبد العزيز : «حِتيانهم يوم إسباتهم» ، وقرأَ نافع ، وأَبو عمر ، والحسن ، وأَبو جعفر ، والناس : [يَسْبِتُونَ] بكسر الباءِ ، وقرأَ عيسى بن عمر ، وعاصم بخلاف : [يَسْبُتُون] بضمها ، وقرأَ

---

(١) الوَهَـَق — بتحريك الهاء مفتوحة وبإسكانها : الحبل في طرفه أنشوطة يطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى يمسك ويؤخذ — والأنشوطة عقدة سهلة الحلّ إذا جذبت من طرف معيّن من طرفيها انفتحت بسهولة .

الحسن بن أبي الحسن ، وعاصم بخلاف : [يُسْبِتُون] من (أسبت) إذا دخل في السبت .

ومعنى قوله : [كَذَلِكَ] الإشارة إلى أمر الحوت وفتنتهم به ، هذا على من وقف على [تَأْتيهم] ، ومن وقف على [كَذَلِك] فالإشارة إلى كثرة الحيتان شُرَّعاً ، أي : فما أتى منها فهو قليل ، و [نبْلُوهُمْ] أي نمتحنهم لفسقهم وعصيانهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي قصص هذه الآية رواية وتطويل اختصرته واقتصرت منه على مالا تفهم ألفاظ الآية إلا به .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

قال جمهور المفسرين : إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق ، فرقة عصت وصادت ، وفرقة نهت وجاهرت وتكلمت واعتزلت ، وفرقة اعتزلت ولم تعص ولم تنه . وإن هذه الفرقة لما رأت مجاهرة الناهية وطغيان العاصية وعتوها قالت للناهية : ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً﴾

يريدون العاصية ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُم﴾ على غلبة الظن وما عهد من فعل الله حينئذ بالأُمم العاصية ، فقالت الناهية : موعظتنا معذرة إلى الله ، ثم اخْتُلِفَ بعد هذا فقالت فرقة : إن الطائفة التي لم تعص ولم تنه هلكت مع العاصية عقوبة على ترك النهي ، قاله ابن عباس ، وقال أَيضاً : ما أدري ما فعل بهم . وقالت فرقة : بل نجت مع الناهية لأَنها لم تعص ولا رضيت . قاله عكرمة والحسن وغيرهما . وقال ابن الكلبي فيما أَسند عن الطبري : إن بني إسرائيل لم تفترق إلا على فرقتين ، فرقة عصت وجاهرت ، وفرقة نهت وغيرت واعتزلت ، وقالت للعاصية : إن الله يهلكهم ويعذبهم ، فقالت أُمة من العاصين للناهين – على جهة الاستهزاء – : لِمَ تعظون قوماً قد علمتم أَن الله مهلكهم ومعذبهم ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقول الأَول أَصوب ، وتؤيده الضمائر في قوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُم﴾ ، فهذه المخاطبة تقتضي مخاطِباً ومخاطَباً ومكنياً عنه ، وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [مَعذرةٌ] بالرفع ، أَي : موعظتنا معذرةٌ أَي إقامة عذر ، وقرأَ عاصم – في بعض ما روي عنه – وعيسى بن عمر ، وطلحة بن مصرف : [معْذرةً] بالنصب ، أَي : وعَظْنا معذرةً ، قال أَبو علي : حجتها أَن سيبويه قال : لو قال رجل لرجل : معذرةً إلى الله وإليك من كذا لنصب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

الرجل القائل في هذا المثال معتذر عن نفسه وليس كذلك الناهون من بني إسرائيل ، فتـأمل . ومعنى [مُهْلِكُهُم] في الدنيا [أَوْ مُعَذِّبُهُمْ] في الآخرة ، وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ يقتضي الترجي المحض لأنه من قول آدميين .

والضمير في قوله تعالى : [نَسُوا] للمنهيين ، وهو تركٌ سمّي نسياناً إذ أقوى منازل الترك أن ينسى المتروك . و (ما) في قوله ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ بمعنى الذي ، ويحتمل أن يراد به الذكر نفسه ، ويحتمل أن يراد به ما كان فيه الذكر ، والسوءُ لفظ عام في جميع المعاصي إلا أن الذي يختص هنا بحسب قصص الآية صيد الحوت . و ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم العاصون ، وقوله تعالى : ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ معناه : مؤلم موجع شديد .

وقرأ نافع وأهل المدينة ـ أبو جعفر ، وشيبة وغيرهما : [بِيسٍ] بكسر الباءِ وسكون الياءِ وكسر السِّين وتنوينيها ، وهذا على أنه فعل سُمّي به ، كقوله صلى الله عليه وسلم : (أنهاكم عن قيل وقال) (١) ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [بِئْسَ] كما تقول : بِئْسَ الرجلُ ،

---

(١) رواه البخاري في الرقاق والزكاة والاعتصام والأدب . ورواه مسلم في الأقضية ، ورواه الدارمي في الرقاق ، ومالك في « الموطأ » في الكلام ، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده ـ وفي البخاري أن معاوية كتب إلى المغيرة يطلب إليه أن يكتب له ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب إليه . وفي آخر الحديث (وكتب إليه أنه كان ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وكان ينهى عن عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات) .

وضعَّفها أَبو حاتم [١] ، قال أَبو عمرو : وروي عن الحسن [بِئْس] بهمزة بين الباءِ والسِّين . وقرأَ نافع – فيما يروي عنه خارجة – [بَيْسٍ] بفتح الباءِ وسكون الياءِ وكسر السِّين منونة . وروى مالك بن دينار عن نصر بن عاصم [بيَسٍ] على مثل جَمَلٍ وجَبَلٍ ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن المقرئ : [بَئِسٍ] بفتح الباءِ وهمزة مكسورة وسين منونة على وزن فَعِلٍ ، ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

لَيْتَنِي أَلْقَى رُقَيَّةَ في خَلْوَةٍ منْ غَيْرِ مَا بَئِس [٢]

قال أَبو عمرو الداني : هي قراءَة نصر بن عاصم ، وطلحة بن مصرف . وروي عن نصر [بَيِس] بياءٍ مكسورة من غير همز ، قال الزهراوي : ورُوي عن الأَعمش [بَئِّسٍ] الباءُ مفتوحة والهمزة مكسورة مشددة والسين مكسورة منونة . وقرأَت فرقة : [بَئِّسَ] التي قبلُ إلَّا فتح السِّين ، ذكرها أَبو عمرو الداني عما حكى يعقوب ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو

(١) قال أبو حاتم : لأنه لا يقال : مررت برجل بئس ، حتى يقال : بئس الرجل أو بئس رجلا ، قال النحاس : وهذا مردود من كلام أبي حاتم ، حكى النحويون : إن فعلت كذا وكذا فبها ونِعْمَتْ ، يريدون : ونعمت الخصلة ، والتقدير على قراءة الحسن : بعذاب بئس العذاب . (راجع تفسير القرطبي) .

(٢) هو البيت الثاني من أربعة أبيات وردت في ديوانه ، أولها قوله :

يا لَقَوْمٍ ، عادني نُكْسي مِنْ عِدَاتِ البُدَّنِ الشُّمْسِ

وقد علَّق المحقق (طبعة دار صادر بيروت) على بيتنا هذا بأنه زيادة من العيني – ومن الخزانة للبغدادي : ٣–٥٨٧ . والكلمة موضع الشاهد هنا مضبوطة في الديوان (يَئْسِ) بدلا من (بَئِسٍ) التي ذكرت هنا وهي لغة في البأس .

عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، ونافع – في رواية أَبي قُرَّة عنه – وعاصم – في رواية حفص عنه – [بَئِيسٍ] بياءٍ بعد الهمزة المكسورة والسِّين المنونة – على وزن فِعِيلٍ . وهذا وصف بالمصدر كقولهم : «عذير الحيّ» – والنذير والنكير ونحو ذلك . وهي قراءة الأَعرج ، ومجاهد ، وأَهل الحجاز وأَبي عبد الرحمن ، ونصر بن عاصم ، والأَعمش ، وهي التي رجَّح أَبو حاتم ، ومنه قول ذي الإِصبع العَدْوَانيّ :

حَنِقًا عليَّ ولَا أَرى لِيَ مِنْهُمَا شَرًّا بئيسا (١)

وقرأَ أَهل مكة [بِئِيسٍ] كالأَول إلا كسر الباءِ ، على وزن فِعِيلٍ ، قال أَبو حاتم : هما لغتان ، وقرأَ عاصم – في رواية أَبي بكر عنه – : [بَيْئَسٍ] بفتح الباءِ وسكون الياءِ وفتح الهمزة ، على وزن فَيْعَل ، ومعناه : شديد ، ومنه قول امرئ القيس بن عابس الكندي :

كِلاَهُمَا كانَ رَئِيساً بَيْئَسا يَضْرِبُ في يَوْمِ الْهِيَاجِ الْقَوْنَسَا (٢)

---

(١) ذو الإِصبع العَدْوانِي اسمه : حُرْثان بن الحَرْث ، أو حويرث ، أو الحَرْث ، وقيل : السموأل – والاختلاف في اسمه كبير . ولكنه عرف بهذا اللقب لأن حيَّة نهشت إبهام قدمه فقطعها – وهو شاعر جاهليٌّ قديم ، يبدو من شعره أنه رجل منازعة ومفاخرة وخصام ، وشعره لا يتجاوز المقطعات . والبيت فيه استهانة باثنين حقدا عليه وهو لا يخاف شرهما ، والحنق : الغيـــظ .

(٢) البَيْئَس كفَيْعَل : الشديد ، والأسدُ لِشِدَّته . والقَوْنَس : مقدَّم الرأس . و– أعلى بيضة الحديد ، و – عظم ناتيٌّ بين أُذُنَي الفرس ، وكل معنى من هذه المعاني وارد وممكن هنا . يقال : فلان يضرب القوانس ، قال طرفة :

أَضْرِبُ عنْكَ الْهُمومَ طارِقَهَا ضَرْبَكَ بالسَّوْط قَوْنَسَ الْفَرَسِ

أراد : أَضْرِبَنَّ . يصفهما بالرياسة والشجاعة وضرب الهام في يوم الهياج .

فهي صفة كضَيْغَم وحَيْدَر ، وهي قراءة الأَعمش ، وقرأ عيسى بن عمر ، والأَعمش - بخلاف عنه - [بَيْئِسٍ] كالتي قبلُ إلا كسر الهمزة على وزن فَيْعِلٍ ، وهذا شاذٌّ لأَنه لا يوجد فَيْعِلٍ في الصحيح ، وإنما يوجد في المعتل مثل سيّد وميّت . وقال الزهراوي : روى نصر بن عاصم : [بَيِّس] على مثال [مَيِّت] ، وهذا على أنه من البؤس ، ولا أَصل له في الهمز ، قال أَبو حاتم : زعم عاصم أَن الحسن والأَعمش قرآ: [بِئْيَس] الباءُ مكسورة والهمزة ساكنة والياءُ مفتوحة على مثال خِذْيَم ، وضعفها أَبو حاتم ، وقرأَ ابن عامر من السبعة : [بِئْسٍ] بكسر الباءِ وسكون الهمزة وتنوين السين المكسورة ، وقرأَت فرقة : [بَأْس] بفتح الباءِ وسكون الأَلف ، وقرأَ أَبو رجاءٍ [بَائِس] على وزن فاعِل ، وقرأَت فرقة: [بَيَسَ] بفتح الباءِ والياءِ والسِّين على وزن فَعَلَ ، وقرأَ مالك بن دينار : [بَأْسَ] بفتح الباءِ والسِّين وسكون الهمزة على وزن فعْلَ غير مصروف ، وقرأَت فرقة : [بَأْسَ] مصروفاً ، وحكى أَبو حاتم [بَيَسٍ] قال أَبو الفتح : هي قراءة نصر بن عاصم ، وحكى الزهراوي عن ابن كثير وأَهل مكة [بئس]ويهمز همزاً خفيفاً .(١)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولم يبيّن هل الهمزة مكسورة أَو ساكنة .

وقوله تعالى : ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أَي لأَجل ذلك وعقوبة عليه .

---

(١) ذكر ابن عطية اثنين وعشرين قراءة ، وأيضاً ذكر أبو حيان في البحر اثنين وعشرين ونصَّ على ذلك في آخرها ، أما القرطبي فذكر إحدى عشرة قراءة فقط . فتأمل .

والعُتُوّ : الاستعصاءُ وقلة الطواعية .

وقوله تعالى : ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون قولاً بلفظ من مَلَك أسمعهم ذلك فكان أذهب في الإغراب والهوان والإصغار ، ويحتمل أن يكون عبارة عن المقدرة المكوّنة لهم قردة ، و [خَاسِئِينَ] مبعدين ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن صياد : (اخْسَأْ)(١) ، وكما يقال للكلب : اخسأْ ، ف [خَاسِئِينَ] خبر بعد خبر ، هذا اختيار أبي الفتح ، وضعّف الصفة ، وكذلك هو لأَن القصد ليس التشبيه بقردة مبعدات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويجوز أن يكون [خَاسِئِينَ] حالاً من الضمير في [كُونُوا] ، والصفة أيضاً متوجهة مع ضعفها ، ورُوي أن الشباب منهم مُسخوا قردة والرجال الكبار مسخوا خنازير ، وروي أن مسخهم كان بعد المعصية في صيد الحوت بعامين ، وقال ابن الكلبي : إن إهلاكهم كان في زمن داود . ورُوي أن الناهين قسموا المدينة بينهم وبين العاصين بجدار ، فلما أصبحوا ليلة أُهلك العاصون لم يفتح باب مدينة العاصين حتى ارتفع النهار ، فاستراب الناهون لذلك فطلع أحد الناس على

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود ، والدارمي ، والإمام أحمد ونصه كما ذكره أحمد عن عبد الله قال : (كنا نمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فمرّ بابن صيّاد فقال : إني قد خبّأت لك خبْأً ، قال ابن صياد : دخ ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسأ فلن تعدو قدرك ، فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله دعني أضرب عنقه ، قال : لا ، إن يكن الذي نخاف فلن تستطيع قتله) .

السور فرآهم ممسوخين قردة تتواثب فصاح ، فدخلوا عليهم يعرف الرجل قرابته ويعرف القرد أيضاً كذلك قرابته . وينضمون إلى قرابتهم فيتحسرون ، قال الزجّاج : وقال قوم : يجوز أن تكون هذه القردة من نسلهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتعلّق هؤلاءِ بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن أُمة من الأُمم فقدت ، وما أُراها إلّا الفأْرة إذا قرب لها لبن لم تشرب)[١] ، وبقوله صلى الله عليه وسلم في الضب .

وقصص هذا الأَمر أَكثر من هذا لكن اختصرتُه واقتصرت على عيونه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

بِنْيَةُ [تَأَذَّن] هي التي تقتضي التكسُّب ، من أَذُنَ أي عَلِمَ[٢] ،

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد (٢–٢٨٩) عن أبي هريرة ، ونصه : (فقد سبط من بني إسرائيل وذكر الفأرة فقال : ألا ترى أنك لو أدنيت منها لبن الإبل لم تقربه ، وإن قربت إليها لبن الغنم شربته ؟ فقال أكذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : أفأَقرأُ التوراة ؟)

(٢) في بعض النسخ زيادة لفظة «وَمَكَّن» ، ومعناها غير واضح مع السياق . وقول المؤلف بعد ذلك : «إلا أنَّ تَعَلَّم» ينطبق أيضاً على (تَأَذَّن) لقوله عقب ذلك : «وما جرى مجرى هذا الفعل» .

وآذَنَ أَي أَعْلَم ، مثل كَرُمَ وأَكْرَمَ وتَكَرَّمَ ، إِلَّا أَن تعلَّم (وما جرى مجرى هذا الفعل) إذا كان مسنداً إلى اسم الله عزَّ وجلَّ لم يلحقه معنى التكسُّب الذي يلحق المُحْدَثين ، فإنما يترتب بمعنى عَلِم صفة لا بِتَكَسُّب ، بل هي قائمة بالذات ، وإلى هذا المعنى ينحو الشاعر بقوله :

* تَعَلَّمْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ * (١)

لأَنه لم يأْمره بالتَّعَلُّم الذي يقتضي جهالة ، وإنما أَراد أَن يوقفه على قوَّة علمه ، ومنه قول زهير :

تَعَلَّمْ أَنَّ شرَّ الناس حَيٌّ يُنادَى في شعارِهِمُ يَسَـــارُ (٢)

فمعنى هذه الآية : وإذ علِمَ الله ليبعثن عليهم ، وتقتضي قوة الكلام أَن ذلك العلم منه مقترن بإنقاذ وإمضاءٍ ، كما تقول في أَمر قد عزمتَ عليه غاية العزم : «علم الله لأَفعلن كذا» ، نحا إليه أَبو علي الفارسي ، وقال الطبري وغيره : [تـأَذَّن] معناه : أَعْلَم ، وهو قلق من جهة التصريف

---

(١) يريد أن (تعلَّم) تكون بمعنى (اعْلَم) ولكن ليس المراد علما بعد جهل ، بل المراد : اعلم رأيي في ذلك ، ومنه قول عمرو بن معديكرب ، أو معديكرب بن الحارث :

تَعَلَّمْ أنَّ خَيْرَ النَّاسِ طُـــرّاً قَتيلٌ بين أحْجـــار الكُلاب

ولا نعرف البيت الذي يقصده بهذه الإشارة الصغيرة ، فالأبيات التي تحملها أو تحمل مثلها كثيرة .

(٢) تعلم بمعنى : اعلم ، والشِّعار : عبارة يتعارف بها القوم في الحرب أو السفر – ويسار : واحد من رعاة الإبل أخذه الحارث بن ورقاء . وزهير يذمُّ قوم الحارث بأن (يساراً) هذا صار عيباً لهم ورمزاً يعرفون به كما يعرف القوم بشعارهم .

إذْ نسبة (تَـأَذَّن) إلى الفاعل غير نسبة (أَعْلَم) ، وتبين ذلك من التعدي وغيره ، وقال مجاهد : [تَـأَذَّن] معناه : قال ، ورُوي عنه أَن معناه : أَمر ، وقالت فرقة : معنى [تَـأَذَّن] : تَـأَلَّى [1] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقادهم إلى هذا القول دخول اللام في الجواب ، وأَما اللفظة فبعيدة عن هذا .

والضمير في [عَلَيْهم] لمن بقي من بني إسرائيل لا للضمير في [لَـهُمْ] [2] . وقوله تعالى : ﴿مَنْ يَسُومُهُمْ﴾ قال سعيد بن جبير : هي إشارة إلى العذاب ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأُمته .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والصحيح أَنها عامة في كل مَنْ حالُ اليهود معه هذه الحال ، و [يَسُومُهُمْ] معناه : يكلفهم ويحملهم ، و ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الظاهر منه الجزية والإذلال ، وقد حتم الله عليهم هذا وحطَّ ملكهم فليس في الأَرض راية ليهودي ، وقال ابن المسيّب : فيستحب أَن تتعب اليهود

---

(١) تألى : حلَف .

(٢) المراد [لَـهُم] في قوله تعالى قبل ذلك : ﴿قُلْنَا لَـهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين﴾ .

في الجزية ، ولقد حدث أن طائفة من الروم أَمْلَكَت في صُقْعها فباعت اليهود المجاورة لهم الساكنة معهم وتملكوهم .

ثم حسُنَ في آخر هذه الآية ـ لتضمنها الإيقاع بهم والوعيد ـ أن ينبه على سرعة عقاب الله ويخوف بذلك تخويفاً عاماً لجميع الناس ، ثم رجَّى ذالك لُطفاً منه تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : [وَقَطَّعْنَاهُمْ] معناه : فرقناهم في الأَرض ، قال الطبري عن جماعة من المفسرين : ما في الأَرض بقعة إلا وفيها معشر من اليهود ، والظاهر في المشار إليهم في هذه الآية أَنهم الذين بعد سليمان وقت زوال ملكهم ، والظاهر أَنه قبل مدة عيسى عليه السلام لأَنه لم يكن فيهم صالح بعد كفرهم بعيسى صلى الله عليه وسلم . وفي التواريخ في هذا الفصل روايات مضطربة ، و [الصَّالِحُونَ] ـ و [دُونَ ذَلِكَ] أَلفاظ محتملة أَن يراد بها صلاح الإِيمان ، فـ [دُونَ] بمعنى غير يراد بها الكفرة ، وإن أُريد بالصلاح العبادة والخير وتوابع الإِيمان فـ [دُونَ ذَلِكَ] يحتمل أَن يكون في مؤمنين.

[وَبَلَوْنَاهُمْ] معناه : امتحنَّاهم ، والحسنات : الصحة والرخاءُ ونحو هذا مما هو بحسب رأْي ابن آدم ونظره ، والسيئات : مقابلات هذه . وقوله : [لَعَلَّهُمْ] أَي بحسب رأْيكم لو شاهدتم ذلك ، والمعنى : لعلهم يرجعون إلى الطاعة ويتوبون من المعصية .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

[خَلَفَ] معناه : حدث خلْفهم وبعدهم [خَلْف] بإسكان اللام، ويستعمل في الأَشْهَر في الذم ، ومنه قول لبيد :

ذَهَبَ الَّذينَ يُعَاشُ في أَكْنَافِهِـــمْ وَبَقِيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ(١)

وقد يستعمل في المدح ، ومنه قول حسّان :

لنَا الْقَدَمُ الأُولى إلَيْكَ وخَلْفُنَـــا لِأَوَّلِنَا في طَاعَةِ اللهِ تَابِـــعُ(٢)

---

(١) قال لبيد بيته هذا ضمن قصيدة له يصف فيها تغير الأيام والناس ، ويتحدث عن أخيه أربد ومآثره ، ومطلع القصيدة في رواية الطوسي :

قَضِّ اللُّبَانَةَ لا أبا لكَ واذْهَبِ والْحَقْ بأسْرَتِكَ الكــرامِ الغُيَّبِ

أما الأصفهاني في الأغاني فيرويها على أن مطلعها :

طربَ الفؤاد ولَيْتَـــهُ لمْ يطْرَبِ وعنَاه ذكْرَى خُلَّةٍ لَمْ تَصْقَبِ

وفي أكنافهم معناه : في ظل خيرهم ، والخَلْفُ : البقيَّةُ . وجلد الأجرب : جلْد الجمل الأجرَب وهو مما لا ينتفع به .

(٢) استشهاد صاحب اللسان بهذا البيت على أن الخلْف هو الباقي بعد الهالكِ والتابعُ له ، سمّي به المتخلف لا على جهة البَدَل ، قال : ويكون محموداً ومذموماً ، وشاهد المحمود قول حسّان (وذكر البيت) ، ثم قال : فالخَلْف ها هنا هو التابع لمن مضى وليس من معنى الخلف الذي هو البدل . وواضح أن التبعيَّة هنا في طاعة الله .

والخلَف - بفتح اللام - يستعمل - في الأَشهر - في المدح ، قال أَبو عبيدة ، والزجَّاج : وقد يستعمل في الذمّ أيضاً ، ومنه قول الشاعر :

أَلا ذلِكَ الخَلَفُ الأَعْوَرُ (١)

وقال مجاهد : المراد بالخلْف ها هنا النصارى ، وضعّفه الطبري . وقرأ الحسن البصري : ﴿وُرِّثُوا الكِتابَ﴾ بضم الواو وشد الراءِ ، وقوله ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ إشارة إلى الرشا والمكاسب الخبيثة ، والعَرَض : ما يعرض ويَعِنُّ ولا يثبت ، و [الأَدْنَى] إشارة إلى عيش الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ذمٌّ لهم باغترارهم ، وقولهم : «سيغفر» مع علمهم بما في كتاب الله من الوعيد على المعاصي وإصرارهم عليها وأنهم إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها فهؤلاءِ عجزة ،كما قال صلى الله عليه وسلم : (والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)(٢) ، وهم مُصِرُّون ، وإنما يقول سيغفر لنا من أقلع وندم .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية . تشديد في لزوم قول الحق على الله في الشرع والأَحكام بين الناس ، وأن لا تميل الرشا بالحكام

---

(١) لم نعثر على نسبة هذا الشعر ولا على بقية البيت فيما لدينا من المراجع ، ولكن من الواضح أنّ (خَلَفَ) بفتح اللام وأنها في الذمّ ، ولم يذكر هذا الشاهد من المفسرين غير ابن عطية إلا صاحب «البحر المحيط» . أما الشاهدان الآخران فقد ذكرهما كل من الطبري والقرطبي ، وزاد القرطبي وصاحب «البحر المحيط» شاهداً آخر ذكره أيضاً صاحب (اللسان) .

(٢) الحديث بتمامه كما ذكره في «الجامع الصغير» : (الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعدَ الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني) . وقد رواه الإمام أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن كثير - وهو عن شداد بن أوس ، ورمز له السيوطي بالصحة .

إلى الباطل . و [الكِتَاب] يريد به التوراة ، وميثاقُها : الشدائد التي فيها في هذا المعنى ، وقوله : ﴿أَلَّا يَقُولُوا عَلَىٰ اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ يمكن أن يريد بذلك قولَهم الباطل في حكومة مما يقع بين أيديهم ، ويمكن أن يريد قولَهم : [سَيُغْفَرُ لَنَا] وهم قد عَلِمُوا الحق في نهي الله تبارك وتعالى عن ذلك . وقرأ جمهور الناس : [يَقُولُوا] بياءٍ من تحت ، وقرأ الجحدري : [تَقُولُوا] بتاءٍ من فوق .

وقوله تعالى : [وَدَرَسُوا] معطوف على قوله : [أَلَمْ يُؤْخَذ] الآية بمعنى المضي ، ويقدر : أليس قد أُخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه ؟ وبهذين الفعلين تقوم الحجة عليهم في قولهم الباطل ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : ﴿وادَّارَسوا ما فيه﴾ ، وقال الطبري وغيره : قوله : [ودَرَسوا] معطوف على قوله : [وَرِثُوا الكِتابَ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر لبعد المعطوف عليه ، لأن قوله : [وَدرَسوا] يزول منه معنى إقامة الحجة بالتقدير الذي في قوله : [أَلَمْ] . ثم وعظ وذكَّر تبارك وتعالى بقوله : ﴿وَٱلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يتَّقُونَ﴾ . وقرأ جمهور الناس : ﴿أَفلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاءِ من فوق ، وقرأ أبو عمرو وأهل مكة : [يَعْقِلُونَ] بالياءِ من أسفل .

وقوله تعالى : [وَٱلَّذِينَ] عطف على قوله : ﴿لِلَّذِين يَتَّقُونَ﴾ . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم – في رواية حفص –

وأبو عمرو ، والناس : [يُمَسِّكُون] بفتح الميم وشد السين ، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأبو العالية ، وعاصم وحده ـ في رواية أبي بكر ـ : [يُمْسِكُونَ] بسكون الميم وتخفيف السّين ، وكلهم خفف ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾(١) ، إلَّا أبا عمرو فإنه قرأ : ﴿وَلَا تَمَسَّكُوا﴾ بفتح الميم وشد السّين ، وقرأ الأعمش : ﴿والَّذين اسْتَمْسكوا﴾ وفي حرف أُبَيّ : ﴿والَّذين مَسّكوا﴾ ، وهما لغتان بمعنى واحد ، قال كعب بن زهير :

فَمَا تَمَسَّكُ بالعَهْدِ الَّذي زَعَمَتْ إلَّا كَمَا تُمْسِكُ الماءَ الْغَرابِيلُ(٢)

أما إن شدَّ السين يجري مع التَّعدي بالباء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

[نَتَقْنا] معناه : اقتلعنا ورفعنا ، فكأن النتق اقتلاع الشيء ،

(١) من الآية (١٠) من سورة (الممتحنة) .

(٢) هذا البيت من قصيدة كعب المشهورة التي قالها في مدح الرسول ، ومطلعها :

بانَتْ سُعَادُ فقلبي اليومَ مَتْبولُ مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لمْ يُفْدَ مَكْبولُ

تقول العرب : « نتقت الزبدة من فم القربة » ، ومنه قول الشاعر :

وَنَتَقُوا أَحْلَامَنَا الأَثَاقِلَا (١)

والناتق : الرحم التي تقلع الولد من الرجل . ومنه قول النابغة :

لَمْ يُحْرَمُوا حُسْنَ الْغِذاءِ وأُمُّهُمْ   دَحَقَتْ عَلَيْكَ بِنَاتِقٍ مِذْكَارِ (٢)

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (عليكم بتزوج الأبكار فإنهن أنتق أرحاماً وأطيب أفواهاً) الحديث (٣) ، وقد جاء في القرآن بدل هذه اللفظة في هذه القصة بعينها [رفَعْنَا] (٤) ، لكن

---

(١) هذا واحد من ثلاثة أبيات ذكرها صاحب (اللسان) في مادة (نتق) — وهي من مشطور الرجز ، ولم ينسبها ، بل قال : « النتق » : الزعزعة والهزّ والجذب والنفض ، ونَتَق الشيء ينتِقه وينتُقه نتقاً : جذبه واقتلعه ... وقال الشاعر :

قَدْ جرَّبوا أخْلاقَنا الْجَلائِـــلا   ونَتَقوا أحْلامَنَا الأثاقِـــلا
فَلَمْ يَرَ النَّـــاسُ لَنَا مُعَـــادِلا

ثم قال صاحب اللسان : « وقال الفراء في ذلك : رفع الجبل على عسكرهم فرسخاً في فرسخ ، ونَتَقْنَا : رفعنا . »

(٢) البيت في (اللسان — نتق) — والرواية فيه وفي الديوان : « طفحت » بدلاً من « دحقت » ، ولكن اللسان ذكرها في مرة أخرى بلفظ « دحقت » كرواية ابن عطية هنا . والضمير في « يحرموا » راجع إلى أقوام ذكرهم قبل ذلك في أبيات القصيدة ، وهم بنو جذيمة والغاضريون . ودحقت المرأة بأولادها : ولدت بعضهم في إثر بعض ، والمدحوق من النساء : ضد المتاليت وهن المُتْئِمات . والناتق : التي أخرجت ما عندها من الولد . والمِذْكار : التي تلد الذكور . يقول : إنهم غذوا غذاء حسناً فنموا وكثروا ، وإن أمهم ولدتهم لك تباعاً وكانوا جميعاً من الذكور .

(٣) نص الحديث كما رواه في « الجامع الصغير » : (عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً وأرضى باليسير) ، ثم قال : رواه ابن ماجة ، والبيهقي في شعب الإيمان — عن عويمر بن ساعدة ، ورمز له بعد ذلك بأنه حسن .

(٤) وذلك في قوله تعالى في الآية (٦٣) من سورة البقرة : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . قال القرطبي عند تفسيرها : « هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ .

[نَتَقْنَا] و [فَوْقَهُم] أعطت الرفع بزيادة قرينة هي أَن الجبل اقتلعته الملائكة وأمر الله إيَّاه .

ورُوي أَن موسى عليه السلام لما جاءَهم بالتوراة فقال عن الله تعالى : هذا كتاب الله ، أَتقبلونه بما فيه ؟ فإن فيه بيان ما أَحل لكم وما حرّم عليكم وما أَمركم وما نهاكم ، قالوا : انشر علينا ما فيها[1] ، فإن كانت فرائضها يسيرة وحدودها خفيفة قبلناها ، قال : اقبلوها بما فيها . قالوا : لا ، فراجعهم موسى فراجعوا ثلاثاً فأَوحى الله عزَّ وجلَّ إلى الجبل فانقلع وارتفع فوق رؤُوسهم ، فقال لهم موسى صلى الله عليه وسلم : أَلا ترون ما يقول ربي ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأَرمينكم بهذا الجبل ، قال الحسن البصري : فلما رأَوا إلى الجبل[2] خرَّ كل واحد منهم ساجداً على حاجبه الأَيسر ، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرَقاً أَن يسقط عليه ، فلذلك ليس في الدنيا يهودي يسجد إلا على حاجبه الأَيسر ، يقولون : هذه السجدة التي رفعت بها عنا العقوبة .

و «الظُّلَّةُ» : ما أَظَلَّ ، ومنه ﴿في ظُلَلٍ مِنَ ٱلْغَمَام﴾[3] ، ومنه ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾[4] ، ومنه قول أُسَيْد بن حضير للنبي صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أنث الضمير هنا لأنه يعود على التوراة ، وهي المقصودة في قول موسى عليه السلام قبل ذلك : « هذا كتاب الله » .

(٢) عُدّيت (رأى) هنا بحرف الجر (إلى) لأنها تتضمن معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار . قاله الراغب ، وذكره في التاج .

(٣) من الآية (٢١٠) من سورة (البقرة) .

(٤) من الآية (١٨٩) من سورة (الشعراء) .

قرأت البارحة فغشي الدار مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (تلك السكينة نزلت للقرآن)[١] . فإن قيل : إذا كان الجبل ظُلَّة فما معنى [كَأَنَّهُ] ؟ فالجواب أن البشر إنما اعتادوا هذه الأجرام الأرضية ظُلَلًا إذا كانت على عُمُد ، فلما كان الجبل على غير عُمُد قيل : ﴿كَأَنَّه ظُلَّة﴾ ، أي : كأنه على عُمُد .

[وَظَنُّوا] قال المفسرون : معناه : أيقنوا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس الأمر عندي كذلك ، بل هو موضع غلبة الظن مع بقاءِ الرجاءِ ، وكيف يوقنون بوقوعه وموسى عليه السلام يقول : إن الرّمي به إنما هو بشرط أن لا يقبلوا التوراة ، والظن إنما يقع ويستعمل في اليمين

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن . ومسلم في المسافرين ، ورواه الإمام أحمد . ولفظه كما رواه البخاري عن أسيد بن حضير قال : (بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس . فسكت وسكنت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منه فأشفق أن تصيبه . فلما اجْتَرَّه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها . فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال له اقرأ يا ابن حضير . اقرأ يا ابن حضير . قال : فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي فانصرفت إليه ، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها ، قال : وتدري ماذاك ؟ قال : لا ، قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبَحَتْ ينظر الناسُ إليها لا تتوارى منهم) .

متى كان ذلك المتيقن لم يخرج إلى الحواس ، وقد تبين هذا فيما سلف من هذا الكتاب . ثم قيل لهم في وقت ارتفاع الجبل : ﴿خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّة﴾ فأَخذوها والتزموا جميع ما تضمنته من شدة ورخاءٍ فما وفوا . وقرأ جمهور الناس : [وَاذْكُرُوا] ، وقرأ الأَعمش – فيما حكى أَبو الفتح عنه – : [وَاذَّكَّرُوا] . وقوله : [لَعَلَّكُمْ] على ترجِّيهم ، وهذا تشدُّدٌ في حفظها والتَّهمُّم بها .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية . التقدير : واذكر إذ أَخذ ربك ، وقوله : ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ قال النحاة : هو بدل اشتمال من قوله : ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ ، وأَلفاظ هذه الآية تقتضي أَن الأَخذ كان من بني آدم من ظهورهم . وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظة ، وتواترت الأَحاديث في تفسير هذه الآية عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وغيرهما أَن الله عزَّ وجلَّ لما خلق آدم (وفي بعض الروايات : لمَّا أَهبط آدم إلى الأَرض في دهناءَ من أَرض السند ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي بعضها أَن ذلك بنعمان وهي عرفة وما يليها ، قاله أَيضاً ابن عباس رضي الله عنهما وغيره) مسح على ظهره (وفي بعض الروايات بيمينه ، وفي بعض الروايات ضرب منكبه) فاستخرج منها – أَي من المسحة أَو الضربة – نسم بنيه ، ففي بعض الروايات كالذرّ . وفي

بعضها كالخردل .[1] وقال محمد بن كعب : إنها الأَرواح جعلت لها مثالات ، وروى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أُخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأْس ، وجعل الله لهم عقولا كنملة سليمان عليه السلام ، وأَخذ عليهم العهد بأَنه ربهم وأنه لا إِلٰه غيره ، فأَقروا بذلك والتزموه ، وأَعلمهم أنه سيبعث الرسل إليهم مذكرة وداعية ، فشهد بعضهم على بعض)[2] ،

---

(١) الأحاديث التي أشار إليها المؤلف هنا رويت من طرق كثيرة ، وهذا هو المراد بقوله : « تواترت » ، وليس المراد التواتر الاصطلاحي فإن بعضها من أحاديث الآحاد . أما حديث عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فقد أخرجه مالك في الموطأ ، والإمام أحمد في مسنده ، وعبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، وأبو داود ، والترمذي وحسَّنه ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والآجري في الشريعة ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه ، واللالكائي ، والبيهقي في الأسماء والصفات — عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : (إنَّ الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون . فقال الرجل : يارسول الله ، ففيم العمل ؟ فقال : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار) .

وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما فقد أخرج أحمد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات — عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صُلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه كالذرّ ، ثم كلمهم قُبلاً قال : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ إلى قوله : ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ . عن (الدر المنثور في التفسير بالمأثور — للإمام السيوطي) ، وللإمام الشوكاني تعليق يرد به على الزمخشري في هذا الموضع .

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن منده في كتاب الردّ على الجهمية عن عبد الله بن عمرو . (الدر المنثور) .

وقال أُبيّ بن كعب : أَشهد عليهم السموات السبع ، فليس من أَحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد في ذلك اليوم والمقام ، وقال السدي : أَعطى الكفار يومئذ العهد كارهين على وجه التقية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذه نخيلة مجموع الروايات المطولة ، وكأَن أَلفاظ هذه الأَحاديث لا تلتئم مع أَلفاظ الآية ، وقد أَكثر الناس في روم الجمع بينهما ، فقال قوم : إن الآية مشيرة إلى هذا التناسل الذي في الدنيا ، و [أَخَذَ] بمعنى : أَوجد على المعهود ، وأَن (الإشهاد) هو عند بلوغ المكلف وهو قد أُعطي الفهم ، ونصبت له هذه الصنعة الدالة على الصانع ، ونحا إلى هذا المعنى الزجاج ، وهو معنى تحتمله الأَلفاظ ، لكن يرد عليه تفسير عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما الآية بالحديث المذكور [1] ، وروايتهما ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وطوّل الجرجاني [2] في هذه المسأَلة ، ومدار كلامه على أن المسح وإخراج الذرية من ظهر آدم حسب الحديث ، وقيل في الآية : أَخَذَ من ظهورهم ، إذ الإخراج من ظهر آدم الذي هو الأَصل إخراج من

(١) يفهم من كلامه أنه حديث واحد ، ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه روى حديثاً ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما حديثاً آخر ، ولكن الموضوع واحد .

(٢) هو علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني ، أبو الحسن . قاض ، من العلماء بالأدب ، ولد بجرجان ، وتوفي بنيسابور فحمل تابوته إلى جرجان ، من كتبه : « تفسير القرآن » ، و « تهذيب التاريخ » و « الوساطة بين المتنبي وخصومه » وكان خطه يشبه خط ابن مقلة ، توفي سنة ٣٩٢ هـ .

ظهور بنيه الذين هم الفروع ، إذ الفرع والأَصل شيءٌ واحد ، إلى كلام كثير لا يثبت للنقد .

وقال غيره : إن جميع ما في الحديث من مسح بيمينه وضرب منكبه ونحو هذا إنما هو عبارة عن إيجاد ذلك النسم منه ، واليمين عبارة عن القدرة ، أو يكون الماسح ملَكاً بأَمر الله عز وجلَّ فتضمن الحديث صدر القصة وإيجاد النسم من آدم ، وهذه زيادة على ما في الآية ، ثم تضمنت الآية ما جرى بعد هذا من أَخذ العهد والنسم حضور موجودون . وهي تحتمل معنيين : أَحدهما أَن يكون [أَخذَ] عاملا في «عهد» أَو «ميثاق» تقدره بعد قوله : [ذُرِّيَّتَهُم] ، ويكون قوله : ﴿مِن ظُهُورِهِم﴾ لبيان جنس البنوة ، إذ المراد من الجميع التناسل ، ويشركه في لفظة [بني آدَمَ] بنوه لصُلْبه وبنوه بالشفقة والحنان ، ويكون قوله : [ذُرِّيَّتَهم] بدلا من [بَني آدَمَ] . والمعنى الآخر أَنه لما كانت كل نسمة هنالك لها نسبة إلى التي هي من ظهرها كان تعيين تلك النسبة أَخْذًا من الظهر إذ ستخرج منه ، فهي المستأْنف ، فالمعنى : وإذ عينوا بهذه النسبة وعرفوا بها ، فذلك أَخْذٌ ما ، و [أَخَذَ] – على هذا – عامل في [ذُرِّيَّتَهم] وليس بمعنى مَسَح وأَوجد ، بل قد تقدم إيجادهم كما تقدم في الحديث المذكور ، فالحديث يزيد معنى على الآية وهو ذكر آدم وأَول إيجاد النسم كيف كان .

وقال الطُّرْطُوشي[١] : إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة كما يَلْزَمُ الطلاقُ من شُهِد عليه به وهو قد نسيه ــ إلى غير هذا مما ليس بتفسير ولا من طريقه .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [ذُرِّيَّاتِهِم] جمع جمع ، وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، [ذُرِّيَّتَهم] ، والإفراد هنا جمع ، وقد تقدم القول على لفظ الذُّرية في سورة آل عمران .

وروي في قصص هذه الآية أن الأَنبياء عليهم السلام كانوا بين تلك النَّسم ، وأن آدم عليه السلام رأى داود فأَعجبه ، فقال : من هذا ؟ فقيل : نبي من ذريتك ، فقال : كم عمره ؟ فقيل : ستون سنة ، فقال : زيدوه من عمري أَربعين سنة فزيدت ، قال : وكان عمر آدم أَلفاً ، فلما أَكمل تسعمائة وستين جاءَ ملك الموت فقال له آدم : بقي لي أَربعون سنة ، فرجع ملك الموت إلى ربِّه فأَخبره ، فقال له : قل له : إنك أَعطيتها لابنك داود ، فتوفي عليه السلام بعد أَن خاصم في الأَربعين[٢] . قال الضحاك بن مزاحم : من مات صغيراً فهو على

(١) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهدي الأندلسي ، أبو بكر الطُّرْطوشي ، من أهل طرطوشة بشرق الأندلس ، تفقه ببلاده ثم رحل إلى المشرق واستقر في الإسكندرية إلى أن توفي سنة ٥٢٠ هـ . كان زاهداً ، من كتبه : « سراج الملوك » و « مختصر تفسير الثعلبي » ، و « التعليقة » في الخلافيات من خمسة أجزاء ، وله كتاب كبير عارض به « إحياء علوم الدين » للغزالي . عن (وفيات الأعيان) و « الديباج » و « نفح الطيب » .

(٢) أخرج هذا الخبر عبد بن حميد ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، ورواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة . ولفْظُه كما رواه السيوطي في « الدر المنثور » قال: قال رسول الله =

العهد الأَول ، ومن بلغ فقد أَخذه العهد الثاني ، يعني الذي في هذه الحياة المعقولة الآن . وحكى الزجاج عن قوم أَنهم قالوا : إن هذه الآية عبارة عن أَن كل نسمة إذا ولدت وبلغت فنظرها في الأَدلة المنصوبة عهد عليها في أَن تؤمن وتعرف الله . وقد تقدم ذكر هذا القول ، وهو قول ضعيف منكّب عن الأَحاديث المأْثورة مُطّرح لها .

وقوله تعالى : [شَهِدْنَا] يحتمل أَن يكون من قول بعض النسم لبعض ، أَي : شهدنا عليكم لئَلا تقولوا يوم القيامة : غفلنا عن معرفة الله والإِيمان به ، فتكون مقالة من هؤلاءِ لهؤلاءِ ، ذكره الطبري ، وعلى هذا لا يحسن الوقف على قوله تعالى : [بَلَى] . ويحتمل أَن يكون قوله سبحانه : [شَهِدْنَا] من قول الملائكة فيحسن الوقف على قوله : [بَلَى] . قال السدي : المعنى : قال الله وملائكته : شهدنا ، ورواهُ عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقرأَ السبعة غير أَبي عمرو : [أَنْ تَقُولُوا] على مخاطبة حاضرين ، وقرأَ أَبو عمرو وحده : [أَنْ يَقُولُوا] على الحكاية عن غائبين ، وهي

= صلى الله عليه وسلم: لما خَلَق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : أي ربِّ من هؤلاءِ ؟ قال : هؤلاءِ ذُرِّيتك ، فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال : أي ربِّ من هذا ؟ فقال : رجل من آخر الأمم من ذُرِّيتك يقال له داود ، قال : أي ربّ وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : أي ربّ زِدْهُ من عمري أربعين سنة ، فلما انقضى عُمُرُ آدم جاءَ ملك الموت فقال : أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد فجحدت ذريته ، ونسي فنسيت ذريته .

قراءة ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن جبير ، وابن محيصن ، والقراءتان تتفسران بحسب المعنيين المذكورين . و [أَنْ] في موضع نصب على تقدير : مخافة أَنْ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

المعنى في هذه الآيات أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مُذكر بما تَضَمَّنه العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حُجَّتَان ـ إحداهما : كنا غافلين ، والأُخرى : كنا تَبَعاً لأَسلافنا فكيف نهلك والذنب إنما هو لمن طرّق[1] لنا وأَضلنا ، فوقعت شهادة بعضهم على بعض أَو شهادة الملائكة عليهم لتنقطع لهم هذه الحجج ، والاختلاف في [تَقُولُوا] أَو [يَقُولُوا] بحسب الأَول .

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ تقديره : وكما فعلنا هذه الأُمور وأَنفذنا هذه المقادير فكذلك نفصل الآيات ونُبَيِّنها

(١) طرّق الطريق : جعله سهلا حتى طرقه المارّة ، وطرّق له : جعَل له طريقاً . (المعجم الوسيط) .

لمن عاصرك وبُعثْت إليه . [لَعَلَّهم] على ترجِّيهم وترجِّيكم وبحسب نظر البشر [يَرْجِعُونَ] إلى طاعة الله ، ويدخلون في توحيده وعبادته . وقرأت فرقة : [يُفَصِّلُ] بالياء .

وقوله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية . [اتْلُ] معناه : قُصّ واسرُد ، والضمير في [عَلَيْهم] عائد على حاضري محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار وغيرهم ، واختلف المتأَولون في الذي أُوتي الآيات ـ فقال عبد الله بن مسعود وغيره : هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى ملِك مدْين داعياً إلى الله تعالى وإلى الشريعة ، وعَلَّمه من آيات الله ما يمكن أَن يدعو به وإليه ، فلما وصل رشاه الملِك وأَعطاه على أَن يترك دين موسى ويتابع الملِك على دينه ففعل ، وفتَن الملكُ به الناس وأَضلَّهم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو رجل من الكنعانيين الجبارين اسمه بلعم ، وقيل : بلعام بن عابر ، وقيل : ابن آبر ، وقيل غير هذا مما ذِكْرُه تطويل ، وكان في جملة الجبارين الذين غزاهم موسى عليه السلام ، فلما قرب منهم موسى لجؤوا إلى بلعام وكان صالحاً مستجاب الدعوة ، وقيل : كان عنده علم من صحف إبراهيم ونحوها ، وقال مجاهد : كان رشح للنبوة وأُعطيها فرشاه قومه على أَن يسكت ففعل .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول مردود لا يصح عن مجاهد ، ومن أُعطي النبوة فقد أُعطي العصمة ولابُدّ ، ثبت هذا بالشرع ، وقد نصّ معنى ما قلته

أَبو المعالي في كتاب الشامل ، وقيل : كان يعلم اسم الله الأَعظم ، قاله ابن عباس أَيضاً ، وهذا الخلاف في المراد بقوله تعالى : [آيَاتِنَا] ، فقال له قومه : ادع الله تعالى على موسى وعسكره ، فقال لهم : وكيف أَدعو على نبي مرسل ؟ فما زالوا به حتى فتنوه ، فخرج حتى أَشرف على جبل يرى منه عسكر موسى ، وكان قد قال لقومه : لا أَفعل حتى أَستأْمر ربِّي ، ففعل فسُكت عنه فأَخبرهم ، فقالوا له : إن الله لم يدع نهيك إلا وقد أَراد ذلك ، فخرج ، فلما أَشرف على العسكر جعل يدعو على موسى ، فتحول لسانه بالدعاءِ لموسى والدعاءِ على قومه ، فقالوا له : ما تقول ؟ فقال : إني لا أَملك إلا هذا وعلم أَنه قد أَخطأَ ، فروي أَنه قد خرج لسانه على صدره ، فقال لقومه : إني قد هلكت ولكن لم يبق لكم إلا الحيلة ، فأَخرجوا النساءَ إلى عسكر موسى على جهة التجرد وغيره ومُروهن أَلا تمتنع امرأَة من رجل فإنهم إذا زنوا هلكوا ، ففعلوا ، فخرج النساءُ فزنى بهن رجال بني إسرائيل ، وجاءَ فنحاص بن العيزار بن هارون فانتظم برمحه امرأَة ورجلا من بني إسرائيل ورفعهما على أَعلى الرمح ، فوقع في بني إسرائيل الطاعون فمات منهم في ساعة واحدة سبعون أَلفاً ، ثم ذكر المُعْتمِرْ [١] عن أَبيه أَن موسى عليه السلام قتل بعد ذلك الرجل المنسلخ من آيات الله ،

---

(١) المعْتَمر : هو راوي الخبر عن أبيه ، وعنه يروي محمد بن عبد الأعلى فابن جرير الطبري .

قال المهدوي : رُوى أنه دعا على موسى أَلَّا يدخل مدينة الجبارين فأُجيب ، ودعا عليه موسى صلى الله عليه وسلم أَن ينسى اسم الله الأَعظم فأُجيب ، قال الزجاج : وقيل : إن الإشارة إلى منافقي أَهل الكتاب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وصواب هذا أَن يقال : إلى كفار أَهل الكتاب لأَنه لم يكن منهم منافق ، إنما كانوا مجاهرين ، وفي هذه القصة روايات كثيرة اختصرتها لتعذر صحتها ، واقتصرت منها على ما يخص أَلفاظ الآية .(١)

وقالت فرقة : المشار إليه في الآية رجل كان قد أُعطي ثلاث دعوات مستجابات فترك أَن يدعو بها في مصالح العباد ، فدعا بواحدة أَن ترجع امرأته أَجمل النساء فكان ذلك ، فلما رأَت نفسها كذلك أَبغضته واحتقرته ، فدعا عليها ثانية فمسخت كلبة ، فشفع لها بنوها عنده فدعا لها الثالثة فعادت كما كانت ، ثم انصرفت إلى حالها ، فذهبت الدعوات .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : المشار إليه في الآية أُمية بن أَبي الصلت ، وكان قد أُوتي علماً ، وروي أَنه جاء يريد الإسلام فوصل إلى بدر بعد الوقعة بيوم أَو نحوه فقال :

---

(١) ليْتَه تركها لتَعَذُّر صحتها كما قال ، وإلا فالاختصار لا يكفي عند عدم الصحة .

من قتل هؤلاءِ ؟ فقيل : محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا حاجة لي بدين من قتل هؤلاءِ ، فارتد ورجع وقال : الآن حلت لي الخمر – وكان قد حرمها على نفسه – فمرّ حتى لحق بقوم من ملوك حمير فنادمهم حتى مات [١] .

و « انْسَلَخَ » عبارة عن البراءة منها والانفصال والبعد ، كالسلخ من الثياب والجلد ، و « أَتْبَعَهُ » صيَّره تابعاً ، كذا قال الطبري إما لضلالة رسمها له ، وإما لنفسه [٢] ، وقرأ الجمهور : [فَأَتْبَعَه] بقطع الألف وسكون التاءِ ، وهي راجحة لأنها تتضمن أنه لحقه وصار معه ، وكذلك ﴿فَأَتْبَعَه شِهَابٌ﴾ [٣] ، ﴿فَأَتْبَعَهم فِرْعَوْنُ﴾ [٤] ، وقرأ الحسن فيما روى عنه هارون [فَاتَّبَعَه] بصلة الألف وشدّ التاءِ ، وكذلك طلحة بن مصرف بخلاف ، وكذلك الخلاف عن الحسن – على معنى لازَمَه واتّبعه بالإغواءِ حتّى أغواه ، و [مِنَ ٱلْغَاوِينَ] أي : من الضالين .

(١) قال بهذا القول أيضاً زيدُ بن أسلم . كما نقله القرطبي . ثم قال القرطبي بعد نقل الخبر عن أمية : « وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (آمن شعْره وكفر قلبه) .

(٢) قال القرطبي : ﴿فَأَتْبَعَه الشَّيْطانُ﴾ أي : لحق به . يقال : أتبعتُ القومَ أي لحقتُهم .

(٣) تكررت في الآيتين : (١٨) من سورة (الحجر) في قوله تعالى : ﴿إلا مَن اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَه شِهَابٌ مُبين﴾ ، و (١٠) من سورة (الصافات) في قوله تعالى : ﴿إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِب﴾ .

(٤) تكررت أيضاً في آيتين – الأولى رقم (٩٠) من سورة (يونس) في قوله تعالى : ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾ ، والثانية رقم (٧٨) من سورة (طه) في قوله تعالى : ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ﴾

يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ فقالت فرقة : معناه : لأخذناه ، كما تقول : «رفع الظالم» إذا هلك ، والضمير في [بِهَا] عائد على المعصية في الانسلاخ ، وابتدأ وصف حاله بقوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلىٰ الأَرْضِ﴾ فهي عبارة عن إمهاله وإملاءِ الله له . وقال ابن أَبي نُجيح : [لَرَفَعْنَاهُ] معناه : لتوفيناه قبل أن يقع في المعصية ورفعناه عنها ، والضمير ـ على هذا ـ عائد على الآيات ، ثم ابتدأ وصف حاله . وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة معه : [لَرَفَعْنَاهُ] أَي : لشَرّفنا ذِكْره ورفعنا منزلته لدينا بهذه الآيات التي آتيناه ، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلىٰ الأَرْضِ﴾ فالكلام متصل ذُكِرَ فيه السبب الذي من أَجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره مِمَّن أُوتي هُدًى .

و [أَخْلَدَ] معناه : لازم وتقاعَسَ وثَبَت ، والمخْلِد : الذي يثبت شبابه فلا يغشاه الشيب ، ومنه الخُلْد ، ومنه قول زهير :

لِمَنِ الدِّيارُ غَشيتَهَا بالفَدْفَدِ   كالوَحْي في حَجَر المَسيل المخْلِدِ(١)

وقوله تعالى : [إلى الأَرْضِ] يحتمل أَن يريد : إلى شهواتها ولذاتها وما فيها من الملاذ ، قاله السدي وغيره ، ويحتمل أَن يريد بها العبارة عن الأَسفل والأَخسّ ، كما يقال : فلان في الحضيض ، ويتأَيد ذلك من جهة المعنى المعقول ، وذلك أَن الأَرض وما ارتكز فيها هي الدنيا ، وكل ما عليها فانٍ ، من أَخلد إليها فقد حُرم حظ الآخرة الباقية .

وقوله تعالى : ﴿فَمَثَلُه كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ قال السدي وغيره : إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأَنه كان يلهث كما يلهث الكلب فَشُبِّه به صورة وهيئة ، وقال الجمهور : إنما شُبِّه به في أنه كان ضالاً قبل أَن يؤْتَى الآيات ، ثم أُوتيها فكان أَيضاً ضالا لم تنفعه الآيات ، فهو كالكلب في أَنه لا يفارق اللَّهْثَ في حال حمل المشقة عليه وتركه

---

(١) البيت مطلع قصيدة لزهير يمدح بها سنان بن أبي حارثة المُرّي ، والفَدْفَد : المرتفع من الأرض فيه صلابة وحجارة ، والرواية في (اللسان والقرطبي) (الغَرْقَد) بالغيْن والراءِ والقاف بدلا من (الفدفد) — والمراد به بقيع الغرقد ، مقابر بالمدينة ، ورواية ابن عطية هي رواية الديوان . والوحي : المكتوب وإنما جعله في حَجَر المسيل لأنه أصلب ، هكذا قال في شرح الديوان . قال في (اللسان) : « والمُخْلِد من الرجال : الذي أسَنّ ولم يشب كأنه مخلّد لذلك » . وقال في (التهذيب) : « يقال للرجل إذا بقي سواد رأسه ولحيته على الكبر : إنّه لمخْلِد » وعليه قول مالك بن نويرة من قصيدة له (الأصمعيات) :

بأَنْباءِ حَيٍّ مِنْ قبَائل مالِكٍ   وعَمْرو بن يَرْبُوعٍ أَقاموا فَأَخْلَدوا

دون حمل عليه ، وتحرير المعنى : فالشيءُ الذي تتصوره النفوس من حاله هو كالذي تتصور من حال الكلب ، وبهذا التقدير يحسن دخول (الكاف) على (مَثَل) ، واللَّهْثُ : تنفُّسٌ بسرعة وتحرك أَعضاءِ الفم معه وامتداد اللسان ، وأَكثر ما يعتري ذلك مع الحر والتعب ، وهو في الفرس : ضَبْح ، وخِلْقة الكلب أَنه يلهث على كل حال ، وذكر الطبري أَن معنى : ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾[1] أَي تطرده ، وحكاه عن مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك داخل في جملة المشقة التي ذكرنا .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ أَي : هذا المثَل يا محمد مثَل هؤلاءِ القوم الذين كانوا ضالين قبل أَن تأْتيهم بالهدى والرسالة ، ثم جئتهم بذلك فبقوا على ضلالتهم ولم ينتفعوا بذلك ، فمثلهم كمثل الكلب . وقوله : ﴿فاقْصُصِ القَصَصَ﴾ أَي : اسرد عليهم ما يعلمون أَنه من الغيوب التي لا يعلمها إِلا أَهل الكتب الماضية ولست منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيؤمنون .

---

(١) جملةُ ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ جملة شرطية في موقع الحال ، والتقدير : فمثله كمثل الكلب لاهثا .

وقوله تعالى : ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ . قال الزجاج : التقدير : ساءَ مثلا مثل القوم ، لأَن الذي بعد بئس ونعْم إنما يتفسر من نوعه ، كما تقول : بئس رجلًا زيد . ولما انحذف (مثل) أُقيم [ٱلْقَوْم] مقامه ، والرفع في ذلك بالابتداء ، والخبر فيما تقدم . وقرأَ الجحدري : ﴿ساءَ مَثَلُ ٱلْقَوْم﴾ ورفع [مَثَلُ] على هذه القراءَة بـ [سَاءَ] ، ولا تجري (ساءَ) مجرى (بئس) إلا إذا كان ما بعدها منصوباً ، قال أَبو عمرو الداني : قرأَ الجحدري [مِثْلُ] بكسر الميم ورفع اللام ، وقرأَ الأَعمش : [مَثَلُ] بفتح الميم والثاءِ ورفع اللام .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا خلاف ما ذكر أَبو حاتم ، فإنه قال : قرأَ الجحدري ، والأَعمش : ﴿ساءَ مَثَلُ﴾ بالرفع .

وخُتمت هذه الآيات ــ التي تضمنت ضلال أَقوام والقول فيه ــ بأَن ذلك كله من عند الله ، الهداية منه وبخلقه واختراعه ، وكذلك الإِضلال ، وفي الآية تعجب من حال المذكورين ، ومن أَضلَّ فقد حكم عليه بالخسران . والثوابُ والعقابُ متعلق [١] بِكَسب ابن آدم [٢] .

---

(١) هكذا في الأصول ، ولعلّه أراد : «أمرهما متعلق» ــ أو : «كل منهما متعلق» ، أو نحو هذا .

(٢) هذه الآية ترد على القدرية ، وعلى من أنكر أن الله يضل من يشاء . وللطائفتين فيها تأويلات كلها متكلفة بعيدة ، وعلينا أن نأخذ بالظاهر الصريح الواضح وهو أن الله يهدي من =

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ﴾ خبر من الله تعالى أنَّه خَلَق لِسُكْنى جهنم والاحتراق فيها كثيراً ، وفي ضمنه وعيد للكفار . و (ذَرَأَ) معناه : خلَق وأَوْجَد مع بثٍّ ونشْر .

وقالت فرقة : اللام في قوله تعالى : [لِجَهَنَّم] هي لام العاقبة ، أي : ليكون أَمرهم ومآلهم لجهنم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ليس بصحيح ، ولام العاقبة إنما يتصور إذا كان فعل الفاعل لم يقصد به ما يصير الأَمر إليه ، وهذه اللام مثل التي في قول الشاعر :

يا أُمَّ فَرْو كفي اللَّوم واعْتَرفي فَكُلُّ والِدةٍ لِلْمُنْتَأَى تلِدُ [(١)]

= يشاء ويضل من يشاء ، وله الأمر كله سبحانه . وقد قال العلماء : إن قوله تعالى: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ حمل على لفظ (مَنْ) في قوله : ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حمل على معنى (مَنْ) في قوله : ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ . وحسَّنَ هذا كونُه فاصلة ورأس آية .

(١) لام العاقبة تسمى أيضاً لام الصيرورة ، ولام المآل . وقد حدَّد ابن عطية رحمه الله معناها تحديداً سليماً ، ومن أمثلتها قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ ، وقول سابق بن عبد الله البربري :

فَلِلْمَوْتِ تَغْذُو الوالداتُ سِخَالَها كما لِخَرَابِ الدُّور تُبْنَى المساكِنُ

وقول عبد الله بن الزبعري ، أو شُتَيم بن خويلد ، أو نُهيكة بن الحارث – على اختلاف في نسبة البيت :

فَإِنْ يَكُنِ الموتُ أَفْنَاهُمُ فَلِلْمَوْتِ ما تَلِدُ الْوَالِدَهْ

والبيت الذي استشهد به ابن عطية لم يستشهد به غيره ولم نقف على قائله، فالوالدة لا تلد للمنتأى =

وأما هنا فالفعل قصد به ما يصير الأَمر إليه من سُكْنَاهم جهنم ، وحكى الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال : «أَولادُ الزنى مما ذرأَ الله لِجَهَنَّم» ، ثم أَسند فيه حديثاً من طريق عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم(١) . وقوله تعالى : [كثيراً] وإن كان ليس بنص في أَن الكفار أَكثر من المؤمنين فهو ناظر إلى ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم : (قال الله لآدم : أَخرج بعث النار ، فأَخرج من كلِّ أَلف تسعةً وتسعين وتسعمائة)(٢) .

= ولكن المآل إلى ذلك ، وقد سميت لام العاقبة فراراً من أن تكون لام تعليل ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُون ﴾ ، فإثبات كونها للعلة يتنافى مع قوله سبحانه : (إلا لِيَعْبُدُون) .

(١) نص الحديث كما رواه ابن جرير – عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال : (إن الله لما ذرأ لجهنم ما ذرأ كان ولد الزنى ممَّن ذرأ لجهنم) . (عن تفسير الطبري) . قال بعض العلماء : يعني إذا عمل بعمل أبويه ، وذلك حتى لا يتعارض الحديث مع النصوص القرآنية التي تنفي عن الإنسان مسئولية ما عمله غيره .

(٢) هذا الحديث رواه البخاري في كتاب الأنبياء ، وفي تفسير سورة الحج ، وفي كتاب الرقاق وكتاب التوحيد ، ورواه مسلم في الإيمان ، والفتن ، ورواه الترمذي في تفسير سورة الحج ، ورواه الإمام أحمد في مواطن كثيرة – ولفظه كما رواه البخاري . قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة : يا آدم ، فيقول : لبيك ربنا وسعديك ، فينادَى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : يارب وما بعثُ النار ؟ قال : من كل ألف أُراه قال : تسعمائة وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال : ثلث أهل الجنة فكبرنا ، ثم قال : شطر أهل الجنة ، فكبرنا) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

وُصِفت هذه الصِّنْفَة[١] الكافرة المعرضة عن النظر في آيات الله بأَن قلوبهم لا تفقه ، وأَعينهم لا تبصر ، وآذنهم لا تسمع ، وليس الغرض من ذلك نفي هذه الإِدراكات عن حواسهم جملة ، وإِنما الغرض نفيها في جهة ما كما تقول : فلان أَصم عن الخَنَا[٢] ، ومنه قول مسكين الدارمي :

أَعْمَى إذا ما جارَتي خَرَجَتْ ... حَتى يُوَاري جـارَتي السِّتْرُ
وأَصَمُّ عمَّــا كان بَيْنَهُمَا ... عَمْداً وما بالسَّمْعِ مِنْ وَقْرِ[٣]

(١) جاء في اللسان عن شَمِر : « والصِّنْفَةُ طائفة من القبيلة » . (اللسان — صنف)

(٢) الخَنَا : الفُحْش من الكلام . (المعجم الوسيط) .

(٣) اختلفت الروايات في كلمة (عمداً) — ففي بعض النسخ جاءت (عُمْراً) — ورواية الطبري (سَمْعي) وهي التي تلتقي مع قوله بعدها : ﴿وما بالسَّمْع مِن وقْر﴾ — ورواية البحر المحيط » مثل رواية ابن عطية هنا — لكنه اختلف عن الجميع في الجملة الأخيرة فرواها (وما بالسَّمْع لي وقْر) — وهي التي تناسب البيت السابق إذ حرف الروي فيه مرفوع . هذا والعمى : ذهاب البصر ، والصمم : ذهاب السمع — والشاعر يصف نفسه بأنه يكف عينيه وأُذنيه عن جاراته فلا ينظر إليهن ، ولا يسمع ما يجري بينهن من حديث كأنه أعمى أصم . وليس به في الحقيقة عمى ولا صمم وإنما هو الترفع عن القبيح ورِعَاية حقوق الجار .

ومنه قول الآخر :

وعَوْرَاءِ الكَلام صَمَمْتُ عَنْها وَلَوْ أَنِّي أَشَاءُ بها سَمِيعُ
وبادِرَةٍ وَزَعْتُ النَّفْسَ عَنْهَا وقد بَقِيَتْ مِنَ الْغَضَبِ الضُّلوعُ (١)

ومنه قول الآخر في وصاة من يدخل إلى دار مَلِك :

وادْخُلْ إذا ما دخَلْتَ أَعْمى واخْرُج إذا مَا خَرَجْتَ أَخْرَسْ (٢)

فكأَن هؤلاءِ القوم لما لم ينفعهم النظر بالقلب ولا بالعين ولا ما سمعوه من الآيات والمواعظ استوجبوا الوصف بأَنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون ، وفسّر مجاهد هذا بأَن قال : لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أمر الآخرة ، وأَعين لا يبصرون بها الهدى ، وآذان لا يسمعون بها الحق . و [أُولٰئِكَ] إشارة إلى من تقدم ذكره من الكفرة ، وشبَّههم بالأَنعام في أَن الأَنعام لا تفقه قلوبها الأَشياءَ ، ولا تعقل المقاييس ، وكذلك ما تبصره لا يتحصل لها كما يجب ، فكذلك هؤلاءِ ما يبصرونه ويسمعونه لا يتحصل لهم منه علم على

(١) العوراء : الكلمة القبيحة ، كأَنها تُعور العين فتمنعها من حدة النظر ، ثم حوّلوها إلى الكلمة على المثل — هكذا جاء في اللسان ، قال : وإنما يريدون في الحقيقة صاحب الكلمة . والبادرة : الكلمة أو الفعلة القبيحة ، أو الغضبة السريعة . وَوَزَعْتُ النّفْسَ عنها : كففْتها ومنعتها — ورواية الألوسي : «وإني لو أشاءُ» ، ورواية الطبري : «ولَوْ بينَتْ من العَصَب الضلوع» . وفي بعض النسخ في أصول ابن عطية : «وقد نَقِيَتْ» من النقاءِ بالنون . ولم نَقف على قائل البيتين فيما بين أيدينا من المراجع .

(٢) ينصحه بأن يدخل وقد كفّ بصره عن أن يرى شيئاً ، فإذا ما خرج فعليه أن يكف لسانه فلا يتحدث عن شيء مما رآه ، وهو لا يريد طبعاً العمى الحقيقي ولا الامتناع عن الكلام لعجز خِلْقي . ولم نقف على قائل هذا البيت ، كما لم نجد أحداً من المفسرين استشهد به غير ابن عطية رحمه الله .

ما هو به حين أُبصر وسُمع . ثم حكم عليهم بأَنهم أَضل ، لأَن الأَنعام تلك هي بِنْيَتُهَا وخِلْقَتُها ، لا تقصّر في شيءٍ ، ولا لها سبيل إلى غير ذلك ، وهؤلاءِ مُعَدُّون للفهم ، وقد خُلقت لهم قوى يُصَرِّفونها ، وأُعطوا طرقاً في النظر ، فهم – بغفلتهم وإعراضهم – يلحقون أَنفسهم بالأَنعام ، فهم أَضَلُّ على هذا . ثم بيَّن بقوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ﴾ الطريق الذي به صاروا أَضَلَّ من الأَنعام وهو الغفلة والتقصير .

وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآية . السبب في هذه الآية على ما رُوي أَن أَبا جهل سمع بعض أَصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقرأُ فيذكر الله في قراءته ، ومرة يقرأُ فيذكر الرحمن . ونحو هذا فقال : محمد يزعم أَن الإِلٰه واحد وهو إنما يعبد آلهة كثيرة ، فنزلت هذه .

و[الأَسْماءُ] هنا بمعنى : التسميات إجماعاً من المتأَولين لا يمكن غيره (١)

---

(١) ناقشه أبو حيان في « البحر المحيط » فقال : « ولا تحرير فيما قال لأن التسمية مصدر والمراد هنا الألفاظ التي تطلق على الله تبارك وتعالى ، وهي الأوصاف الدالة على تغاير الصفات لا تغاير الموصوف ، كما تقول : جاء زيد الفقيه الشجاع الكريم » – ويرى الرازي في « لوامع البيِّنات » أن تفسير الأسماء بالتسميات غير معقول ، لأن مفهوم التسمية وضع الاسم للمُسَمَّى ، فلو فُرض أن الاسم هو نفس المُسمَّى لكان وضع الأسماء لِمُسَمَّياتها عبارة عن وضع الشيء لنفسه ، وهو أمر غير معقول ». وقال القاضي أبو بكر في كتاب « التمهيد » : « وتأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن لله تسعة وتسعين اسماً مَنْ أحصاها دخل الجنة » أي أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف ، وهي عبارات عن كون الله تبارك وتعالى على أوصاف شتى ، منها مايستحقه لنفسه ، ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به ، وأسماؤه العائدة لنفسه هي هو ، وماتعلق بصفة له فهي أسماءٌ له ، ومنها صفات لذاته ، ومنها صفات أفعال ، وهذا هو تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أي : « التسميات الحسنى » . اهـ .

و [ٱلْحُسْنَى] مصدر وصف به ، ويجوز أن تقدر [ٱلْحُسْنَى] فُعْلَى مؤنثة (أَحْسن) فأفرد وصف جميع مالا يعقل ، كما قال ﴿مَآرِبُ أُخْرَى﴾[١] ، وكما قال : ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[٢] ، وهذا كثير . وحُسْن الأَسماءِ إنما يتوجه بتحسين الشرع لإطلاقها ، والنص عليها ، وانضاف إلى ذلك أيضاً أنها إنما تضمنت معاني حسانا شريفة .

واخْتَلَف الناس في الاسم الذي يقتضي مدحاً خالصاً ولا يتعلق بِه شُبهة ولا اشتراك إلَّا أنه لم يُرَ مَنْصوصاً ـ هل يطلق ويسمى الله به ؟ ـ فنص ابن الباقلاني على جواز ذلك ، ونص أبو الحسن الأَشعري على منع ذلك ، والفقهاءُ والجمهور على المنع ، وهو الصواب أَلَّا يُسمى الله تعالى إلا باسم قد أَطلقته الشريعة ووقفت عليه أَيضاً ، فإن هذه الشريطة التي في جواز إطلاقه من أن يكون مدحاً خالصاً لا شبهة فيه ولا اشتراك أَمرٌ لا يحسنه إلَّا الأَقل من أَهل العلوم ، فإذا أُبيح ذلك تسَوَّر عليه من يظن بنفسه الإحسان وهو لا يحسن ، فأَدخل في أَسماءِ الله مالا يجوز إجماعاً .

واختُلِف أَيضاً في الأَفعال التي في القرآن مثل قوله تعالى : ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[٣] ، ﴿وَمَكَرَ اللهُ﴾[٤] ، ونحو ذلك ـ هل يطلق منها

(١) من الآية (١٨) من سورة (طه) .
(٢) من الآية (١٠) من سورة (سبأ) .
(٣) من الآية (١٥) من سورة (البقرة) .
(٤) من الآية (٥٤) من سورة (آل عمران) .

اسم الفاعل؟ – فقالت فرقة : لا يُطلق ذلك بوجه ، وجوَّزت فرقة أَن يقال ذلك مُقَيّداً بسببه ، فيقال : «الله مستهزئ بالكافرين» «وماكرٌ بالذين يمكرون بالدين» ، وأَما إطلاق ذلك دون تقييد فممنوع إجماعاً . والقول الأَول أَقوى ، ولا ضرورة تدفع إلى القول الثاني لأَن صيغة الفعل الواردة في كتاب الله تغني ، ومن أَسماءِ الله تعالى ما ورد في القرآن ، ومنها ما ورد في الحديث وتواتر ، وهذا هو الذي ينبغي أَن يُعتمد عليه . وقد ورد في الترمذي حديث عن أَبي هريرة ونصَّ فيه تسعة وتسعين اسماً ، وفي بعضها شذوذ [1] ، وذلك الحديث ليس بالمتواتر [2] ، وإنما المتواتر منه قول النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) هذا الحديث أخرجه أيضاً مع الترمذي ابنُ المنذر ، وابن حبان ، وابن منده ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي – عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لله تسعةً وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر ، هو الله الذي لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئْ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدئ ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، الوالي ، المتعال ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور . (عن الدر المنثور) .

(٢) يريد بالمتواتر هنا الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ولو كان حديث آحاد ، ولا يريد التواتر الاصطلاحي .

(إن لله تسعةً وتسعين اسماً ، مائة إلَّا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة)(١) ، ومعنى أحصاها : عدَّها وحفظها ، وتضمن ذلك الإيمان بها والتعظيم لها والرغبة فيها والعبرة في معانيها ، وهذا حديث البخاري ، والمتحصل منه أن الله تبارك وتعالى هذه الأَسماءَ مباحاً إطلاقها . وورد في بعض دعاءِ النبي صلى الله عليه وسلم : (يا حنَّان يا منَّان) ، ولم يقع هذان الاسمان في تسمية الترمذي .

وقوله تعالى : ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ إباحة بإطلاقها ، وقوله تعالى : ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ﴾ قال ابن زيد : معناه : اتركوهم ولا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم ، فالآية – على هذا – منسوخة بالقتال ، وقيل : معناه الوعيد كقوله تبارك وتعالى : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾(٢) ، وقوله : ﴿ذَرْهُم يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾(٣). ويقال : أَلْحَدَ وَلَحَدَ بمعنى جارَ ومالَ وانحرف، وأَلْحَدَ: أَشْهَر ، ومنه قول الشاعر :

. . . . لَيْسَ الإمـــامُ بالشَّحيح المُلْحِدِ (٤)

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذي . والنسائي ، وابن ماجة ، وابن خزيمة ، وأبو عوانة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وأبو عبد الله ابن منده في التوحيد ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات. عن أبي هريرة – وفي آخره زيادة عما هنا (إنه وتر يحب الوتر) – (الدر المنثور) .

(٢) الآية (١١) من سورة (المدثر) .

(٣) من الآية (٣) من سورة (الحجر) . ومثل هذه الآية والتي في المدثر في الوعيد قوله تبارك وتعالى : ﴿وَذَرْنِي والْمُكَذِّبين أُولي النَّعْمَةِ﴾ .

(٤) هذا عجز بيت قاله حميد بن ثور ، والبيت بتمامه :

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبين قَــدي ليس الإمامُ بالشَّحيح المُلْحِـــد

وذكر في (اللسان) أن ابن بري قال : « البيت المذكور لحميد بن ثور هو لحميد الأرْقط ، وليس هو لحميد بن ثور الهلالي كما زعم الجوهري ، قال : وأراد بالامام هنا عبد الله بن الزبير ».

قال أبو عليّ : ولا يكاد يسمع لَاحِد ، وفي القرآن ﴿وَمَنْ يُرِدْ فيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ [١] ، ومنه لحد القبر المائل إلى أحد شقّيه .

وقرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : [يُلْحِدونَ] بضم الياءِ وكسر الحاءِ ، وكذلك في النحل والسجدة . وقرأ حمزة الأَحرف الثلاثة [٢] : [يَلْحَدونَ] بفتح الياءِ والحاءِ ، وكذلك ابن وثاب ، وطلحة ، وعيسى ، والأَعمش .

ومعنى الإلحاد في أَسماءِ الله عزَّ وجلَّ أن يُسَمُّوا اللات نظيراً إلى اسم الله تعالى ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، والعُزَّى نظيراً إلى العزيز ، قاله مجاهد ، ويسمُّون الله ربًّا ويسمون أَوثانهم أَربابا ، ونحو هذا .

وقوله تعالى : ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وعيد محض بعذاب الآخرة ، وذهب الكسائي إلى الفرق بيْن أَلْحَدَ ولَحَدَ ، وزعم أن أَلْحدَ بمعنى مال وانحرف ، ولَحَدَ بمعنى ركن وانضوى ، قال الطبري : وكان الكسائي يقرأ جميع ما في القرآن بضم الياءِ وكسر الحاءِ إلَّا التي في النحل فإنه كان يقرؤُها بفتح الياءِ والحاءِ ويزعم أَنها بمعنى الركون ، وكذلك ذكر عنه أَبو علي .

(١) من الآية (٢٥) من سورة (الحج) .

(٢) يريد بالأحرف الثلاثة هذه الآية من سورة (الأعراف) ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ في أَسْمَائِهِ﴾ — وقوله تعالى في الآية (١٠٣) من سورة النحل : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ . وقوله تعالى في سورة (فصلت) في الآية (٤٠) : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ . ونلحظ أنه أطلق على سورة فصلت اسم (السجدة) ، وتسمى كذلك ، ويفرق بينها وبين سورة السجدة (بين لقمان والأحزاب) بأن هذه تسمى (حم السجدة) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى
مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾
أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن
يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

هذه آية تتضمن الخبر عن قوم مخالفين لمن تقدم ذكرهم في أنهم أهل إيمان واستقامة وهداية . وظاهر لفظ هذه الآية يقتضي كلَّ مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة . قال النحاس : فلا تخلو الدنيا في وقت من الأَوقات من داع يدعو إلى الحق .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

سواءٌ بَعُد صوته أَو كان خاملا .

ورُوي عن كثير من المفسرين أنها في أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورُوي في ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (هذه الآية لكم ، وقد تقدم مثلها لقوم موسى) . (١)

---

(١) أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر — عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأها : (هذه لكم ، وقد أُعطي القوم بيْن أيديكم مثلها) ﴿ وَمِنْ قَوْمِ موسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدلونَ ﴾ . (الدر المنثور ٣–١٤٩) .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية وعيد . والإشارة إلى الكفار ، و [سَنَسْتَدْرِجُهُم] معناه : سنسوقهم شيئاً بعد شيءٍ ودرجة بعد درجة بالنِّعم عليهم والإمهال لهم حتى يغترُّوا ويظنوا أنهم لا ينالهم عقاب . وقوله تعالى : ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه : من حيث لا يعلمون أنه استدراج لهم ، وهذه عقوبة من الله على التكذيب بالآيات ، لمَّا حَتَمَ[1] عليهم بالعذاب أملى لهم ليزدادوا إثماً . وقرأ ابن وثاب ، والنَّخَعي : [سَيَسْتَدْرِجُهُم] بالياءِ[2] .

وقوله تعالى : [أُمْلِي] معناه : أُؤخر مِلاءَة من الدهر ، أي مُدَّة . وفيها ثلاث لغات : فتح الميم وضمها وكسرها . وقرأ عبد الحميد

---

(١) المتداول في كتب اللغة والمعاجم أن (حَتَم) تتعدى بنفسها كما في القاموس ، واللسان ، وأساس البلاغة ، قال في (اللسان) : « حَتَم الله الأمر يحتمه : قضاه » وجاء في (أساس البلاغة) : « حَتَم الله الأمر : أوجبه » ، وقد تتعدى بعلى ، قال في اللسان : « حَتَمْتُ عليه الشيءَ : أوجَبْتُ » ، ولكن ورد في المعاجم أنها تتعدى بالباء أيضاً ، قال في (أساس البلاغة) : حَتَم الحاتم بكذا أي حكم الحاكم » ، وجاء في (المعجم الوسيط) : « حَتَم بكذا حتما : قضى وحكم » . وعلى هذا يكون تعبير ابن عطية صحيحاً .

(٢) الاستدراج هو الأخذ بالتدريج ، منزلة بعد منزلة ، والدَّرْج : لفُّ الشيء ، يقال : أدرجته ودرجته ، وقيل : هو من الدرجة ، فالاستدراج أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود . قال الضحاك : «كلما جددوا لنا معصية جدَّدنا لهم نعمة» ، وقيل لذي النون : ما أقصى ما يُخْدع به العبد ؟ قال : بالألطاف والكرامات ، ولذلك قال سبحانه : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ ، أي : نُسبغ عليهم النعم ونُنسيهم الشكر ، وأنشدوا :

أحْسَنْتَ ظَنَّكَ بالأيَّام إذ حَسُنَت ... ولم تخف سوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وَسَالَمَتْكَ اللّيَالي فاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وعنْد صفْوِ اللّيالي يَحْدُثُ الكَدَرُ

عن ابن عامر : ﴿أَنَّ كَيْدِي﴾ على معنى : لأَجل أَنَّ كيدي ، وقرأ جمهور الناس وسائر السبعة : ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ على القطع والاستئناف .

و [مَتِينٌ] معناه : قوي ، قال الشاعر :

لآلٍ عَلَيْنَا واجبٌ لا نُضِيعُهُ مَتِينٌ قُوَاهُ غَيْرُ مُنْتَكَثِ الْحَبْلِ (١)

وروى ابن إسحق في هذا البيت «أَمين قواه» . وهو من المَتْن الذي يُحمل عليه لقوته ، ومنه قول الشاعر وهو امرؤ القيس :

لَهَا مَتْنَتَان خَظَاتَا كَمَا أَكَبَّ على سَاعِدَيْهِ النَّمِرْ (٢)

وهما جنبتا الظهر ، ومنه قول الآخر :

عَدَلْنَ عُدولَ اليأْس وافتج يبْتَلَى أَفانين من أَلهوب شدّ مماتن (٣)

(١) الآل : الأهْلُ ، والحبل المنتكث : المنقوض ، يقال : حبل نكِثٌ ونكيثٌ وأنكاثٌ : منكوث ، ومن المجاز نكث العهد بمعنى نقضه . والمعنى أنهم يعرفون واجب الأهل عليهم فلا يضيعونه ، ولا ينقضون التزاماً فرضه عليهم حق القرابة . وهذا ولم نقف على قائل البيت .

(٢) يصف الشاعر في البيت امرأة اسمها (هِرّ) ، وهو بيت من قصيدة ذات معان سياسية استطرد منها إلى وصف هذه المرأة ، ومَتْنَتان مثنّى مَتْنة : لَحْمتان معصوبتان بينهما صُلْب الظهر مَعْلُوّتان بِعَقَب ، وقيل : متنا الظهر مكتنفا الصُّلْب عن يمين وشمال من عصب ولحم ، يذكّر ويؤنث . وخظاتا : اكتنزتا ، وأكَبَّ على الشيء : انحنى عليه . وقد استشهد بالبيت في (اللسان) على لغة من قال (مَتْنَة) وقال : إنه في وصف الفرس .

(٣) هكذا وجدنا البيت في النسخ التي بين أيدينا ، ولم نفهم له معنى ، ووجدناه في تفسير الطبري هكذا :

عَدَلْنَ عُدولَ الناسِ واقْبِح يُبْتَلَى أفاسٌ مِنْ الهُـرّابِ شدَّ مَماتِنُ

وقال المحقق : «لم أعثر على هذا البيت ، ولا على قائله ، وأثبته كما رأيته في الأصل ، وهو محرف غامض» . وليس من مهمتنا أن نحاول إصلاح وزن البيت أو تغيير ألفاظه حتى يستقيم المعنى ، إذ قد نفعل ذلك ونكون بعيدين عن الرواية الصحيحة له .

ومنه قول امرئ القيس :

ويَخْدي على صُمٍّ صِلابٍ مَلاطِسٍ   شديدات عَقْد لَيِّنات مِتَان [١]

ومنه الحديث في غزوة بني المُصْطَلَق : (فَمَتَن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس) أي : سار بهم سيراً شديداً لينقطع الحديث بقول ابن أُبيّ بن سلول : ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إلى ٱلْمَدِينَة﴾ الآية [٢] .

وقوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ الآية . تقرير يقارنه توبيخ للكفار ، والوقف على قوله ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ، ثم ابتدأ القول بنفي ما ذكروه : ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون المعنى : أو لم يتفكروا أنه ما بصاحبهم من جنة ؟ .

وسبب نزول هذه الآية فيما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد ليلا على الصَّفا فجعل يدعو قبائل قريش : يا بني فلان ، يا بني

---

(١) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها :

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي   كَخَطِّ زبور في عَسِيبِ يَمَانِ

وقد رواه في اللسان بلفظ (وتَرَدى) بدلا من (ويخدي) – ويَخْدي الفرس : يسرع ويزُجُّ بقوائمه ، وهو من (خدَى يخدي) على وزن (جرى يجري) . وصمّ : وصف لحوافر الفرس ، يصفها بأنها صماء أي صلبة مصمتة ، وملاطس : جمع مِلْطاس وهو المعول الغليظ لكسر الحجارة ، أو حجر ضخم يدقُّ به النوى ، وقال أبو خيرة : المِنْطَسُ : ما نقرت به الأرحاء ، وشديداتُ عَقْد يعني بها عقد الأرساغ فهي شديدة مع لين المفاصل ورطوبتها . ومِتَان : صلابٌ – وهي موضع الشاهد هنا .

(٢) من الآية (٨) من سورة (المنافقون) .

فلان ، يحذرهم ويدعوهم إلى الله ، فقال بعض الكفار حين أصبحوا : هذا مجنون بات يصوت حتى الصباح [١] فنفى الله عزَّ وجلَّ ما قالوه من ذلك في هذا الموطن المذكور وفي غيره ، فإن الجنون بعض ما رَموْه به حتى أظهر الله نوره ، ثم أخبر أنه نذير أي مُحَذِّرٌ من العذاب ، ولفظ النذارة إذا جاء مطلقاً فإنما هو في الشرِّ ، وقد يستعمل في الخير مقيّداً به ، ويظهر من رصف الآية أنها باعثة لهم على الفكرة في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه ليس به جِنَّة ، وكما أحالهم بعد هذه الآية على النظر ثم بيّن المنظور فيه كذلك أحال هنا على الفكرة ثم بيَّن المتفكر فيه .

وقوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية . هذا أيضاً توبيخ للكفار وتقرير ، والنظر هنا بالقلب عبرة وفكراً . و [مَلَكُوت] بناءُ عظمة ومبالغة ، وقوله سبحانه : ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظ يعم جميع ما ينظر فيه ويُستدل به ، من الصنعة الدّالَّة على الصانع ، ومن نفس الإنسان وحواسّه ومواضع رزقه . والشيءُ واقع على الموجودات . وقوله : ﴿وَأَنْ عَسَى﴾ عطف على قوله : ﴿فِي ملَكُوت﴾ . و [أَنْ] الثانية في موضع رفع بـ [عَسَى] ، والمعنى توقيفهم على أَنَّه لم يقع لهم نظر في شيءٍ من هذا ، ولا في أنه قربت آجالهم فماتوا ففات أوان الاستدراك ووجب عليهم المحذور .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة . وفيه (بات يهوِّت حتى الصباح) . (الدر المنثور ٣ـ١٤٩) . ومعنى يهوِّت : يصوِّت .

ثم وقفهم بأَي حديث أَو أَمر يقع إِيمانهم وتصديقهم إِذا لم يقع بأَمر فيه نجاتُهم ودخولهم الجنة ؟ ونحو هذا قول الشاعر :

* وعنْ أَيِّ نَفْسٍ بعْدَ نَفْسي أُقاتِلُ ؟ *

والضمير في قوله سبحانه : [بعْدَهُ] يراد به القرآن . وقيل : المراد به محمد صلى الله عليه وسلم وقصّته وأَمْره أَجمع ، وقيل : هو عائد على الأَجل إذ لا عمل بعد الموت .

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

هذا شرط وجواب مضمنه اليأْسُ منهم والمقت لهم ، لأَن المراد أَن هذا قد نزل بهم وأَنهم مثال لهذا .

وقرأَ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، والحسن ، وأَبو جعفر ، والأَعرج ، وشيبة ، وأَبو عبد الرحمن ، وقتادة [ونَذَرُهُم] بالنون ورفع الراءِ ، وكذلك عاصم في رواية أَبي بكر ، وروى عنه حفص [وَيَذَرُهم] بالياءِ والرفع ، وقرأَها أَهل مكة ، وهذا على إِضمار مبتدأ :

«ونحن نذرهم» ، أو على قطع الفعل واستئناف القول .(١) وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو عمرو ـ فيما ذكر أبو حاتم ـ بالياءِ والجزم ، وقرأها كذلك طلحة بن مصرف ، والأعمش [ويَذَرْهم] بالياءِ وبالجزم عطفاً على موضع الفاءِ وما بعدها من قوله تعالى : ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ لأَنه موضع جزم ، ومثله قول أَبي داود :

فابْلُوني بَلِيَّتَـــكُمْ لَعَلِّي أُصَالِحُكُمْ وَأَسْتَدْرِجْ نَوِيًّا(٢)

ومنه قول الآخر :

أَنَّى سَلَكْتَ فَإِنَّنِي لَكَ كَاشِـحٌ وعَلَى انْتِقَاصِكَ في الْحَيَاةِ وَأَزْدَد(٣)

(١) قال ابن خالويه : «الحجة لمن قرأ بالنون والرفع أنه استأنف الكلام ، لأنه ليس قبله ما يردُّه بالواو عليه». وكذلك الأمر مع القراءة بالياءِ والرفع فهي على الاستئناف كما قال ابن عطية رحمه الله ، أما قراءة الياءِ والجزم فهي عند ابن خالويه كما قال ابن عطية بالعطف على موضع الفاءِ في الجواب من قوله تعالى ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ .

(٢) الشاعر يطلب الإنعام والعطاءَ بقوله «فابْلُونِّي» ، ذلك لأن البلاءَ قد يكون بمعنى الإنعام ، قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِين﴾ وفي الحديث : (مَن أُبْلِيَ فَذَكَر فقَدْ شَكَرَ) بمعنى : من أنعم عليه وأُحْسِن إليه ، ويكون بمعنى الإعطاءِ وبلوغ العذر كما في الحديث (أَبْلِ اللهَ تعالى عُذْراً في برِّهما) أي الوالدين . والبَلِيَّة : الناقة يموت صاحبها فيحفر لديها حفرة وتُشد رأسها إلى خلفها وتُبْلَى أي تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً . والنَّوِيُّ : الرفيق ، وقيل : الرفيق في السفر خاصة ، أو هو صاحبك الذي نِيَّتُهُ نِيَّتُكَ ، وفي نوادر الأعراب : فلان نَوِيُّ القوم أي صاحب أمرهم ورأيهم ـ ورُوِيت (سَوِيًّا) بالسين ـ وسَوِيُّ الرجل هو من يساويه . والشاهد في قوله : وأَستدْرِج بالسكون ، ومثله قوله تعالى : ﴿فهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ويُكَفِّرْ﴾ في قراءة الجزم .

(٣) السلوك في المكان : مصدر سَلَكَ ، يقال : سلَكَ المكان وبه وفيه سَلْكا وسُلُوكاً : دخل ونفذ . والكاشِحُ : العدوُّ المُبْغض كأنه يطويها في كَشْحِهِ ، أو كأنه يُوَلِّيك كشحَه ويُعرض عنك بوجهه ، وانتقص الرجل : نسب إليه النُّقصانَ ، وفلان ينتقص فلاناً أي : يقع فيه ويَثلبُه . وأَزْدَد أصلها : أَزْدادُ مضارع : ازْدَادَ وقد حذفت منها الألف لالتقاء الساكنين .

قال أبو علي : ومثله في الحمل على الموضع قوله تعالى : ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١) ، لأنك لو لم تلحق الفاء لقلت (أَصَّدَّقْ)(٢) ، وروى خارجة عن نافع : [ونَذَرْهم] بالنون والجزم . والطغيانُ : الإفراط في الشيءِ ، وكأنه مستعمل في غير الصلاح ، والعَمَه : الحيرة(٣) .

وقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ الآية . قال قتادة بن دِعَامَة(٤) : المراد : يسألك كفار قريش ، وذلك أن قريشاً قالت : يا محمد إنا قرابتك فأخبرنا بوقت الساعة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : المراد بالآية اليهود ، وذلك أن جبل بن أبي قشير ، وسمويل

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (المنافقون) .

(٢) يرى ابن عطية في الآية أنَّ (وأكُنْ) معطوفة على الموضع ، لأن التقدير : «إنْ تُؤَخِّرْنِي أصَّدَّقْ وأكُنْ» ، ولهذا قال هنا : «إنَّكَ لو لمْ تُلحق الفاء لقلت (أَصَّدقْ) ، وهذا هو مذهب أبي علي الفارسي ، ومذهب سيبويه أنه لاموضع ها هنا ، وأنَّ جزْم (وأكُنْ) جاء على توهم الشرط الذي يدل عليه بالتمنِّي . ولا موضع هنا لأن الشرط ليس بظاهر ، فإن ظهر الشرط جاز العطف على الموضع كقوله تعالى : ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرْهُمْ﴾ في قراءة الجزم .

(٣) حكى أهلُ اللغة : عَمِه الرجل يعْمَه عُمُوها وعَمَهَا فهو عَمِهٌ وعامِهٌ إذا حارَ ، والجمع : عُمْهٌ . والعمى في العين ، والعمه في القلب .

(٤) هو قتادة بن دِعَامة بن قتادة بن عُزيز ، أبو الخطاب السدوسي البصري : مفسِّر حافظ ضرير أكْمَه ، قال الإمام أحمد بن حنبل : قتادة أحفظ أهل البصرة . وكان مع علمه بالحديث رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنَّسب ، وكان يرى القدر ، وقد يدلِّس في الحديث ، مات بواسط في الطاعون ١١٨ هـ . (عن تذكرة الحفاظ ١ـ١١٥ ، وابن خلكان ١ـ٤٢٧ ، وطبقات المدلِّسين ١٦ ـ والأعلام ٦ـ٢٧) .

ابن زيد قالا له : إنْ كنت نبياً فأَخبرنا بوقت الساعة فإنا نعرفها ، فإن صدقت آمنا بك .

و [السَّاعَة] : القيامة ، موت كل شيءٍ كان حينئذ حيّاً وبعث الجميع هو كلّه يقع عليه اسم الساعة واسم القيامة . و [أَيَّان] معناها : متى . وهو سؤال عن زمان ، ولتضمنها الوقت بُنِيَت ، وقرأَ جمهور الناس : [أَيّانَ] بفتح الهمزة ، وقرأَ السُّلَمِيُّ : [إِيَّانَ] بكسر الهمزة ، ويشبه أَن يكون أَصلها «أَيّ آن» وهي مبنية على الفتح . وقال الشاعر :

أَيَّانَ تَقْضي حَـــاجَتِي أَيَّانا أَمَا تَرى لِفِعْلِها إِبَّانَا ؟ (١)

قال أَبو الفتح : وزن (أَيّان) بفتح الهمزة : فَعْلان ، وبكسرها : فِعْلان ، والنون فيهما زائدة . و [مُرْسَاهَا] رفع بالابتداءِ ، والخبر [أَيّان] ، ومذهب المبرد أَن [مُرْساهَا] مرتفع بإِضمار فعل ، ومعناه : مثبتها ومنتهاها ، مأَخوذة من أَرْسى يُرْسي . ثم أَمر الله عزَّ وجلَّ بالردّ إليه والتسليم لعلمه . و [يُجَلِّيها] معناه : يظهرها . والجلاءُ :

---

(١) قال في اللسان : «أيَّان : معناه : أيُّ حين ، وهو سؤال عن زمان مثل متَى ، قال ابن سيدة : ينبغي أن تكون شرطاً ، ولم يذكرها أصحابنا في الظروف المشروط بها مثل متى وأين» ، وحكى الزجاج فيه إيَّان بكسر الهمزة — وهي قراءة أبي عبد الرحمن السُّلَمي كما قال ابن عطية — وذكر ذلك الفراءُ أيضاً . وقد أنشد صاحب اللسان البيت في (أبَنَ) وقال : إبَّانُ كل شيءٍ بالكسر والتشديد : وقتُه وحينه الذي يكون فيه . يقال : جئته على إبّان ذلك ، أي على زمنه . وأخذ الشيءَ بإبَّانه ، أي بزَمَانه . هذا ورواية الطبري : «أما ترى لِنُجْحِهَا إبَّانَا» بدلا من «لِفِعْلِهَا إبَّانا» .

البيِّنَة والشهود ، وهو مراد زهير بقوله :

. . . . يمينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جِـــلاءُ (١)

وقوله تعالى : ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال السدي ، ومعمر عن بعض أَهل التأْويل : معناه : ثَقُلَ أَن تُعلم ويوقف على حقيقة وقتها . قال الحسن بن أَبي الحسن : معناه : ثقلت هيئتُها والفزع منها على أَهل السموات والأَرض ، كما تقول : خيف العدو في بلد كذا وكذا ، وقال قتادة ، وابن جريج : معناه : ثقلت على السموات والأَرض أَنفُسها لِتَفَطُّرِ السموات وَتَبدُّلِ الأَرض ونسْفِ الجبال ، ثم أَخبر تعالى خبراً يدخل فيه الكل : إِنها لا تأْتي إِلا بغتة ، أَي فجأَة دون أَن يتقدم منها علم بوقتها عند أَحد من الناس ، و [بغْتَةً] مصدر في موضع الحال .

وقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حفِيٌّ عَنْهَا﴾ الآية ، قال ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد : المعنى : يسأَلونك عنها كأَنك حفيٌّ ،

---

(١) هذا عجز بيت من قصيدة مشهورة هجا فيها آل حصن بقوله : أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ ؟ ، ومطلعها :

عَفَا مِن آل فاطِمةَ الجِــــوَاءُ فَيُمْنٌ ، فالقَوَادمُ ، فالحِســـاءُ

والبيت بتمامه :

وإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَـــــلاثٌ يمينٌ ، أَونِفَـــارٌ ، أَوْ جِـــــلاءُ

أَي : للحق ثلاث خصال ، اليمين وهو الحلف ، والنِّفار بمعنى التنافر وهو الاحتكام إِلى رجل يتبين الحجج ويحكم ، والجِلاءُ وهو انكشاف الأمر وانجلاؤه حتى تعلم حقيقته . وقيل : إِن زهيراً سُمّي بهذا البيت قاضي الشعراء .

أي : متحف ومهتبل ، وهذا ينحو إلى ما قالت قريش : إنَّا قرابتك فأخبرنا . وقال مجاهد أيضاً ، والضحاك ، وابن زيد : معناه : كأَنك حفيٌّ في المسأَلة عنها والاشتغال بها حتى حصلت على علمها . وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ــ فيما ذكر أبو حاتم ــ : ﴿ كَأَنَّكَ حفِيٌّ بِهَا ﴾ ، لأَن [حَفِيّ] معناه : مهتبل مجتهد في السؤال مبالغ في الإقبال على ما يسأَل عنه ، وقد يجيءُ (حفيّ) وصفاً للسؤال ، ومنه قول الشاعر :

فَلَمَّا الْتَقَيْنَا بيّن السَّيْفُ بَيْنَنَا ... لِسَائِلَةٍ عنَّا حَفِيٍّ سُؤَالُهَا (١)

ومن المعنى الأَول الذي يجيءُ فيه (حَفِيٌّ) وصفاً للسائل قول الآخر :

سُؤَالُ حَفِيٍّ عنْ أَخِيهِ كَأَنَّه ... بِذُكْرَتِهِ وسْنَانُ أَوْ مُتواسِنُ (٢)

---

(١) هذا البيت لأُنَيْف بن زُبَّان النَّبهانيّ ، شاعر مقلّ ، فارس ، والبيت من قصيدة يصف فيها معركةً ، ومطلعها :

جَمَعْنا لكُمْ مِن حَيِّ عَوْفٍ ومَالِكٍ ... كَتَائِبَ يُرْدِي المُقْرِفينَ نَكَالُهَا

ومعنى بيَّن السَّيْفُ : وضّح . وحفِيٌّ : مُلِحٌّ في السؤال مُهْتَمٌّ .

(٢) قال في (اللسان ــ حفي) : « وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ قال الزجاج : يسألونك عن أمر القيامة كأنك فرحٌ بسؤالهم ، وقيل : معناه : كأنك أكثرتَ المسألة عنها » ــ ثم قال بعد ذلك : « ويقال : تحفَّى فلان بفلان معنا ه أنه أظهر العناية في سؤاله إياه ، يقال : فلان بي حَفِيٌّ إذا كان معنياً ، وأنشد للأعشى :

فإنْ تَسْأَلي عَنِّي فيارُبَّ سَائِلٍ ... حَفِيٍّ عن الأعشى به حَيْثُ أَصْعَدَا

وقال الجوهري : الحفِيُّ : العالم الذي يتعلم الشيء باستقصاء ، والحفي : المستقصي في السؤال . أما الذُّكْرَةُ بضم الذال وبالتاء في آخره فهي والتذكر والذكرى بكسر الذال وبالياء ــ ضد النسيان . وأما وسنان أو متواسن فهو من قولهم : وسِنَ الرجلُ يَوْسَنُ وسَناً وسِنَةً : أخذ في النعاس فهو وسِنٌ ووَسْنان . (التاج ــ واللسان ــ والصحاح) .

ثم أَمره ثانية بأَن يُسَلم لعلمه تأْكيداً للأَمر وتهمُّماً به إذ هو من الغيوب الخمسة التي في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾(١) الآية ، وقيل : العلم الأَول علم قيامها والثاني علمُ كُنْهها وحالها .

وقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال الطبري : معناه : لا يعلمون أَن هذا الأَمر لا يعلمه إلا الله ، بل يظن أَكثرهم أَنه مما يعلم البشر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

هذا أَمر في أَن يبالغ في الاستسلام ويتجرد من المشاركة في قدرة الله وغيبه ، وأَن يصف نفسه لهؤلاءِ السائلين بصفةٍ من كان بها فهو حريٌّ أَلا يعلم غيباً ولا يدعيه ، فأَخبر أَنه لا يملك من منافع نفسه

---

(١) الآية (٣٤) من سورة (لقمان) .

ومضارها إلا ما سَنَّى[١] الله له وشاءَ ويَسَّرَ[٢] ، وهذا الاستثناءُ منقطع[٣] ، وأخبر أنه لو كان يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأْتي ولاستعد لكل شيءٍ استعدادَ من يعلم قدر ما يستعد له ، وهذا لفظ عام في كل شيءٍ ، وقد خصص الناس هذا فقال ابن جريج ، ومجاهد : لو كنت أَعلم أَجلي لاستكثرت من العمل الصالح ، وقالت فرقة : أَوقات النصر لتوخَّيتها ، وحكى مكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن معنى ﴿لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ﴾ السنة المجدبة لأَعددت لها من المخْصبة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَلفاظ الآية تعم هذا وغيره .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا مَسَّنِيَ﴾ يحتمل وجهين وبكليهما قيل . أَحدهما : أَن [مَا] معطوفة على قوله : [لاستكْثرْتُ] أي : ولَمَا مَسَّنِيَ السوءُ . والثاني أَن يكون الكلام مقطوعاً تمَّ في قوله : ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾

---

(١) سَنَّى الشيءَ : سَهَّلَه ويَسَّرَهُ . وكذلك سَنَّى بالتشديد .

(٢) روي أنه لما رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق جاءت ريح في الطريق فأخبر بموت رفاعة وكان في ذلك غيظ المنافقين ، ثم قال : انظروا أين ناقتي ، فقال عبد الله ابن أُبي بن سلول : ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (إن ناساً من المنافقين قالوا كيت وكيت ، وناقتي في الشِّعب وقد تعلق زمامها بشجرة) . فوجدوها على ما وصف ، فنزلت الآية ، وهذا منه صلى الله عليه وسلم إظهارٌ للعبودية ، وانتفاءٌ عما يختص بالربوبية من القدرة وعلم الغيب ، ومبالغة في الاستسلام ، فهو يقول : لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضر فكيف أملك علم الغيب ؟

(٣) قال في «البحر المحيط» : «لا حاجة لدعوى الانقطاع مع إمكان الاتصال» . (البحر المحيط ٤ـ٤٣٦) .

وابتدأ يخبر بنفي السوءِ عنه وهو الجنون الذي رموه به . قال المؤرِّج السَّدوسي : (١) السُّوءُ : الجنون بلغة هذيل . ثم أَخبر بجُمْلة ما هو عليه من النذارة والبشارة . و ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يحتمل معنيين : أَحدهما : أَن يريد أَنه نذير وبشير لقوم يُطْلب منهم الإِيمان ويُدْعون إِليه وهؤلاءِ النَّاسُ أَجمع ، والثاني : أَن يخبر أَنه نذير ويتم الكلام ، ثم يبتدئُ يخبر أَنه بشير للمؤمنين به ، ففي هذا وعدٌ لِمَن حصل إِيمانه .

وقوله تعالى : ﴿هوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الآية . قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام ، وبقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواءُ . وقوله : [مِنْهَا] يريد : ماتقدم ذكره من أَن آدم نام فاستخرجت قصرى أَضلاعه وخلقت منها حواءُ . وقوله تعالى : ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أَي : لِيَأْنَس ويطمئن ، وكان هذا كله في الجنة .

ثم ابتدأَ بحالة أُخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما فقال : ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أَي : غشيها ، وهي كناية عن الجماع ، والحمل الخفيف هو المني الذي تحمله المرأَة في فرجها . وقرأَ جمهور الناس : [حَمْلًا] بفتح الحاءِ ، وقرأَ حماد بن سلمة عن ابن كثير : [حِمْلًا] بكسر الحاءِ (٢) . وقوله تعالى : ﴿فَمَرَّت بِهِ﴾ أَي : استمرت به ، قال أَيوب :

---

(١) هو عمرو بن الحرث السدوسي النحوي البصري ، وواحد من أئمة اللغة والأدب ، والمؤرِّج بالهمزة والرّاء المشددة المكسورة . (تاج العروس) .

(٢) قال علماء اللغة : كلُّ ما كان في بطن أو على رأس شجرة فهو حَمْل بالفتح ، وإذا كان على ظهر أوْ على رأس فهو حِمْل بالكسر ، وقال أبو سعيد السيرافي : يقال في حمل المرأة : حَمْل وحِمْل ، يُشبَّه مرة لاستبطانه بحَمْل المرأة ، ومرة لظهوره وبروزه بحِمْل الدابة .

سألت الحسن عن قوله تعالى : ﴿فَمَرَّت بِهِ﴾ فقال : لو كنت امرأً عربياً لعرفت ما هي ، إنما المعنى : فاستمرت به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقدّره قوم على القلب كأن المراد : فاستمر بها ، كما تقول : أدخلت القلنسوة في رأسي ، وقرأ يحيى بن يَعْمر ، وابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما ذكر النقاش ـ : ﴿فَمَرَت بِهِ﴾ بتخفيف الراءِ ، ومعناه : فشكَّت فيما أصابها هل هو حَمْل أو مرض[1] ونحو هذا . وقرأ ابن عباس : ﴿فاسْتَمَرَّتْ بِهِ﴾ ، وقرأ ابن مسعود : ﴿فَاسْتَمَرَّتْ بِحَمْلها﴾ ، وقرأ عبد الله بن عمرو بن العاص : ﴿فَمَارَتْ بِهِ﴾ ومعناه : أي جاءت به وذهبت وتصرفت كما تقول : مارت الريح موراً . و [أَثْقَلَتْ] دخلت في الثقل ، كما تقول : أصبح وأمسى ، أي : صارت ذات ثقل ، كما تقول : أتْمر الرجل وألْبن إذا صار ذا تمر ولبن . والضمير في [دَعَوَا] يعود على آدم وحواءَ .

ورُوي في قصص هذه الآية أن حواءَ لما حملت أول حَمْل لها لم تدر ما هو ، وهذا يقوي قراءة من قرأ ﴿فَمَرَتْ بِهِ﴾ بتخفيف الراءِ ، فجزعت لذلك فوجد إبليس إليها السبيل ، فقال لها : ما يدريك

(١) قال في «أساس البلاغة» : «مَرَى في الأمر وامْتَرى وتمارى ، وما فيه مُرْيَةٌ ومَرِيَّةٌ : شك» ، وفي القرآن الكريم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ . والمستعمل كثيراً في الشكّ هو الامتراء .

مافي جوفك ؟ ولعله خنزير أو حية أو بهيمة في الجملة . وما يدريك من أين يخرج ؟ أَيَنْشَقُّ له بطنك فتموتين أو من فمك أو من أنفك ؟ ولكن إن أطعتني وسميته عبد الحارث .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

«والحارث اسم إبليس» فسأُخلِّصه لك وأجعله بشراً مثلك ، وإن أنت لم تفعلي قتلتُه لك ، قال : فأخبرت حواءُ آدم فقال لها : ذلك صاحبنا الذي أغوانا في الجنة ، لا نطيعه ، فلما ولدت سمياه عبد الله ، فمات الغلام ، ويروى أن الله سلَّط إبليس على قتله ، فحملت بآخر ففعل بها مثل ذلك ، فحملت بالثالث ، فلما ولدته أطاعا إبليس فسمياه عبد الحارث حرصاً على حياته ، فهذا هو الشرك الذي جعلا لله ، أي في التسمية فقط .

و [صَالِحاً] قال الحسن : معناه : غلاماً . وقال ابن عباس رضي الله عنهما — وهو الأظهر — : بشراً سوياً سليماً . ونصبه على المفعول الثاني ، وفي «المشكل» لمكي أنه نعت لمصدر أي : أتيا صالحاً . وقال قوم : إن المعنى في هذه الآية التَّبْيِينُ عن حال الكافرين ، فعدَّد النعم التي تعم الكافرين وغيرهم من الناس ، ثم قرن ذلك بفعل المشركين السَّيِّئ فقامت عليهم الحجة ووجب العقاب ، وذلك أنه قال مخاطباً لجميع الناس : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يريد آدم وحواء ، أي : واستمرت حالكم واحداً كذلك ، فهذه نعمة

تخص كل أحد بجزءٍ منها ، ثم جاءَ قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً ، أي هكذا يفعلون ، فإذا آتاهم الله الولد صالحاً سليماً كما أراده صرفاه عن الفطرة إلى الشرك ، فهذا فعل المشركين الذي قامت الحجة فيه باقترانه مع النعمة العامة . وقال الحسن بن أبي الحسن ـ فيما حكى عنه الطبري ـ : معنى الآية : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إشارة إلى الرُّوح الذي ينفخ في كل أحد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أي : خلقكم من جِنس واحد وجعل الإناث منه ، ثم جاءَ قوله تبارك وتعالى : ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً على ما تقدم من الترتيب في القول الذي قبله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

يقال : إن الآية المتقدمة هي في آدم وحواءَ ، وإن الضمير في قوله : [آتَاهُمَا] عائد عليهما . ويقال : إن الشرك الذي جعلاه هو في الطاعة ، أي أطاعا إبليس في التسمية بعبد الحارث ، لكنهما

كانا في غير ذلك مطيعيْن لله ، وأسند الطبري في ذلك حديثاً من طريق سمرة بن جندب[١] . ويحتمل أن يكون الشرك في أن جعلا عبوديته بالاسم لغيره . وقال الطبري والسدي في قوله تعالى : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ : إنه كلام منفصل ليس من الأول ، وإن خبر آدم وحواءَ تمَّ في قوله : ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ ، وإن هذا كلام يراد به مشركوا العرب

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تحكم لا يساعده اللفظ ، ويتَّجه أَنْ يقال : تعالى الله عن ذلك اليسير المتوهم من الشرك في عبودية الاسم ، ويبقى الكلامُ في جهة أبوينا آدم وحواءَ عليهما السلام . وجاءَ الضمير في [يُشْرِكُونَ] ضمير جمع لأن إبليس مُدَبّر معهما تسمية الولد عبد الحارث . ومن قال : «إن الآية المتقدمة إنما الغرض منها تعديد النعمة في الأزواج وفي تسهيل النسل والولادة ثم ذكر سوءَ فعل المشركين بعقب ذلك» قال في الآية الأخيرة : إنها على ذلك الأسلوب ، وإن قوله تعالى : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ المراد بالضمير فيه : المشركون ، والمعنى في هذه الآية : فلما آتى الله هذين الإنسانين صالحاً أي سليماً ذهبا به إلى الكفر ، وجعلا لله فيه شركاءَ ، وأخرجاه عن الفطرة . ولفظة الشرك تقتضي

---

(١) نصُّه : عن سَمُرَةَ بن جُنْدب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كانت حواءُ لا يعيش لها ولد ، فنذرت لئِن عاش لها ولد لتُسَمِّيَنَّهُ عَبْدَ الحَرْث ، فعاش لها ولد فَسَمَّتْهُ عبد الحَرْث ، وإنما كان ذلك من وحي الشيطان) . (تفسير الطبري — ٩—١٤٦) .

نصيبَيْن ، فالمعنى : وجعلا لله فيه ذا شرك ، لأَن إبليس أَو أَصنام المشركين هي المجعولة ، والأَصل أَن الكل لله تعالى . وبهذا حلَّ الزجاج اعتراض من قال : ينبغي أَن يكون الكلام : «جعلا لغيره شركا» .

وقرأَ نافع ، وعاصم – في رواية أَبي بكر –: [شِرْكا] بكسر الشين وسكون الراءِ على المصدر ، وهي قراءَة ابن عباس رضي الله عنهما ، وأَبي جعفر ، وشيبة ، وعكرمة ، ومجاهد ، وعاصم ، وأَبان بن ثعلب . وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم [شُرَكَاءَ] على الجمع ، وهي بَيِّنَةٌ على هذا التأْويل الأَخير ، وقلقة على قول من يقول : «إن الآية الأُولى في آدم وحواءَ» ، وفي مصحف أُبيّ بن كعب : «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحَاً أَشْرَكَا فيه» ، وذكر الطبري في قصص آدم وحواءَ وإبليس في التسمية بعبد الحارث ، وفي صورة مخاطبتهم أَشياءَ طويلة لا يقتضي الاختصار ذكرها.(١)

وقرأَ نافع ، والحسن ، وأَبو جعفر ، وأَبو عمرو ، وعاصم : ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ أَيُشْرِكُونَ﴾ بالياءِ من تحت فيهما . وقرأَ أَبو عبد الرحمن : ﴿عَمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بالتاءِ من فوق ، ﴿أَتُشْرِكُونَ مَالَا يَخْلُقُ﴾ الآية ، وروى بعض من قال : «إن الآيات في آدم وحواءَ» أَن إبليس جاءَ إلى آدم وقد مات له ولد اسمه عبد الله فقال : إن شئت أَن يعيش لك الولد فَسَمّه عبد شمس ، فولد له ولدٌ فَسَمّاه كذلك ، وإياه عنى بقوله :

(١) التعبير الأوضح في الدلالة على مراده أن يقول : «يقتضي الاختصار عدم ذكرها» .

﴿أَيُشْرِكُونَ مَالَا يَخْلُقُ شَيْئاً﴾ . ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ – على هذا – عائد على آدم وحواءَ والابن المسمى عبد شمس . ومن قال بالقول الآخر قال : إن هذه في مشركي الكفار الذين يشركون الأَصنام في العبادة ، وإياها أراد بقوله : ﴿مَالَا يَخْلُقُ﴾ ، وعبّر عنها بـ [هُمْ] كأَنها تعقل على اعتقاد الكفار فيها وبحسب أسمائها . و [يُخْلَقُونَ] معناه: يُنحتون ويُصنعون. ويحتمل – على قراءَة [أَيُشْرِكون] بالياءِ من تحت – أَن يكون المعنى : وهؤلاءِ المشركون يُخْلقون . أَي : كان يجب أَن يعتبروا بأَنهم مخلوقون فيجعلون إِلٰههم خالقهم لا من لا يخلق شيئاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الآية . هذه تُخَرَّج على تأْويل من قال : «إن المراد آدم وحواءُ والشمس» على ما تقدم ، ولكن بقلق وتعسّف من المتأَوِّل في المعنى . وإنما تَتَّسق هذه الآيات ويروق نظمها ويتناصر معناها على التأْويل الآخر ، والمعنى : ولا ينصرون أَنفسهم من أَمر الله وإرادته ، ومن لا يدفع عن نفسه فأَحرى أَلا يدفع عن غيره .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ الآية . من قال : «إن الآيات في آدم عليه السلام» قال : إن هذه مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم وأُمتهِ مستأْنفةٌ في أَمر الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولهم الهاءُ والميم من [تَدْعُوهُمْ] ، ومن قال بالقول الآخر قال : إن هذه مخاطبة للمؤمنين والكفار على قراءَة من قرأَ [يُشْرِكُونَ] بالياءِ من تحت ، وللكفار فقط على قراءَة من قرأَ بالتاءِ من فوق على

جهة التوقيف ، أي : إن هذه حال الأَصنام معكم إن دعوتموهم لم يجيبوكم ، إذ ليس لهم حواسٌّ ولا إدراكات .

وقرأَ نافع وحده : [لا يَتْبَعُوكم] بسكون التاءِ وفتح الباءِ ، وقرأَ الباقون : [لا يَتَّبِعوكم] بشد التَّاءِ المفتوحة وكسر الباءِ ، والمعنى واحد[١].

وفي قوله تعالى : ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ﴾ عطف الاسم على الفعل[٢] ، إذ التقدير : أَمْ صَمَتُّمْ . ومثل هذا قول الشاعر :

سَواءٌ عَلَيْكَ النَّفْرُ أَمْ بِتَّ لَيْلَةً بِأَهْلِ الْقِبَابِ مِنْ نُمَيْرِ بن عامِرِ[٣]

---

(١) قال بعض اللغويين : « أتْبعه » مخففاً : إذا مضى خلفه ولم يدركه ، و « اتَّبعه مشدَّداً : إذا مضى خلفه وأدركه .

(٢) قال أبو حيان بعد أن نقل رأي ابن عطية : « وليس من عطف الاسم على الفعل ، إنما هو من عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية » ، ونعتقد أن هذا لم يغب عن ابن عطية وإنما هو تسامح في التعبير ، وكانت الجملة الثانية اسمية لمراعاة رؤوس الآيات « يَنْصُرُون — صامتين — صادقين » ، ولأن الفعل يشعر بالحدوث واسم الفاعل يشعر بالثبوت والاستمرار ، فكانوا إذا دهمهم أمرٌ معضل فزعوا إلى أصنامهم وإذا لم يحدث بقوا صامتين ساكتين ، فقيل : لا فرق بين أن تحدثوا لهم دعاءً وبين أن تستمروا على صمتكم فتبقوا على ما أنتم عليه من عادة صمتكم وهي الحالة المستمرة .

(٣) هذا البيت من شواهد الكسائي ، وقد نقله الفراءُ في كتابه (معاني القرآن) . وقد اختلفت الروايات في كلمة (النفر) فهي في الطبري (القَفْر) بالقاف ثم الفاء ، وهي في بعض الأصول الخطية لتفسير ابن عطية (الفقر) و لا يناسب معناها البيت . وقد قال صاحب « البحر المحيط » : إن البيت ليس من عطف الاسم على الفعل كما قال ابن عطية ، بل من عطف الجملة الفعلية على الاسم المقدر بالجملة الفعلية ، إذ أصل التركيب : « سواءٌ عليك أنفرت أم بتّ ليلةً ، فأوقع (النفر) موقع (أنَفَرْتَ) . وقال الفراءُ في تعليقه على الآية واستشهاده بالبيت : وقوله تعالى : ﴿سواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ ولم يقل « أم صَمَتُّمْ » ، وعلى هذا أكثر العرب ، فهم يقولون : « سواءٌ علي أقمت أم قَعَدْتَ » ، ويجوز : « سواءٌ عليَّ أقمتَ أمْ أنت قاعدٌ » قال الشاعر : « سواءٌ عليك القفر ... » ، وأنشد بعضهم : « أو أنت بائت » . هذا ولم ينسب أحد البيت إلى قائل معيَّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

قرأ جمهور الناس : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ بتثقيل [إِنَّ] ورفع [عِباد] ، وهي مخاطبة للكفار في تحقير شأن أَصنامهم عندهم ، أَي : إِنَّ هذه الأَصنام مخلوقة محدثة إِذ هي أجسام وأَجرام فهي متعبدة أَي متملكة . وقال مقاتل : إن المراد بهذه الآية طائفة من العرب من خزاعة كانت تعبد الملائكة فأَعلمهم الله أَنهم عبادٌ أَمثالهم لا آلهة . وقرأ سعيد بن جبير : ﴿إِنِ الَّذين تَدْعونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَاداً أَمْثَالَكُمْ﴾ بتخفيف النون من [إن] على أَن تكون بمعنى (ما) وبنصب قوله : [عِبَاداً] و [أَمْثَالَكُمْ] ، والمعنى بهذه القراءة تحقير شأْن الأَصنام ونفي مماثلتهم للبشر ، بل هم أَقل وأَحقر إذ هم جمادات لا تفهم ولا تعقل ، وسيبويه يرى أَنَّ [إِنْ] إذا كانت بمعنى (ما) فإِنها تضعف عن رتبة (ما) فيبقى الخبر مرفوعاً وتكون هي داخلة على الابتداءِ والخبر لا تنصبه ، فكأَن الوجه عنده في هذه القراءة : إِنِ الَّذين تَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ عبادٌ أَمثالُكُم . وأَبو العباس المبرد يجيز

أن تعمل عمل (ما) في نصب الخبر . وزعم الكسائي أَنَّ (إنْ) بمعنى (ما) لا تجيءُ إلَّا وبعدها (إلَّا) كقوله تعالى : ﴿إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (١). ثم بيّن تعالى الحجة بقوله : [فَادْعُوهُمْ] أي : فاختبروا فإن لم يستجيبوا فهم كما وصفْنَا .

وقوله تعالى : ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾ الآية . الغرض من هذه الآية : أَلَهُم حواسُّ الحيِّ وأوصافُهُ ؟ فإذا قالوا : « لا » حكموا بأنها جمادات ، فجاءت هذه التفصيلات لذلك المجمل الذي أُريد التقرير عليه ، فإذا وقع الإقرار بتفصيلات القضية لزم الإقرار بعمومها وكان بيانها أقوى ولم تقم بها استرابة . قال الزهراوي : المعنى : أنتم أفضل منهم بهذه الجوارح النافعة فكيف تعبدونهم ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتَتقوّى بهذا التأْويل قراءة سعيد بن جبير ، إذ تقتضي أَنَّ الأَوثان ليست عباداً كالبشر (٢) .

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (الملك) .

(٢) في شرح التسهيل تخريج آخر لقراءة سعيد بن جبير وهو أن (إنْ) هي المخففة من الثقيلة وأنها عملت عمل المشددة ، وهذا ثابت في غير المضمر بالقراءة المتواترة ﴿وَإِنْ كُلًّا لَمَّا﴾ وبنقل سيبويه عن العرب ، لكن الخبر في هذه القراءة نُصب كما نصب في قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

إذَا اسْوَدَّ جُنْحُ اللَّيْلِ فَلْتَأْتِ وَلْتَكُنْ خُطَاكَ خِفَافاً إنْ حُرَّاسَنَا أُسْدَا

أو يمكن تأويل الخبر المنصوب على إضمار فعل ، كما قالوا في قوله : « يا ليت أيامَ الصِّبَا رَوَاجِعَا» إنّ تقديره : « أقبلت رواجعا » ، والتأويل في الآية أن يقال : « إن الَّذين تدعون من دون الله تدعونَ عباداً أمثالكم » .

وقوله في الآية [أَمْ] إضراب لكل واحدة عن الجملة المتقدمة لها ، وليست (أَمْ) المعادِلة للألف في قولك : «أعندك زيد أم عمرو؟» لأَن المعادِلة إنما هي في السؤال عن شيئين أَحدهما حاصل ، فإِذا وقع التقدير على شيئين كلاهما منفي فَ (أَم) إضراب عن الجملة الأُولى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي فرق معنوي ، وأَما من جهة اللفظ والصناعة النحوية فهي هي .

وقرأَ نافع ، والحسن ، والأَعرج [يَبْطِشُونَ] بكسر الطاء ، وقرأَ نافع أَيضاً ، وأَبو جعفر ، وشيبة : [يَبْطُشُونَ] بضمها .

ثم أَمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أَن يعجزهم بقوله : ﴿قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ﴾ أَي استنجدوهم واستنفدوهم إلى إضراري وكيدي ولا تؤخروني ، والمعنى: فإن كانوا آلهة فسيظهر فعلهم ، وسمّاهم شركاءهم من حيث لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء الله .

وقرأَ أَبو عمرو ، ونافع : [كِيدُونِي] بإثبات الياء في الوصل ، وقرأَ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة والكسائي : [كِيدُونِ] بحذف الياء في الوصل والوقف . قال أَبو علي : إذا أَشبه الكلام المنفصل أَو كان منفصلا أَشبه القافية ، وهم يحذفون الياء في القافية كثيراً ،

وقد التزموا ذلك ، كما قال الأَعشى :

فَهَلْ يَمْنَعَنِّي ارْتِيَادِي الْبِـــــلا دَ من حَذَرِ الْمَوْتِ أَنْ يَـأْتِينْ [١]

وقد حذفوا الياءَ التي هي لام الأَمر كما قال الأَعشى :

يَلْمَسُ الأَحْلاسَ في مَنْزِلِـــــهِ بِيَدَيْهِ كالْيَهُودِي الْمُصَـــــلْ [٢]

وقوله تعالى : ﴿فَلَا تُنْظِرونِ﴾ أي لا تؤخرون ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [٣] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ﴾ الآية . لمّا أَحالهم على الاستنجاد بِآلِهتهم في ضرّه وأَراهم أَن الله هو القادر على كل شيءٍ لا تلك — عقَّب ذلك بالاستناد إلى الله والتوكل عليه والإِعلام بأَنه وليُّه وناصره ،

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها الأعشى يمدح فيها قيسَ بن معديكرب الكندي ، ومطلعها :

لعمْرُكَ ما طولُ هـــذا الزّمن على الْمرْءِ إلا عنـــاءٌ مُعَنّ

(٢) قائل هذا البيت هو لبيد ، وهو موجود في ديوانه ضمن قصيدته التي قالها متحدثاً عن مآثره وعن أساه لفقد أخيه أربد ، والتي مطلعها :

إنّ تقْوَى اللهِ خيْرُ نَفَـــلْ وبإذْنِ اللهِ رَيْثي وعَجَـــلْ

وهو منسوب إليه أيضاً في « لسان العرب » « وتاج العروس » . ومعنى يلمس : يطلب ، والأحلاس : جمع حِلْس وهو كساءٌ رقيق يوضع على ظهر البعير . ومنزله : مكان نزوله . والمُصَلّ : المُصَلّي . يصور رفيقاً له في رحيله قد أجهده السير وأراد أن ينام ولكنه كان يمنعه من النوم — « وقد عبّر عن ذلك في أبيات سابقة » ، ثم يقول في هذا البيت : إنه لا يكاد يعقل من غلبة النوم عليه فهو يطلب الأحلاس بيديه مائلا جانبه كأنه يهودي على شق وجهه . ثم تأمل قول ابن عطية قبل هذا البيت : « وقد حذفوا الياءَ التي هي لام الأمر » فإنها ليست لام أمره .

(٣) من الآية (٢٨٠) من سورة (البقرة) .

وقرأ جمهور الناس والقرأة : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ﴾ بياءٍ مكسورة مشددة وأُخرى مفتوحة ، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه : ﴿إِنَّ وَلِيّ اللهُ﴾ بياءٍ واحدة مشددة ورفع [اللهُ] . قال أبو علي : لا تخلو هذه القراءة من أن تدغم الياءُ التي هي لام الفعل في ياءِ الإضافة ، أو تحذف الياءُ التي هي لام الفعل وتدغَم ياءُ فعيل في ياءِ الإضافة ، ولا يجوز أن تدغم الياءُ التي هي لام الفعل في ياءِ الإضافة لأنه إذا فعل ذلك انفكَّ الإدغام الأول ، فليس إلَّا أنه حذف لام الفعل وأدغم ياءَ فعيل في ياءِ الإضافة [1] .

وقرأ ابن مسعود «الَّذي نَزَّلَ الكتاب بالْحَقِّ وَهُوَ يَتَوَلى الصَّالِحينَ» ، وقرأ الجحدري - فيما ذكر أبو عمرو الداني - : ﴿إنَّ ولي اللهِ﴾ على الإضافة . وفسّر ذلك بأن المراد جبريل صلى الله عليه وسلم ، وذكر القراءة غير منسوبة أبو حاتم وضعَّفها ، وإن كانت ألفاظ هذه الآية تلائم هذا المعنى وتصلح له فإن ما قبلها وما بعدها يدفع ذلك .

---

(١) معنى هذا أن قراءة الجمهور بثلاث ياءات ، الأولى : ياءُ فعيل وهي زائدة ، والثانية لام الفعل وهي أصلية . والثالثة ياءُ الإضافة ، فأدغمت الزائدة في الأصلية ، واتصلت بها ياءُ الإضافة ففتحت لالتقاء الساكنين — وأما قراءة أبي عمرو فقد حُذفت فيها الياءُ الوسطى وهي لام الفعل وأدغمت ياءُ فعيل الزائدة في ياء الإضافة ، ولا يجوز أن تدغم الياء الأصلية التي هي لام الفعل في ياء الإضافة حتى لا يفك الإدغام الأول . فالإدغام هنا مثله في إليَّ وعليَّ ولديَّ بفتح الياء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

الضمير في قوله : ﴿مِنْ دونِهِ﴾ عائد على اسم الله تعالى ، وهذا الضمير مصرح بما ذكرناه من ضعف قراءة من قرأ : ﴿إنَّ وليَّ اللهِ﴾ على أنه جبريل صلى الله عليه وسلم ، وهذه الآية أيضاً بيان لحال تلك الأصنام وفسادها وعجزها عن نصرة أنفسها فضلا عن غيرها .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ الآية. قالت فرقة : المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته . والهاء والميم في قوله : [تَدْعوهُمْ] للكفار ، ووصفهم بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون إذ لم يتحصل لهم عن النظر والاستماع فائدة ولا حصلوا منه بطائل ، قاله السدي ومجاهد . وقال الطبري : المراد بالضمير المذكور الأصنام وَوَصْفُهم بالنظر كناية عن المحاذاة والمقابلة وما فيها من تخييل النظر كما تقول : دار فلان تنظر إلى دار فلان ، ومعنى الآية على هذا تَبْيينُ جمودية الأصنام وصغر شأنها . وذهب بعض المعتزلة إلى الاحتجاج بهذه الآية على أن العباد ينظرون إلى ربهم ولا يرونه ، ولا حجة لهم في الآية لأن النظر في الأصنام مجاز محضٌ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما تكرر القول في هذا وترددت الآيات فيه لأن أمر الأصنام وتعظيمها كان متمكناً في نفوس العرب في ذلك الزمن ومستولياً على عقولها فأوعب[١] القول في ذلك لطفاً من الله تعالى بهم .

وقوله تعالى : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ الآية . وصيَّة من الله عزَّ وجلَّ لنبيه صلى الله عليه وسلم تعم جميع أمته ، وأَمْرٌ بجميع مكارم الأخلاق . وقال الجمهور في قوله سبحانه ﴿خُذِ ٱلْعفْوَ﴾ : إن معناه : اقبل من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عفواً دون تكلف ، فالعفْوُ هنا : الفضل والصفو الذي تهيَّأَ دون تحرج ، قاله عبد الله بن الزبير في مصنف البخاري ، وقاله مجاهد وعروة ، ومنه قول حاتم الطائي :

خُذِي الْعَفْوَ منّي تَسْتَدِيمي مَوَدَّتي ولا تنْطِقي في سَوْرَتي حين أَغْضَبُ[٢]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، والضحاك ، والسدي : هذه الآية

---

(١) وعَبَ الشيء وأوْعَبَه : أخذه جميعه ولم يدع منه شيئاً ، والشائع : استوعب القولَ بمعنى : استوفاه .

(٢) المراد بالعفو هنا : ضد الجهد ، أي مالا يشق على المعطي ، وسورة الغضب : شدّته وحدّته ، وسورة الرجل : سطوته وقوته . والمعنى في البيت أن تأخذ منه كل ما يعطيه مما لا يشق عليه حتى لا ينفر ، وقد أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ، (يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا) ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما بُلْغَةٌ جاءَتْك عَفْواً فَخُذْهَا فالغِنى مرْعىً وشُرْبُ
إذا اتَّفَقَ القليل وفيه سِلْم فَلا تَردِ الكثيرَ وفيه حَرْبُ

هذا والبيت المنسوب لحاتم الطائي غير موجود في ديوانه ، ولم ينسبه « اللسان » لأحد ، واستشهد به الزمخشري في الكشاف أيضاً دون أن ينسبه .

في الأَموال ، وقيل : هي قبل فرض الزكاة [(١)] ، أُمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأْخذ ما سهل من أَموال الناس . و (عَفَا) أَي : فَضَل وزاد ، من قولهم : «عفا النبات والشعر» أَي كثر ، ثم نزلت الزكاة وحدودها فنسخت هذه الآية ، وذكر مكي عن مجاهد أَنَّ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ معناه : خذ الزكاة المفروضة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا شاذ .

وقوله تعالى : ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ معناه : بكل ما عرفته النفوس مما لا تردُّه الشريعة ، وروي أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : (ما هذا العرف الذي أُمر به ؟ قال : لا أَدري حتى أَسأَل العالم ، فرجع إلى ربه فسأَله ، ثم جاءه فقال له : يا محمد ، هو أَن تُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَصِلَ مَن قَطَعَكَ ، وتعفو عَمَّن ظلمك) [(٢)] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهذا نصب غايات ، والمراد : فما دون هذا من فعل الخير . وقرأَ عيسى الثقفي – فيما ذكر أَبو حاتم – [بِالْعُرُفِ] بضم الراءِ ، والعُرْفُ والعُرُفُ بمعنى : المعروف .

---

(١) جاءت هذه العبارة في بعض النسخ هكذا : «وقيل : هي فرض الزكاة» ، لكننا اخترنا النص الذي يتفق مع ما نقله صاحب «البحر المحيط» عن ابن عطية ، وهو ما يتفق مع ما جاء بعد ذلك في كلامه حيث قال : «ثم نزلت الزكاة» .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الشعبي . (الدر المنثور ٣–١٥٣) .

وقوله تعالى : ﴿وأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ حكْمٌ مترتب محكم مستمر في الناس ما بقوا ، هذا قول الجمهور من العلماء ، وقال ابن زيد في قوله تعالى : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ إلى ﴿الجَاهِلِين﴾ : إنما أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك مداراة لكفار قريش ، ثم نسخ ذلك بآية السيف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وحديث الحُرّ بن قيس حين أدخل عمَّه عُيَيْنَة بن حِصْن على عمر رضي الله عنه دليل على أنها محكمة مستمرة ، لأَن الحُرّ احتَجّ بها على عمر رضي الله عنه فقررها ووقف عندها (١) .

(١) أخرج البخاري ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم عُيَيْنَة بن حصن بن بدر فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه ، وكان القراءُ أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شباباً ، فقال عُيَيْنَة لابن أخيه : يابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير ؟ فاستأذنْ لي عليه ، قال : سأستأذن لك عليه ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : فاستأذن الحر لِعُيَيْنَة فأذن له عمر رضي الله عنه ، فلما دخل قال : هي يا بن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر رضي الله عنه حتّى همّ أن يوقع به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ، إن الله عزّ وجلّ قال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقّافاً عند كتاب الله عزّ وجلّ (الدر المنثور ٣ــ١٥٣ وابن كثير ٣ــ٢٦٨) فوقوف عمر رضي الله عنه عند الآية دليل على أنها غير منسوخة ، بل هي محكمة مستمرة كما قال ابن عطية .

وقد روى البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ قال : « ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس » .

هذا وفي الآية كثير من الخصال الحميدة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر بن سليم . =

وقوله تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ وصية من الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم تعم أُمته رجلا رجلا . والنزغ : حركة فيها فسادٌ ، وقلَّما تستعمل إلا في فِعل الشيطان لأَن حركته مسرعة مفسدة (١) ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يشر أحدكم على أَخيه بالسلاح ، لا ينزغ الشيطان في يده) (٢) .

= (قال جابر بن سليم أبو جُرَيّ : ركبت بعيري ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأنخت قعودي بباب المسجد ، فدلوني على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو جالس عليه بُرْدٌ من صوف فيه طرائق حُمْر ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : « وعليك السلام » ، فقلت : إنا معشر أهل البادية قومٌ فينا الجفاء ، فعلمني كلمات ينفعني الله بها ، قال : « ادْنُ » ثلاثاً ، فدنوت فقال : « أعِد عليّ » فأعدتُ عليه فقال صلى الله عليه وسلم : « اتّقِ الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً ، وأن تلقى أخاك بوجه منبسط ، وأن تُفْرِغ من دلْوِكَ في إناء المستقي ، وإن امرؤٌ سبَّك بما لا يعلم منك فلا تسبُّه بما تعلم فيه فإن الله جاعلٌ لك أجراً وعليه وزْراً ، ولا تَسُبَّن شيئاً مما خوَّلك الله تعالى » ، قال أبو جُرَيّ : فوالذي نفسي بيده ما سببت بعده شاةً ولا بعيراً) . أخرجه أبو بكر البزَّار في مسنده بمعناه .

وروى أبو سعيد المَقْبُرِيُّ عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إنكم لا تَسَعُون الناس بأموالكم ، ولكن يَسَعُهم منكم بسط الوجه وحُسْن الخُلُق) ، وقال ابن الزبير : « ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس » .

(١) أصل النزغ : الفساد ، يقال : نزغ بيننا أي أفسد ، ومنه قوله تعالى : ﴿نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي أفسد ، وقيل : النزغ : الإغواء والإغراء ، ونَزْغُ الشيطان : وسوسته . والمعنى متقارب .

(٢) روى البخاري في كتاب الفتن — عن همَّام : (سمعتُ أبا هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يُشير أحدكم على أخيه بالسلاح فانه لا يدري لعلّ الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار) . وهذه الرواية بالعين المهملة . وكذلك رواه مسلم في البرّ ، ورواه الإمام أحمد (٢-٣١٧) بلفظ (لا يَمْشِيَنّ أحَدُكُمْ) و (ينزع) بالعين المهملة أيضاً . وفي القسطلاني (ينزَغُ) بفتح الزاي والغين المعجمة .

فالمعنى في هذه الآية : فَإِمَّا تُلِمَّن بِكَ لَمَّةٌ من الشيطان فاستعذ بالله . ونزغ الشيطان عام في الغضب وتحسين المعاصي واكتساب الغوائل وغير ذلك ، وفي مصنف الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن لِلْمَلَكِ لَمَّة ، وللشيطان لَمَّة)[١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهاتان اللَّمَّتان هما الخواطر من الخير والشر ، و [سميعٌ] في هذه الآية يصلح مع الاستعاذة ، ويصلح أيضاً مع ما يقول الكفار فيه من الأقاويل فَيُغضِبه الشيطان لذلك ، و [عَلِيمٌ] كذلك ، وبهذه الآية تعلق ابن القاسم في قوله : «إن الاستعاذة عند القراءة : «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»[٢] .

---

(١) رواه الترمذي في تفسير سورة آل عمران . (عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٦–١٤٦) . واللَّمَّةُ بفتح اللام المشددة : الشدّة والطائف من الجنّ ، يقال : أصابته من الجنّ لَمَّة، أي مَسٌّ أوْ شيءٌ قليل منه ، ويقال : للشيطان لَمَّةٌ أي هَمَّةٌ وخطرة في القلب أو دنُوٌّ (المعجم الوسيط) .

(٢) قال أبو حيان في «البحر المحيط » بعد أن نقل رأي ابن القاسم هذا عن ابن عطية : «واستنباط ذلك من الآية ضعيف ، لأن قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ جرى مجرى التعليل لطلب الاستجارة بالله ، أي : لا تستعذ بغيره فإنه هو السميع لما تقول ، أو السميع لما يقوله الكفار فيك حين يرومون إغضابك ، العليم بقصدك في الاستعاذة ، أو العليم بما انطوت عليه ضمائرهم من الكيد لك ، فهو ينصرك عليهم ويجيرك منهم.» (البحر ٤–٤٤٩) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

[اتَّقَوا] هنا عامةٌ في اتقاءِ الشرك واتقاءِ المعاصي بدليل أن اللفظة إنما جاءت في مدح لهم ، فلا وجه لقصرها على اتقاءِ الشرك وحده ، وأيضاً فالمتقي العائذ قد يمسّه طائف من الشيطان إذ ليست العصمة إلا للأنبياء عليهم السلام .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة : [طَائِفٌ] . وقرأ ابن كثير ، وابو عمرو ، والكسائي : [طَيْفٌ] . وقرأ سعيد بن جبير [طيِّفٌ][1] ، واللفظة إمَّا من طاف يطوف ، وإما من طاف يَطيف بفتح الياءِ ، وهي ثابتة عن العرب ، وأنشد أبو عبيدة في ذلك :

أَنَّى أَلَمَّ بِكَ الخَيَالُ يَطِيفُ ومَطافُه لَكَ ذُكْرَةٌ وشُعُوفُ[2]

---

(١) بتشديد الياءِ المكسورة . وأما قراءة ابن كثير ومن معه فهي بتسكين الياءِ .

(٢) قال في (اللسان ــ طيف) : « وطاف الخيال يَطيف طيْفاً ومطافاً : ألمَّ في النوم ، قال كعب بن زهير : أنّى » . وذكر البيت . ثم قال : « يقال : طافَ يَطيف ويَطوف طيفاً وطوفاً فهو طائف ، ثم سمّي بالمصدر » . وذُكْرَةُ بضم الذال : ضد النسيان . وشُعُوف بالضم مصدر شعفه الحُبّ : إذا اشتد عليه . وقد روى البيت (شغوف) بالغين المعجمة ، ويحتمل أن يكون جمع شَغِف ، ويحتمل أن يكون مصدراً وهو الظاهر ، يقال : شَغَفَ به ويحبه : أحبه وأولع به .

فـ [طائِفٌ] اسم فاعل كقائل من قال يقول ، وبائع من باع يبيع . [وطيِّفٌ] اسم فاعل أَيضاً كميّت من مات ، أَو كبَيِّع وليّن من باع يبيع ولان يلين . وطيْفٌ يكون مخففاً من طيِّف كميْت من ميِّت ، وإِذا قدرنا اللفظة من طاف يطيف فطيف مصدر ، وإِلى هذا مال أَبو علي الفارسي ، وجعل الطائف كالخاطر والطيف كالخطرة ، وقال الكسائي : الطَّيف اللَّمَم ، والطائف ما طاف حول الإِنسان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وكيف هذا وقد قال الأَعشى :

وتُصْبِحُ مِنْ غِبِّ السُّرَى وكأَنَّما أَلَمَّ بها مِنْ طائِفِ الجِنِّ أَوْلَقِ[(١)]

ومعنى الآية : إِذا مسّهم غضب وزيّن الشيطان معه مالا ينبغي . وقوله : [تَذَكَّروا] إِشارة إِلى الاستعاذة المأْمور بها قبل ، وإِلى ما لله عزَّ وجلَّ من الأَوامر والنواهي في النازلة التي يقع تعرض الشيطان فيها . وقرأَ ابن الزبير : «مِنَ الشَّيطان تـأَمَّلوا فإِذا هم» ، وفي مصحف أُبيّ بن كعب :

---

(١) البيت من قصيدته في مدح المحلّق بن خنثم بن شداد بن ربيعة ، ومطلعها :

أَرِقْتُ وما هذا السُّهَادُ المؤَرِّقُ وما بِيَ من سُقْمٍ وما بِيَ معْشَقُ

وهو في وصف الناقة التي يصورها في صورة من طاف بها طائف أَوْلَق من الجن . ولعلّ ابن عطية رحمه الله ينكر على الكسائي أنه خصص الطائف بأنه حول الإنسان ، وتعقبه في البحر بأنه لا داعي للإنكار على الكسائي أو التعجب من تفسيره لأن ما قاله الأعشى تشبيه ، حيث قال : «كأَنَّما» ، والأولق : الجنون . فهي تسرع في الجري كأن بها جنون .

«إذا طافَ مِنَ الشَّيطَانِ طائفٌ تَـأَمَّلوا»(١) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الغضب جند من جند الجن ، أَما ترون حُمرة العين وانتفاخ العروق ؟ فإذا كان ذلك فالأَرض الأَرض)(٢) ، وقوله [مُبْصِرونَ] من البصيرة ، أَي : فإذا هم قد تبيَّنوا الحق ومالوا إليه .

وقوله تعالى : ﴿وَإِخْوَانُهُم يمُدُّونَهُمْ في الْغَيِّ﴾ الآية . في هذه الضمائر احتمالات ، قال الزجاج : هذه الآيات متصلة في المعنى بقوله : ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر(٣) .

وقال الجمهور : إن الآية مقررة في موضعها إلا أَن الضمير في قوله : [وَإِخْوَانُهُم] عائد على الشياطين ، والضمير في قوله : [يمُدُّونَهُمْ] عائد على الكفار وهم المرادُ بالإِخوان ، والشيطان في الآية قَبْلَ هذه للجنس فلذلك عاد عليهم ها هنا ضمير جمع ، فالتقدير على هذا

---

(١) قال في «البحر المحيط» : «وينبغي أن يحمل هذا وقراءة ابن الزبير على أن ذلك من باب التفسير لاعلى أنه قرآن لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون من ألفاظ القرآن».

(٢) الحديث المشهور في هذا هو قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحدكم فليتوضأ) . رواه الإمام أحمد ، والدارمي — عن عطية العوفي .

(٣) وافق أبو حيان ابن عطية في الاعتراض على الزجاج ، وقال : إنه أبعد في دعواه ، ولا حاجة إلى ذلك ، والكلام متناسق .

التأْويل : وإخوان للشياطين يمدونهم الشياطين في الغيّ ، وقال قتادة : إن الضميرين في الهاءِ والميم للكفار .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فتجيءُ الآية على هذا معادلةٌ للتي قبلها ، أَي : إن المتقين حالُهم كذا وكذا ، وهؤلاءِ الكفار يمدهم إخوانهم من الشياطين ثم لا يُقْصِرون . وقوله : ﴿فِي الْغَيِّ﴾ يحتمل أَن يتعلق بقوله : [يَمُدُّونَهمْ] ، وعليه يترتب التأْويل الذي ذكرنا أَولا عن الجمهور ، ويحتمل أَن يتعلق بالإخوان ، فعلى هذا يحتمل أَن يعود الضميران على الكفار كما ذكرناه عن قتادة ، ويحتمل أَن يعودا جميعاً على الشياطين ، ويكون المعنى : وإخوان الشياطين في الغي بخلاف الإِخوة في الله يمدون الشياطين ، أَي بطاعتهم لهم وقبولهم منهم ، ولا يترتب هذا التأْويل على أَن يتعلق ﴿فِي الْغَيِّ﴾ بالإمداد ، لأَن الإِنس لا يغوون الشياطين ، والمراد بهذه الآية وصف حالة الكفار مع الشياطين كما وصف حالة المتقين معهم من قبل .

وقرأَ جميع السبعة غير نافع : [يَمُدُّونَهُمْ] من مَدَدْتُ . وقرأَ نافع وحده : [يُمِدُّونَهُمْ] بضم الياءِ من أَمْدَدتُ ، فقال أَبو عبيدة وغيره : مدَّ الشيءَ إذا كانت الزيادة من جنسه ، وأَمَدَّه إذا كانت من شيءٍ آخر[1].

---

(١) ومثال هذا الأخير قوله تعالى : ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فالمدد من الملائكة وهم ليسوا من البشر . ومثال الأول قوله تعالى : ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فالزيادة من جنس البحر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غير مطرد . وقال الجمهور : هما بمعنى واحد إلا أن المستعمل في المحبوب (أَمَدَّ) ، فمنه قوله تعالى : ﴿أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١) وقوله : ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ (٣) ، والمستعمل في المكروه (مدَّ) ، فمنه قوله تعالى : ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ (٤) ، ومَدُّ الشيطان للكفرة في الغيّ هو التزيين لهم والإغواءُ المتتابع . فمن قرأ في هذه الآية [يَمُدُّونَهُمْ] بضم الميم فهو على المنهاج المستعمل ، ومن قرأ [يُمِدُّونَهُمْ] فهو مقيد بقوله : ﴿فِي الْغَيِّ﴾ ، كما يجوز أن تقيد البشارة فتقول : «بشَّرْتُه بِشَرّ» . وقرأ الجحدري [يُمَادُّونهم] .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ عائد على الجميع ، أي : هؤلاءِ لا يقصرون في الطاعة للشياطين والكفر بالله عزَّ وجلَّ . وقرأ جمهور الناس [يُقْصِرُونَ] من أَقصر ، وقرأ ابن أبي عبلة ، وعيسى بن عمر : [يَقْصُرُونَ] من قَصَر (٥) .

---

(١) من الآية (٥٥) من سورة (المؤمنون) .

(٢) من الآية (٢٢) من سورة (الطور) .

(٣) من الآية (٣٦) من سورة (النّمل) .

(٤) من الآية (١٥) من سورة (البقرة) .

(٥) معنى : (لا يُقْصِرُونَ) لا ينقصون من الإمداد والغَيّ ، والإقصار : الانتهاءُ عن الشيء ، وقصر وأقصر لغتان ، قال امرؤ القيس :

سَمَا لكَ شَوْقٌ بَعْد ما كان أقْصَرَا ... وحَلّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوٍّ فَعَرْعَرَا

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ . سببها فيما روي أن الوحي كان يتأخر على النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً ، فكان الكفار يقولون : «هَلَّا اجْتَبَيْتَهَا» ، ومعنى اللفظة في كلام العرب : تخيرتها واصطفيتها . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد ، وغيرهم : المراد بهذه اللفظة : «هلا اخترتها واختلقتها من قِبَلِكَ ومن عند نفسك» ، والمعنى : إذ كلامك كله كذلك على ما كانت قريش تزعمه . وقال ابن عباس أيضاً والضحاك : المراد : «هلا تلقيتها من الله وتخيرتها عليه ، إذ تزعم أنك نبي وأن منزلتك عنده منزلة الرسالة » ، فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يجيب بالتسليم لله تعالى ، وأن الأمر في الوحي إليه ينزله متى شاءَ لا معقب لحكمه في ذلك فقال : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ ، ثم أشار بقوله : [هَذَا] إلى القرآن ، ثم وصفه بأنه [بَصَائر] أي علامات هدى وأنوار تضيءُ القلوب . وقالت فرقة : المعنى : هذا ذو بصائر . ويصح الكلام دون أن يُقَدَّر حذف مضاف لأَن المشارُ إليه بـ [هَذَا] إنما هو سُوَر وآيات وحكم ، وجازت الإشارة إليه بـ [هَذَا] من حيث اسمه مذكر ، وجاز وصفه بـ [بَصَائر] من حيث هو سُوَر وآيات [(١)] .

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لهؤلاءِ خاصة . قال الطبري : وأما من لا يؤمن فهو عليه عمًى عقوبةً من الله تعالى .

(١) يريد ابن عطية أنه جاز الإخبار عن المفرد بالجمع في قوله تعالى : ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ لأنه سور وآيات فهو في المعنى جمع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ۩ ﴾

ذكر الطبري وغيره أن سبب هذه الآية هو أن أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا بمكة يتكلمون في المكتوبة بحوائجهم ، ويصيحون عند آيات الرحمة والعذاب ، ويقول أَحدهم إذا أَتاهم : صليتم ؟ وكم بقي ؟ فيُخبرونه ، ونحو هذا ، فنزلت الآية أَمراً لهم بالاستماع والإنصات في الصلاة وأما قول من قال : «إنها في الخطبة» فضعيف لأَن الآية مكية والخطبة لم تكن إلا بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ، وكذلك ما ذكره الزهراوي من أَنها نزلت بسبب فتىً من الأَنصار كان يقرأُ في الصلاة والنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ . فأَما الاستماع والإِنصات عن الكلام في الصلاة فإجماع ، وأَما الإِمساك والإِنصات عن القراءة فقالت فرقة : يمسك المأْموم عن القراءة جملة قرأَ الإِمام جهراً أَو سراً ، وقالت فرقة : يقرأُ المأْموم إذا أَسرَّ الإِمام ويُمسك إذا جهر . وقالت فرقة : يمسك المأْموم في جهر الإِمام عن قراءة السورة ويقرأُ فاتحة الكتاب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومع هذا القول أحاديث صحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهذه الآية واجبة الحكم في الصلاة أن ينصت عن الحديث وما عدا القراءة . وواجبة الحكم أيضاً في الخطبة من السُّنَّة لا من هذه الآية، ويجب من الآية الإنصات إذا قرأ الخطيب القرآن أثناء الخطبة ، وحكم هذه الآية في غير الصلاة على الندب ، أعني في نفس الإنصات والاستماع إذا سمع الإنسان قراءة كتاب الله عزَّ وجلَّ ، وأما ما تتضمنه الألفاظ وتعطيه من توقير القرآن وتعظيمه فواجب في كل حالة . والإنصات : السكوت ، و [لَعَلَّكُمْ] على ترجي البشر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولم نستوعب اختلاف العلماء في القراءة خلف الإمام إذ ألفاظ الآية لا تعرض لذلك ، لكن لما عنَّ ذلك في ذكر السبب ذكرنا منه نبذة .

وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال : الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول جمع فيه ما أوجبته هذه الآية وغيرها من السُّنَّة في الإنصات ، قال الزجاج : ويجوز أن يكون ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ : اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه .

وقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ الآية . مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم تعمُّ جميع أُمته . وهو أَمر من الله عزَّ وجلَّ بتسبيحه وذكْرِه وتقديسِه والثناءِ عليه بمحامده . والجمهورُ على أَن الذكر لا يكون في النفس ولا يراعى إلا بحركة اللسان ، ويدل على ذلك من هذه الآية قوله : ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فهذه مرتبة السِّرِّ والمخافتة باللفظ .

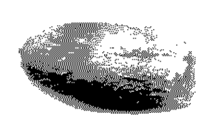
و [تَضَرُّعاً] معناه : تذلُّلا وخُضُوعاً . و [خيفةً] أَصلها : خِوْفة ، بدلت الواو ياءً لأَجل الكسرة التي تقدمتها . وقوله : ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ معناه : دأَباً وفي كل يوم وفي أَطراف النهار ، وقالت فرقة : هذه الآية كانت في صلاة المسلمين قبل فرض الصلوات الخمس ، وقال قتادة : «الغُدُوّ : صلاة الصبح ، والآصال : صلاة العصر» . والآصال : جمع أُصُل ، والأُصُل : جمع أَصيل وهو العَشي . وقيل : الآصال : جمع أَصيل دون توسط كأَيمان جمع يمين ، وآصال أَيضاً جمع أَصايل فهو جمع الجمع . وقرأَ أَبو مجلز : «والإيصَال» مصدراً كالإِصباح والإِمساءِ ، ومعناه : إذا دخلت في الأَصيل ، وفي الطبري : قال أَبو وائل لغلامه : هل آصلنا بعد ؟ ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ تنبيه .

ولمَّا قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾ جعل بعد ذلك مثالا من اجتهاد الملائكة ليبعث على الجِدّ في طاعة الله عزَّ وجلَّ . وقوله : [ٱلَّذِينَ] يريد الملائكة ، وقوله : [عِنْدَ] إنما يريد في المنزلة والتشريف

والقرب في المكانة لا في المكان ، فهم بذلك عنده . ثم وصف تعالى حالهم من تواضعهم وإدمانهم للعبادة والتسبيح والسجود . وفي الحديث : (أَطَّت السماءُ وحقَّ لها أَن تَئِطَّ ، ما فيها موضع شبر إلَّا وفيه ملَك قائم أَو راكع أَو ساجد)[١] ، وهذا موضع سجدة ، قال النَّخَعي في كتاب النقاش : إنْ شِئت ركعت وإن شئت سجدت [٢] .

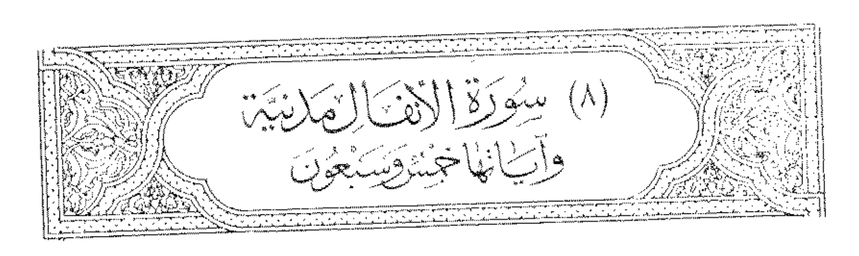
كملت سورة الأَعراف بتوفيق من الله

والحمد لله ربّ العالمين



(١) رواه ابن مردويه عن أنس — ورمز له في « الجامع الصغير » بأنه ضعيف .

(٢) اختلف العلماءُ في عدد سجود القرآن ، فأقصى ما قيل خمس عشرة ، أولها خاتمة الأعراف ، وآخرها خاتمة العلق ، وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما — وهذا أقل ما قيل — أنها أربع سجدات . سجدة ألم تنزيل — وحم تنزيل — والنجم — والعلق — وفي سنن ابن ماجة عن أبي الدرداءِ قال : سجدتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيءٌ : (الأعراف ، والرعد ، والنحل ، وبني إسرائيل (الإسراء) ، ومريم ، والحج (سجدة) ، والفرقان ، وسليمان سورة النمل ، والسجدة ، و ص ، وسجدة الحواميم) . وقولِه بعد الحج (سجدة) معناه أنه أسقط آخرة سورة الحجّ وأثبت واحدة فيها فقط . والله أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

تفسير سورة « الأَنفال »(١) على بركة الله

هي مدنية كلها ، كذا قال أكثر الناس ، وقال مقاتل : هي مدنية غير آية واحدة وهي قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية كلها ، وهذه الآية نزلت في قصة وقعت بمكة ، ويمكن أن تنزل الآية في ذلك بالمدينة ، ولا خلاف في هذه السورة أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه (٢) .

(١) عدد آياتها خمس وسبعون آية ، وعدد كلماتها (١٦٣١) إحدى وثلاثون وستمائة وألف كلمة ، وعدد حروفها (٥٢٩٤) أربع وتسعون ومائتان وخمسة آلاف حرف .

(٢) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي مدنية إلا سبع آيات ، من قوله سبحانه : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر السبع آيات . وهذه الآية هي رقم (٣٠) من السورة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

النَّفْل والنَّفَل والنافلة في كلام العرب : الزيادة على الواجب ، وسُمِّيت الغنيمة نفلا لأَنها زيادة على القيام بالجهاد وحماية الدين والدعاءِ إلى الله عزَّ وجلَّ ، ومنه قول لبيد :

إنَّ تَقْوى ربِّنَا خيْرُ نَفَـــلْ . . . .(١)

أي خير غنيمة ، وقول عنترة :

إنَّا إذا احْمَرَّ الْوَغَى نَرْمي الْقَنَــا ونعِفُّ عِنْدَ مَقَاسِمِ الأَنْفَــال(٢)

والسؤال في كلام العرب يجيءُ لاقتضاءِ معنى في نفس المسؤول ، وقد يجيءُ لاقتضاءِ مال أَو نحوه ، والأَكثر في هذه الآية أَن السؤال إنما هو عن حكم الأَنفال فهو من الضرب الأَول ، وقالت فرقة :

---

(١) البيت مطلع قصيدة يتحدث فيها عن مآثره ومواقفه ويأسى لفقد أخيه أربد ، وهو بتمامه :

إنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَـــلْ وبإذْنِ اللهِ رَيْثي والْعَجَـــلْ

والريث : الإبطاءُ والتأني .

(٢) البيت من قصيدة قالها عنترة في إغارته على بني ضَبّة ، وروايته في الديوان :

إنَّا إذا حَمِسَ الْوَغَى نُرْوي القَنَا ونعفُّ عند تقاسُم الأنفـــالِ

ومعنى حَمِس : اشتد . والأنفال : الغنائم .

إنما سأَلوه الأَنفال نفسها أَن يعطيهم إياها ، واحتجوا في ذلك بقراءَة سعد بن أَبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، وعلي بن الحسين ، وأَبي جعفر محمد بن علي ، وزيد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وطلحة بن مصرف ، وعكرمة ، والضحاك ، وعطاء : ﴿يسْأَلُونَكَ الأَنْفَال﴾ ، وقالوا في قراءَة من قرأَ [عَنْ] إنها بمعنى (من) ، فهذا الضرب الثاني من السؤال .

واختلف الناس في المراد بالأَنفال في هذه الآية . فقال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعطاء ، وابن زيد : هي الغنائم مجملة . قالوا : وذلك أَن سبب الآية ما جرى يوم بدر ، وهو أَن أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا يوم بدر ثلاث فرق : فرقة أَقامت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش الذي صُنع له وحمَتْه وآنسته ، وفرقة أَطاحت بعسكر العدو وأَسلابهم لما انكشفوا ، وفرقة اتبعوا العدو فقَتَلوا وأَسروا . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرض الناس قبل ذلك فقال : (من قتل قتيلا أَو أَسر أَسيراً فله كذا وله كذا) ، فسارع الشبان وبقي الشيوخ عند الرايات ، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس رأَت كل فرقة الفضل لنفسها ، وقالت : نحن أَولى بالمغنم ، وساءَت أَخلاقهم في ذلك ، فنزلت الآية

بأَن الغنائم لله وللرسول فكفُّوا ، فقسمه حينئذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على السواءِ [١] .

وأَسند الطبري وغيره عن أَبي أُمامة الباهلي [٢] قال : سأَلت عبادة ابن الصامت [٣] عن الأَنفال فقال : فينا أَهل بدر نزلت حين اختلفنا وساءَت أَخلاقنا ، فنزعه الله من أَيدينا فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسَّمه عليه الصلاة والسلام عن بواءٍ [٤] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يريد : عن سواءٍ ، فكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وصلاح ذات البين .

ومما جرى أَيضاً يوم بدر فقيل إنه سببٌ ما أَسنده الطبري عن سعد بن أَبي وقاص قال : لما كان يوم بدر قُتل أَخي عمير ، وقتلتُ

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وأحمد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقي ، وابن مردويه — عن عبادة بن الصامت . وفيه زيادات على ما هنا . (الدر المنثور ٣—١٥٩) .

(٢) هو صُدَيّ بن عجلان بن وهب الباهلي ، أبو أمامة ، صحابي ، كان مع علي في صفين ، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام ، له في الصحيحين ٢٥٠ حديثاً . (الإصابة — تهذيب التهذيب — صفوة الصفوة) .

(٣) عبادة بن الصامت الأنصاري ، صحابي من الموصوفين بالورع ، شهد العقبة وكان من النقباء ، وسائر المشاهد ، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين ، ومات ببيت المقدس أو الرملة . وكان من سادات الصحابة . (الإصابة — تهذيب التهذيب — الأعلام) .

(٤) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والحاكم ، والبيهقي في سننه — عن أبي أمامة . (الدر المنثور) .

والبواءُ : السواءُ ، يقال : فلان بَواءُ فلان : كُفْؤُه ونظيره في القصاص — للمفرد وغيره .

سعيد بن العاصي وأَخذت سيفه ، وكان يسمى ذا الكثيفة ، فجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، هذا السيف قد شفى الله به من المشركين فأَعطنيه ، فقال : (ليس هذا لي ولا لك فاطرحه في القَبَض) فطرحته ، فرجعت وبي مالا يعلمه إلا الله من قتْل أَخي وأَخذ سلبي ، قال : فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت عليه سورة الأَنفال ، فقال : (اذهب فخذ سيفك فإنك سأَلتني السيف وليس لي ، وإنه قد صار لي فهو لك) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي بعض طرق هذا الحديث : قال سعد : فقلت لما قال لي : «فضعه في القَبَض» : إني أَخاف أَن تُعْطِيه من لم يبل بلائي ، قال : فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفي ، قال : فقلت : أَخاف أَن يكون نزل في شيءٌ ، فقال : (إن السيف قد صار لي) فأَعطانيه ، ونزلت : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾[1] . وأَسند الطبري أَيضاً عن أَبي أُسيد

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وابن جرير ، وابن مردويه — عن سعد بن أبي وقاص . وأخرج الطيالسي ، والبخاري في الأدب المفرد ، ومسلم ، والنحاس في ناسخه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب — عن سعد بن أبي وقاص رواية أُخرى قال في أولها : « نزلت فيّ أربع آيات من كتاب الله » ذكرها ، وكانت آيتنا هذه واحدة منها . (الدر المنثور — وكذلك تفسير ابن كثير) — والكثيف : السيف — قال ابن سيدة : ولا أدري ما حقيقته والأقرب أن تكون تاءً (اللسان) ، والقَبَض بالتحريك هو المقبوض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تُقْسم .

مالك بن ربيعة [١] قال : أَصبت سيف ابن عائد يوم بدر ، وكان يسمى المَرْزُبان ، فلما أَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردوا مافي أيديهم من النفل أَقبلت به فأَلقيته في النفل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنع شيئاً يُسأَله ، فرآه الأَرقم المخزومي فسأَله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأَعطاه إياه [٢] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فيجيءُ من مجموع هذه الآثار أَن نفوس أَهل بدر تنافرت ، ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأَثرة ، لاسيَّما من أَبلى ، فأَنزل الله عزَّ وجلَّ الآية فرضي المسلمون وسلموا ، فأَصلح الله ذات بينهم وردَّ عليهم غنائمهم . وقال بعض أَهل هذا التأْويل «عكرمة ومجاهد» : كان هذا الحكم من الله لرفع الشغب ، ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية [٣] . وقال ابن زيد : لم يقع في الآية نسخ ، وإنما أَخبر أَن الغنائم لله من حيث هي مِلْكُه ورزقه ، وللرسول من حيث هو مُبَيّن بها أَحكام الله والصادع بها

(١) هو مالك بن ربيعة بن عمرو بن عوف الخزرجي الساعدي ، أبو أُسَيد ، صحابي ، كانت معه راية بني ساعدة يوم الفتح ، وروى أحاديث ، وكفَّ بصره ، قيل : إنه آخر البدريّين موتاً . (الإصابة ، الأعلام) .

(٢) الحديث في تفسير الطبري — عن أبي أُسيد — وعن عثمان بن الأرقم عن عمه عن جده ، وفي الرواية الأولى : «فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي» .

(٣) من الآية (٤١) من هذه السورة (الأنفال) .

ليقع التسليم فيها من الناس ، وحكم القسمة نازل خلال ذلك ، ولاشك في أَن الغنائم وغيرها والدنيا بأَسرها هي لله وللرسول .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقال ابن عباس أَيضاً : الأَنفال في الآية : ما يعطيه الإِمام لمن رآه من سيف أَو فرس أَو نحوه ، وهذا أَيضاً يحسن مع الآية ومع ما ذكرناه من آثار يوم بدر ، وقال علي بن صالح ، وابن جني [1] ، والحسن فيما حكى المهدوي : الأَنفال في الآية : ما تجيءُ به السرايا خاصة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا القول بعيد عن الآية غير ملتئم مع الأَسباب المذكورة ، بل يجيءُ خارجاً عن يوم بدر ، وقال مجاهد : الأَنفال في الآية : الخُمْس ، قال المهاجرون : لم يخرج منا هذا الخُمْس فقال الله تعالى : هو لله وللرسول ، وهذا أَيضاً قول قليل التناسب مع الآية . وقال ابن عباس ، وعطاء أَيضاً : الأَنفال في الآية : ما شذَّ من أَموال المشركين

(١) اختلفت النسخ التي بين أيدينا في هذه العبارة ، فقد جاء في بعضها : « وقال علي بن صالح والحسن » بدون ذكر ابن جني ، وجاءت في بعضها : « وقال علي بن صالح بن جني والحسن » بدون واو بعد صالح ، وآثرنا نحن النسخة التي جاءت بالنّص المذكور لأنها توافق ما ثبت في « البحر المحيط » . على أن « البحر » لم ينسب الحكاية إلى المهدوي كما فعل ابن عطية .

إلى المسلمين كالفرس العائِر والعبد الآبق[١] وهو للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاءُ ، وقال ابن عباس أَيضاً : الأَنفال في الآية : ما أُصيب من أَموال المشركين بعد قسمة الغنيمة وهو لله ورسوله .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذان القولان لا تخرج بهما الآية عن الأَسباب التي رُويت في يوم بدر ، ولا تختص الآية بيوم بدر على هذا . وكأَن هاتين المقالتين إنما هما فيما ناله الجيش دون قتال وبعد تمام الحرب وارتفاع الخوف ، وأَولى هذه الأَقوال وأَوضحها القول الأَول الذي تظاهرت الروايات بأَسبابه ، وناسبه الوقت الذي نزلت الآية فيه . وحكى النقاش عن الشعبي أَنه قال : الأَنفال : الأسارى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا إنما هو على جهة المثال فيعني كل ما يُغنم .

ويحسن في تفسير هذه الآية أَن نذكر شيئاً من اختلاف العلماء في تنفيل الإمام لمن رآه من أَهل النجدة والغَناءِ[٢] ، وما يجوز من ذلك

---

(١) في (اللسان) : « عار الفرسُ : إذا ذهب على وجهه وتباعد عن صاحبه » . والعبد الآبِق : الهارب ، يقال : أبَقَ بالفتح وأبِق بالكسر فهو آبِقٌ وأبوق .
(٢) الغَناء — بفتح الغين : الكفاية والنفع .

وما يمتنع ، وما لهم في السَّلَب[١] من الاختلاف . فقالت فرقة : لا نف
بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الجمهور : النفل باق إلى يو
القيامة ، ينفل إمام الجيش ما رآه لِمَن رآه لكن بحسب الاجتها
والمصلحة للمسلمين ليحض الناس على النجدة ، وينشِّطهم إلى مكافح
العدو والاجتهاد في الحرب ، ثم اختلفوا ، فقال ابن القاسم عن مال
في «المدونة» : إنما ينفل الإمام من الخُمس لا من جملة الغنيمة
وينفل في أول المغنم وفي آخره بحسب اجتهاده ، وقالت فرقة : إنم
ينفل الإمام قبل القتال ، وأما إذا جمعت الغنائم فلا نفل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا إنما يكون ـ على هذا القول ـ بأن يقول الإمام : من قتل قتيلا فله كذا أو كذا ، أو يقول لِسَرِيَّة : إن وصلتم إلى موضع كذا فلكم كذا . وقال الشافعي وابن حنبل : لا نفل إلا بعد الغنيمة قبل التخميس . وقال إبراهيم النَّخَعي : ينفل الإمام متى شاءَ قبل التخميس . وقال أنس بن مالك ، ورجاءُ بن حَيْوة ، ومكحول ، والقاسم ، وجماعة منهم الأوزاعي ، وأحمد ، وإسحق ، وعدي بن عدي : لا نفل إلا بعد إخراج الخمس ، ثم ينفل الإمام من أربعة الأخماس ، ثم يقسم الباقي بين الناس . وقال ابن المسيّب : إنما ينفل الإمام من

---

(١) السَّلَبُ : ما مع القتيل من ثياب وسلاح ودابة . أي كلُّ ما يسلب ويؤخذ قهراً وقوة .

خمس الخمس . وقال مالك رحمه الله : لا يجوز أن يقول الأمير : من هدم كذا من الحصن فله كذا ، ومن بلغ إلى كذا فله كذا ، ولا أُحب لأحد أن يسفك دماً على مثل هذا . قال سُحْنون : فإن نزل ذلك لزمه فإنه مبايعة . وقال مالك رحمه الله : لا يجوز أن يقول الإمام لسريَّة : ما أخذتم فلكم ثلثه ، قال سُحْنون : يريد ابتداءً ، فإن نزل مضى ولهم أنصباؤهم في الباقي . وقال سُحْنون : إذا قال الإمام لِسَرِيَّة : ما أخذتم فلا خُمس عليكم فيه ، فهذا لا يجوز ، فإن نزل رددته لأن هذا حكم شاذ لا يجوز ولا يمضى ، ويستحب ــ على مذهب مالك ــ إن نفل الإمام ــ أن ينفل ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف . وقد منع بعض العلماءِ أن ينفل ذهباً أو فضة أو لؤلؤاً أو نحو هذا . وقال بعضهم : النفل جائز من كل شيءٍ .

وأما السَّلَب فقال مالك رحمه الله : الأسلاب من المغنم تقسم على جميع الجيش إلا أن يشرط الإمام ، وقاله غيره . وقال الليث ، والأوزاعي ، والشافعي ، وأحمد ، وأبو ثور ، وأبو عبيد ، وابن المنذر : السَّلَب حق للقاتل بحكم النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الشافعي ، وأحمد ، وأبو عبيد ، وابن المنذر : قاله الإمام أو لم يقله . وقال مالك : إذا قال الإمام : «من قتل قتيلاً فله سلبه» فذلك لازم ، ولكنه على قدر اجتهاد الإمام وبسبب الأحوال والضيقات واستصراخ الأنجاد ، وقال الشافعي ، وابن حنبل : تخرج الأسلاب من الغنيمة ثم تخمس

بعد ذلك وتعطى الأَسلاب للقتلة . وقال إسحق بن راهويه : إن كان السَّلَب يسيراً فهو للقاتل ، وإن كان كثيراً خُمِّس ، وفعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع البراءِ بن مالك [1] حين بارز المرزُبان فقتله فكانت قيمة منطقته وسِوَارَيه ثلاثين أَلفاً ، فخمّس ذلك ، وروي في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم هو حديث عوف بن مالك في مصنف أَبي داود . وقال مكحول : السَّلَب مغنم وفيه الخُمُس . ورُوي نحوه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يريد : يُخَمّس على القاتل وحده .

وقال جمهور الفقهاءِ : لا يعطى القاتل السَّلَب إلا أَن يقيم البيِّنة على قتله ، قال أَكثرهم : ويجزي شاهدٌ واحد بحكم حديث أَبي قتادة ، وقال الأَوزاعي : يعطاه بمجرد دعواه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقال الشافعي : لا يعطى القاتل إلا إذا كان قتيله مقبلا مبارزاً مضحياً ، وأَما من قتل منهزماً فلا ، وقال أَبو ثور ، وابن المنذر

---

(١) هو البراءُ بن مالك بن النضر الأَنصاري . كان يرجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره . وخبره أنّه في يوم يُسمى يوم تُسْتَر من بلاد فارس انكشف الناس فحمل البراءُ وحمل الناس معَه فقتل مرزُبان الزّارة من عظماءِ الفرس وأخذ سلبه فانهزم الفرس .

صاحب «الأشراف» : للقاتل السَّلَب منهزماً كان القتيل أو غير منهزم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أصحُّ لحديث سلمة بن الأكوع [١] في اتِّباعه ربيئة [٢] الكفار في غزوة حنين وأخذه بخطام بعيره وقتله إياه وهو هارب ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سَلَبه[٣] . وقال أحمد بن حنبل : لا يكون السَّلَب للقاتل إلا في المبارزة فقط .

واختلفوا في السَّلَب . فأما السلاح وكل ما يُحتاج للقتال فلا أحفظ فيه خلافاً أنه من السَّلَب ، وفرسُه إن قاتل عليه وصُرع عنه . وقال أحمد ابن حنبل في الفرس : ليس من السَّلَب . وكذلك إن كان في هِمْيانه[٤] أو مِنْطَقَتِه دنانير أو جوهر أو نحو هذا مما يعدّه فلا أحفظ خلافاً أنه ليس من السَّلَب . واختلف فيما يُتَزَيَّن به للحرب ويُهَوَّل به فيها

---

(١) هو سلمة بن عمرو بن سنان الأكوع الأسلمي ، من الذين بايعوا تحت الشجرة ، غزا مع النبي سبع غزوات ، وغزا في أفريقية في أيام عثمان . وكان شجاعاً بطلا رامياً عداءً ، له ٧٧ حديثاً وتوفي بالمدينة . (الأعلام)

(٢) الربيئة : الطليعة الذي يرقب العدوّ من مكان عال لئلا يدهم قومه . وجمعها : ربايا .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤-٤٩) ، ونصّه : عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : (نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا فجاء عين المشركين ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتصبحون فدعوه إلى طعامهم ، فلما فرغ الرجل ركب على راحلته فذهب مسرعاً لينذر أصحابه ، قال سلمة : فأدركته فأنخت راحلته وضربت عنقه فَغَنَّمَني رسول الله صلى الله عليه وسلم سلبه) .

(٤) الهِمْيان : شدادُ السراويل (أي التكّة) ، والمِنْطَقَةُ ، وكيس للنفقة يُشدّ في الوسط والجمع هَمَايِنُ وهَمَايِينُ ، والمِنْطَقَة : ما يُشَدّ به الوسط . (المعجم الوسيط) و (اللسان) .

كالتاج والسوارين والأَقراط والمناطق المثقلة بالذهب والأَحجار ، فقال الأَوزاعي : ذلك كله من السَّلَب ، وقالت فرقة : ليس من السَّلَب ، وهذا مروي عن سُحْنون رحمه الله إلا المنطقة فإنها عنده من السَّلب قال ابن حبيب في «الواضحة» : والسواران من السَّلَب ، وتردّد الشافعي ـ هل هذه كلها من السَّلَب أم لا ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وإذا قال الإمام : «من قتل قتيلا فله سَلَبه» فقتل ذِمِّيٌّ قتيلا فالمشهور أَلَّا شيءَ له ، وعلَى قول أَشهب : «يُرضخ[1] لأَهل الذمة من الغنيمة» يلزم أَن يُعطى السَّلَب . وإن قتل الإمام بيده بعد هذه المقالة قتيلا فلَه سَلَبه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَما الصفيّ[2] فكان خالصاً للنبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ معناها في الكلام : اجعل بينك وبين المحذور وقاية ، وقوله : ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ تصريح

(١) يقال : رضخ له من ماله : أعطاه قليلا . وكذلك أرضخ له من ماله : أعطاه قليلا من كثير .

(٢) الصَّفيّ : ما يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة ، ويقال له : الصفية . والجمع : صفايا . وصفيّة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصفيّ كما قالته عائشة رضي الله عنها . (النهاية لابن الأثير) .

بأنه شجر بينهم اختلاف ، ومالت النفوس إلى التَّشاحّ ، و [ذَاتَ] - في هذا الموضع - يراد بها نفس الشيء وحقيقته . والذي يفهم من [بَيْنِكُمْ] هو معنى يعم جميع الوُصَل[١] والالتحامات والمودّات ، وذات ذلك هي المأمور بإصلاحها ، أي : نفسه وعينُه ، فحضّ الله عزّ وجلّ على إصلاح تلك الأجزاء ، فإذا صلحت تلك حصل إصلاح ما يعمها وهو البَيْن الذي لهم ، وقد تستعمل لفظة (الذات) على أنها لزيمة ما تضاف إليه وإن لم تكن عينَه أو نفسَه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٢] ، و ﴿ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾[٣] فإنها ها هنا مؤنثة قولهم : « الذئبُ مغبوطٌ بذي بَطْنِهِ »[٤] ، وقول أبي بكر رضي الله عنه : « إنما هو ذو بطن بنت خارجة » . ويحتمل « ذات البَيْن » أن تكون

---

(١) وُصَلٌ بضم الواو وفتح الصاد : جمع وُصْلَة بمعنى الاتصال وجمع شيء بشيء آخر وضمه إليه ، والصِّلَةُ بين الناس تكون بالبرّ وبالقربى وبالمودة وغيرها مما يحكم الاتصال والارتباط بينهم .

(٢) تكررت في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ونذكر منها الآيات : (١١٩ ، ١٥٤ آل عمران) (٧ المائدة) (٤٣ الأنفال) (٥ هود) (٢٣ لقمان) (٣٨ فاطر) (٧ الزمر) (٢٤ الشورى) . وغير ذلك .

(٣) من الآية (٧) من هذه السورة (الأنفال) .

(٤) ويروى : « الذئب يُغْبَطُ بغير بِطْنَة » . قال أبو عبيد : وذلك أنه ليس يُظن به أبداً الجوع ، إنما يُظن به البِطْنة لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر :

ومنْ يسكُنِ البَحْرين يَعْظُم طُحَالُه ويُغْبط ما في بَطْنِهِ وهو جائع

وقال غير أبي عبيدة : إنما قيل فيه ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ، قال الشاعر :

لكَالذِّئْبِ مغْبوطُ الحشا وهْوَ جائعُ

هذه ، وقد تقال (الذات) أيضاً بمعنى آخر وإن كان يقرب من هذا وهو قولهم : «فَعلْتُ كذا ذات يوم» ، ومنه قول الشاعر :

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة ذات العشاءِ ولا تسري أفاعيها [1]

وذكر الطبري عن بعضهم أنه قال : ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾. الحال التي لِبَيْنِكُم ، كما «ذات العشاءِ» : الساعة التي فيها العشاءُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ورجحه الطبري ، وهو قولٌ بيّن الانتقاض . وقال الزجاج : البيْن ها هنا : الوَصْلُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [2]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا كله نظر .

وقوله تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لفظ عام ، وسببه الأَمر بالوقوف عندما ينفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغنائم ، وقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي كاملي الإِيمان ، كما تقول لرجل :

---

(١) لم نقف على قائله ... و (ذات) هنا من ظروف الزمان التي لا تتمكن ، تقول : لقيته ذات يوم وذات ليلة وذات العشاء وذات مرة — وإنما سمع في هذه الأوقات ولم يقولوا : ذات شهر ولا ذات سنَة . (قاله في اللسان) والأفاعي : جمع أفْعى وهي من الحيات التي لا تبرح ، إنما هي مترحية ، أي مستديرة على نفسها مُتحوّية . والافْعُوَان بالضم : ذكر الأفاعي . (عن اللسان أيضاً) .

(٢) من الآية (٩٤) من سورة (الأنعام) .

«إن كنت رجلا فافعل كذا» أي : إن كنت كامل الرجولة ، وجواب الشرط في قوله المتقدم [وَأَطِيعُوا] ، ومذهب أَبي العباس أَن الجواب محذوف متأَخر يدل عليه المتقدم تقديره : إن كنتم مؤمنين أَطيعوا ، ومذهبه في هذا أَلَّا يتقدم الجوابُ الشرط [(١)] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

[إِنَّمَا] لفظ لا تفارقه المبالغة والتأْكيد حيث وقع ، ويصلح مع ذلك للحَصْر ، فإذا دخل في قصة وساعد معناها على الانحصار صح ذلك وترتب كقوله تعالى : ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [(٢)] وغير ذلك من الأَمثلة . وإذا كانت القصة لا تتأَتى للانحصار بقيت (إنما)

(١) ذكر أبو حيان في «البحر المحيط» هذا الكلام نقلا عن ابن عطية ، ثم عقَّب عليه بقوله : «والذي نقله مخالف لكلام النحاة ، فإنهم يقولون : إن مذهب سيبويه أن الجواب محذوف ، وأن مذهب أبي العباس وأبي زيد الأنصاري والكوفيين جواز تقديم جواب الشرط عليه . وهذا النقل هو الصحيح» .

(٢) من الآية (١١٠) من سورة (الكهف) . وتكررت في الأنبياء (١٠٨) ، وفي فصلت (٦) .

للمبالغة والتـأْكيد فقط ، كقوله عليه الصلاة والسلام : (إنما الربا في النسيئة)[١] ، وكقولهم : إنما الشجاع عنترة ، وأَما من قال : «إنما هي لبيان الموصوف» فهي عبارة فاترة ، إذ بيان الموصوف يكون في مجرد الإِخبار دون (إنما) . وقوله سبحانه ها هنا : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ظاهرها أَنها للمبالغة والتـأْكيد فقط ، أَي : الكاملون .

و [وَجِلَتْ] معناه : فزعت ورقَّت وخافت ، وبهذه المعاني فسرت العلماءُ . وقرأَ ابن مسعود : [فَرِقَتْ] ، وقرأَ أُبيّ بن كعب : [فَزِعَتْ][٢] . يقال : وجِل يَوْجَل وياجَل ويَيْجَل – وهي شاذة – ويِيجَل بكسر الياءِ الأُولى ، ووجه هذه أَنهم لما أَبدلوا الواو ياءً لم يكن لذلك وجه قياس فكسروا الياءَ الأُولى ليجيءَ بدل الواو ياءُ العلة – حكى هذه اللغات الأَربع سيبويه رحمه الله .

و [تُلِيَتْ] معناه : سُرِدت وقُرئت . والآيات هنا : القرآن المتْلُو . وزيادة الإِيمان على وجوه كلها خارج عن نفس التصديق ، منها أَن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، ومسلم ، والنسائي ، وابن ماجة – عن أُسامة بن زيد ، ورمز له الإمام جلال الدين السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه صحيح . وقال الإمام ابن الأثير في النهاية : النسيئة : هي البيع إلى أجل معلوم ، يريد أن بيع الرِّبَويَّات بالتأخير من غير تقابض هو الربا ، وإن كان بغير زيادة ، وهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما ، كان يرى بيع الرّبَويّات متفاضلة مع التقابض جائزاً ، وأن الربا مخصوص بالنسيئة . (النهاية في غريب الحديث والأثر ٥–٤٥) .

(٢) قال العلماءُ : ينبغي أن تحمل هاتان القراءتان على التفسير .

المؤمن إذا كان لم يسمع حكماً من أَحكام الله في القرآن فنزل على النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه فآمن به زاد إيماناً إلى سائر ما قد آمن به ، إذ لكل حكم تصديق خاص به ، وهذا يترتب فيمن بلغه ما لم يكن عنده من الشرع إلى يوم القيامة ، وتترتب زيادة الإِيمان بزيادة الدلائل ، ولهذا قال مالك : الإِيمان يزيد ولا ينقص ، وتترتب بزيادة الأَعمال البَرَّة على قول من يرى لفظة الإِيمان واقعة على التصديق والطاعات ، وهؤلاءِ يقولون : يزيد وينقص .

وقوله تعالى : ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت وعمل بحسبها في أَن يمتثل الإِنسان ما أُمر به ويبلغ في ذلك أَقصى جهده دون عجز ، وينتظر بعدُ ما تُكفِل له به من نصر أَو رزق أَو غيره .

وهذه أَوصاف جميلة وصف الله بها فضلاءَ المؤمنين فجعلها غاية للأُمة ليستبق إليها الأَفاضل ، ثم أَتبع ذلك عَدَّهم[١] ووسمهم بإقامة الصلاة ، ومدحهم بها حضّاً على ذلك .

---

(١) هكذا بالأصول ، وفي إحدى النسخ : « ثم أتبع بعد ذلك عدّهم ...» ، ويجوز أن يكون الصواب : « عِدَتَهُم » أوأن تكون الكلمة زائدة ، وأن المراد : « ثم أتبع ذلك بأن وسمهم بإقامة الصلاة » ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال جماعة من المفسرين : هي الزكاة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام بإقامة الصلاة وإلا فهو لفظ عام في الزكاة ونوافل الخير وصِلات المستحقين ، ولفظ ابن عباس رضي الله عنهما في هذا المعنى محتمل .

وقوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ يريد : كلُّ المؤمنين[1] ، و [حَقًّا] مصدر مؤكد ، كذا نصَّ عليه سيبويه ، وهو المصدر غير المنتقل . والعامل فيه أَحُقّ ذلك حَقًّا[2] ، وقوله : [دَرَجَاتٌ] ظاهِرُهُ ــ وهو قول الجمهور ــ أَن المراد مراتب الجنَّة ومنازلها ، ودرجاتها على قدر أَعمالهم . وحكى الطبري عن مجاهد أَنها درجات أَعمال الدنيا . وقوله : ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يريد به مآكل الجنة ومشاربها ، و [كَرِيمٌ] صفة تقتضي رفع المذام كقولك : ثوب كريم وحسب كريم .

---

(١) «كلُّ» بالرفع ــ والمعنى أنهم الكاملون في إيمانهم .

(٢) قال الزمخشري : [حَقّاً] صفة لمصدر محذوف ، أي : «أُولئك هم المؤمنون إيماناً حقّاً» ، أو هو مصدر مؤكد للجملة التي هي ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ والتقدير : حقَّ ذلك حَقّاً ، كقولك : «هو عبد الله حقّا» إذ التقدير فيها : حق ذلك حقا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ ﴾

اختلف الناس في الشيءِ الذي تتعلق به الكاف من قوله : [كَمَا] حسبما نبين من الأَقوال التي أنا ذاكرها بعْدُ بحول الله ، والذي يلتئم به المعنى ويحسن سرد الأَلفاظ قولان ، وأَنا أَبدأُ بهما :

قال الفراءُ : التقدير : «امْضِ لأَمرك في الغنائم ونفل من شئتَ وإن كرهوا ، كما أَخرجك ربك» ، هذا نص قوله في «هداية مكي» ، والعبارة بقوله : «امْضِ لأَمرك ونفل من شئت» غيْرُ مُحرَّرة ، وتحرير هذا المعنى عندي أَن يقال : إن هذه الكاف شبّهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأَنفال ، كأَنهم سأَلوا عن النفل وتشاجروا فأَخرج الله ذلك عنهم فكانت في ذلك الخيرة ، فتشاجرهم في النفل بمثابة كراهيتهم هنا للخروج ، وحُكْم الله في النفل بأَنه لله ولِلرَّسول دونهم هو بمثابة إخراجه نبيه صلى الله عليه وسلم من بيته ، ثم كانت الخيرة في القصتين فيما صنع الله ، وعلى هذا التأْويل يمكن أَن يكون قوله : [يُجَادِلُونَكَ]

كلاماً مستأْنفاً يراد به الكفار ، أي : يجادلونك في شريعة الإسلام من بعد ما تبين الحق فيها كأنما يساقون إلى الموت في الدعاءِ إلى الإيمان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الذي ذكرتُ من أن [يُجَادِلُونَكَ] في الكفار - منْصُوصٌ [١].

والقول الثاني ، قال مجاهد والكسائي وغيرهما : المعنى في هذه الآية : كما أخرجك ربك من بيتك على كراهية من فريق منهم كذلك يجادلونك في قتال كفار مكة ويودُّون غير ذات الشوكة من بعد ما تبين لهم أنك إنما تفعل ما أُمرت به لا ما يريدون هم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتقدير - على هذا التأْويل - : يجادلونك في الحق مجادلة ككراهتهم إخراج ربك إياك من بيتك ، فالمجادلة - على هذا التأْويل - بمثابة الكراهية ، وكذلك وقع التشبيه في المعنى ، وقائل هذه المقالة يقول : إن المجادلين هم المؤمنون . وقائل المقالة الأُولى يقول : إن المجادلين هم المشركون ، فهذان قولان مطردان يتم بهما المعنى ويحسن رصف اللفظ .

وقال الأَخفش : الكاف نعتٌ لِ [حَقًّا] والتقدير : «هم المؤمنون حقاً كما أخرجك» .

---

(١) كلمة «مَنْصوص» خبر «هذا» ، أي : هذا الرأيُ منْصوص .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والمعنى على هذا التأْويل كما تراه لا يتناسق .

وقيل : الكاف في موضع رفع . والتقدير : «كما أَخرجك ربك فاتقوا الله» ، كأَنه ابتداءٌ وخبر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا المعنى وضعه هذا المفسّر وليس من أَلفاظ الآية في ورد ولا صدر .

وقال أَبو عبيدة : هو قَسَم ، أَي : «لهم درجات ومغفرة ورزق كريم كما أَخرجك» . بتقدير : والذي أَخْرَجَكَ ، فالكاف في معنى الواو و [ما] بمعنى الذي .

وقال الزجاج : الكاف في موضع نصب ، والتقدير : «الأَنفال ثابتة لك ثباتاً كما أَخرجك ربك» .

وقيل : الكاف في موضع رفع . والتقدير : «لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم هذا وعد حق كما أَخرجك» .

وقيل : المعنى : «وأَصلحوا ذات بينكم ذلك خير لكم كما أَخرجك» ، والكاف نعت لِخَبَر ابتداءٍ محذوف .

وقيل : التقدير : «قل الأَنفال لله والرسول كما أَخرجك» ، وهذا نحو أَول قول ذكرتُه .

وقال عكرمة : التقدير : «وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين كما أخرجك ربك» ، أي : الطاعة خير لكم كما كان إخراجك خيراً لكم (١) .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَيْتِكَ﴾ يريد : من المدينة يثرب ، قاله جمهور المفسرين . وقال ابن بكير : المعنى : كما أخرجك من مكة وقت الهجرة ، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ﴿في ٱلْحقِّ بَعْدَ مَا بُيِّنَ﴾ بضم الباءِ من غير تاءٍ . والضمير في قوله : [يُجَادِلُونَكَ] قيل : هُوَ للمؤمنين ، وقيل : للمشركين ، فمن قال «للمؤمنين» جعل الحقَّ قتال مشركي قريش ، ومن قال «للمشركين» جعل الحقَّ شريعة الإسلام . وقوله : ﴿إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ أي : في سوقهم إلى القتال على أن المجادلين المؤمنون ، وفي دعائهم إلى الشرع على أنهم المشركون . وقوله : ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ حال تزيد في فزع السَّوْق وتقتضي شدة حاله .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ الآية . في هذه الآية قصص حسن أنا أختصره إذ هو مستوعب في كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن هشام ، واختصاره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا بلغه ـ وقيل : أُوحي إليه ـ

(١) ذكر ابن عطية عشرة أقوال في تحديد ما تتعلق به الكاف في قوله تعالى : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ ، ونقد كل قول من الأقوال أو حلّله ووضحه ، وقال : إن الأول والثاني منهما يمكن أن يلتئم بهما المعنى .

أن أبا سفيان بن حرب قد أقبل من الشام بالعير التي فيها تجارة قريش وأموالها قال لأصحابه : إن عير قريش قد عنت لكم ، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها ، قال : فابتعث مِمَّنْ معه مَن خَفَّ ، وثَقُل قومٌ وكرهوا الخروج ، وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلوي على من تعذر ، ولا ينتظر من غاب ظهرُهُ(١) ، فسار في ثلاثمائة وثلاثة عشر من أصحابه بين مهاجري وأنصاري ، وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلقى حرباً فلم يكثر استعدادهم ، وكان أبو سفيان في خلال ذلك يستقصي ويحذر ، فلما بلغه خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ضَمْضَم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستنفر أهلها ، ففعل ضمضم ، فخرج أهل مكة في ألف رجل أو نحو ذلك ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خروجهم أوحى الله تعالى إليه وحْياً غير ملتو يَعِدُهُ إحدي الطائفتين ، فعرّف رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك فسُرُّوا ووَدّوا أن تكون لهم العير التي لا قتال معها ، فلما علم أبو سفيان بقرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ طريق الساحل وأبْعَد وفات ، ولم يبق إلا لقاءُ أهل مكة ، وأشار بعض الكفار على بعض بالانصراف وقالوا : عيرُنا قد نجت فلننصرف ، فحرَّش(٢) أبو جهل ولجَّ حتى كان أمر الوقعة ،

(١) المراد بالظهر هنا ما يركبه المقاتل من فرس ونحوه .

(٢) حرَّش الإنسانَ والحيوان : أغراه بفعل شيءٍ ، وحرَّش بين القوم : أفسد . (المعجم الوسـيط) .

وقال بعض المؤمنين : نحن لم نخرج لقتال ولم نستعد له ، فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أَصحابه وهو بواد يُسَمَّى ذفران وقال : أَشيروا عليَّ أَيها الناس ، فقام أَبو بكر رضي الله عنه وتكلم فأَحسن وحرَّض على لقاءِ العدو ، فأَعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستشارة ، فقام عمر رضي الله عنه بمثل ذلك فأَعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستشارة ، فتكلم المقداد الكندي فقال : لا نقول لك يا رسول الله اذهب أَنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول : إنا معكما مقاتلون ، والله لو أَردت بنا برك الغماد ــ (قال القاضي أَبو محمد رحمه الله : وهي مدينة بالحبشة) ــ لقاتلنا معك من دونها ، فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلامه ودعا له بخير ، ثم قال : أَشيروا علي أَيها الناس ، فكلَّمه سعد بن معاذ ــ وقيل : سعد بن عبادة ــ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

«ويمكن أَنهما جميعاً تكلَّما في ذلك اليوم» ، فقال : يا رسول الله ، كأَنك تريدنا معشر الأَنصار ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أَجل ، فقال : إنا آمنا بك واتبعناك فامض لأَمر الله ، فوالله لو خضت بنا هذا البحر لخُضناهُ معك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (امضوا على بركة الله ، فكأَني أَنظر إلى مصارع القوم) ، فالتقوا وكانت وقعت بدر .

وقرأ مسلمة بن محارب [١] : ﴿وَإِذْ يعِدْكُم﴾ بجزم الدال ، قال أبو الفتح : ذلك لتوالي الحركات ، وقرأ ابن محيصن : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ احْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ﴾ بوصل الألف من [إحْدَى] وصِلَة الهاءِ بالحاء .

و [الشَّوْكَة] عبارة عن السلاح والحدّة ، ومنه قول الأعور : «إن العَرْفَجَ قَدْ أَدْبَى» [٢] . وقرأ أبو عمرو ـ فيما حكى أبو حاتم ـ ﴿الشَّوْكَةَّ تكون﴾ بإدغام التاءِ في التاءِ . ومعنى الآية : وتودُّون العير وتأْبَوْن قتال الكفار .

وقوله : ﴿وَيُريدُ اللهُ﴾ الآية ، المعنى : ويريد الله أن يظهر الإسلام ويُعلي دعوة الشرع . وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، ونافع ـ بخلاف عنهم ـ

---

(١) هو مسلمة بن عبد الله بن محارب أبو عبد الله الفهري البصري النحوي ، له اختيار في القراءات ، وقال ابن الجزري : لا أعلم على مَنْ قرأ ، وكان من العلماء بالعربية . (المحتسب لابن جني)

(٢) العَرْفَج : نبت طيب الرائحة أغبر مائل إلى الخضرة له زهرة صفراءُ وليس له شوك ـ أَدْبى : يريد أنه استوى وصلح أن يؤكل ، وإذا استوى هذا النبت صلح الوقت للغزو ـ هذا وللعرفج أسماء تبعاً لمراحل نموه ، قال أبو نصر : إدباءُ العرفج أن يتّسق نبتُه ويتآزر . وقد قال هذا الكلام رجل من بني العنبر كان أسيراً في بكر بن وائل فسألهم أن يرسل رسولا إلى قومه ، فلما شرطوا أن يعرفوا الرسالة لجأ إلى الرموز والتورية ، وكان من رسالته لهم : « إن العَرْفَج قد أدبى ، وشكّت النساءُ ... وأمُرْهُم أن يُعْرُوا ناقتي الحمراءَ فقد أطالوا ركوبها ، وأن يركبوا جبلي الأصهب » يريد أن وقت الغزو قد حان ، وعليهم أن يرحلوا من أماكنهم إلى جهة أخرى يعرفونها ـ راجع في ذلك كتاب « الأمالي لأبي علي القالي » في : « مطلب الكلام على مادة لَحَنَ » .

[بِكَلِمَتِهِ] على الإفراد الذي يراد به الجمع، والمعنى في قوله : [بِكَلِمَاتِهِ] إما أَن يريد : بأَوامره للملائكة والنُّصْرة لجميع ما يظهر الإسلام، وإما أَن يريد: بكلماته التي سبقت في الأَزل، والمعنى قريب .

والدابر : الذي يدبر القوم ، أَي : يأْتي في آخرهم ، فإذا قطع فقد أُتي على آخرهم بشرط أَن يبدأَ الإهلاك من أَولهم ، وهي عبارة في كل من أَتى الهلاك عليه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أَي: لِيُظْهر ما يجب إظهاره وهو الإسلام، ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أَي الكفر ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ أَي : وكراهيتهم واقعة ، فهي جملة في موضع الحال .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الآية . [إِذْ] متعلقة بفعل تقديره : واذكر إذ، وهو الفعل الأَول الذي عمل في قوله ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾ ، وقال الطبري : هي متعلقة بـ [يُحِقَّ] و [يُبْطِلَ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصح أن يعمل فيها [يَعِدُكُم] فإن الوعد كان في وقت الاستغاثة ، وقرأ أبوعمرو بإدغام الذال في التاء ، واستحسنها أبو حاتم . و [تَسْتَغيثُونَ] معناه : تطلبون ، وليس يبين من ألفاظ هذه الآية أن المؤمنين علموا قبل القتال بكون الملائكة معهم ، فإن [اسْتَجَاب] يمكن أن يقع في غيبه تعالى ، وقد روي أنهم علموا بذلك قبل القتال ، ومعنى التأنيس وتقوية القلوب يقتضي ذلك ، وقرأ جمهور الناس [أَنِّي] بفتح الألف ، وقرأ أبو عمرو - في بعض ما روي عنه - وعيسى بن محمد - بخلاف عنه - [إِنِّي] بكسر الألف ، أي : قال إني ، و [مُمِدُّكُمْ] أي مكثركم ومقويكم ، من أمددت ، وقرأ جمهور الناس [بِأَلْفٍ] ، وقرأ عاصم الجحدري [بِآلُفٍ][1] ، على مثل فَلْس وأَفْلُس فهي جمع (أَلْف) ، والإشارة بها إلى الآلاف المذكورة في آل عمران [2] ، وقرأ عاصم الجحدري أيضاً [بِآلاف] .

و [مُرْدَفِينَ] معناه : متبعين ، ويحتمل أن يراد بالمردَفين ، المؤمنين ، أي أُردفوا بالملائكة ، ف [مُرْدَفِينَ] - على هذا - حالٌ من الضمير في قوله : [مُمْدِدْكُمْ] . ويحتمل أن يراد به : الملائكة ،

---

(١) أصلها على هذا (أأَلُف) بهمزتين قلبت الثانية منهما ألفا لأنها ساكنة وما قبلها مفتوح فصارت (آلُف) .

(٢) في قوله تعالى في الآية (١٢٥) : ﴿ بَلَى إنْ تَصْبِروا وتَتَّقُوا ويَأتُوكُم مِنْ فَوْرهِم هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلاف مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

أي أردف بعضهم ببعض . وهذه القراءَة بفتح الدال ، وهي قراءَة نافع وجماعة من أهل المدينة وغيرهم . وقرأ سائر السبعة غير نافع بكسر الدال ، وهي قراءَة الحسن ، ومجاهد ، والمعنى فيها : تابع بعضهم بعضاً[١] ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : «خلف كل ملَك ملك» ، وهذا معنى التتابع ، يقال : ردف وأردف إذا اتبع وجاءَ بعد الشيءِ . ويحتمل أن يراد : مُرْدِفين المؤمنين . ويحتمل أن يراد : مردفين بعضهم بعضاً ، ومن قال : «مُرْدِفِين بمعنى أن كل ملَك أردف ملَكاً وراءَه» فقول ضعيف لم يأْت بمقتضاه رواية . وقرأ رجل من أهل مكة — رواه عنه الخليل — «مُرَدِّفين» بفتح الراءِ وكسر الدال وشدها ، وروي عن الخليل أيضاً أنها بضم الراءِ وكالتي قبلها في غير ذلك . وقرأ بعض الناس بكسر الراءِ ومثلهما في غير ذلك ، حكى ذلك أبو عمرو عن سيبويه ، وحكاه أبو حاتم قال : كأَنه أراد : «مرتدفين» فأَدغم وأتبع الحركة ، ويحسن مع هذه القراءَة كسر الميم ولا أحفظه قراءَة .

---

(١) قال الإمام ابن خالويه : «الحجة لمن كسر الدال أنه جعل الفعل للملائكة فأتى باسم الفاعل من (أردف) ، والحجة لمن فتح الدال أنه جعل الفعل لله عزّ وجلّ فأتى باسم المفعول من (أردف) ، والعرب تقول : أردفتُ الرجل : أركبته على قطاة دابتي خلفي ، وردفته : إذا ركبت خلفه» راجع كتاب «الحجة في القراءات السبع» — هذا وقطاةُ الدابة : العَجزُ وما بين الوركين ، أو مقعد الرديف من الدابة . «القاموس المحيط — مادة : قطا» .

وأنشد الطبري شاهداً على أن (أَردف) بمعنى : «جاءَ تابعاً» قول الشاعر :

إذا الْجوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ظَنَنْتُ بآل فاطِمَةَ الظُّنُونَا (١)

والثريا تطلع قبل الجوزاء .

وروي في الأَشهر أَن الملائكة قاتلت يوم بدر ، واختلف – في غيره – من شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لم تقاتل يوم بدر وإنما وقفت وحضرت ، وهذا ضعيف . وحكى الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أَنه قال : نزل جبريل في أَلف ملك على ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أَبو بكر رضي الله عنه ، ونزل ميكائيل في أَلف ملَك في الميسرة وأَنا فيها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كانا في خمسمائة خمسمائة ، وقال الزجاج : قال بعضهم : إن الملائكة خمسة آلاف ، وقال بعضهم : تسعة آلاف ، وفي هذا المعنى أَحاديث هي مستوعبة في كتاب السير .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ﴾ الآية . الضمير في [جَعَلَهُ] عائد على الوعد .

---

(١) البيت لخزيمة بن مالك بن نَهْد – جاء ذلك في (اللسان) مادة : ردف ، قال : وأردفه : لغة في ردفه مثل تبعه وأتبعه بمعنى ، قال خزيمة : إذ الجوزاء...» وهو يريد فاطمة بنت يذكر بن عنزة أحد القارظين ، ومعنى البيت على ما حكاه اللسان عن أبي بكر بن السراج : إن الجوزاء تردف الثريا في شدة الحرّ ، فتتكبد السماءَ في آخر الليل ، وعند ذلك تنقطع المياه وتجف فتتفرق الناس في طلب المياه ، فتغيب عنه محبوبته ، فلا يدري أين مضت ، ولا أين نزلت . (راجع اللسان والتاج) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي أَمكن الأَقوال من جهة المعنى . وقال الزجاج : «الضمير عائد على المُمْدَد» ، ويحتمل أَن يعود على الإِمداد ، وهذا يحسن مع قول من يقول : إن الملائكة لم تقاتل ، وإنما آنست بحضورها مع المسلمين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي ضعيف تردُّه الأَحاديث الواردة بقتال الملائكة ، وما رأَى من ذلك أَصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كابن مسعود رضي الله عنه وغيره .

ويحتمل أَن يعود على «الإِرداف» وهو قول الطبري ، وهذا أَيضاً يجري مجرى القول الذي قبله ، ويحتمل أَن يعود على «الأَلف» ، وهذا أَيضاً كذلك لأَن البشرى بالشيْء إنما هي ما لم يقع بعد . والبشرى : مصدر من بشرت ، والطمأْنينة : السكون والاستقرار .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ توقيف على أَن الأَمر كله لله ، وأَن تكسّب المرء لا يغني إذا لم يساعده القدر وإن كان مُطالَباً بالجد ، كما ظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيْن دِرْعَيْن .

وهذه القصة كلها ــ من قصة الكفار وغلبة المؤمنين لهم ــ تليق بها من صفات الله عزَّ وجلَّ العزَّةُ والحكمةُ إذا تُؤُمّل ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾

العامل في [إذ] هو العامل الذي عمل في قوله : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُم﴾ بتقدير تكراره ، لأَن الاشتراك في العامل الأَول نفسه لا يكون إلا بحرف عطف ، وإنما القصد أَن يُعَدد نِعمَهُ[1] تبارك وتعالى على المؤمنين في يوم بدر فقال : «واذكروا إذ فعلنا بكم كذا» . وقال الطبري : «العامل في [إِذْ] قوله : [وَلِتَطْمَئِنَّ] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا مع احتماله فيه ضعف ، ولو جعل العامل في [إِذْ] شيئاً قريباً مما قبلها لكان الأَولى في ذلك أَن يعمل في [إِذْ] [حَكِيمٌ] ، لأَن إلقاءَ النعاس عليهم وجعله أَمنةً حِكْمَةٌ من الله عزَّ وجلَّ[2] .

(١) النص الذي وجدناه في النسخ التي بين أيدينا هو : «وإنما القصد أن تعدد نعمة الله تعالى» ... الخ ، ولكننا آثرنا هذا الذي أثبتناه معتمدين على كتاب «البحر المحيط» لأنه نقل العبارة عن ابن عطية هكذا ، ثم علّق عليها ، وهي التي يتسق بها الكلام .

(٢) قريب من هذا ما قاله أبو البقـاء ، وهو : «يجوز أن يكون ظرفـاً لما دلَّ عليه ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

وقرأ نافع : [يُغْشيكُم] بضم الياءِ وسكون الغين . وهي قراءَة الأَعرج ، وأَبي حفص ، وابن نصاح . وقرأَ عاصم ، وحمزة ، وابن عامر ، والكسائي : [يُغَشِّيكُم] بفتح الغين وشد الشين المكسورة ، وهي قراءَة عروة بن الزبير ، وأَبي رجاءٍ ، والحسن ، وعكرمة ، وغيرهم . وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو : [يغْشَاكم] بفتح الياءِ وأَلف بعد الشين ، وهي قراءَة مجاهد ، وابن محيصن ، وأَهل مكة [النُّعاسُ] بالرفع . وحجة من قرأَ [يغْشَاكُمْ] إجماعهم في آية (أُحُد) على ﴿يَغْشَى طائفةً منْكُمْ﴾ ، وحجة من قرأَ [يُغَشِّيكُم] أَن يجيءَ الكلامُ متَّسقاً مع [يُنَزِّلُ](١) . ومعنى [يُغَشِّيكُم] : يغطيكم به ويفرغه عليكم ، وهذه استعارة .

والنعاس : أَخف النوم ، وهو الذي قد يصيب الإنسان وهو واقف أَو ماش ، وينُصّ على ذلك قصص هذه الآية أَنهم إنما كان بهم خَفْق في الرؤُوس ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا نعس أَحدكم في صلاته...)(٢) ، وينصُّ على ذلك قول الشاعر :

وَسْنانُ أَقْصدَهُ النُّعـــاسُ فرَنَّقتْ في عَيْنِهِ سِنَةٌ ولَيْسَ بِنائِمِ (٣)

---

(١) وأيضاً فإن الفعل فيها مضاف إلى الله عزَّ وجلَّ الذي تقدم ذكره في قوله سبحانه : ﴿وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ الله﴾ . هذا وآية (أُحُد) هي الآية (١٥٤) من سورة (آل عمران) وهي قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ إلى آخر الآية .

(٢) الحديث مروي في البخاري ومسلم وغيرهما ــ عن عائشة رضي الله عنها ، ونصه : (إذا نعس أحدكم وهو يُصَلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لايدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه). ورواه أيضاً مالك، ورمز له في «الجامع الصغير» بالصحة.

(٣) نَسَبَه في (اللسان) إلى ابن الرِّقاع وقال: امرأةٌ وسْنَى ووسنانة : فاترة الطرف، شُبِّهَت بالمرأة الوسْنَى من النوم» ، وقال أيضاً : «إن ابن الرقاع فرَّق بين السِّنَة والنوم».=

وقوله : [أَمَنَةً] مصدر من أَمِن الرجل يأْمن أَمْناً وأَمَنةً وأَماناً ، والهاءُ فيها لتأْنيث المصدر كما هي في المساءَة والمشقة[(١)] ، وقرأ ابن محيصن : [أَمْنةً] بسكون الميم ، وروي عن عبد الله بن مسعود[(٢)] أنه قال : «النعاس عند حضور القتال علامة أَمن من العدو ، وهو من الله ، وهو في الصلاة من الشيطان» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا طريقه الوحي فهو لا محالة إنما يسنده .

وقوله تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾ تعديدٌ أَيضاً لهذه النعمة في المطر ، فقال بعض المفسرين ـ وحكاه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، وقاله الزجاج ـ : إن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماءِ بدر فنزلوا عليه ، وبقي المؤمنون لا ماءَ لهم ، فوجست نفوسهم وعطشوا وأَجنبوا وصَلُّوا كذلك ، فقال بعضهم في نفوسهم ـ

=وعلى هذا فالوسن: النوم الخفيف ، يقال : وسَن كَفَرِح يَوْسَن وسَناً وسِنَةً ، وأقصده : أصابه فلم يخطئه ، ورَنّق النوم في عينه : خالطها ، أو تهيأت العين للنوم ، وقبل هذا البيت يقول ابن الرقاع ، (وهو عديّ بن الرقاع العامليّ ، كان شاعراً مقدما عند بني أُميّةَ مدّاحاً لهم) :

لولا الحَيَاءُ وأنّ رأسي قَدْ عَسَا فيه المَشيبُ لزُرْتُ أُمّ الْقَاسِمِ

وكَأنّهَا بيْنَ النّسَاءِ أعَارَهَا عَيْنَيْهِ أحْوَرُ مِنْ جَآذر جَاسِمِ

(١) معنى أن [أَمَنَةً] مصدر أنه منصوب على المصدر ، والتقدير : فأَمنتم أَمَنَةً ، ويرى الزمخشري وأبوحيان أنه منصوب على أنه مفعول له (في قراءة [يُغَشِّيكُم] لاتّحاد الفاعل ، لأن المغشيّ والمؤَمّن هو الله تعالى .

(٢) نسب هذا الكلام في «الكشاف» إلى ابن عباس رضي الله عنهما .

بإلقاءِ الشيطان إليهم ـ : نزعم أنَّا أولياءُ الله وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحالنا هذه والمشركون على الماءِ ، فأَنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأَودية ، فشرب الناس وتطهروا وسقوا الظَّهْر [١] ، وتدَمَّثت السَّبْخة[٢] التي كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أَقدام المسلمين وقت القتال ، وكانت قبل المطر تسوخُ فيها الأَرجل ، فلما نزل الطَّشُّ تلبَّدَت [٣] ، قالوا : فهذا معنى قوله : ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ أَي من الجنابة ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطانِ﴾ أَي عذابه لكم بوساوسه المتقدمة الذكر . والرِّجْز : العذاب ، وقرأَ أَبو العالية : [رِجْسَ] بالسين ، أَي وساوسه التي تمقت وتتقذر ، وقرأَ ابن محيصن : [رُجْز] بضم الراءِ ، وقرأَ عيسى بن عمر : [ويُذْهبْ] بجزم الباءِ . ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أَي بتنشيطها وإزالة الكسل عنها وتشجيعها على العدو ، ومنه قولهم : «رابط الجأْش» ، أَي ثابت النفس عند جأْشها في الحرب[٤] . ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَام﴾ أَي في الرمْلة الدَّهِسَة [٥] التي كان المشي فيها صعباً .

(١) الظهر : الإبل التي يُحْمَل على ظهرها والجمع ظهران بالضم .
(٢) السَّبْخَة ـ بسكون الباءِ وكسرها ـ : أرض ذات نزّ وملح وجمعها : سبخات ـ والأرض الدمثاءُ : السهلة اللَّيِّنة .
(٣) الطّشّ : المطر الخفيف ، وهو فوق الرذاذ ـ وتلبدت الأرض : تماسكت وصلحت للمشي عليها .
(٤) الجأشُ : النفس أو القلب ـ وقول ابن عطية : « ... عند جأشها » يعني عند فزعها .
(٥) يقال : دَهِسَ المكان بمعنى كثر فيه الدَّهَاسُ ، وهو المكان السهل اللَّيِّن ليس برمل ولا تراب ولا طين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والصحيح من القول – وهو الذي في السيرة لابن إسحق وغيرها – أن المؤمنين سبقوا إلى الماء ببدر ، وفي هذا وقع كلام حباب بن المنذر الأنصاري (١) حين نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أول ماء ، فقال له حباب : (أَبِوَحْي يا رسول الله هو المنزل فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو عندك الرأي والمكيدة ؟) الحديث المستوعب في السيرة (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولكن نزول المطر كان قبل وصولهم إلى الماء ، وذلك أن القوم من المؤمنين لحقتهم في سفرهم الجنابات وعدموا الماء قريب بدر فصَلُّوا كذلك ، فوقع في نفوسهم من ذلك ، ووسوس الشيطان لهم في ذلك مع تخويفه لهم من كثرة العدو وقلّتهم ، وهذا قبل الترائي

---

(١) الاسم الصحيح : « الحُباب بن المنذر بن الجَموح » الأنصاري الخزرجي ثم السَّلَمِيّ . فهو بالألف واللام وضم الحاء ، كان يكنى أبا عُمَر ، وهو القائل يوم السقيفة : « أنا جُذَيْلها المُحكَّك ، وعُذَيْقها المُرَجَّب » ، قال ابن سعد : مات في خلافة عمر وقد زاد على الخمسين . (الإصابة) – وزاد في (الاستيعاب) : كان يقال له ذو الرأي لما أشار به على الرسول صلى الله عليه وسلم يوم بدر .

(٢) الحديث طويل ، وقد ذكره القرطبي وابن كثير – وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاب الحباب : (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) ، فقال : يا رسول الله ، إن هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونُغَوِّر (نَدْفِن) ما وراءه من القُلُب (جمع قليب وهو البئر العادية القديمة) ، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه فنشرب ولا يشربوا ، فاستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وفعله ، ثم التقوا فنصر الله نبيَّه والمسلمين .

بالأَعين ، وأَيضاً فكانت بينهم وبين ماءِ بدر مسافة طويلة من رمْل دَهِسٍ ليّن تسوخ فيه الأَرجل ، وكانوا يتوقعون أَن يسبقهم الكفار إلى ماءِ بدر فتحرضوا هم أَن يسبقوهم إليه ، فأَنزل الله تلك المطرة فسالت الأَودية فاغتسلوا وطهرهم الله فذهب رجس الشيطان ، ودمّثت الطريق وتلبَّدت تلك الرملة فسهل المشي فيها وأَمكنهم الإسراع حتى سبقوا إلى الماءِ ، ووقع في السيرة أَن ما أَصاب المشركين من ذلك المطر بعينه صعَّب عليهم طريقهم ، فسُرَّ المؤمنون وتبَيَّنُوا من فعل الله بهم قَصْد المعونة لهم فطابت نفوسهم واجتمعت وتشجعت ، فذلك الرّبْطُ على قلوبهم وتثبيت الأَقدام منهم على الرملة اللينة ، فأَمكنهم لحاق الماءِ قبل المشركين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

هذا أَحد ما يحتمله قوله تعالى : ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ ، والضمير في [بِهِ] على هذا الاحتمال عائد على الماءِ ، ويحتمل أَن يعود الضمير في [بِهِ] على ربط القلوب ، فيكون تثبيت الأَقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب ، وبيِّنٌ أَن الرَّابطَ الجأْش يثبت قدمه عند مكافحة الهول .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ونزول الماءِ كان في الزمن قبل تغشية النعاس ، ولم يترتب ذلك في الآية إذ القصد فيها تعديد النِّعَم فقط ، وحكى أَبو الفتح أَن

الشعبي قرأ : ﴿وَيُنَزِّل عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ما﴾ ساكنة الألف ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ قال : وهي بمعنى : الذي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف[1] . وقرأ ابن المسيب : [لِيُطْهِرْكُم] بسكون الطاء .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ﴾ الآية . العامل في [إذْ] العامل الأول على ما تقدم فيما قبلها ، ولو قدرناه قريباً لكان قوله تعالى : [وَيُثَبِّتَ] على تأويل عود الضمير على الربط ، وأما على عوده على الماء فيقلق أن تعمل [وَيُثَبِّتَ] في [إذْ][2] .

ووحْيُ الله إلى الملائكة إما بإلهام أو بإرسال بعض إلى بعض .

وقرأ عيسى بن عمر ـ بخلاف عنه ـ [إِنِّي مَعَكُمْ] بكسر الألف على

---

(١) والسبب أن ما دخلت عليه لام التعليل لا يصحُّ أن يكون صلة ، قال في « البحر المحيط » : « ويمكن تخريج هذه القراءة على وجه آخر وهو أن [ما] ليس موصولا بمعنى (الذي) وأنه بمعنى (ماء) الممدود ، وقد حكوا أن العرب حذفت هذه الهمزة فقالوا : (مَاً يا هذا) بحذف الهمزة وتنوين الميم ، فيمكن أن تخرّج على هذا إلا أنهم أجروا الوصل مجرى الوقف فحذفوا التنوين وأبقوا الألف ، وهي إما ألف الوصل التي هي بدل من الواو وهي عين الكلمة ، وإما الألف التي هي بدل التنوين في حالة النصب » .

(٢) سبب القلق اختلاف زمان التثبيت عنده وزمان الوحي ، لأن زمان إنزال المطر وما تعلق به من تعليلات متقدم على تغشية النعاس والإيحاء ، ذكر ذلك أبو حيان في « البحر » ، ومن هذا الرأي أيضاً الألوسي . فقد ذكر القول بأن (إذْ) معمولة لـ [يُثَبِّت] ثم قال : « ويتعين حينئذ عود الضمير المجرور في [بِهِ] إلى الربط ، ولا يصح أن يعود إلى الماء لتقدم زمانه على زمان ذلك ، يعني الإيحاء إلى الملائكة .

استئناف إيجاد القصة ، وقرأ جمهور الناس : [أَنِّي] بفتح الأَلف على أَنها معمولة لِ [يُوحي] ، ووجه الكسر أَن الوحي في معنى القول .

وقوله تعالى : [فَثَبِّتُوا] يحتمل أَن يكون بالقتال معهم على ما رُوي . ويحتمل بالحضور في حيِّزهم والتَّأْنيس لهم بذلك ، ويحتمل أَن يريد : فَثَبِّتُوهم بأَقوال مؤنسة مقوية للقلب ، وروي في ذلك أَن بعض الملائكة كان في صورة الآدميِّين ، فكان أَحدهم يقول للَّذي يليه من المؤمنين : لقد بلغني أَن الكفار قالوا : «لئن حمل المسلمون علينا لننكَشِفنَّ» ، ويقول آخر : ما أَرى الغلبة والظَّفر إِلَّا لنا ، ويقول آخر : أَقدم يا فلان ، ونحو هذا من الأَقوال المثَبِّتة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أَيضاً أَن يكون التثبيت الذي أمر به ما يلقيه الملَك في قلب الإِنسان بِلَمَّته[1] من توهّم الظفر واحتقار الكفار ، ويجري عليه من خواطر تشجيعه ، ويُقوي هذا التأْويل مطابقةُ قوله تعالى : ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ﴾ ، وإن كان إِلْقاءُ الرعب يطابق التثبيت على أَي صورة كان التثبيتُ ، ولكنه أَشبه بهذا إِذ هما من جنس واحد .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا التأْويل يجيءُ قوله تعالى : ﴿سأُلْقِي في قُلُوبِ ٱلَّذِين كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ﴾ مخاطبة للملائكة ، ثم يجيءُ قوله سبحانه : ﴿فاضرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ لفظه لفظ الأَمر ومعناه الخبر عن صورة الحال ،

(١) لَمَّةُ الشيء : ما اجتمع منه .

كما تقول ـ إذا وصفت حرباً ـ لمن تخاطبه : «لقينا القوم وهزمناهم ، فاضرب بسيفك حيث شئت واقتل وخذ أسيرك» ، أي هذه كانت صفة الحال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون [سَأُلْقِي] إلى آخر الآية خبراً يخاطب به المؤمنين عما يفعله في الكفار في المستقبل كما فعله في الماضي ، ثم أمر بضرب الرقاب والبنان تشجيعاً لهم وحضاً على نُصرة الدين . وقرأ الأعرج [الرُّعُب] بضم العين ، والناس على تسكينها .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ ـ فقال الأخفش : [فوْق] زيادة ، وحكاه الطبري عن عطية أن المعنى : فاضربوا الأعناق(١) ، وقال غيره : هي بمعنى : عَلَى ، وقال عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما : هي على بابها وأراد الرؤُوس إذ هي فوق الأعناق . وقال المبرد : وفي هذا إباحة ضرب الكافر في الوجه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأويل أنبلها .

ويحتمل عندي أن يريد بقوله : ﴿فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ وصف أبلغ ضربات العُنُق وأحْكمِهَا ، وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق

(١) في القرطبي : «وقد روى المسعودي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني لم أبعث لأعذّب بعذاب الله ، وإنما بعثتُ بضرب الرقاب وشدّ الوثاق) . وقال محمد ابن يزيد : هذا خطأٌ لأن (فَوْق) تفيد معنى فلا تجوز زيادتها .

ودون عظم الرأس ، في المفصل . وينظر إلى هذا المعنى قول دُرَيْد ابن الصِّمَّة[١] الجشمي لابن الدُّغُنَّة السّلمي حين قال له : «خذ سيفي وارْفع عن العظم واخفض عن الدماغ فهكذا كنت أَضرب أَعناق الأَبطال » ، ومثله قول الشاعر :

جَعلْتُ السَّيْف بيْن ٱلْجيدِ مِنْـــهُ وبيْن أَسيلِ خدَّيْهِ عِـــذارَا[٢]

فيجيءُ على هذا ﴿فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ متمكناً . وقال ابن قتيبة : [فوْقَ] في هذه الآية بمعنى : دون . وهذا خطأٌ بيّن ، وإنما دخل عليه اللَّبس من قوله تعالى : ﴿مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[٣] أَي : فما دونها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليست [فوْق] هنا بمعنى دون ، وإنما المراد : فما فوقها في القِلَّة والصغر ، فأَشبه المعنى دون . والْبَنانُ : قالت فرقة : هي المفاصل حيث

(١) دُرَيْد بن الصِّمَّة الجُشَمي البكري ، من هوازن ، شجاع ، من الأبطال الشعراء المعمرين في الجاهلية ، غزا نحو مائة غزوة لم يهزم في واحدة منها ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، بل قتل على جاهليته يوم حنين ، له أخبار كثيرة ، والصِّمَّة لقب أبيه معاوية بن الحارث . (الأغاني ط دار الكتب ١٠ : ٣–٤٠ ، وخزانة البغدادي ، والروض الأنف) .

(٢) الجيدُ : العنق أو مقدّمه أو موضع القلادة منه . والخَدُّ الأسيل : السهل اللّيِّن الرقيق المستوى ، وفي صفته صلى الله عليه وسلم : كان أسيل الخَدّ ، قال ابن الأثير : الأسالة في الخد الاستطالة ، وأن لا يكون مرتفع الوجنة .
وعِذارُ اللجام : ما وقع منه على خدّي الدابة ، وعِذارُ الرجل شعره النابت في موضع العذار وهو أعلى العارضة . ومراد الشاعر أنه يضربه بالسيف في هذا الموضع الدقيق بين الخَدّ والجيد ، ولم نقف على قائل البيت .

(٣) من قوله تعالى في الآية (٢٦) من سورة (البقرة) : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحيي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾

كانت من الأعضاء ، فالمعنى على هذا : «واضربوا منهم في كل موضع» .
وقالت فرقة : البنان : الأصابع ، وهذا هو القول الصحيح [١] ،
فعلى هذا التأويل ـ وإن كان الضرب في كل موضع مباحاً ـ فإنما قصد
أبلغ المواضع لأن المقاتل إذا قطع بنانه استأسر [٢] ولم ينتفع بشيء
من أعضائه في مكافحة وقتال .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ
جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون داخلون فيه بالمعنى ،
والضمير في [بِأَنَّهم] عائد على الذين كفروا ، و [شاقُّوا] معناه :
خالفوا ونابذوا وقطعوا ، وهو مأخوذ من الشَّقّ وهو القطع والفصل

(١) البَنَانُ : جمع بَنَانَة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين ، وأنشد ابن برّي لعباس بن مرداس :
ألا لَيْتَنِي قَطَّعْتُ مِنْهُ بَنَـانَةً ولاقَيْتُهُ في البيْتِ يَقْظَانَ حَاذِرَا
(٢) يقال : استأسَرَ لَهُ : أي استسلم لأسْرِه . (المعجم الوسيط) .

بين شيئيْن ، وهذه مفاعلة ، فكأَن الله لما شرع شرعاً وأَمر بأَوامر وكذَّبوا هم وصدُّوا تباعد ما بينهم وانفصل وانْشقَّ ، والشِّق مأْخوذ من هذا لأَنه مع شِقه الآخر تباعدا وانفصلا . وعبّر المفسرون عن قوله تعالى : [شاقُّوا] أَي : صاروا في شِق غير شِقه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا وإن كان معناه صحيحاً فتحرير الاشتقاق إنما هو ما ذكرناه ، والمثال الأَول إنما هو الشَّق بفتح الشين ، وأَجمعوا على الإظهار في [يُشَاقِق] اتباعاً لخط المصحف . وقوله : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ جواب الشرط تضمن وعيداً وتهديداً .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ المخاطبة للكفار ، أَي : ذلكم الضرب والقتل وما أَوقع الله بهم يوم بدر ، فكأَنه قال : الأَمر ذلكم فذوقوه ، وكذا فسَّره سيبويه . وقال بعضهم : يحتمل أَن يكون [ذَلِكُمْ] في موضع نصب ، كقوله : «زيداً فاضربه» . وقرأ جمهور الناس : [وَأَنَّ] بفتح الأَلف ، فإِمَّا على تقدير : «وحَتْم أَنّ» ، فيقدَّر على ابتداءِ محذوف يكون [أَنَّ] خبره[1] ، وإِمَّا على تقدير ، «واعلموا أَنَّ» فهي – على هذا – في موضع نصب . وروى سليمان عن الحسن ابن أَبي الحسن : [وَإِنَّ] على القطع والاستئناف .

---

(١) جاء في إحدى النسخ بعد هذا زيادة قوله : «وقال سيبويه : التقدير : الأَمْر ذلكم» .

وقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً﴾ الآية . [زحْفاً] يراد به : مُتقَابِلِي الصُّفُوف والأَشخاص ، أَي : يزحف بعضهم إلى بعض ، وأَصل الزحف الاندفاع على الأَلْية [١] ثم سُمّي كل ماش إلى آخر في الحرب رويداً زاحفاً ، إذ في مشيته من التماهل والتباطؤ ما في مشي الزاحف ، ومن الزحف الذي هو الاندفاع قولهم لنار العرفج [٢] وما جرى مجراه في سرعة الاتقاد : نار الزَّحْفتيْن [٣] .

ومن التباطؤ في المشي قول الشاعر :

كَأَنَّهُنَّ بِأَيْدِي الْقَوْمِ في كبَدٍ طيْرٌ تكشَّفُ عنْ جونٍ مَزاحيفِ [٤]

---

(١) الأَلْيةَ : العجيزة أو ما ركبها من شحم ولحم . قال الأزهري : « وأصل الزَّحف للصَّبيِّ وهو أن يزحف على استِه قبل أن يقوم ، وإذا فعل ذلك على بطنه قيل : قدْ حبَا ، وشُبِّه بزحف الصبيان مشْيُ الفئتين تلتقيان للقتال » .

(٢) العَرْفَج : شجر أوْ ضَرْب من النبات سريع الاتقاد ، واحدته بهاءٍ ، وقال أبو زياد : العَرْفَج طيِّب الرائحة أغبر إلى خُضرة وله زهرة صفراءُ وليس له حَبٌّ ولا شوك ، وقال أبو حنيفة : أخبرني بعض الأعراب أن العرفجة أصلها واسع تنبت لها قضبان كثيرة بقدر الأصل ، وليس لها ورق ، إنما هي عيدان دقاق وفي أطرافها زَمَع يظهر في رؤوسها شيءٌ كالشعر أصفر ، والإبل والغنم تأكله رطباً ويابساً ، ولهَبُهُ شديد الحُمْرة ، ويقال : كأن لحيته ضرام عرفجة . (راجع تاج العروس – عرَجَ) .

(٣) جاء في التَّاج : « قال الأزهري : ونار العَرْفَج يُسميها العرب نار الزحفتين ، لأن الذي يوقدها يزحف إليها ، فإذا اتَّقدت زحف عنها . » ونقل في اللسان عن ابن بري : وتُسمَّى ناره نار الزحفتين لأنه يسرع الالتهاب فيزحف عنه ، ثم لا يلبث أن يخبو فيُزحف إليه ، وأنشد أبو العَمَيْثَل :

وسَوْداء المَعَاصِم لمْ يُغَادِرْ لها كَفَلا صِلاءُ الزَّحْفَتَيْن

(٤) البيت لأبي زبيد ، وقد ذكر حفر قبر عثمان رضي الله عنه وكانوا قد حفروا له في الحرَّة فشبَّه المساحي التي يضرب بها في الأرض بطير عائفة على إبلٍ سودٍ قد اسودَّت =

ومنه قول الفرزدق :

عَلَى عمائِمِنا تُلْقَى ، وَأَرْحُلُنَـــا عَلَى زوَاحِفَ نُزْجيها محاسِيرِ (١)

ومنه قول الآخر :

لِمَنِ الظَّعَائِنُ سَيْرُهُنَّ تَزَحُّـــف . . . . (٢)

= من العرق بها دبَرٌ ، وشبَّه سواد الحَرَّة بالإبل السود ، ورواية البيت كما قال ابن برّي: « طَيْرٌ تَعِيفُ عَلَى » بدلا من : « طيْرٌ تكشّف عن » . وقد روى البيت بألفاظ أخرى ذكرها صاحب اللسان وهي :

حَتَّى كَأَنَّ مَسَاحي الْقَوْمِ فَوْقَهُم طَيْرٌ تَحومُ عَلَى جُوقٍ مَزَاحِيفِ

(١) قبل هذا البيت يقول الفرزدق :

مُسْتَقْبِلين شمال الشَّام تَضْرِبُنَـا بحاصبٍ كَنَدِيفِ القُطْن مَنْثُـــورِ

ورواية البيت في الديوان وفي اللسان كما ذكرها ابن عطية هنا : (عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجيها محاسيرِ) ، وقد قال شارح الديوان : « الرواية المشهورة : (تُزْجَى مُخُّهَا رِيرُ) ، ولحَّنه ابن معدان وقال : أسأت . الموضعُ موضعُ رَفْع ، وإن رفَعْتَ أقْوَيْتَ ، وألَحَّ الناس على الفرزدق في ذلك فقلبها فقال : (نُزْجيها محاسيرِ) ، قال التاريخي : ثم ترك الرواة هذا ورجعوا إلى القول الأول » . ومعنى رير : رقيق ، يقال : أرارَ الله مُخَّه أي : جعله رقيقاً ، قال الراجز :

* والسَّاقُ مِنِّي باديات الرِّير *

أي : أنا ظاهر الهزال ، لأنه دَقَّ عظْمُه ورقَّ جِلْدُه فظهر مُخُّه . (راجع اللسان) .

وفي كتاب التنبيهات على أغلاط الرواة أن عبد الله بن أبي إسحق النحوي قال : إن الفرزدق لحن في قوله : (تُزْجَى مُخُّهَا رِيرُ) فبلغ ذلك الفرزدق فقال : أما وجد هذا لبيتي مخرجاً في العربية ؟ أما إني لو أشاء لقلت : (عَلَى زواحف نُزْجيها محاسيرِ) ، ولكنني والله لا أقوله . ولكن هكذا رواه اللغويون ، وأصحاب المعاجم ورواة الديوان .

(٢) نسبه في « البحر المحيط» للأعشى ، وتمامه كما ذكره :

. . . . مِثْلَ السَّفِينُ إذا تَقَاعَسَ تَجْـــرِف

والظعائن : جمع ظعينة وهي المرأة تكون في الهودج ، ثم كثر ذلك حتى سمّوا زوجة الرجل ظعينة ، والظعن : سير البادية لنجدة أو طلب ماء . ورواية (التَّاج) لهذا البيت في شطره الثاني :

. . . . عَوْمُ السَّفين إذا تَقَاعَسَ يجـــذف

ومن التزحُّف بمعنى التَّدافع قول الهُذَلِيِّ :

كَأَنَّ مزاحِف الحيَّاتِ فيـــــهِ قُبَيْل الصُّبْح آثارُ السِّيَـــاطِ (١)

وأَمر الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية أَلَّا يُوَلِّي المؤمنون أَمام الكفار ، وهذا الأَمر مقيد بالشريطة المنصوصة في مِثْلَي المؤمنين ، فإذا لَقِيَتْ فِئَةٌ من المؤمنين فِئَةً هي ضِعْف المؤمنة من المشركين فالفرض أَلا يفروا أَمامهم ، فالفِرار هناك كبيرة موبقة بظاهر القرآن والحديث وإجماع أَكثر الأُمة ، والذي يُراعى العَدَدُ حسب ما في كتاب الله عزَّ وجلَّ ، وهذا قول جمهور الأُمة ، وقالت فرقة منهم ابن الماجشون في « الواضحة »: يراعى أَيضاً الضعف والقوة والعُدَّة ، فيجوز – على قولهم – أَن يفر مائة فارس إذا علموا أَن عند المشركين من العُدَّة والنجدة والبسالة ضعف ما عندهم ، وأَمام أَقل أَو أَكثر بحسب ذلك ، وأَمَّا على قول الجمهور فلا يحلُّ فِرار مائة إلَّا أَمام ما زاد على مائتين .

---

(١) قال المتنخِّل الهُذَلِيُّ هذا البيت يصف منهلاً ، وقد ذكره الجوهري بلفظ :

كأن مزاحف الحيات فيها . . . .

وخطأه في اللسان ، وقال : الصواب (فيه) كما ذكرناه ، وقد ذكره مع بيت قبله هكذا :

شَرِبْتُ بِجَمِّهِ وصَدَرْتُ عنْـهُ وأبْيَضُ صارمٌ ذكَرٌ إبَـاطِـي

كأن مزاحفَ الحيَّاتِ فيهِ قُبَيْلَ الصُّبْحِ آثارُ السِّيَاطِ

والجَمُّ : الماء إذا تراجع وكثُر في البئر بعد الأخذ منه . ومعنى قوله إباطِي : تحت إبطي ، قال السيرافي : أصله : إباطيٌّ فخفَّف ياء النسب ، وعلى هذا يكون صفة لصارم ، وهو منسوب إلى الإبط .

والعبارة بالدُّبُر في هذه الآية متمكنة الفصاحة لأنها بَشِعةٌ على الفارّ ذامَّةٌ له ، وقرأ الجمهور : [دُبُره] بضم الباء ، وقرأ الحسن ابن ابي الحسن : [دُبْره] بسكون الباء .

واختلف المتأولون في المشار إليه بقوله : [يَوْمَئِذٍ] ـ فقالت فرقة : الإشارة إلى يوم بدر وما ولِيَه ، وفي ذلك اليوم وقع الوعيد بالغضب على من فرَّ ، ونُسخ ـ بعد ذلك ـ حُكْمُ الآية بآية الضَّعْف(١) وبَقِي الفِرار من الزحف ليس بِكبيرة ، وقد فرَّ الناس يوم أُحد فعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حُنيْن : ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾(٢) ولم يقع على ذلك تعنيف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال الجمهور من الأُمة : الإشارة بـ [يَوْمَئِذٍ] إلى يوم اللقاء الذي يتضمنه قوله : ﴿إِذَا لَقِيتُم﴾ ، وحُكْم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضَّعف الذي بيَّنه الله تعالى في آية أُخرى ، وليس في الآية نسخ ، وأَما يوم أُحد فإنما فرَّ الناس من أَكثر من ضعفهم ، ومع ذلك عُنفوا لكون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وفِرارهم عنه ، وأَما يومُ

(١) هي قوله تعالى في الآية (٦٦) من هذه السورة : ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ .

(٢) من الآية (٢٥) من سورة (التوبة) .

حُنيْن فكذلك مَن فَرَّ إنما انكشف أمام الكثرة ، ويحتمل أن عفو الله عمَّن فرّ يوم أُحد كان عفواً عن كبيرة .

و ﴿مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ﴾ يراد به الذي يرى أنّ فعله ذلك أنكى العدوّ وأعود عليه بالشر ، ونصبه على الحال ، وكذلك نصب «مُتحَيّز» .

وأما الاستثناءُ فهو من الْمُوَلِّين الذين يتضمنهم [مَنْ] ، وقال قوم : الاستثناءُ هو من أنواع التَّوَلِّي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولو كان كذلك لوجب أن يكون : «إلَّا تحَرُّفاً وَتحيُّزاً» .

والفِئَةُ ـ ها هنا ـ : الجماعة من الناس الحاضرةُ للحرب . هذا على قول الجمهور في أن الفِرار من الزحف كبيرة ، وأما على القول الآخر فتكون (الفئة) : المدينةُ والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا ، رُوي هذا القول عن عمر رضي الله عنه ، وأنه قال : أنا فئتكم أَيها المسلمون .(١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا منه على جهة الحيطة على المؤمنين إذ كانوا في ذلك الزمن يثبتون لأضعافهم مراراً ، وفي مُسْنَد ابن أبي شيبة من طريق عبد الله

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ـ عن عمر رضي الله عنه قال : «لا تَغُرَّنكم هذه الآية فإنها كانت يوم بدر ، وإنا فِئةٌ لكل مسلم» .

ابن عمر أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجماعة فرَّت في سَرِيَّةٍ من سراياه : (أنا فِئَةُ المسلمين)(١) حين قدموا عليه . وفي صحيح البخاري من حديث أَبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اتقوا (السَّبْعَ الموبقات) ، وعدد فيها الفِرَارَ من الزحف(٢).

و [بَاءَ] بمعنى نهض متحملا للثقل المذكور في الكلام غضباً كان أَو نحوه ، والغضب من صفات الله عزَّ وجلَّ إذا أُخذ بمعنى الإرادة فهي صفة ذات ، وإذا أُخذ بمعنى إظهار أَفعال الغاضب على العبد فهي صفة فعل ، وهذا المعنى أَشْبه بهذه الآية ، والمأْوى : الموضع الذي يأْوي إليه الإنسان .

---

(١) أخرج سعيد بن منصور ، وابن سعد ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري في الأدب المفرد ، واللفظ له . وجماعة غيرهم – عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا في غزوة فحاص الناس حيصة ، قلنا : كيف نلقى النبي صلى الله عليه وسلم وقد فررنا من الزحف وبُؤْنا بالغضب ؟ فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر ، فخرج فقال : (من القوم ؟) فقلنا : نحن الفرارون ، فقال : (لا ، بل أنتم العكارون) ، فقبلنا يده فقال : (أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين) ثم قرأ : ﴿إلا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ﴾ . (الدر المنثور) قال ابن الأثير في «النهاية» : «حاص الناس حيصة : جالوا جولةً يطلبون الفِرار . والمحيص : المهرب والمحيد» .

(٢) الحديث رواه مسلم في الإيمان ، ورواه البخاري في الوصايا وفي الحدود ، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله وما هُنَّ ؟ قال : الشرك بالله ، والسِّحر ، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ، وأكل الرِّبا ، وأكل مال اليتيم ، والتَّولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) . ومعنى الموبقات : المهلكات – والتَّولي يوم الزحف هو الفِرار عن القتال يوم التقاء المحاربين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

هذه مخاطبة للمؤمنين أَعْلم اللهُ بها أَن القتلة من المؤمنين ليْسوا هم مستبدين بالقتل بالإقدار عليه ، والخلقُ والاختراع في جميع حالات القاتل إنما هي لله تعالى ليس للقاتل فيها شيءٌ ، وإنما يشاركه بتكَسُّبه وقصده . وهذه الأَلفاظ تردّ على من يقول بأَن أَفعال العباد خلق لهم .

وسبب هذه الآية - فيما روي - أَن أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل فقال : قتلت كذا وفعلت كذا ، فجاءَ من ذلك تفاخر ونحو ذلك فنزلت الآية .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ يراد به ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله يومئذ ، وذلك أَنه أَخذ قبضاتٍ من حصًى وتراب فرمى بها في وجوه القوم وتِلْقاءَهم ثلاث مرات فانهزموا عند آخر رمية . ويروى أَنه قال يوم بدر : (شاهت الوجوه) . وهذه الفعلة أَيضاً كانت يوم حنين بلا خلاف ، وروي أَن التراب الذي رمَى به لم يبق كافر إلا دخل في عينيه منه شيءٌ ، ورُوي أَنه رمى بثلاثة أَحجار فكانت الهزيمة مع الحجر الثالث .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فيحتمل قوله تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ ما قلناه في قوله سبحانه : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ وذلك منصوص في الطبري وغيره ، وهو خارج عن كلام العرب على معنى : وما رميت الرمي الكافي إذْ رميت ، ونحو قول العباس بن مرداس :

. . . . فَلَمْ أُعْطَ شيئاً ولَمْ أُمْنَع[1]

أي : لم أُعْطَ شيئاً مرضياً .

ويحتمل أن يريد : وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت حصياتك ، ولكن الله رماه ، وهذا منصوص في المهدوي وغيره .

ويحتمل أن يريد : وما أغنيت إذ رميت حصياتك ، ولكن الله رمى ، أي أعانك وأظفرك ، والعرب تقول في الدعاء : رمى الله لك ، أي ، أعانك وصنع لك ، وحكى هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز . وقرأت فرقة : ﴿وَلكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ بتشديد النون ، وفرقة : ﴿ولكِنِ اللهُ رَمَى﴾ بتخفيفها ورفع الهاء من [الله] .

---

(٢) هذا عجز البيت ، وتمامه :

وقَدْ كُنْتُ في القَوْمِ ذا تُـــدْرَإٍ فلَمْ أُعْطَ شيْئاً ولَمْ أُمْنَـــع

قال ابن الأثير : ذو تُدْرَإٍ أي : ذو هجوم لا يَتَوَقَّى ولا يَهاب ففيه قوة على دفع أعدائه ، وهواسم موضوع للدفع ، والتَّاءُ فيه زائدة كما زيدت في تَتْفُل وتَنْضُب وترتُب ، يقال : السلطان ذو تُدْرأٍ بضم التاء ، أي ذو عُدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه (اللسان) .

و [لِيُبْلِيَ] أي : ليصيبهم ببلاءٍ حسن ، فظاهر وصفه بالحُسْن يقتضي أنه أراد الغنيمة والظَّفر والعزة ، وقيل : أراد الشهادة لمن استشهد يوم بدر وهم أربعة عشر ، منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، ومهجع مولى عمر رضي الله عنه ، ومعاذ وعمرو ابنا عفراءَ ، وغيرهم .

﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتكم [عَلِيمٌ] بوجه الحكمة في جميع أفعاله لا إلٰه إلا هو .

وحكى الطبري أن المراد بقوله سبحانه : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ رمْيُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة على أُبي بن خلف يوم أُحُد[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف لأن الآية نزلت عقب بدر ، وعلى هذا تكون أجنبية مما قبلها وما بعدها وذلك بعيد . وحكى أيضاً أن المراد السهم الذي

(١) كان أُبي بن خلف قد أوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتل في مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بل أنا أقتلك) ، فمات عدو الله من ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرجعه إلى مكة بموضع يقال له «سَرَف» ، قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : لما كان يوم أُحُد أقبل أُبي مُقَنَّعاً في الحديد على فرسه يقول : لا نجوت إن نجا محمد ، فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله ، قال موسى بن عقبة : قال سعيد ابن المسيب : فاعترض له رجال من المؤمنين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلَّوْا طريقه ، فاستقبله مصعب بن عمير يتقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقُتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم تَرْقُوَة أُبي بن خلف مِن فُرْجَة بين سابغة البَيْضَة والدِّرع ، فطعنه بحربته فوقع أُبي عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، قال سعيد : فكَسَر ضلعاً من أضلاعه ، قال : ففي ذلك نزل : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ والقصة صحيحة ، ولكن القول بأن الآية نزلت فيها هو الذي يصفه ابن عطية وغيره من المفسرين بالضعف لأن الآية نزلت عقب بَدْر .

رمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حصن خيبر فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحُقَيْق فقتله وهو على فراشه (١) . وهذا فاسدٌ ، وخيبر فَتْحُها أبعد من أُحُد بكثير ، والصحيح في قتل ابن أبي الحُقَيْق غير هذا . فهذان القولان ضعيفان لما ذكرناه .

وقوله تعالى : [ذلِكُمْ] إشارة إلى ما تقدم من قتل الله ورميه إياهم ، وموضع [ذلِكُمْ] من الإعراب رفع . قال سيبويه : التقدير : الأمر ذلكم ، وقال بعض النحويين: يجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير فعل ، [وأنَّ] معطوف على [ذلِكُم] ، ويجوز أن يكون خبر ابتداءٍ مقدر تقديره : وحَتْمٌ وسابِقٌ وثابتٌ ونحو هذا . وقرأت فرقة : [وإنَّ] بكسر الهمزة على القطع والاستئناف . و[مُوهِنُ] معناه : مُضْعِف مُبْطل ، يقال : وهَن الشيءُ ، مثل : وعَد يَعِد . ويقال : وهِن مثل : وَلِيَ يَلي. وقُرِئَ ﴿فَمَا وَهِنُوا لما أَصابَهُمْ﴾ (٢) بكسر الهاء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿مُوهِنٌ كيْدَ﴾ من أَوْهن ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿مُوَهِّنٌ كيْدَ﴾ من وَهَّن . وقرأ حفص عن عاصم : [مُوهِنُ كيْدِ] بكسر الدال والإضافة ، (٣) وذكر الزجاج

(١) قصة قتل ابن أبي الحُقَيْق فيها روايات كثيرة ، والذي يهمنا هنا أنها كانت في فتح خيبر بعيدة تماماً عن هذه الآية التي نزلت عقب غزوة بدر .

(٢) من الآية (١٤٦) من سورة (آل عمران) .

(٣) الحجة لمن قرأ بتشديد الهاء أنه أخذه من وهَّن فهو موهِّن ، والحجة لمن قرأ بتخفيف الهاء أنه أخذه من أَوْهَنَ — ومن قرأ بالتنوين مع نصب (كَيْد) أراد الحال أو الاستقبال ، ومن قرأ بالإضافة أراد ما ثبت، ومضى من الزمان . قال ذلك الإمام ابن خالويه في كتابه « الحجة في القراءات السبع » .

أن فيها أربعة أوجه ، فذكر هذه القراءات الثلاث ، وزاد ﴿مُوهّن كيْدِ﴾ بتشديد الهاءِ والإِضافة إلا أنه لم ينص على أنها قراءة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

قال بعض المتأولين : هذه الآية مخاطبة للمؤمنين الحاضرين يوم بدر ، قال الله لهم : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ وهو الحكم بينكم وبين الكافرين ، فقد جاءكم وقد حكم الله لكم ، ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عما فعلتم من الكلام في أمر الغنائم وما شجر بينكم فيها ، وعن تفاخركم بأفعالكم من قتل وغيره ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وإِنْ تَعُودُوا﴾ لهذه الأفعال ﴿نَعُدْ﴾ لتوبيخكم . ثم أعلمهم أن الفئة ــ وهي الجماعة ــ لا تغني وإن كثرت إلا بنصر الله تعالى ومعونته ، ثم آنسهم بقوله وإيجابه أنه مع المؤمنين .

وقال أكثر المتأولين : هذه الآية مخاطبة للكفار أهل مكة ، وذلك أنه روي أن أبا جهل كان يدعو أبداً في محافل قريش ويقول :

«اللَّهم أَقْطعُنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأَهْلِكْه واجعله المغلوب » . يريد محمداً صلى الله عليه وسلم وإياهم . وروي أن قريشاً لما عزموا على الخروج إلى حماية العير تعلقوا بأَستار الكعبة واستفتحوا ، وروي أن أبا جهل قال صبيحة يوم بدر : «اللهم انصر أَحب الفئتين إليك ، وأَظهر خير الدينين عندك ، اللهم أَقْطَعُنا للرحم فأَحِنْهُ الغداةَ[1] ، ونحو هذا» ، فقال لهم الله : إن تطلبوا التفح أي كما ترونه عليكم لا لكم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا توبيخ . ثم قال لهم : وإن تنتهوا عن كفركم وغيّكم فهو خير لكم ، ثم أَخبرهم أَنهم إن عادوا للاستفتاح عاد بمثل الوقعة يوم بدر عليهم ، ثم أَعلمهم أَن فئتهم لا تغني شيئاً وإن كانت كثيرة ، ثم أَعلمهم أنه مع المؤمنين .

وقالت فرقة من المتأَولين : قوله تعالى : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ هي مخاطبة للمؤمنين ، وسائر الآية مخاطبة للمشركين ، كَأَنه قال : وأَنتم أَيها الكفار ﴿إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ .

وقرأَ ابن كثير ، وعاصم في رواية أَبي بكر ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ بكسر الهمزة على القطع ، وقرأَ نافع ،

---

(١) الحَيْن هو : الهلاك ، يقال : حان الرجل أي هَلَك ـ وأحانه الله : أهْلَكَه ـ والفعل أحِنْه أمْرٌ من ذلك بمعنى : أهْلِكْهُ .

وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: [وأَنَّ] بفتح الأَلف، فإما أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداءٍ محذوف، وإما في موضع نصب بإضمار فعل، وما ذكره الطبري من أن التقدير: «لكثرتها ولأَن الله مع المؤمنين» محتمل المعنى، وفي قراءة ابن مسعود: «وَلَوْ كَثُرَتْ واللهُ مَعَ الْمُؤمِنين»، وهذا يقوي قراءة من كسر الأَلف من [إنَّ].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. الخطاب للمؤمنين المصدقين، جدّد عليهم الأَمر بطاعة الله والرسول، ونهوا عن التَّوَلِّي عنه، وهذا قول الجمهور. ويكون هذا متناصراً مع قول من يقول: «إن الخطاب بقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ هو للمؤمنين»، فيجيءُ الكلام من نمط واحد في معناه، وأَما على قول من يقول: «إن المخاطبة بـ (إنْ تنْتَهوا) هي للكفار» فيرى أَن هذه الآية إنما نزلت بسبب اختلافهم في النفل، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفاخرهم بقتل الكفار والنكاية فيهم. وقالت فرقة: الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين، والمعنى: يأَيها الذين آمنوا بأَلسنتهم فقط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ــ وإن كان محتملا على بُعْد ــ فهو ضعيف جداً لأَجل أن الله وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان، والإيمان: التصديق. والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيءٍ. وقيل: إن الخطاب لبني إسرائيل، وهذا أَجنبي من الآية.

و [تَوَلَّوْا] أصله : تتولّوا ، لأَن تفعّل دخلت عليه تاءُ المخاطبة بالفعل المستقبل فحذفت الواحدة ، والمحذوفة هي تاءُ تفعّل ؛ والباقية هي تاءُ العلامة ، لأَن الحاجة إليها هنا أَمَسُّ ليبقى الفعل مستقبلا .

وقوله : ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُون﴾ يريد : دعاءه لكم بالقرآن والمواعظ والآيات.

وقوله : ﴿كالَّذِينَ قَالُوا﴾ يريد الكفار ، فإمّا من قريش لقولهم : ﴿سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هَذا﴾[1] ، وإما الكفار على الإطلاق الذين يقولون : سمعنا القرآن وعلمنا أنه سحر أو شِعر وأساطير بحسب اختلافهم ، ثم أَخبر الله عنهم خبراً نفى به أنهم سمعوا أي : فهموا وَوَعَوْا ، لأَنه لا خلاف أَنهم كانوا يسمعون التلاوة بآذانهم ولكن صدورهم مطبقة لم يشرحها الله عزَّ وجلَّ لتلقي معاني القرآن والإيمان به .

قوله عز وجلَّ :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

المقصود بهذه الآية أَن يُبَيِّن أَن هذه الصنيفة العاتية من الكفار هي شرّ الناس عند الله عزَّ وجلَّ ، وأَنها أَخسّ المنازل لديه ، وعبّر

(١) ستأتي في الآية (٣١) من هذه السورة .

بالدواب ليتأكد ذمُّهم وليفضل عليهم الكلب العقور والخنزير ونحوهما من السبع والخمس الفواسق وغيرها . والدوابّ : كل ما دبَّ فهو يَعُمُّ الحيوان بجملته . وقوله تعالى : ﴿الصُّمُّ البُكْم﴾ عبارة عما في قلوبهم وقلة انشراح صدورهم وإدراك عقولهم ، فلذلك وصفهم بالصمم والبكم وسلب العقل . وروي أن هذه الآية نزلت في طائفة من بني عبد الدار[1] ، وظاهرها العموم فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بهذه الأوصاف ، ثم أخبر تعالى بأن عدم سمعهم وهداهم إنما هو بما علمه الله منهم وسبق من قضائه عليهم فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمِّهم في قوله سبحانه : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ ، والمراد : لأسمعهم إسماع تفهيم وهدى . ثم ابتدأ عزَّ وجلَّ الخبر عنهم بما هم عليه من حَتْمِهِ عليهم بالكفر فقال : ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُم﴾ أي : ولو أفهمهم [لتَوَلَّوْا] بحكم القضاء والسابق فيهم ، ولأعرضوا عما تبيّن لهم من الهدى . وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت : المعنيّ بهذه الآية المنافقون ، وضعفه الطبري ، وكذلك هو ضعيف .

وقوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية . هذا خطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف ، و [ٱسْتَجِيبُوا] بمعنى أجيبوا ، ولكن عرف الكلام أن يتعدى (استجاب) بلام ويتعدى (أجاب)

---

(١) في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ قال : هم نفر من بني عبد الدار . هذا والأصل : أشرّ ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وكذا خير ، الأصل فيها أخير .

دون لام ، وقد يجيءُ تعدي (استجاب) بغير لام ، والشاهد قول الشاعر :

وَدَاعٍ دَعَا يا مَنْ يُجيبُ إلى ٱلنَّدَى فلَمْ يَسْتجِبْهُ عِنْدَ ذاكَ مُجيبُ [1]

وقوله : ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال مجاهد والجمهور : المعنى : للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه ، وهذا إحياءٌ مستعارٌ ، لأنه من موت الكفر والجهل ، وقيل : للإسلام ، وهذا نحو الأول ويضعف من جهة أن من آمن لا يقال له : ادخل في الإسلام . وقيل : ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ معناه : للحرب وجهاد العدو ، وهو يُحْيِي بالعزة والغلبة والظفر ، فسُمِّي ذلك حياة ، كما تقول : حيِيَتْ حالُ فلان إذا ارتفعت ، ويُحْيي أيضاً كما يُحْيي الإسلام والطاعة وغير ذلك بأنه يؤدي إلى الحياة الدائمة في الآخرة . وقال النقاش : المراد : إذا دعاكم للشهادة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذه صلة حياة الدنيا بحياة الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يحتمل وجوهاً ـــ منها أنه لما أمرهم بالاستجابة في الطاعة حضَّهم على المبادرة

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي يرثي أخاهُ أبا المغوار ، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لي وَلْيُؤْمِنُوا بي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ . وفي الفعل (أجاب) يمكن أن تقول : أجابه وأجاب عن سؤاله . والمصدر : الإجابة ، والاسم : الجابة بمنزلة الطاقة والطاعة ، وفي المثل : « أساءَ سمعاً فأساءَ جابة » ، ذكر الزبير بن بكار أنه كان لسهل بن عمر ابنٌ مضعوف ، فقال له : أين أمُّك ؟ بفتح الهمزة وضم الميم المشددة ـــ بمعنى : أين قصدك ؟ فظن أنه يسأله عن أُمه فقال : ذهبت تشتري دقيقاً ، فقال أبوه : « أساءَ سمعاً فأساءَ جابة » . (اللسان) .

والاستعجال فقال : واعْلَمُوا أَنَّ الله يحُولُ بيْن الْمَرْءِ وَقلْبِهِ بِالموت والقبض ، أَي : فبادروا بالطاعات . ويلتئم مع هذا التأْويل قوله : ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أَي : فبادروا بالطاعات وتزودوها ليوم الحشر . ومنها أَن يقصد بقوله : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْن ٱلْمَرْءِ وَقلْبِهِ﴾ إِعلامهم أَن قدرة الله وإِحاطته وعلمه والجهةٌ بين المرءِ وقلبه حاصلة هناك حائلة بينه وبين قلبه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فكأَن هذا المعنى يحضٌ على المراقبة والخوف لله المطلع على الضمائر ، ويشبه ــ على هذا التأْويل ــ هذا المعنى قوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[١] ، حُكي هذا التأْويل عن قتادة .

ويحتمل أَن يريد تخويفهم إِن لم يمتثلوا الطاعات ويستجيبوا لله وللرسول بما حل بالكفار الذين أَرادهم بقوله : ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ لأَن حتمه عليهم بأَنهم لو سمعوا وفهموا لم ينتفعوا يقتضي أَنه قد كان حال بينهم وبين قلوبهم ، فكأَنه قال للمؤمنين في هذه الأُخرى : استجيبوا لله وللرسول ولا تأْمنوا إِن لم تفعلوا أَن ينزل بكم ما نزل بالكفار من الحول بينهم وبين قلوبهم ، فنبه على ما جرى على الكفار بأَبلغ عبارة وأَعلقها بالنفس .

---

(١) من الآية (١٦) من سورة (ق) .

ومنها أن يكون المعنى ترجية لهم بأَن الله يبدل الخوف الذي في قلوبهم من كثرة العدو فيجعله جرأَة وقوة ، وبضد ذلك للكفار ، فإن الله هو مقلب القلوب كما كان في قسم النبي صلى الله عليه وسلم (١) ، قال بعض الناس : ومنه : «لا حول ولا قوة إلا بالله» ، أَي : لاحول على معصية ولا قوة على طاعة إلا بالله .

وقال المفسرون في ذلك أَقوالاً هي أَجنبية من أَلفاظ الآية حكاها الطبري ــ منها أَن الله يحول بين المؤمن والكافر ، وبين الكفر والإيمان ، ونحو هذا (٢) .

وقرأَ ابن أَبي إسحق : ﴿بَيْنَ ٱلمِرْءِ﴾ بكسر الميم ، ذكره أَبو حاتم ، قال أَبو الفتح : وقرأَ الحسن والزبيدي(٣) : [بَيْنَ الْمَرِّ] بفتح الميم وشد الراءِ المكسورة . (٤)

---

(١) روى البخاري في كتاب التوحيد عن سالم بن عبد الله قال : كان أكثر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحلف : (لا ومُقَلِّب القلوب) . وفي مسند الإمام أحمد أن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف شاء) ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللَّهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك) .

(٢) الذي اختاره الطبري من الأقوال هو أن الله أخبر أنه أَمْلَكُ لقلوب العباد منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته تبارك وتعالى . وقد أشار إلى ذلك كل من القرطبي وأبي حيان .

(٣) في بعض النسخ : وقرأ الحسن والزبير ، والذي في أبي الفتح : الزهري . وكذلك نقله في «البحر المحيط» .

(٤) معنى هذا أن الهمزة حذفت بعد نقل حركتها إلى الراء قبلها ، ثم شددت الراء كما تشدد في الوقف ، وأُجري الوصل مجرى الوقف ، والعرب تفعل ذلك كثيراً ــ قال أبو حيان : وهذا توجيه شذوذ .

و [تُحْشَرُونَ] أَي : تبعثون يوم القيامة . وروي من طريق مالك ابن أَنس والنسائي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أُبي بن كعب وهو في الصلاة فلم يجب وأَسرع في بقية صلاته ، فلما جاءه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَما سمعت فيما أُوحي إلي ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ؟ فقال أُبي : لا جرم يا رسول الله ، لا تدعوني أَبداً إلا أَجبتك . الحديث بطوله واختلاف أَلفاظه[١] . وفي البخاري ومسلم أَن ذلك وقع مع أَبي سعيد بن المُعَلَّى[٢] ، وروي أَنه وقع نحوه مع حذيفة بن اليمان في غزوة الخندق .

---

(١) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة من طريق أحمد بن المقدام العجلي مرة ، ومن طريق أبي كُرَيْب مرة أُخرى ، وذلك إضافة إلى ما ذكره ابن عطية من طريق مالك بن أنس والنسائي .

(٢) روى البخاري عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أُصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أُجبه ، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أُصلي ، فقال : (ألم يقل الله عزَّ وجلَّ : ﴿اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ؟ ثم قال : (إني لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد) ، ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنَّك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال : ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته) . قال ابن عبد البرّ وغيره : أبو سعيد بن المُعَلَّى من جلَّة الأنصار وسادات الأنصار ، تفرد به البخاري واسمه رافع . وقال الشافعي : « هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أُتي به في الصلاة لا تبطل لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة وإن كان في صلاة » . وقد نقل القرطبي ذلك عن الشافعي ثم قال : وفيه حجة لقول الأوزاعي : « لو أن رجلا يصلي فأبصر غلاماً يريد أن يسقط في بئر فصاح به وانصرف إليه وانتهره لم يكن في ذلك بأس » . والله أعلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

هذه الآية تحتمل تـأْويلات . أَسْبَقُهَا إلى النَّفْس أَن يريد الله أَن يُحذر جميع المؤمنين من فتنة إن أَصابت لم تخص الظَّلَمة فقط ، بل تصيب الكل من ظالم وبريءٍ ، وهذا التـأْويل تـأَول فيها الزبير ابن العوام رضي الله عنه ، فإنه قال يوم الجمل [١] : «وما علمت أَنا أُردنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أَظنها إلا فيمن خوطب بها ذلك الوقت» ، وكذلك تـأَول الحسن البصري ، فإنه قال : «هذه الآية في علي وعمار وطلحة والزبير » ، وكذلك تـأَول ابن عباس ، فإنه قال : «أَمر الله المؤمنين في هذه الآية أَلَّا يُقِرُّوا المنكر بين أَظهرهم فيعمهم العذاب» ، وبيَّنه القتبي فيما ذكره مكي عنه بياناً شافياً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فيجيءُ قوله : [لاَ تُصِيبَنَّ] ـ على هذا التـأْويل ـ صفة للفتنة ، فكان الواجب ـ إذا قدَّرنا ذلك ـ أَن يكون اللفظ : (لا تُصيب) ،

(١) واقعة مشهورة شاركت فيها أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وكانت سنة ٣٦ هـ .

وتلطف لدخول النون الثقيلة في الخبر عن الفتنة ، فقال الزجاج : زعم بعض النحويين أن الكلام جزاءٌ فيه طرق من النهي ، قال : ومثله قوله تعالى : ﴿ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾[١] ، فالمعنى : إنْ تدخلوا لا يحطمنكم ، فكذلك هذا : إن تتقوا لا تصيبنَّ.[٢] وقال قوم : هو خبر بمعنى الجزاء فلذلك أمكن دخول النون[٣] . وقال المهدوي : وقيل : هو جواب قَسَم مقدر تقديره : «واتقوا فتنة والله لا تُصيبن» ، ودخلت النون مع (لا) حملا على دخولها مع اللام فقط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا القول تكرُّه ، لأَن جواب القسم إذا دخلته (لا) أو كان منفياً في الجملة لم تدخل النون ، وإذا كان موجباً دخلته اللام والنون

---

(١) من الآية (١٨) من سورة (النمل) .

(٢) صاحب هذا الرأي الذي يرويه الزجاج بقوله : «وزعم بعض النحويين» هو الفراءُ ، وهو يرى أن الجملة جواب للأمر نحو قولك : «انزل عن الدابة لا تطرحنك» ، ومنه : ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمان﴾ — وعقب على التمثيل أبو حيان فقال : ﴿ادْخُلوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ ليس نظير ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ﴾ لأنه ينتظم من الأولى شرط وجزاءٌ ولا ينتظم ذلك في الثانية ، ألا ترى أنه لا يصح تقدير : «إن تتقو فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة» لأنه يترتب على الشرط غير مقتضاه من جهة المعنى . وللزمخشري رأي في الموضوع يناقشه أبو حيان في «البحر المحيط» .

(٣) من رأي الزمخشري أن الجملة صفة وأنها نهي ، وقال : وكذلك إذا جعلتها صفة على إرادة القول كأنه قيل : «واتَّقُوا فِتْنَةً مقولا فيها : لا تُصيبَنَّ» ، ونظيره قول الشاعر :

حَتَّى إذَا جَنَّ الظَّلامُ واخْتَلَطْ جاءُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأيْتَ الذِّئْبَ قَطّ ؟

أي بِمَذْقٍ مقولٍ فيه هذا القول .

الشديدة كقولك : «والله لا يقوم زيد ، والله ليقومن زيد» هذا هو قانون الباب ، ولكن معنى هذه الآية يستقيم مع التكره الذي ذكرناه .

والتأويل الآخر في الآية هو أن يكون قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ خطاباً عاماً لجميع المؤمنين مستقلا بنفسه تم الكلام عنده ثم ابتدأ نهي الظلمة خاصة عن التعرض للظلم فتصيبهم الفتنة خاصة ، وأُخرج النهي على جهة المخاطبة للفتنة فهو نهي محول ، والعرب تفعل مثل هذا كما قالوا : «لا أرينَّك ها هنا» ، يريدون : لا تقم ها هنا فتقع مني رؤيتك ، ولم يريدوا نهي الإنسان الرائي نفسه ، فكذلك المراد في الآية : لا يقع من ظلمتكم ظلم فتقع من الفتنة إصابتهم ، نحا إليه الزجاج ، وهو قول أبي العباس المبرد ، وحكاه النقاش عن الفراء ، ونهي الظلمة ها هنا بلفظ مخاطبة الجمع كما تقول لقوم : «لا يفعل سفهاؤُكم كذا وكذا» وأنت إنما تريد نهي السفهاء فقط .

و [خاصةً] نعت لمصدر محذوف تقديره : إصابة خاصة ، فهي نصب على الحال لما انحذف المصدر ، وهي من الضمير في [تُصيبَنَّ] ، وهذا الفعل هو العامل . ويحتمل أن تكون [خاصَّة] حالا من الضمير في [ظَلمُوا] ولا يحتاج إلى تقدير مصدر محذوف . والأَول أمكن في المعنى .

وقرأ علي بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وأبو جعفر محمد ابن علي ، والربيع بن أنس ، وأبو العالية ، وابن جماز : [لَتُصيبَنَّ] باللام على جواب قسم . والمعنى على هذا وعيد الظلمة فقط . قال أبو الفتح : يحتمل أن يراد بهذه القراءة : «لا تصيبَنَّ» فحذف الألف من (لا) تخفيفاً واكتفاءً بالحركة ، كما قالوا : «أَم والله»[1] ، ويحتمل أن يراد بقراءة الجماعة ﴿لا تُصيبَنَّ﴾ : «لَتُصيبَنَّ» فمطلت حركة اللام فحدثت عنها ألف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تنطع في التحميل[2] ، وحكى النقاش هذه القراءة عن الزبير بن العوام ، وهذا خلاف لما حكى الطبري وغيره من تأويل الزبير رضي الله عنه في الآية . وحكى النقاش عن ابن مسعود أنه قرأ : «واتَّقُوا فِتْنَةً أَنْ تُصيبَ» .

وقوله تعالى : ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وعيد يلتئم مع تأويل الزبير والحسن التآماً حسناً ، ويلتئم مع سائر التأويلات بوجوه مختلفة .

---

(١) قال المهدوي موضحاً ذلك : كما حذفت من (ما) وهي أُخت (لا) في قولهم : «أَمَ والله لأفْعلن» ـ قال أبو حيان : (ما) ليست للنفي ، وهذا فرق بينها وبين (لا) فالتنظير في رأيه غير دقيق .

(٢) من رأي أبي حيان أن الإشباع ـ وهو ما سمّي هنا مطلا للحركة ـ خاصٌّ بالشعر ، وقال الألوسي ما معناه : إنه لا يعول على القول بحذف الألف تخفيفاً ، ولا على القول بتمطيط الحركة إشباعاً ـ وابن عطية من رأيهما ، بل إنه سمّى مطل الحركة وإشباعها تنطعاً في التحميل ، ورحم الله علماء النحو فالقرآن في غنىً عن هذه الآراء .

ورُوي عن علي بن سليمان الأَخفش أن قوله تعالى: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ هي[١] على معنى الدعاء ، ذكره الزهراوي .

وقوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ الآية ، هذه آية تتضمن تعديد نعم الله على المؤمنين ، و [إِذْ] ظرف لمعمول [واذْكُرُوا] تقديره : «واذكروا حالكم الكائنة أو الثابتة إذ أنتم قليل» ، ولا يجوز أن تكون [إِذْ] ظرفاً للذِّكر ، وإنما يعمل الذِّكر في [إِذْ] لو قدرناها مفعولة[٢].
واختلف الناس في الحال المشار إليه بهذه الآية - فقالت فرقة وهي الأكثر : هي حال مكة في وقت بدأة[٣] الإسلام ، والناس الذين يُخاف تخطفهم: كفارُ مكة ، والمأْوى - على هذا التأْويل - : المدينة والأَنصار، والتأْييد بالنصر : وقعة بدر وما انْجرَّ معها في وقتها ، والطيباتُ : الغنائمُ وسائر ما فتح الله عليهم به . وقالت فرقة : الحال المشار إليها هي حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في غزوة بدر ، والناس الذين يخاف تخطفهم - على هذا - : عسكرُ مكة وسائر القبائل المجاورة ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتخوف من بعضهم ، والمأْوى

---

(١) أراد بالضمير (هي) جملة ﴿لا تُصِيبَنَّ﴾ .
(٢) هذا التخريج أحسن من تخريج الزمخشري فقد جعل [إذْ] مفعولا للفعل [اذكروا] وهي ظرف ، والتقدير : واذكروا وقت كونكم أذلة » ، ويؤخذ عليه التصرف في (إذْ) حين نصبها مفعولة وهي من الظروف التي لا تتصرف إلا إذا أُضيف إليها زمان .
(٣) بدأة : مصدر للفعل (بَدَأ) بمعنى : حدث ونشأ - وفي بعض النسخ كتبت بداءة .

ـ على هذا ـ والتأْييد بالنصر هو الإِمداد بالملائكة والتغليبُ على العدّو . والطيباتُ : الغنيمةُ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذان القولان يناسبان وقت نزول الآية لأَنها نزلت عقب بدر .

وقال وهب بن منبه ، وقتادة : الحال المشار إليها هي حال العرب قاطبة ، فإِنها كانت أعرى الناس أَجساماً وأَجوعهم بطوناً وأَقلهم رجالا ونعماً ، والناس الذين يخاف تخطفهم – على هذا التأْويل – : فارس والروم ، والمأْوى ـ على هذا ـ هو النبوة والشريعة ، والتأْييد بالنصر هو فتح البلاد وغلبة الملوك ، والطيبات هي نعم المآكل والمشارب والملابس .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا التأْويل يرده أَن العرب كانت في وقت نزول هذه الآية كافرة إلا القليل ، ولم تترتب الأَحوال التي ذكرها هذا المتأَول ، وإنما كان يمكن أَن يخاطب العرب بهذه الآية في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فإِن تمثَّل أَحد بهذه الآية لحالة العرب فتمثُّله صحيح ، وأَما أَن يكون حالة العرب هي سبب الآية فبعيد لما ذكرناه .

وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ترَجٍّ بحسب البشر متعلق بقوله سبحانه : [واذْكُرُوا] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة ، وهو يجمع أنواع الخيانات كلها قليلها وكثيرها . قال الزهراوي : والمعنى : لا تخونوا بغلول الغنائم ، وقال الزهراوي ، وعبد الله بن أبي قتادة : سبب نزولها أمرُ أبي لُبَابَة ، وذلك أنه أشار لبني قُرَيْظَة - حين سَفَر إليهم - إلى حلقة ، يريد بذلك إعلامهم أنه ليس عند رسول‌الله صلى الله عليه وسلم إلا الذبح ، أي : فلا تنزلوا ، ثم ندم وربط نفسه بسارية من سواري المسجد حتى تاب الله عليه . الحديث المشهور [١] . وحكى الطبري أنه أقام سبعة أيام لا يذوق شيئاً حتى تيب عليه ، وحُكي أنه كان

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عبد الله بن قتادة ، وأخرج مثله سنيد ، وابن جرير عن الزهري ، وأخرجه أيضاً عبد بن حميد عن الكلبي . (الدر المنثور)

لأَبي لُبابة عندهم مال وأولاد فلذلك نزلت : ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ .

وقال عطاءُ بن أَبي رباح عن جابر بن عبد الله : سببها أَن رجلا من المنافقين كتب إلى أَبي سفيان بن حرب بخبر من أَخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية (١) ، فقوله سبحانه : ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ معناه : أَظهَروا الإِيمان ، ويحتمل أَن يخاطب المؤمنين حقاً أَلا يفعلوا فعل ذلك المنافق .

وحكى الطبري عن المغيرة بن شعبة أَنه قال : أُنزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يشبه أَن يمثل بالآية في قتل عثمان رحمه الله ، فقد كانت خيانة لله وللرسول والأَمانات . والخيانة : التَنَقُّص للشيء باختفاءٍ ، وهي مستعملة في أَن يفعل الإِنسان خلاف ما ينبغي من حفظ أَمرٍ مّا ، مالًا كان أَو سراً أَو غير ذلك ، والخيانة لله تعالى هي في تنقص أَوامره في سرّ ، وخيانة الرسول تَنَقُّص ما استحفظ ، وخيانات الأَمانات هي تَنقُّصُها وإِسقاطها ، والأَمانة حال للإِنسان يؤمن بها على ما استحفظ ، فقد اوتُمِن على دينه وعبادته وحقوق الغير . وقيل : المعنى : وتخونوا

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله . (الدر المنثور)

ذوي أَماناتكم ، وأَظن الفارسي أَبا علي حكاه . ﴿وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يريد أَن ذلك لا يضر منه إلَّا ما كان عن تعمد .

وقوله تعالى : [فِتْنَةٌ] يريد : محنة واختباراً وابتلاءً ليرى كيف العمل في جميع ذلك . وقوله : ﴿وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يريد فوز الآخرة ، فلا تدعوا حظكم منه للحيطة على أَموالكم وأَبنائكم فإن المدخور للآخرة أَعظم قدراً من مكاسب الدنيا .

وقوله تعالى : [وَتَخُونُوا] قال الطبري : يحتمل أَن يكون داخلا في النهي كأَنه قال : «لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أَماناتكم» ، فمكانه على هذا جزم ، ويحتمل أَن يكون المعنى : «لا تخونوا الله والرسول فذلك خيانة لأَماناتكم» ، فموضعه على هذا نصب على تقدير : وأَن تخونوا أَماناتكم ، قال الشاعر :

لا تَنْهَ عنْ خُلُقٍ وتَأْتي مِثْلَـــهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعلْتَ عَظِيمُ[1]

---

(١) يروي النحويون هذا البيت شاهداً على جواز النصب عطفاً على اسم مؤول بمعنى أن تكون الواو للمعية ، والتقدير : «لا تَنْهَ عن خُلُق وأنت تَأتي مثْلَه» . أما إعراب الآية الكريمة فيحتمل الأمرين اللّذيْن ذكرهما ابن عطية وهما : أن يكون مجزوماً عطفاً على [لاتَخُونُوا] وأن يكون منصوباً على جواب النهي ، وكونه مجزوماً هو الراجح ، لأن النصب يقتضي النهي عن الجمع ، والجزم يقتضي النهي عن كل واحد — وهناك شروط للنصب بعد هذه الواو تجدها في كتب النحو .

هذا وقد اختلف النحويون في نسبة هذا البيت ، فقيل : قائله أبو الأسود الدؤلي ، وقيل : هو الأخطل ، وقيل : المتوكل الليثي أو سابق البربري ، ونسب لحسَّان والطرماح ، والبيت في حماسة البحتري ١٧٤ ، والأغاني ١٢–١٥٦ ، والمؤتلف ٢٧٣ ، والمستقصى ٢–٢٦٠ ، وسيبويه ١–٤٢٤ ، وابن عقيل ٢–١٢٦ ، والسيوطي ٢٦٤ ، والخزانة ٣–٦١٧ .

وقرأ مجاهد ، وأبو عمرو بن العلاء - فيما روي عنه أيضاً - ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَتَكُمْ﴾ على إفراد الأمانة .

وقوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ الآية ، وعد للمؤمنين بشرط الاتقاء والطاعة له ، و ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ معناه : فرقاً بين حقكم وباطل من ينازعكم ، أي بالنُّصرة والتأييد عليهم ، والفرقان مصدر من فرق بين الشيئين حال بينهما أو خالف حكمهما ، ومنه قوله : ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [1] . وعبَّر قتادة وبعض المفسرين عن الفرقان ها هنا بالنجاة ، وقال السدي ، ومجاهد : معناه : مخرجاً ونحو هذا مما يعمه ما ذكرناه ، وقد يوجد للعرب استعمال الفرقان كما ذكر المفسرون ، فمن ذلك قول مزرد بن ضِرَار :

بادَر الأُفْقَ أَنْ يَغيبَ فَلَمَّا أَظْلَمَ اللَّيْلُ لَمْ يَجِدْ فُرْقَانَا [2]

وقال الآخر :

مالَكَ مِنْ طُولِ الأَسى فُرْقَانُ بعد قَطينٍ رحَلُوا وبَانُوا [3]

---

(١) من الآية (٤١) من هذه السورة (الأنفال) .

(٢) واضح أن يستشهد بهذا البيت والبيتين بعده على أن كلمة (الفرقان) قد تأتي بمعنى : المخرج والنجاة . قال ابن وهب : سألتُ مالكاً عن قوله تعالى : ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال : مَخْرَجاً ، ثم قرأ : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ . وبادَرَ مُبادرة وبداراً إلى الشيء : أسرع إليه .

(٣) لم نعرف قائل هذا البيت . وقَطِينُ الدار : ساكنها وأهلها الذين يقيمون فيها . وقَطِينُ الله : سُكَّان حَرَمه . وبانَ : من البَيْن وهو البعد .

وقال الآخر :

وكَيْفَ أُرَجّي الْخُلْدَ والْمَوْتُ طَالِبِي   وَمَاليَ مِنْ كَأْس الْمَنِيَّةِ فُرْقَان [١]

وقوله تعالى : ﴿وإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ الآية . يشبه أن يكون قوله : [وَإِذْ] معطوفاً على قوله : ﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ ، وهذا تذكير بحال مكة وضيقها مع الكفرة وجميل صنع الله تعالى في جميعها . ويحتمل أن يكون ابتداء كلام ، وهذا كله على أن الآية مدنية كسائر السورة ، وهذا هو الصواب ، وحكى الطبري عن عكرمة ومجاهد أن هذه الآية مكية ، وحكى عن ابن زيد أنها نزلت عقب كفاية الله رسوله المستهزئين بما أحلَّه بكل واحد منهم ، الحديث المشهور [٢] ، ويحتمل عندي قول عكرمة ومجاهد : «هذه مكية» أن أشارا إلى القصة لا إلى الآية .

والمكر : المخاتلة والتداهي [٣] ، تقول : «فلان يمكر بفلان» إذا كان يستدرجه ويسوقه إلى هُوَّة وهو يظهر جميلا وتَسَتُّرا بما يريد ، ويقال : أصل المكر الفتل ، قاله ابن فُورك ، فكأَن الماكر بالإنسان

---

(١) الخُلْد : الدوام والبقاء ـ طالبي : يبحث عني ويسعى ورائي . وفرقان : نجاة ومخرج . ولم نقف على قائل البيت .

(٢) الحديث طويل وهو بنصه في تفسير الطبري ، وقد رواه غير الطبري من طرق مختلفة فارجع إليه في الصحاح من كتب السنة .

(٣) التداهي : مصدر تدَهَّى ، ومعنى تَدَهَّى : بصر بالأمر وجاد رأيُهُ فيه ، والكلمة في الأصل واوية ويائية ، يقال : دهوته ودهيته ، قال في التهذيب : الدهْوُ والدهْيُ : لغتان في الدهاء .

يفاتله حتى يوقعه ، ومن المكر الذي هو الفتل قولهم للجارية المعتدلة اللحم : ممكورة[١] ، فمكر قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم كان تدبيرهم ما يسوؤه ، وسعيهم في فساد حاله وإطفاء نوره ، وتدبير قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الخصال الثلاث لم يزل قديماً من لدن ظهوره ، لكن إعلانهم لا يسمى مكرا ، وما اسْتَسَرُّوا به هو المكر ، وقد ذكر الطبري أن أبا طالب قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، ماذا يدبر فيك قومك ؟ قال : يريدون أن أُقتل أو أُسجن أو أُخرج ، قال أبو طالب : من أعلمك هذا ؟ قال : ربي ، قال ، إن ربك لربٌّ صدق فاستوص به خيراً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل هو يا عم يستوصي بي خيراً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا المكر الذي ذكَره الله في الآية هو بإجماع من المفسرين إشارة إلى اجتماع قريش في دار الندوة بمحضر إبليس في صورة شيخ نجدي على ما نص ابن إسحق في سيره . الحديث بطوله ، وهو الذي كان خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة بسببه ، ولا خلاف أن ذلك كان بعد موت أبي طالب ، ففي القصة أن أبا جهل قال : الرأي أن نأخذ من كل بطن في قريش فتىً قوياً جلداً فيجتمعون ،

(١) لم نعثر في كتب اللغة التي بين أيدينا على ما يشير إليه من الارتباط بين المكر والفتل ، أما قولهم للجارية : ممكورة فقد جاء في اللسان : « المكرة : الساق الغليظة الحسناء ، ابن سيدة : والمكر حُسْن خدالة الساقين ، وامرأةٌ ممكورة : مستديرة الساقين ، وقيل : المُدْمَجة الخَلْق الشديدةُ البَضْعَةِ . وقال غيره : ممكورة مرتوية الساق خدلة ، شبهت بالمكر من النبات » (اللسان — مكر) .

ثم يـأْخذ كل واحد منهم سيفاً ويـأْتون محمداً في مضجعه فيضربونه ضربة رجل واحد ، فلا يقدر بنو هاشم على قتال قريش بـأَسرها ، فيأْخذون العقل ونستريح منه ، فقال النجدي : صدق الفتى ، هذا الرأْي لا أَرى غيره ، فافترقوا على ذلك ، فأَخبر الله بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأَذن له في الخروج إلى المدينة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من ليلته ، وقال لعلي بن أبن طالب : التف في بردي الحضرمي واضطجع في مضجعي فإنه لا يضرك شيءٌ ، ففعل عليٌّ ، وجاء فتيان قريش فجعلوا يرصدون الشخص وينتظرون قيامه فيثورون به ، فلما قام رأَوا عليًّا فقالوا له : أَين صاحبك ؟ قال : لا أَدري ، وفي السير أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وهم في طريقه فطمس الله عيونهم عنه ، وجعل على رأْس كل واحد منهم تراباً ومضى لوجهه ، فجاءهم رجل فقال : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمداً ، قال : إني رأَيته الآن جائياً من ناحيتكم وهو لا محالة وضع التراب على رؤُوسكم ، فمد كل واحد يده إلى رأْسه ، وجاءُوا إلى مضجع النبي صلى الله عليه وسلم فوجدوا عليًّا ، فركبوا وراءه حينئذ كل صعبٍ وذلول [١] وهو بالغار [٢] .

(١) الذَّلُولُ : هو السهل الانقياد من الإبل وغيرها من الدواب . والصعب بعكسه — ويقال : « ركبوا كل صعب وذلول في أمرهم » : اتخذوا كل سبيل .

(٢) الحديث أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما — عن (الدر المنثور — وتفسير ابن كثير) .

ومعنى [لِيُثْبِتُوكَ] : ليسجنوك فَتَثبُت ، قاله السدي ، وعطاءٌ ، وابن أَبي كثير . وقال ابن عباس ، ومجاهد : معناه : لِيُوَثِّقُوكَ . وقال الطبري : وقال آخرون : المعنى : ليسحروك .

وقرأ يحيى بن وثاب فيما ذكر أَبو عمرو الداني : [لِيُثَبِّتُوكَ] ، وهذه أَيضاً تعدية بالتضعيف ، وحكى النقاش عن يحيى بن وثاب أنه قرأ : «لِيُبَيِّتوك» من البيات ، وهذا أَخذ مع القتل فيضعف من هذه الجهة ، وقال أَبو حاتم : معنى [لِيُثْبِتُوكَ] أَي بالجراحة ، كما يقال : «أَثبتته الجراحة» [1] وحكاه النقاش عن أَهل اللغة ولم يُسَمِّ أَحداً .

وقوله تعالى : ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ معناه : يفعل أَفعالا منها تعذيب لهم ، ومنها ما هو إِبطالٌ لمكرهم وردٌّ له ودفع في صدره حتى لا ينجع ، فسُمي ذلك كله باسم الذنب الذي جاء ذلك من أَجله ، ولا يحسن في هذا المعنى إلا هذا ، وأَمّا أَن ينضاف المكر إلى الله عزَّ وجلَّ على ما يفهم منه في اللغة فغير جائز أَن يقال ، وقد ذكر ابن فُورك في هذا ما يقرب من هذا الذي ضعفناه ، وإنما قولنا : «ويمكر الله» كما تقول في رجل شتم الأَمير فقتله الأَمير : هذا هو الشتم ، فتسمى العقوبة باسم الذنب ، وقوله سبحانه : ﴿خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ﴾ أَي : أَقدرهم وأَعزهم جانباً .

(١) قال عطاء والسُّدي : ليُثْخنوك بالجرح والضرب ، من قولهم : ضربوه حتى أثْبتوه لا حَرَاك به ولا بَرَاح ، ورمى الطائر فَأَثْبَتَه ، أي أَثْخَنَه ، قال الشاعر :

فَقُلْتُ وَيْحَكَ ماذا في صَحِيفَتِكُم؟ قالَ : الْخَلِيفَةُ أَمْسَى مُثْبَتاً وَجِعَا

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذه الجهة - أعْني القدرة والعزَّة - يقع التفضيل ، لأَن مَكَرَةَ الكفار لهم قُدرة مّا ، فوقع التفضيل لمشاركتهم بها ، وأما من جهة الصلاح الذي فيما يعلمه الله تعالى فلا مشاركة للكفار بصلاح ، فيتعذر التفضيل على مذهب سيبويه والبصريين إلا على ما قد بيَّناه في ألفَاظ العموم مثل : خيرٌ وأَحبّ ونحو هذا ، إذ لا يخلو من اشتراك ولو على معتقد من فرقة أو أحد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

الضمير في [عَلَيْهِمْ] عائد على الكفار ، والآيات هنا : آيات القرآن خاصة بقرينة قوله : [تُتْلَى] ، و ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ يريد : وقد سمعنا هذا المتلُوَّ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مثله ، وقد سمعنا نظيره ، على ما رُوي أَن النضر سمع أَحاديث أَهل الحيرة من العباد ، فلو نشاءُ لقلنا مثله من القصص والأَنبياء ، فإِن هذه إنما هي أَساطير مَنْ قد تقدم ، أَي قصصهم المكتوبة المسطورة . وأساطير : جمع أُسطورة ، ويحتمل أَن

يكون جمع أَسطارٍ ، ولا يكون جمع أَسْطُر كما قال الطبري ، لأَنه كان يجيءُ أَساطِرَ بدون ياءٍ[١] ، هذا هو قانون الباب ، وقد شذَّ منه شيءٌ كصيرفٍ ، قالوا في جمعه : صياريف . والذي تواترت به الروايات عن ابن جُرَيْج ، والسُّدّي ، وابن جُبَيْر أَن الذي قال هذه المقالة هو النضر بن الحارث ، وذلك أَنه كان كثير السفر إلى فارس والحِيرَة ، فكان قد سمع من قصص الرهبان والأَناجيل ، وسمع من أَخبار رستم واسبنديار ، فلما سمع القرآن ورأَى فيه من أَخبار الأَنبياءِ والأُمم قال : لو شئت لقلت مثل هذا ، وكان النضر من مَرَدة قريش النائلين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزلت فيه آياتٌ من كتاب الله ، وقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم صبْراً[٢] بالصفراءِ مُنْصَرفه من بدر في موضع يقال له : الأُثَيْلْ[٣] ، وكان أَسره المقداد[٤] ، فلما أَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه

---

(١) الذي في لسان العرب هو أن السَّطْرَ والسَّطَر : الصف من الكتاب والشَّجر والنخل ونحوها ، والجمع من كل ذلك : أَسْطُرٌ وأَسْطَارٌ وأَسَاطِيرُ ، وعن اللحياني : وسُطُورٌ . ثم روى عن اللغويين -- بعد ذلك آراء مختلفة .

(٢) الصَّبْرُ : نَصْبُ الإنسان لِلْقتل ، فهو مصبور ، وصَبْر الإنسان على القتل : نصْبُه عليه ، يقال : قتله صبراً ، وقد صبره عليه . (اللسان) وفي « المعجم الوسيط » : قتله صبراً : حبسه حتى مات .

(٣) الأُثَيْل بالتصغير : موضع قريب من المدينة فيه عين ماءٍ لآل جعفر بن أبي طالب .

(٤) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة الحضرمي ، قدم مكة من اليمن فحالف الأسود بن عبد يغوث فقيل له : المقداد بن الأسود ، كان طويلا آدم كثيف الشعر واسع العينين ، تزوج ضُباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي صلى الله عليه وسلم ، هاجر الهجرتين ، وشهد بدراً والمشاهد بعدها ، ولم يثبت أنه كان على فرس يوم بدر غيرُه . =

قال المقداد : أسيري يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه كان يقول في كتاب الله ما علمتم ، ثم أعاد المقداد مقالته حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أَغْنِ المقداد من فضلك ، فقال المقداد : هذا الذي أردت ، فضرب عنق النضر .

وحكى الطبري عن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَتَل يوم بدر صبراً ثلاثة نفر : المُطْعَم بن عَدِيّ ، والنَّضر بن الحارث ، وعُقْبة بن أَبي مُعَيْط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا وهم عظيم في خبر المُطْعم ، فقد كان مات قبل يوم بدر (١) ، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لَو كان المُطْعم حيًّا وكلَّمني في هؤلاءِ النَّتْنَى لتركتهم له (٢)) يعني أَسرى بدر .

= أخرج الترمذي وابن ماجة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى أمرني بحب أربعة ، وأخبرني أنه يُحبهم : عليٌّ ، والمقداد ، وأبو ذرّ ، وسلمان) . وروى المقداد أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم . واتفقوا على أنه مات سنة ثلاث وثلاثين في خلافة عثمان رضي الله عنه ، قيل : وهو ابن سبعين سنة . (الإصابة)

(١) الحقيقة التي لاشكّ فيها أن المُطْعم بن عدي لم يكن حيّاً يوم بدر ، وقد ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ــ قال عن هذا الخبر : «وكذا رواه هشيم عن أبي بشر جعفر ابن أبي وحشية عن سعيد بن جبير أنه قال (المطعم بن عدي) بدل (طعيمة بن عدي) ، وهو غلط لأن المطعم بن عدي لم يكن حيّاً يوم بدر .» وسرّ الغلط هو التشابه بين الاسمين ، ويؤيد هذا أن السيوطي حين نقل الحديث في (الدر المنثور) لم يذكر فيه المطعم بن عدي ، بل ذكر اثنين فقط هما عُقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث .

(٢) رواه البخاري في كتاب المغازي ، ورواه الدارمي في الجهاد ، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٤ــ٨٠) ، ولكن فيه لفظ «النَّتِنين» بدلا من «النَّتْنَى» .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية . روي عن مجاهد ، وابن جُبَير ، وعطاءٍ ، والسدي أن قائل هذه المقالة هو النَّضر بن الحارث الذي تقدم ذكره ، وفيه نزلت هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وترتب أن يقول النَّضر بنُ الحارث مقالةً وينسُبها القرآن إلى جميعهم لأن النَّضر كان فيهم موسوماً بالنُّبْل والفهم مسكوناً إلى قوله ، فكان إذا قال قولا قالهُ منهم كثير واتبعوه عليه حسبما يفعله الناس أبداً بعلمائهم وفُقهائهم . والمشارُ إليه بـ [هَذَا] هو القرآن وشرع محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي حملهم على هذه المقالة هو الحسد ، وذلك أنهم استبعدوا أن يكرم الله عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم هذه الكرامة ، وعميت بصائرهم عن الهدى ، وصمموا على أن هذا ليس بحق فقالوا هذه المقالة ، كما يقول الإنسان لأمر قد تحقق يزعمه أنه لم يكن : «إن كان كذا وكذا فَفَعَلَ الله بي وصَنَع»[1] . وحكى ابن فُورك أن هذه المقالة خرجت مخرج العناد مع علمهم بأنه حق ، وكذلك ألزم أهل اليمن معاوية بن أبي سفيان القصة المشهورة في باب الأجوبة . وحكاه الطبري عن محمد بن قيس ، ويزيد بن رومان .

(١) في هذه العبارة بعض الاضطراب ، وقد جاءت في إحدى النسخ : «كما يقول الإنسان لأمر قد تحقق يزعمه أنه لم يكن إلا كذا وكذا ... الخ» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد من التأْويل ، ولا يقول هذا على جهة العناد عاقل . ويجوز في العربية رفع [الْحَقّ] على أنه خبر [هُوَ] ، والجملة خبر كان ، قال الزَّجَّاج : ولا أعلم أحداً قرأ بهذا الجائز[١] ، وقراءة الناس إنما هي بنصب [الْحَقّ] على أن يكون خبر كان ، ويكون [هُوَ] فصلا ، فهو حينئذ اسمٌ وفيه معنى الإعلام بأَن الذي بعده خبر وليس بصفة ، (وأَمْطَرَ) إنما يستعمل في المكروه ، و (مَطَر) في الرحمة . كذا قال أبوعبيدة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويعارض هذا قوله سبحانه : (هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا)[٢] لأنهم ظنوها سحابة رحمة . وقولهم : ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ مبالغة وإغراق .

وهذان النوعان اللذان اقترحوهما هما السالفان في الأُمم ، عافانا الله وعفا عنا ولا أَضَلَّنَا بمنِّه ويُمْنِه .

---

(١) ذكر الألوسي في تفسيره أن زيْد بن علي ، والأعمش قرآ [الحقُّ] بالرفع ، وعبارة الزجاج تنفي علمه هو ولا تنفي القراءة .

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (الأحقاف) . وفي (اللسان) : «ومَطَرَتْهم السماء وامْطَرَتْهم : أصابتهم بالمطر ، وناس يقولون : مَطَرَت السماء وأَمْطَرَت بمعنى ، وأمْطَرَهم الله مَطَراً أوْ عذاباً ، ابن سيدة : أمْطَرهم الله في العذاب خاصة ، كقوله تعالى : ﴿وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِين﴾ ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم حِجَارَةً مِنْ سِجِّيل﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قالت فرقة : نزلت هذه الآية كلها بمكة ، وقالت فرقة : نزلت كلها بعد وقعة بدر حكاية عما مضى ، وقال ابن أَبْزي[١] : نزل قوله : ﴿ومَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ بمكة إثر قولهم : ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعذَابٍ أَلِيم﴾ ، ونزل قوله : ﴿وَما كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ عند خروج النبي صلى الله عليه وسلم عن مكة في طريقه إلى المدينة وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون ، ونزل قوله : ﴿وَمَا لَهُم﴾ إلى آخر الآية بعد بدر عند ظهور العذاب عليهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأجمع المتأولون على أن معنى قوله : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أن الله عزَّ وجلَّ لم يُعَذِّب قط أُمَّة ونَبِيُّها بين أَظهرها ، فما

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبزي الخزاعي ـ الجمهور على أن له صحبة ، قال أبو حاتم : أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، وصلّى خلفه ، وهو قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه ابناه عبد الله وسعيد . وقال البخاري : هو كوفي ، وقال ابن السكن : استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على خراسان .

كان ليعذب هذه وأنت فيهم ، بل كرامتك لديه أعظم ، قال ـ أُراه عن أَبي زيد[1] ـ : سمعت من العرب من يقول : « ما كان الله لَيعذبهم » بفتح اللام ، وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن .

واختلفوا في معنى قوله : ﴿وما كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يسْتَغْفِرُونَ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن أَبْزي ، وأبو مالك ، والضحاك ما مقتضاه : إن الضمير في قوله : [مُعذِّبَهُم] يعود على كفار مكة ، والضمير في قوله : [وهُمْ] عائد على المؤمنين الذين بقوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، أي : وما كان الله ليعذب الكفارَ والمؤمنون بينهم يستغفرون .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويدفع في صدر هذا القول أن المؤمنين الذين ردّ الضمير عليهم لم يجر لهم ذكر . وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ما مقتضاه أن يقال : الضميران عائدان على الكفار ، وذلك أنهم كانوا يقولون في دعائهم : غفرانك ، ويقولون : لبيك لا شريك لك ، ونحو هذا مما هو دعاءٌ واستغفار ، فجعله الله أَمنة من عذاب الدنيا ، وعلى هذا تركب قول أَبي موسى الأَشعري ، وابن عباس : إن الله جعل من عذاب

(١) أُراه بضم الهمزة بمعنى أظنه ، والمظنون هو الخبر الآتي : « سمعت ... الخ » ـ فابن عطية يقول : أظن أني سمعت كذا عن أبي زيد . وقد نقل أبو حيان الرواية صريحة عن ابن عطية فقال ما نصه : « قال ابن عطية عن أبي زيد سمعت ... الخ » « البحر المحيط ٤ـ٤٨٩ » .

الدنيا أَمَنَتَيْن ، كون النبي صلى الله عليه وسلم مع الناس ، والاستغفار ، فارتفعت الواحدة وبقي الاستغفار إلى يوم القيامة [١] ، وقال قتادة : الضمير للكفار .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال إن لو كانت ، فالمعنى : وما كان الله معذبهم وهم بحال توبة واستغفار من كفرهم إن لو وقع ذلك منهم ، واختاره الطبري ، ثم حسّن الزجْر والتوقيف – بعد هذا – بقوله : ﴿وَمَالَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ .

وقال الزجاج ما معناه : إن الضمير في قوله : [وَهُمْ] عائد على الكفار ، والمراد به من سبق له في علْم الله أن يُسْلم ويستغفر ، فالمعنى : وما كان الله ليعذب الكفار وفيهم من يستغفر ويؤمن في ثاني حال ، وحكاه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقال مجاهد في كتاب الزهراوي: المراد بقوله : ﴿وَهُمْ يسْتَغْفِرُونَ﴾ ذرية المشركين يومئذ الذين سبق لهم في علم الله أن يكونوا مؤمنين ، فالمعنى : وما كان الله ليعذبهم وذريتهم يستغفرون ويؤمنون ، فنسب الاستغفار إليهم إذ ذريتهم منهم ، وذكره مكي ولم ينسبه .

---

(١) قال أبو حيان تعليقاً على قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ...﴾ الخ : «انظر إلى حُسْن مساق هاتين الجملتين . لما كانت كينونته فيهم سبباً لانتفاء تعذيبهم أكد خبر (كان) باللام – على رأي الكوفيين – ، أو جعل خبر (كان) الإرادة المنفية – على رأي البصريين – وانتفاءُ الإرادة للعذاب أبلغ من انتفاء العذاب ، ولما كان استغفارهم دون تلك الكينونة الشريفة لم يؤكد باللام ، بل جاء خبر [كان] قوله : [مُعَذِّبَهُمْ] ، فشتان ما بين استغفارهم وكينونته صلى الله عليه وسلم فيهم» . «البحر المحيط ٤–٤٩٠» .

وفي الطبري عن فرقة أن معنى [يَسْتَغْفِرُونَ] : يُصَلّون ، وعن أُخرى : يُسْلمون ، ونحو هذا من الأَقوال التي تتقارب مع قول قتادة .

وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ توعد بعذاب الدنيا ، فتقديره : وما يُعْلِمهم أو يُدْريهم ونحو هذا من الأَفعال التي توجب أَن تكون [أَنْ] في موضع نصب[1] ، وقال الطبري : تقديره : وما يمنعهم من أن يُعذبوا ، والظاهر في قوله : [وَما] أنها استفهام على جهة التقرير والتوبيخ والسؤال ، وهذا أَفصح في القول وأَقطع لهم في الحجة . ويصح أن تكون [مَا] نافية ، ويكون القول إخباراً ، أَي : وليس لهم أَلا يعذبوا وهم يصدون .

وقوله : ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ على التأْويلين جملة في موضع الحال ، و [يَصُدُّونَ] في هذا الموضع معناه : يمنعون غيرهم ، فهو متعد كما قال :

صَددْتِ الْكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عمْرٍو . . . .[2]

---

(١) قال الأخفش : إنَّ [أنْ] زائدة ، قال النحاس : لو كان كما قال لَرُفع [يُعَذِّبَهُمْ] فيكون الفعل في موضع الحال ، كقوله تعالى : ﴿وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بالله﴾ . ويجوز أن تكون [أنْ] في موضع جرّ على تقدير (في) وتتعلق بما تعلق به [لَهُمْ] والمعنى : أيُّ شيءٍ كائن أو مستقر لهم في ألا يعذبهم الله ؟ أي : لا حظَّ لهم في انتفاء العذاب ، فهم معذبون ولابُدَّ .

(٢) هذا صدر بيت من معلقة عمرو بن كلثوم المشهورة التي بدأها بقوله :

ألا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا   ولا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِينَا

وقد روي (صَبَنْتِ) بدلا من (صَدَدْتِ) - والصَّبْن هو الصرف ، ولكن الرواية المشهورة (صَدَدْتِ) والبيت بتمامه :

صَدَدْتِ الكَأسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو   وكان الكأْسُ مَجْرَاهَا اليَمِينَا

والمعنى : صرفت الكأس عني يا أُمَّ عَمْرٍو ، وكان مجرى الكأس على اليمين ، فأجريتها على اليسار ، أي أنك تعمَّدْت أن تمنعي عني الكَأس .

وقد يجيءُ (صدَّ) غير متعد ، كما أَنشد أبو علي:

صَدَّتْ خُلَيْدَةُ عنَّا مَا تُكَلِّمُنَا . . . .[١]

والضمير في قوله سبحانه : ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ عائد على الله عزَّ وجلَّ من قوله تعالى : ﴿يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ ، أَو على المسجد الحرام ، كل ذلك جيّد ، رُوي الأَخير عن الحسن ، والضمير الآخر تابع للأَول .

وقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه : لا يعلمون أَنهم ليسوا بأَوليائه ، بل يظنون أَنهم أَولياؤُه . وقوله : [أَكْثَرَهُمْ] ونحن نجد كلهم بهذه الصفة لفظ خارج إما على أَن تقول : إنه لفظ خصوص أُريد به العموم ، وهذا كثير في كلام العرب ، ومنه حكى سيبويه قولهم : «قَلَّ مَنْ يقول ذلك» ، وهم يريدون : لا يقوله أَحد . وإِمَّا أَن تقول : إنه أَراد بقوله : [أَكْثَرَهُمْ] أَن يُعلم ويُشعر أَن بينهم وفي خلالهم قوماً قد جنحوا إلى الإِيمان ، ووقع لهم عِلْم وإن كان ظاهرهم الكفر فاستثناهم من الجميع بقوله : [أَكْثَرَهُمْ] ، وكذلك كانت حال مكة وأَهلها ، فقد كان فيهم العباس ، وأُمّ الفضل[٢] وغيرهما .

---

(١) الواضح أن (صدّ) هنا بمعنى : أعرض ، فخليدة قد أعرضت عنه وامتنعت عن تكليمه ، ولم نقف على قائل البيت ولا على بقيته .

(٢) أم الفضل هي لُبابة بنت الحارث الهلالية امرأة العباس بن عبد المطلب ، وهي لبابة الكبرى ، ولها أربع أخوات أخرج فيهن الزبير بن بكار عن النبي صلى الله عليه وسلم : (الأخوات الأربع مؤمنات : أُم الفضل ، وميمونة ، وأسماء ، وسلمى) . فأما ميمونة فهي أُم المؤمنين ، =

وحكى الطبري عن عكرمة : قال الحسن بن أبي الحسن : إن قوله : ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ ناسخ لقوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر لأنه خبر لا يدخله نسخ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قرأ الجمهور : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُم﴾ بالرفع ﴿عِنْدَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً﴾ بالنصب ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ كذلك . وروي عن عاصم أنه قرأ ﴿صَلاتَهُم﴾ بالنصب ﴿إِلَّا مُكَاءٌ وَتَصْدِيَةٌ﴾ بالرفع ، ورويت عن سليمان الأعمش بخلاف عنه فيما حكى أبو حاتم ، وذكر أبو علي عن الأعمش أنه قال في قراءة عاصم : أفإن لَحَن عاصم تلْحَن أنت ؟ قال أبو الفتح : وقد روي الحرف كذلك عن أبان بن تغلب ، قال قوم : وهذه القراءة خطأٌ لأنه جعل الاسم نكرة والخبر معرفة ،

= وأما أسماء وسلمى فأُختاهما من أبيهما . وكان يقال لوالدة أم الفضل: أكرم الناس أصهاراً ، ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، والعباس تزوج أُختها شقيقتها لبابة ، وحمزة تزوج أختها سلمى ، وجعفر بن أبي طالب شقيقتها أسماء ثم تزوجها بعده أبو بكر رضي الله عنهم أجمعين ، وقد ماتت أم الفضل في خلافة عثمان قبل زوجها العباس . (الإصابة)

قال أَبو حاتم : فإن قيل : «إن (المُكاءَ والتَّصدية) اسم جنس واسم الجنس مُعَرفاً ومُنكراً واحد في التعريف» قيل : إن استعماله هكذا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ، كما قال حسّان :

كأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بيْتِ رَأْسٍ يكونُ مِزَاجُها عَسَلٌ وماءُ[١]

ولا يقاس على ذلك .

فأَما أَبو الفتح فوَجّه هذه القراءة بما ذكرناه من تعريف اسم الجنس ، وبعد ذلك يرجح قراءة الناس[٢] .

قال أَبو علي الفارسي : وإنما ذهب من ذهب إلى هذه القراءة لما رأى أن (الصَّلاةَ) مؤنثة ، ورأى الفعل المسند إليها ليس فيه علامة تأْنيث فأَراد تعليقه بمذكر وهو (المكاءُ) ، وأَخْطَأَ في ذلك ، فإن العرب تعلق الفعل لا علامة فيه بالمؤنث ، ومنه قوله تعالى :

---

(١) هذا البيت من قصيدة حسان المشهورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، والّتي يقول في مطلعها :

عَفَتْ ذاتُ الأَصابِعِ فالجِواء إلى عَذْراءَ مَنْزِلُها خَلاءُ

والسَّبيئَةُ : اسم لما سال من الخمر قبل أن تعصر ، وذلك أخلصها ، وقيل : بل هي الخمر ، وقد روي بدلا منها (سُلافة) ، وبيت رأس : مكان كانت تعصر فيه الخمر .

(٢) أي : قراءة الجمهور ، وابن جني مع اعترافه بقبح تنكير اسم (كان) وتعريف خبرها إلا أنه أجازه معللا الجواز بما أشار إليه ابن عطية هنا من أن اسم الجنس معرفاً ومنكراً واحد في التعريف ، فكأن المعنى كما وضحه ابن جني : وما كان صلاتهم إلا هذا الجنس ، وأيضاً فإنه يجوز مع النفي ما لا يجوز في الإثبات . وأبو حيّان يؤيد ذلك في تفسيره «البحر المحيط» ويقول : «وهو نظير قول من جعل [نَسْلَخ] صفة لِـ [اللَّيل] في قوله تعالى : ﴿وآيَةٌ لَهُم اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَار﴾ ، وجعل (يَسُبُّني) صفة لـ (اللئيم) في قول الشاعر :

ولقَدْ أمرُّ علَى اللَّئِيم يَسُبُّنِي فَمَضَيْتُ ثمّتَ قُلْتُ لا يَعْنِينِي

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾(١) ، وقوله سبحانه : ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾(٢) ، و ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣) ، ونحو هذا مما أُسند فيه الفعل دون علامة إلى المؤنث .

والمكاءُ على وزن الفُعَالِ : الصَّفِير(٤) ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والجمهور ، فقد يكون بالفم ، وقد يكون بالأَصابع والكف في الفم ، قال مجاهد ، وأَبو سَلَمَة بنُ عبد الرحمن : وقد يشارك الأَنف ، يقال : مكَا يَمْكُو إذا صَفَر ، ومنه قول عنترة :

وحَليلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلا تَمْكُو فَرِيصَتُهُ كشِدْقِ الأَعْلَم(٥)

(١) من الآية (٦٧) من سورة (هود) .
(٢) من الآية (٥١) من سورة (النمل) .
(٣) تكررت في آيتين — في قوله تعالى في الآية (٨٦) من سورة (الأعراف) : ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ، وفي قوله تعالى في الآية (١٠٣) من سورة (الأعراف) أيضاً : ﴿فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ .
(٤) قال السُّدي : المُكَاءُ : الصفير ، على نحو طائر أبيض بالحجاز يقال له : المُكَّاءُ . قال الشاعر :

إذَا غَرَّدَ المُكَّاءُ في غيْرِ رَوْضَةٍ فَوَيْلٌ لأهْلِ الشَّاءِ والحُمُرَاتِ

(٥) البيت من المعلقة ، ورقمه فيها السادس والأربعون ، ورواه اللسان في (مكا) — والحليل بالحاء المهملة : الزوج ، والحليلة : الزوجة ، وهما من الحلول تسميا بذلك لأنهما يحلان في مكان واحد وفراش واحد ، فهو فعيل بمعنى مفاعل ، مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم . وقيل هما من الحِلّ لأن كلا منهما يحل لصاحبه فهو فعيل بمعنى مُفْعَل ، مثل حكيم بمعنى محكم . وقد روي البيت : وخليل بالخاء المعجمة . والغانية : البارعة الجمال المستغنية بجمالها عن الزينة ، أو الشابة الحسناء التي تعجب الرجال ويعجبها الرجال ، ومُجَدَّلا : مصروعاً على الجَدَالة وهي الأرض ، يقال جدلته فتجدل . والمُكاءُ : الصفير . والفريصة : لحمة رقيقة تحت الإبط بحذاء القلب ترتجف عند الخوف ، والاصابة فيها قاتلة . والأعْلَم : مشقوق الشفة العليا . يقول : إن فريصة الفارس الذي صرعته تصفر وهو ملقى على الأرض كصفير شدق البعير إذا كان مشقوق الشفة ، وذلك بسبب اتساع الطعنة وشدة خروج الدم منها .

ومنه قول الشاعر :

فَكَأَنَّمَا يمْكُو بِأَعْصَمَ عَاقِلِ . . . . (١)

يصف رجلا فرَّ له حيوان ، ومنه قول الطِّرِمَّاح :

فَنَحَا لِأُولَاهَا بِطَعْنَةِ مُحْفَظٍ تَمْكُو جَوانِبُهَا مِنَ الإِنْهَارِ (٢)

ومكت اسْتُ الدَّابة إذا صَفَرت ، يقال : ولا تمكُو إلا اسْتٌ مكشوفة ، ومن هذا قيل لِلاسْت : مَكْوَة (٣) ، قال أَبو علي : فالهمزة فيه منقلبة عن واوٍ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومن هذا قيل للطائر : المُكَّاءُ ، لأَنه يَمْكُو أَي يَصْفر في تغريده ، ووزنه فُعَّال بشَدّ العَيْن كخُطَّاف ، والأَصوات في الأَكثر تجيءُ على فُعَال بتخفيف العين كالبُكَاءِ والصُّرَاخ والدُّعَاءِ والجُؤَار والنُّبَاح

---

(١) لم نقف على نسبة هذا الشعر ولا على بقيته . والمعنى واضح بتفسير ابن عطية له ، فهو يَصْفر بفمه بحثاً عن الحيوان الذي فرَّ منه .

(٢) البيت للطِّرمّاح بن حكيم يصف الثور وهو يطعن الكِلاب في معركة بينه وبينها . ونحا : انحرف وقصد ، وأُولاها : يريد أول الكلاب . والمُحْفَظ : المغضب (اسم مفعول) ، تمكُو : تصْفر . والضمير في جوانبها يعود على الطعنة أو أثرها في الكلب ، والإنهار : هو توسيع الطعنة ، ومنه قول قيس بن الخطيم : « فأنْهرت فتقها » أي وسَّعت الفتق الذي أحدثته . يقول في وصف الثور المائج مع كلاب الصيد : إنه قصد أول الكلاب بطعنة مُغْضب مغيظ من تكاثرها عليه ، وسال الدم من هذه الطعنة فأحدث عند سيلانه صفيراً صدر عن جوانب الطعنة الواسعة .

(٣) مَكْوَة : على وزن زَهْرَة وتَمْرة .

ونحوه . ورُوي عن قتادة أن المُكَاءَ صوت الأَيدي ، وذلك ضعيف . ورُوي عن أَبي عَمرو أنه قرأ [إلا مُكًا] بالقصر .

والتَّصْدِيَةُ عبّر عنها أَكثر الناس بأَنها التصفيق . وقتادة بأَنها الضجيج والصياح ، وسعيد بن جُبَير بأَنها الصَّدُّ والمنع . ومن قال «إنها التصفيق» قال : «إنما كان للمنع عن ذكر الله ومعارضة لقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن» . والتَّصْدِيَة يمكن أَن تكون من صَدَّى يُصَدِّي إذا صوَّت ، والصدى : الصوت ، ومنه قول الطِّرِمَّاح يصف الأُرْوِيَّةَ [١] :

لَها كُلَّما رِيعَتْ صَداةٌ وَرَكْدَةٌ بِمِصْرَانَ أَعْلَى ابْنَيْ شَمامِ الْبَوائِنِ [٢]

فيلتئم – على هذا الاشتقاق – قول من قال : هو التصفيق ، وقول من قال : الضجيج ، ولا يلتئم عليه قول من قال : هو الصَّدُّ والمنع

---

(١) الأرْوِيَّةُ : الأنثى من الوعول ، والجمع : أَرَاوي . وعن اللحياني الضبط بالكسر فهي : الإرْوِيَّةُ ، قاله في اللسان ، وعلى هذا فالطِّرِمَّاح يصف أُنثى الوعول في هذا البيت ، والضمير في (لها) يعود عليها .

(٢) ريعت : فزعت وخافت ، والصَّداة : فعل المتَصَدّي ، وهو الذي يرفع رأسه وصدره يتصدى للشيء ينظر إليه ، والرَّكْدَة : السكوت والثبات والهدوء ، والمصران : أعالي الجبال وهي تحجز بين شيئين أوْ ناحيتين وتكون حرزاً لمن يلجأ إليها ، والواحد : مصار . وشَمام : جبل في بلاد بني قشير ، وابنا شمام : يريد بهما هضبتين في هذا الجبل ، والبوائن : جمع بائن وهو البعيد المفارق والطِّرِمّاح يصف هذه الأُرْوِيَّة بأنها كلما فزعت من شيء في هذا الجبل البعيد ترددت بين الصفير والثبات أو السكون ، وقد روى اللسان البيت : « لها كلَّما صاحت » ، وقال : إنه في وصف هامة ، فإذا ما صاحت تصدت مرة وركدت أُخرى ، ورواية «كلما ريعت» جاءت في « التكملة » ، وهي أقرب وأوضح .

إلا أن يُجعل التصويت إنما يقصد به المنع ، ففسَّر اللفظ بالمقصود لا بما يخصه من معناه .

ويمكن أن تكون التصدية من صدَّ يصُدّ ، استعمل الفعل مضعفاً للمبالغة والتكثير لا ليُعدَّى فقيل : صدّد ، وذلك أن الفعل الذي يتعدى إذا ضُعّف فإنما يُضعّف للتكثير ، إذ التعدّي حاصل قبل التضعيف وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلأَبْوَابَ﴾[1] ، والذي يُضَعّف ليُعَدى هو كقولهم : علّم وغرّم ، فإذا قلنا في صَدَّ : صدَّدَ ، ففعَّل في الصحيح يجيءُ مصدره في الأَكثر على تفعيل ، وفي الأَقل على تَفْعِلَة ، مثل كمَّل تكميلا وتكْمِلَة وغير ذلك ، بخلاف المعتل فإنه يجيءُ في الأَكثر على تَفْعِلَة ، مثل عَزَّى تَعْزِية ، وفي الشاذ على تَفْعِيل مثل قول الشاعر :

بَاتَ يُنَزِّي دَلْوَهُ تَنْزِيَّـــا . . . .[2]

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (يوسف) .

(٢) استشهد صاحب اللسان بهذا البيت على أن مصدر أنْزَاه ونَزّاه هو تَنْزِية وتنزيًّا . والرواية فيه مع بقية البيت :

باتَتْ تُنَزّي دَلْوَهَا تَنْزِيَّـــا كَمَا تُنَــزِّي شَهْلَةٌ صَبِــيًّا

والشهلة هي العجوز ، وقيل : المرأةُ النَّصَف العاقلة . أما التَّنَزّي فهو التَّوَثُّبُ والتَّسَرُّع ، قال نُصَيْب – وقيل ، بل هو بَشّار :

أقُولُ ولَيْلَتِي تَزْدَادُ طُــولا أمَا لِلَّيْل بَعْدَهُــم نَهَــارُ؟

جَفَتْ عَيْني عن التَّغْميض حَتَّــى كَأنَّ جُفُونَهَا عَنْهَا قِصَــارُ

كَأنَّ فُؤَادَهُ كُرَةٌ تَنَــزَّى حِذَارَ الْبَيْنِ لَوْ نَفَعَ الحِذَارُ

وإذا كان فَعَّل في الصحيح يتسق فيه المِثْلان رُفض فيه تفعلة مثل قولنا : تَصْدية ، وصُيِّر إلى تفعيل لتحول الياءُ بين المثلين كتخفيف وتشديد ، فلما سلكوا في مصدر صدَّدَ المسْلَكَ المرفوض أُصلح ذلك بأَن أُبدل أَحد المِثْلَيْن ياءً كبدلهم في : تَظَنَّيْت ونحوه [١] ، فجاءَ : تصْدِية ، فعلى هذا الاشتقاق يلتئم قول من قال : التَّصْدية : الصَّدُّ عن البيت والمنع .

ويمكن أَن تكون التَّصدية من : صدَّ يصِدُّ - بكسر الصاد في المستقبل - إذا ضجَّ ، ويُبدل أَيضاً على هذا أَحد المِثْلَيْن ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [٢] بكسر الصاد ، ذكره النحاس .

وذهب أَكثر المفسرين إلى أَن المكاءَ والتَّصدية إنما أَحدثها الكفار عند مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقطع عليه وعلى المؤمنين قراءَتهم وصلاتهم ، ويخلط عليهم ، فكان المصلي إذا قام يقرأُ من المؤمنين اكتنفه من الكفار عن يمينه وشماله من يمكو ويُصدّي حتى

---

(١) وعليه جاء قول العجاج يمدح عمر بن عُبَيْد الله بن يعمر ويشبهه بطائر ضخم يضم جناحيه إلى نفسه وينقض على الصيد :

إذا الكرامُ ابْتَدروا البـاعَ ابْتَدَرْ دانَى جنَاحَيْهِ من الطّورِ فَمَرْ
تَقَضِّي البـازي إذا البـازي كَسَرْ

يريد : تَقَضُّضَ البازي

(٢) من قوله تعالى في الآية (٥٧) من سورة (الزُّخرف) : ﴿ولَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون﴾ .

تختلط عليه قراءته[١] ، فلما نفى الله ولايتهم للبيت أمكن أن يعترض معترض بأن يقول : وكيف لا نكون أولياءه ونحن نسكنه ونصلي عنده ؟ فقطع الله هذا الاعتراض بأن قال : «وما كان صلاتهم إلا المكاءُ والتصْدية» ، وهذا كما يقول الرجل : أنا أفعل الخير ، فيقال له : ما فعلك الخير إلا أن تشرب الخمر وتقتل ، أي : هذه عادتك وغايتك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي مرّ بي من أمر العرب في غير ما ديوان أن المُكَاءَ والتَّصدية كان[٢] من فعل العرب قديماً قبل الإسلام على جهة التقرب به والتَّشَرُّع ، ورأيت عن بعض أقوياءِ العرب أنه كان يمكُو على الصفا فيسمع من جبل حراءَ وبينهما أربعة أميال . وعلى هذا يستقيم تعييرهم وتَنَقُّصهم بأن شرعهم وصلاتهم وعبادتهم لم تكن رهبة ولا رغبة ، إنما كانت

(١) أخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عزّ وجلّ : ﴿إلاَّ مُكَاءً وتَصْدِيَةً﴾ ، قال : المُكَاءُ : صوت القنبرة ، والتَّصدية : صوت العصافير وهو التصفيق ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي قائماً بين الحجر والركن اليماني ، فيجيءُ رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، ويصيح أحدهما كما يصيح المُكَاءُ ، والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسدا عليه صلاته ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ، أما سمعت حسّان ابن ثابت رضي الله عنه يقول :

نقومُ إلى الصَّلاةِ إذا دُعِينا وهِمَّتُكَ التَّصَدِّي والمُكَاءُ

(٢) هكذا في جميع الأصول .

مُكَاءً وتَصْدية من نوع اللعب ، ولكنهم كانوا يتزايدون فيها وقت النبي صلى الله عليه وسلم ليشغلوه وأُمَّته عن القراءة والصلاة .

وقوله تعالى : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إشارة إلى عذابهم ببدر بالسيف ، قاله ابن جُرَيج ، والحسن ، والضحاك ، فيلزم من هذا أَن هذه الآية الأَخيرة نزلت بعد بدر ولابُدّ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والأَشبه أَن الكل نزل بعد بدر حكاية عما مضى . والله ولي التوفيق برحمتــه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قال بعض الرواة ، منهم ابن أَبْزي ، وابن جبير ، والسدي ، ومجاهد : سبب نزول هذه الآية أَن أَبا سفيان أَنفق في غزوة أُحد على الأَحابيش وغيرهم أَربعين أُوقية من الذهب أَو نحو هذا ، وأَن الآية نزلت في ذلك . وقال ابن شهاب ، ومحمد بن يحي بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو ابن سعد بن معاذ : إنه لما قُتل من قُتل ببدر اجتمع أَبناؤُهم وقرابتهم

وقالوا لمن خلص ماله في العير : إن محمداً قد نال منا ما ترون ، ولكن أعيونا بهذا المال الذي كان سبب الوقعة ، فلعلنا أن ننالَ منه ثأراً ، ففعلوا فنزلت الآية في ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى القولين فإنما أُنفق المال في غزوة أُحد ، فأخبر الله تعالى في هذه الآية خبراً لفظه عام في الكفار ، والإشارة به إلى مخصوصين أنهم ينفقون أموالهم يقصدون بذلك الصَّدَّ عن سبيل الله والدفع في صدر الإسلام ، ثم أخبر خبراً يخص المشار إليهم أنهم ينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، إذ لا تتم لهم إرادة ويذهب المال باطلا ، والحسرة : التلهف على الفائت ، ويحتمل أن تكون الحسرة في يوم القيامة ، والأول أظهر وإن كانت حسرة القيامة راتبة عليهم ، وهذا من إخبار القرآن بالغيوب لأنه أخبر بما يكون قبل أن يكون ، فكان كما أخبر ، قال ابن سلام : بيّن الله عزَّ وجلَّ أنهم يُغلبون قبل أن يقاتلوا بِسَنَة ، حكاه الزهراوي .

ثم أخبر تعالى عن الكافرين أنهم يُجمعون إلى جهنم ، والحشر : جمْع الناس والبهائم إلى غير ذلك مما يُجْمع ويُحْضر ، ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾[1] ، ومنه في التفسير أنَّ السَّلْوى طائر كانت الجنوب تحشره على بني إسرائيل ، والقوم

(١) من الآية (١١١) من سورة (الأنعام) .

الذين جَلَبَهُم أبو سفيان وأَنفق المال عليهم هم الأَحابيش من كنانة ، ولهم يقول كعب بن مالك :

وَجِئْنَا إلى مَوْجٍ مِن الْبَحْرِ وَسْطَهُ أَحابيشُ مِنْهُمْ حـاسِرٌ ومُقَنَّعُ
ثلاثَةُ آلافٍ ونَحْنُ نصِيَّـةٌ ثلاثُ مِئَينَ إنْ كَثُرْنَ فَأَرْبَعُ (١)

وقال الضحاك وغيره : إن هذه الآية نزلت في نفقة المشركين الخارجين إلى بدر الذين كانوا يذبحون يوماً عشْراً ويوماً تسعاً من الإبل ، وحكى نحو هذا النقاش .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

قرأَ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأَبو عمرو ، وابن عامر : [لِيَمِيزَ] بفتح الياءِ وكسر الميم ، وهي قراءَة الأَعرج ، وأَبي جعفر ،

(١) الحاسِرُ : الذي لا درع عليه ولا مِغْفر . والمُقَنّع : الذي لبس المِغْفَر على رأسه . والنَّصِيَّةُ : خيار القوم وأشرافهم ، وهكذا رواه في اللسان ، ولكنه فسّر النصية بأنها البقية ، ونسب ذلك إلى ابن السكيت ، وقد روي البيت بروايات أخرى لعلها من أخطاء النساخ ، فقد قيل : (بقية) ، و (قصية) . وعند الألوسي : (ونحن عصابة) .

وشيبة بن نصاح ، وشبل ، وأبي عبد الرحمن ، والحسن ، وعكرمة ، ومالك بن دينار . تقول : مِزْتُ الشيءَ ، والعرب تقول : مِزْتُه فلم يَتَميَّز لي ، حكاه يعقوب ، وفي شاذ القراءة : ﴿وانْمَازُوا الْيَوْم﴾[1] ، وأنشد أبو زيد :

لمَّا ثَنَى اللهُ عَنِّي شَرَّ دعْوَتِهِ ... وانْمزْتُ لا مُنْشِئاً ذعْراً ولا وجلا[2]

وهو مطاوع : ماز .

وقرأ حمزة ، والكسائي : [لِيُمَيِّزَ] بضم الياء وفتح الميم وشد الياء ، وهي قراءة قتادة ، وطلحة بن مصرف ، والأعمش ، والحسن أيضاً ، وعيسى البصري ، تقول : مَيَّزْتُ أُميِّز إذا فرقت بين شيئَين فصاعدا ، وفي القرآن ﴿تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[1] فهو مطاوع مَيَّز ومعناه : تنفصل . وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، والسدي : المعنيّ بالخبيث الكفار ، وبالطيب المؤمنون .

---

(١) هي قراءة شاذة في قوله تعالى في الآية (٥٩) من سورة (يس) : ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ .

(٢) أخطاء الرواة في هذا البيت كثيرة ، فقد روي : « شَرَّ عُذْرَتِهِ » و « شَرَّ عَدْوَتِهِ » بدلا من « شَرَّ دَعْوَتِهِ » ، وروي « مُنْسِئاً » بدلا من « مُنْشِئاً » ، وروي « رَجُلا » بدلا من « وجلا » ... وهكذا تختلف الروايات ، ويختلف الشراح في توضيح المعنى المراد ، والبيت غير منسوب في المراجع التي بين أيدينا .

(٣) من الآية (٨) من سورة (الملك) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واللام ـ على هذا التأْويل ـ من قوله : [لِيَمِيزَ] متعلقة بـ [يُحْشَرُونَ] ، والمعنى أن الله يحشر الكافرين إلى جهنم ليميز الكافرين من المؤمنين بأن يجمع الكافرين جميعاً فيلقيهم في جهنم .

ثم أخبر عنهم أنهم هم الخاسرون ، أي الذين خابت سعايتهم وتَبَّت أيديهم وصاروا إلى النار . وقال ابن سلام ، والزجاج : المعنيّ بالخبيث المال الذي أنفقه المشركون في الصَّدِّ عن سبيل الله ، والطيب هو ما أنفقه المؤمنون في سبيل الله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واللام ـ على هذا التأْويل ـ من قوله : [لِيَمِيزَ] متعلقة بـ [يُغْلَبُونَ] ، والمعنى أن الكفار ينفقون أموالهم فتكون عليهم حسرة ثم يغلبون مع نفقتها ، وذلك ليميز الله الفرق بين الخبيث والطيّب فيخذل أهل الخبيث وينصر أهل الطيب ، وقوله تعالى : ـ على هذا التأْويل ـ : ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ مترتب على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله تعالى يخرج من الأموال ما كان صدقة أو قُرْبة يوم القيامة ، ثم يأْمر بسائر ذلك فيلقى في النار) . وحكى الزهراوي عن الحسن أن الكفار يُعَذَّبون بذلك المال ، فهي كقوله تعالى : ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ

وَظُهُورُهُمْ﴾(١) ، وقاله الزجاج ، وعلى التأويلين فقوله سبحانه : ﴿وَيجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً﴾ إنما هو عبارة عن جَمْع ذلك وضمه وتأليف أَشْتَاتِه وتكاثفه بالاجتماع .

و (يَرْكُمَهُ) في كلام العرب : يكثّفه ، ومنه : ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾(٢) وركام ، ومنه قول ذي الرُّمة :

. . . . زُعْ بالزِّمَام وَجَوْزُ اللَّيْل مَرْكومُ(٣)

وقوله تعالى : ﴿وَيجْعلَ ٱلْخَبِيثَ﴾ بمعنى يُلْقي ، قاله أبو عليّ . و ﴿أُولَئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ ـ على هذا التأويل ـ يُرادُ به المنافقون من الكفار ، ولفظة الخسارة تليق بهم من جهة المال وبغير ذلك من الجهات .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّذينَ كَفَرُوا﴾ الآية . أمر من الله عزَّ وجلَّ لِنبيّه صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار هذا المعنى الذي تضمنته

---

(١) من الآية (٣٥) من سورة (التوبة) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة (الطُّور) : ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ .

(٣) هذا عجز البيت ، وهو بتمامه كما جاء في الديوان :

وَخَافِقِ الرَّأْسِ فَوْقَ الرَّحْلِ قُلْتُ لَهُ زُعْ بِالزِّمَامِ وَجَوْزُ اللَّيْلِ مَرْكُومُ

وقد روي في اللسان : « مثل السيف » بدلا من « فوق الرحْل » . ورواية الصحاح مثل رواية الديوان . وزُع راحلتك أي استحثها ، يقال : زاع الناقة بالزِّمام يزوعها زوعاً إذا هيَّجها وحركها بزمامها إلى قُدَّام لتزداد في سيرها . قال في اللسان : « ومن رواه : زَع بالفتح فقد غلط لأنه يأمره بأن يكفَّ بعيره ، قال الليث : الزَّوع : جذْبك الناقة بالزّمام لتنقاد .» وجَوْزُ الليل : وسطه ، وفي حديث علي رضي الله عنه « أنه قام من جَوْز الليل يصلي » . (اللسان والتاج والمعجم الوسيط) .

أَلفاظ قوله ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ، وسواءٌ قاله النبي صلى الله عليه وسلم في هذه العبارة أَو غيرها ، ولو كان الكلام كما ذكر الكسائي أَنه في مصحف ابن مسعود : «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرَ لَكُمْ» لما تأَدت الرسالة إلا بتلك الأَلفاظ بعينها ، هذا بحسب ما تقتضيه الأَلفاظ . وقوله : ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ يريد به : عن الكفر ولابُدّ ، والحامل على ذلك جواب الشرط بـ ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لِمُنْتَهٍ عن الكفر . وقوله : ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ يريد به : إلى القتال ، لأَن لفظة (عاد يعود) إذا جاءَت مطلقة فإنها تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان الإنسان عليها ثم تنقل عنها ، ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاءِ الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال ، ولا يصح أَن يُتأَول : «وإن يعودوا إلى الكفر» لأَنهم لم ينفصلوا عنه ، وإنما قلنا في (عاد) : «إذا كانت مطلقة» لأَنها قد تجيءُ في كلام العرب داخلة على الابتداءِ والخبر بمنزلة (صار) ، وذلك كما تقول : «عاد زيد ملِكاً» تريد : صار ، ومنه قول أَبي الصلت :

تِلْكَ المكارِمُ لا قَعْبانِ مِنْ لَبَنٍ شِيبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أَبْوالا [١]

وهذه لا تتضمن الرجوع لحالة قد كان العائد عليها قَبْلُ ، لكنها مُقَيَّدة بخبرها لا يجوز الاقتصار دونه ، فحُكْمها حُكْم (صار) .

---

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت في سورة الأعراف عند تفسير قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ . راجع ص (٣) من هذا الجزء .

وقوله تعالى : ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأُمم في سالف الدهر بعذاب الله حين صد في وجه نَبيِّه ، وبِمَنْ هلك في يوم بدرٍ بسيف الإسلام والشَّرْع ، والمعنى : فقد رأيتم ببدرٍ وسمعتم عن الأُمم ما حلَّ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتخويف عليهم بيوم بدرٍ أَشَدُّ ، إذ هي القريبة منهم والمُعَايَنَةُ عندهم ، وعليها نصَّ ابن إسحق ، والسدي .

وقوله تعالى : ﴿وقاتِلُوهُمْ حتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الآية . أَمر من الله عزَّ وجلَّ فَرَضَ به على المؤمنين أَن يقاتلوا الكفار ، والفتنة : قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : معناها : الشِّرك ، وقال ابن إسحق : معناها : حتى لا يُفْتن أَحد عن دينه كما كانت قريش تفعل بمكة بِمن أَسلم كبِلال وغيره ، وهو مقتضى قول عروة بن الزبير في جوابه لعبد الملك بن مروان حين سأَله عن خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً .[1]

(١) روى ابن جرير الطبري عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء ، فكتب إليه عروة : « سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك ، الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنك كتبت إليَّ تسألني عن مَخْرَج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، وسأخبرك به ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » ثم حدَّثه كيف بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته ، وكيف قابله قومه بالتعذيب له ولأصحابه ، بالسعي لفتنة المسلمين ، وكيف أمرهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بالهجرة إلى الحبشة ، فلما فشا الإسلام ودخل فيه من دخل وبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة، وعلموا أن المسلمين صاروا بمأمن فهم لا يفتنون رجعوا إلى مكة ، =

وقوله تعالى : ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أَي : لا يُشْرك معه صنم ولا وَثَن ، ولا يُعبد غيره . وقال قتادة : حتى تستوسِق⁽١⁾ كلمةُ الإِخلاص «لا إِلٰه إِلَّا الله» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه المعاني تتلازم كلها ، وقال الحسن : حتى لا يكون بلاءٌ ، وهذا يلزم عليه القتال – في فتن المسلمين – الفئة الباغية ، وعلى سائر ما ذكرناه من الأَقوال يكون المعتزل في فسحة ، وعلى هذا جاءَ قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «أَما نحن فقد قاتلنا حتى لم تكن فتنة ، وأَما أَنت وأَصحابك فتريدون أَن نقاتل حتى تكون فتنة» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فمذهب ابن عمر أَن الفتنة : الشِّرك في هذه الآية ، وهو الظاهر ، وفسَّر هذه الآية قولُ النبي صلى الله عليه وسلم : (أُمرت أَن أُقاتل

= فلما انتشر الإسلام بالمدينة عادت قريش إلى التآمر على فتنة المسلمين . قال عروة في آخر رسالته: «وكانت فتنة الآخرة» . – إلى أن قال : «فاشتدت عليهم قريش ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة ، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وخرج هو ، وهي التي أنزل الله فيها ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾ اهـ . وكتاب عروة هذا في تفسير الطبري .

(١) بمعنى : تجتمع ، يقال : اسْتَوْسَقَ الشيءُ : اجتمع وانضم ، واستوسق الأمرُ : انتظم ، واستوسق له الأمرُ : أَمْكَنَهُ أن يجمع السلطة والكلمة في يده .

الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله) [١] . ومن قال : المعنى حتى لا يكون شرك فالآية عنده يراد بها الخصوص فيمن لا تُقبل منه جزية ، قال ابن سلام : وهي في مشركي العرب .

ثم قال الله تعالى : ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ أي عن الكفر فإن الله بصير بعملهم مُجاز عليه ، عنده ثوابه وجميل المقارضة عليه [٢] ، وقرأ يعقوب بن إسحق ، وسلام بن سليمان : ﴿بِمَا تعْمَلُونَ﴾ بالتاء ، أي في قتالكم وجِدِّكم وجلادكم عن دينه .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ الآية ، معادل لقوله : ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ ، والمعنى : فإن انتهوا عن الكفر فالله مجازيهم – أو مجازيكم على قراءة [تَعْلمُونَ] – ، وإن تولوا فاعلموا أن الله ينصركم عليهم ، وهذا وعد محضٌ بالنصر والظفر ، أي : فَجِدُّوا .

والمولى ها هنا : المُوالي والمُعين . والمولى في اللغة على معانٍ هذا هو الذي يليق بهذا الموضع منها ، والمولى الذي هو السيِّد المقترن بالعبد يعمّ المؤمنين والمشركين .

---

(١) الحديث متواتر ، رواه عن أبي هريرة البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، ورمز له السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح .

(٢) جاء في بعض النسخ « المعاوضة » بدلا من « المقارضة » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) ﴾

موضع [أَنَّ] الثانية رفع ، والتقدير : «فحكمه أَنَّ» ، فهي في موضع رفع خبر الابتداء . والغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعْي ، من ذلك قول الشاعر :

وقَدْ طوَّفْتُ في الآفَاق حتى رَضيتُ مِن الْغَنِيمةِ بالإِيابِ (١)

وقال آخر :

ومُطْعَم الغُنْم يومَ الغُنْم مُطْعَمُه أَنَّى توجَّه والمحْرُومُ مَحْـرُومُ (٢)

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الرهن : (له غُنْمه وعليه مخرجه) (٣)

---

(١) قائل هذا البيت هو امرؤ القيس ، وقد صار الشطر الثاني مثلا يضرب عند القناعة بالسلامة . وطوّف مبالغة في طاف بمعنى دار حول الشيء . والإياب : مصدر آب بمعنى : رجع .

(٢) المُطْعَم : المرزوق ، يقال : فلان مُطْعَمٌ للصَّيد ومُطْعَمالصَّيْد إذا كان مرزوقاً منه ، قال ذو الرمة :

* ومُطْعَمُ الصَّيْدِ هبَّال لِبُغْيَتِه *

والمعنى : المرزوق بالخير مرزوق به حيث كان وأنّى تَوَجَّه ، والمحروم محروم مهما فعل .

(٣) هذا جزء في آخر حديث رواه في المُوَطَّإ ، وأوله : «لا يُغْلَق الرهن ...» ، وعند الزرقاني شارح الموطإ أن الحديث مرسل ، وأن بعض الرواة زاد في آخره : (له غُنْمُهُ وعليه غُرْمه) . واختلف في رفع هذه الزيادة ، أو أنها من كلام ابن المسيّب .

وقوله : (الصيام في الشتاءِ هو الغنيمة الباردة)[١] . فالشيءُ الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي وإيجاف[٢] الخيل والركاب : غنيمة ، ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفاً له .

والفيْءُ مأْخوذ من «فَاءَ يفيءُ» إذا رجع ، وهو كلٌّ ما دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف كَخَراج الأَرض ، وجزية الجماجم ، وخُمس الغنيمة ، ونحو هذا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والزكوات أَيضاً مالٌ على حِدَته ، أَحكامه منفردة دون أَحكام هذين ، قال سفيان الثوري ، وعطاءُ بن السائب : «الغنيمة : ما أُخذ عنْوة ، والفيْءُ : ما أُخذ صُلْحاً» . وهذا قريب مما بيَّنَّاه . وقال قتادة : «الفيءُ والغنيمة شيءٌ واحِد فيهما الخمس ، وهذهالآية التي في الأَنفال ناسخة لقوله في سورة الحشر : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾[٣] وذلك أَن تلك كانت الحُكْم أَولا ، ثم أَعطى الله أَهلها الخمس فقط ، وجعل الأَربعة الأَخماس في المقاتلين » .

---

(١) نصُّ الحديث كما رواه الترمذي عن عامر بن مسعود : (الغنيمةُ الباردةُ الصوم في الشتاءِ) — هذا ما أثبته السيوطي في « الجامع الصغير » . وجاء في لسان العرب : « وفي الحديث : الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة » سماه غنيمة لما فيه من الأجر والثواب .

(٢) المراد : استعمال الخيل وحَثُّها للحصول على الغنيمة ، يقال : أوْجف دابته إذا حثَّها ، والوجيف : ضرب سريع من السَّيْر .

(٣) من الآية (٧) من سورة (الحشر) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ ضعيف نصَّ العلماءُ على ضعفه ، وأن لا وجه له من جهات : منها أن هذه السورة نزلت قبل سورة الحشر ، هذه ببدْرٍ ، وتلك في بني النَّضير وقرى عرينة . ولأن الآيتين متّفقتان وحكم الخمس وحكم تلك الآية واحد لأنها نزلت في بني النَّضير حين جلوا وهربوا ، وأهل فدك حين دعوا إلى صلح ونال المسلمون ما لهم دون إيجاف . وحكى ابن المنذر عن الشافعي أن في الفيءِ الخمس ، وأنه كان في قرى عرينة زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أربعة أخماسها كان للرسول صلى الله عليه وسلم خاصة دون المسلمين يضعها حيث يشاءُ . وقال أبو عُبَيدة : « هذه الآية ناسخة لقوله تعالى في أول السورة : ﴿قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية ، ولم يخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بدر فنسخ حُكمه في ترك التخميس بهذه الآية » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويظهر من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في البخاري : « كانت لي شارف من نصيبي من المغنم ببدر ، وشارف أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخمس حينئذ[1] » أن غنيمة بدر

(١) الحديث مروي في البخاري ، وقد استشهد به ابن عطية في أكثر من مناسبة ، والنص في البخاري يؤكد أن ما أخذه عليّ من المغنم كان يوم بدر ، إذ جاء فيه أن حُسَين بن علي أخبره أن علياً قال : « كانت لي شارف من نصيبي من المَغْنم يوم بدر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعطاني مما أفاءَ الله من الخمس يومئذ...» إلى آخر الحديث وهو في غزوة بدر . =

خمست ، فإن كان ذلك فسد قول أبي عُبَيْدَة . ويحتمل أن يكون الخمس الذي ذكره علي بن أبي طالب من إحدى الغزوات التي كانت بين بدر وأُحد ، فقد كانت غزوة بني سليم ، وغزوة السويق ، وغزوة ذي أَمَر ، وغزوة بُحْران ، ولم يحفظ فيها قتال ولكن يمكن أن غنمت غنائم . والله أعلم .

وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿مِنْ شَيءٍ﴾ ظاهره عام ومعناه الخصوص ، فأما النَّاضُّ (١) والمتاع والأطفال والنساءُ وما لا يؤكل لحمه من الحيوان ويصح تملُّكُه فليس للإمام في جميع ذلك ما كثر منه وما قلَّ كالخيط والمخيط إلا أن يأْخذ الخمس ويقسم الباقي في أهل الجيش ، وأما الأَرض فقال فيها مالك : يُقَسِّمها الإمام إن رأى ذلك صواباً كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بِخَيْبَر ، ولا يُقَسِّمها إن أَدّاه اجتهاده إلى ذلك كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض مصر وسواد الكوفة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لأَن فعل عمر رضي الله عنه ليس بمخالف لفعل النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ ليست النازلة واحدة بحسب قرائن الوَقْتَيْن وحاجة

= ولفظ الحديث يؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم خمّس الغنائم يومئذ، وأن الشارف التي أخذها عليّ كانت من المغنم يوم بدر . ولذلك فإن الاحتمال الثاني وهو أن الخمس الذي ذكره علي كان من إحدى الغزوات بين بدر وأُحُد غير وارد . والله أعلم .

(١) النَّاضُّ : الماء الذي يخرج من الحجر قليلا قليلا ، أو يرشح من رمل تحته أرض صلبة كلما نضّ منه شيءٌ أي رشح واجتمع أُخذ للانتفاع به .

الصحابة وقلّتهم ، وهذا كله انعكس في زمان عمر رضي الله عنه ، وأما الرجال ومن شارف البلوغ من الصبيان فالإمامُ - عند مالك وجمهور العلماءِ - مُخَيَّر فيهم على خمسة أوجه ، منها : القتل ، وهو مُستحسن في أهل الشجاعة والنكاية ، ومنها : الفداءُ ، وهو مُستحسن في ذي المنصب الذي ليس بشجاع ولا يُخاف منه رأي ولا مكيدة لانتفاع المسلمين بالمال الذي يؤخذ منه ، ومنها : المَنُّ ، وهو مُستحسن فيمن يرجى أن يحنو على أسرى المسلمين ونحو ذلك من القرائن ، ومنها الاسترقاق ، ومنها : ضرب الجزية والترك في الذِّمَّة . وأما الطعام والغنم ونحوهما مما يؤكل فهو مباح في بلد العدو يأْكله الناس فما بقي كان في المغنم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأما أربعة أخماس ما غُنم فيقسمه الإمام على الجيش ، ولا يختص بهذه الآية ذكر القسمة فأنا أختصره هنا ، وأما الخمس فاختلف العلماءُ فيه .

قال مالك رحمه الله : الرأْي فيه للإمام يلحقه بِبيْت الفيءِ ، ويعطي من ذلك البيت لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رآه ، كما يعطي منه اليتامى والمساكين وغيرهم ، وإنما ذكر من ذكر على وجه التنبيه عليهم لأنهم من أهم من يدفع إليه . قال الزجاج محتجًّا لمالك : قال الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ

خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[١] ، وللإمام بإجماع أن ينفق في غير هذه الأَصناف إذا رأى ذلك .

وقالت فرقة : كان الخمس يُقَسّم على ستة أَقسام : قسم لله وهو مردود على فقراءِ المسلمين أَو على بيت الله ، وقسم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقسم لقرابته ، وقسم لسائر من سمي ، حكى القول منذرُ بنُ سعيد ، ورُدّ عليه ، قال أَبو العالية الرياحي : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبض من خمس الغنيمة قُبْضَة[٢] فيجعلها للكعبة ، فذلك لله ، ثم يقسم الباقي على خمسة ، قسم له ، وقسم لسائر من سمي .

وقال الحسن بن محمد ، وابن عباس ، وإبراهيم النَّخَعي ، وقتادة ، والشافعي : قوله تعالى : ﴿فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ﴾ استفتاح كلام كما يقول الرجل لعبده : «قد أَعتقك الله وأَعتقتك» على جهة التبرُّك وتفخيم الأَمر ، والدنيا كلها لله ، وقسْم الله وقسْم الرسول واحد ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقسم الخمس على خمسة أَقسام كما تقدم .

---

(١) من الآية (٢١٥) من سورة (البقرة) .
(٢) القُبْضَة بضم القاف : ما قبضت عليه باليد من شيء ، وهو المراد ها هنا ، وأَمَّا بالفتح فالمرادُ المَرَّةُ من القَبْض ، وقد يكون المعنى مع الفتح هو نفس المعنى مع الضم ، وفهم بعض اللغويين هذا من قوله تعالى : ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِن أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ ، وقد قرئت الآية بالضم وبالفتح ، وكذلك قرئ بالضم والفتح قوله تعالى : ﴿والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَة﴾ . قال ابن الأثير في النهاية : «في حديث حنين : فأخذ قُبْضَةً من التراب ، وهو بمعنى المقبوض كالغُرْفة بمعنى المغروف» .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً فيما روى عنه الطبري : الخمس مقسوم على أربعة أقسام ، وسهم الرسول صلى الله عليه وسلم لقرابته وليس لله ولا للرسول شيءٌ .

وقالت فرقة : قسم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد موته مردود على أهل الخمس ، القرابة وغيرها . وقالت فرقة : هو مردودٌ على الجيش أصحاب الأربعة الأخماس ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يلي الإمام منهم سهم الله ورسوله . وقالت فرقة : هو موقوف لشراءِ العُدَد والكُرَاعَ[1] في سبيل الله .

وقال إبراهيم النَّخَعي : وهذا الذي اختاره أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيه .

وقال أصحاب الرأي : الخمس بعد النبي صلى الله عليه وسلم مقسوم ثلاثة أقسام ، قسم لليتامى ، وقسم للمساكين ، وقسم لابن السبيل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يورث فسقط سهمه وسهم ذوي القُرْبى ، وحجتهم فيه منع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم لذوي القربى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولم يثبت المنع ، بل عورض بنو هاشم بأن قريشاً قُرْبى ، وقيل : لم يكن في مدة أبي بكر رضي الله عنه مَغْنم .

(١) الكُرَاعُ : اسم يجمع الخيل والسلاح . « المعجم الوسيط » .

وقال الشافعي : يعطى أهل الخمس منه ولابُدّ ويُفَضِّل الإمام أهل الحاجة ولكن لا يحرم صنفاً منهم حرماناً تاماً . وقول مالك رحمه الله: إن للإمام أن يعطي الأحوج وإن حرم الغير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخصوصاً من الغنيمة بثلاثة أشياء ، كان له خمس الخمس ، وكان له سهم رجل في سائر الأربعة الأخماس ، وكان له صفِيٌّ يأْخذه قبل القسمة[1] ، دابة أو سيف أو جارية ، ولا صفيَّ لأحدٍ بعده بإجماعٍ إلا ما قال أبو ثور من أن الصَّفيّ باق للإمام ، وهو قول معدود في شواذ الأقوال .

وذو القربى : قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال علي ابن الحسين ، وعبد الله بن الحسن ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم : «هم بنو هاشم فقط» ، قال مجاهد : كان آل محمد صلى الله عليه وسلم لا تحل لهم الصدقة فجُعل لهم خمس الخمس ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ولكن أَبَى ذلك علينا قَوْمُنا وقالوا : «قريش كلها قربى» . وقال الشافعي رحمه الله : «هم بنو هاشم وبنو المطلب فقط» . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن عفان ، وجبير بن مطعم في وقت قسْمه سهم ذوي القربى من خيبر على بني

(١) الصَّفِيُّ : ما يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة ، وقد سبقت الإشارة إلى معناها عند تفسير أول آية من هذه السورة (الأنفال) .

هاشم وبني المطلب : (إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيءٌ واحد ، ما فارقونا في جاهلية ولا في إسلام) (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كانوا مع بني هاشم في الشِّعب .

وقالت فرقة : قريش كلها قربى ، وروي عن علي بن الحسين ، وعبد الله بن محمد بن علي رضي الله عنهم أَنهما قالا : «الآية كلها في قريش» ، والمراد يتامى قريش ومساكينها .

وقالت فرقة : سهم القرابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم موقوف على قرابته ، وقد بعثه إليهم عُمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، إلى بني هاشم وبني المطلب فقط . وقالت فرقة : هو لقرابة الإمام القائم بالأَمر ، وقال قتادة : كان سهم ذوي القُربى طُعْمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حيًّا ، فلما تُوفي جُعل لِوَلِي الأَمر بعده ، وقاله الحسن بن أَبي الحسن البصري . وحكى الطبري أَيضاً عن الحسن أَنه قال : : اختلف الناس في هذين السهميْن بعد وفاة النبي صلى الله

(١) أخرجه البخاري ، والنسائي ، قال البخاري : قال الليث : حدثني يونس ، وزاد : (ولم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني عبد شمس ولا لبني نوفل شيئاً) ، قال ابن إسحق : « وعبد شمس ، وهاشم ، والمطّلب إخوة لأم ، وأمهم عاتكة بنت مرة ، وكان نوفل أخاهم لأبيهم » . وقال النسائي : « وأسهم النبي صلى الله عليه وسلم لذوي القربى ، وهم بنو هاشم وبنو المطّلب ، بينهم الغني والفقير ، وقد قيل : إنه للفقير منهم دون الغني ، كاليتامى وابن السبيل ، وهو أشبه القولين بالصواب . والله أعلم » .

عليه وسلم ، فقال قوم : سهم النبي صلى الله عليه وسلم للخليفة ، وقال قوم : سهم النبي صلى الله عليه وسلم لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال قوم : سهم القرابة لقرابة الخليفة ، فاجتمع رأيهم على أن يجعلوا هذيْن السهمين في الخيل والعُدّة ، فكان على ذلك مدة أبي بكر رضي الله عنه . قال غير الحسن : وعمر .

واليتامى : الذين فقدوا آباءهم من الصبيان ، واليُتْمُ في بني آدم من قِبَل الآباء ، وفي البهائم مِن قبل الأُمهات . والمسكين : الذين لا شيءَ لهم ، وهو مأْخوذ من السكون وقلة الحراك . وابن السبيل : الرجل المجتاز الذي قد احتاج في سفر ، وسواءٌ كان غنياً في بلده أو فقيراً فإنه ابن السبيل ، يُسَمَّى بذلك إما لأَن السبيل تبرزه فكأَنها تلده ، وإما لملازمته السبيل كما قالوا : ابن ماءٍ وأخو سفر ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة ابن زنى) ، وقد تقدم[1] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد اقتضبت فِقْه هذه الآية حسب الاختصار ، والله المستعان .

و [مَا] في قوله تعالى : ﴿ما غَنِمْتُمْ﴾ بمعنى الذي ، وفي قوله : [غَنِمْتُمْ] ضمير يعود عليها ، وحكي عن الفراء أنه جوز أن تكون

---

(١) تقدم الكلام عن ابن الزنى عند تفسير الآية (١٧٩) من سورة (الأعراف) ، وهي قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ والإنْس﴾ لكن نص الحديث هناك يختلف عن نصه هنا .

[ما] شرطية بتقدير : «أنه ما» ، وحذف هذا الضمير لا يجوز عند سيبويه إلَّا في الشعر ، ومنه :

إنَّ مَنْ يَدْخُلِ الكَنِيسَةَ يَوْمـــاً . . . . (١)

وقرأ الجمهور : ﴿فَأَنَّ للهِ﴾(٢) بفتح الهمزة ، وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم ، وحسين عن أبي عمرو : [فَإِنَّ] بكسر الهمزة ، وقرأ الحسن : [خُمْسه] بسكون الميم .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ﴾ الآية ، قال الزجاج عن فرقة : المعنى : فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم ، فـ [إِنْ] متعلقة بهذا الوعد ، وقال أيضاً عن فرقة : إنها متعلقة بقوله : ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ .

---

(١) في خزانة الأدب ، وفي المغني لابن هشام أن البيت للأخطل ، وهو بتمامه :

إنَّ مَنْ يَدْخُلِ الكَنِيسَةَ يَوْمـــاً يَلْقَ فيهَا جَآذِراً وَظِبَــــــاءَ

وهو شاهد على أن اسم (إنَّ) ضمير شأن والجملة شرطية بعدها خبرها ، ودليل ذلك أن (مَنْ) جزمت الفعلين ، والشرط له الصدارة في جملته فلا يعمل فيه ما قبله . قال ابن السيد في شرح أبيات الجمل : « هذا البيت للأخطل ، وكان نصرانياً فلذلك ذكر الكنيسة » ، وقال ابن هشام اللَّخْمِيّ : « لم أجده في ديوان الأخطل » . وفعلا بحثت في الديوان من رواية السكري فلم أجده ، وقد نسبه السيوطي في شواهد المغنى للأخطل ثم قال : وبعده :

مَالَتِ النَّفْسُ بَعْدَهَا إذ رَأَتْهَــا فَهْيَ ريحٌ وصَــارَ جِسْمي هَبَـاءَ

(٢) من اللطائف التي ذكرها المفسرون في قوله تعالى : ﴿فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ﴾ الإشارة إلى هذا التركيب الذي أفرد كينونة الخمس لله ، وفصل بين اسمه تعالى وبين المعاطيف بقوله : (خُمُسَه) ليظهر استقلاله وتفرده تعالى بكينونة الخمس له ، ثم أشرك المعاطيف معه على سبيل التَّبَعِيَّة له ، ولم يأت التركيب « فأن لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل خمسه » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الصحيح لأن قوله [وَٱعْلَمُوا] يتضمن الأمر بانقياد وتسليم لأمر الله في الغنائم ، فعلق [إنْ] بقوله : [وَٱعْلَمُوا] على هذا المعنى ، أي : إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة . وقوله : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ عطف على قوله : [بِالله] ، والمشار إليه بـ [ما] هو النصر والظهور الذي أنزله الله تبارك وتعالى يوم بدر على نبيِّه وأصحابه ، أي : إن كنتم مؤمنين بالله وبهذه الآيات والعظائم الباهرة التي أُنزلت يوم بدر ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى قرآن نزل يوم بدر أو في قصة يوم بدر على تكرُّه في هذا التأويل الأخير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون المعنى : واعلموا أنما غَنِمْتم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فإن خُمسه لكذا أو كذا إن كُنْتم آمَنْتم ، أي : فانقادوا لذلك وسلموا ، وهذا تأويل حسنٌ في المعنى . ويعترض فيه الفصل بين الظرف وما تعلق به بهذه الجملة الكثيرة من الكلام .

و ﴿يَوْمَ الْفُرْقانِ﴾ معناه : يوم الفرق بين الحق والباطل بإعزاز الإسلام وإذلال الشِّرك . والفُرقان : مصدر من فَرَق يفْرق . والجمعان : يريد جمع المسلمين وجمع الكفار ، وهو يوم الوقعة التي قُتل فيها صناديد قريش ببدر ، ولا خلاف في ذلك ، وعليه نصَّ ابن عباس ،

ومجاهد ، ومقسم ، والحسن بن علي ، وقتادة ، وغيرهم ، وكانت يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، هذا قول جمهور الناس ، وقال أبو صالح : لتِسع عشرة ، وشك في ذلك عروة بن الزبير وقال : لتسع عشرة أو لسبع عشرة . والصحيح ما عليه الجمهور .

وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعضد أن قوله : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يراد به النصر والظفر ، أي الآيات والعظائم من غلبة القليل الكثير ، وذلك بقدرة الله تعالى الذي هو على كل شيء قدير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

العامل في [إِذْ] قوله : [الْتَقَى] ، والعدوة : شفير الوادي وحَرْفه الذي يتعذر المشْيُ فيه ، بمنزلة رجا البئر ، لأنها عدَت ما في الوادي من ماءٍ ونحوه أن يتجاوز الوادي ، أي منعته ، ومنه قول الشاعر :

عَدتْني عَنْ زيارَتِكَ العَوَادي وحالت دُونها حرْبٌ زَبُون

ولأنها ما عَدَا الوادي ، أي جاوزه ، وتُسمى الضِّفَّة والفضاءُ المساير للوادي عُدْوة للمجاورة ، وهذه هي العُدْوة التي في الآية (١) .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [بِالْعُدْوَة] بضم العين ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [بِالْعِدْوة] بكسر العيْن ، وهما لغتان ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وقتادة ، وعمرو : [بِالْعدوَة] بفتح العين ، ويمكن أن تكون تسمية بالمصدر ، قال أبو الفتح : الذي في هذا أنها لغة ثالثة كقولهم في اللبن : رُغْوة ورِغْوة ورَغْوَة ، وروى الكسائي : كلَّمته بحَضرة فلانٍ وحُضْرته وحِضرته ، إلى سائر نظائر ذَكَر أبو الفتح كثيراً منها .

وقوله تعالى : [الدُّنْيَا] و [الْقُصْوَى] إنما هو بالإضافة إلى المدينة ، وفي حرف ابن مسعود : «إذ أنْتُم بالعُدوَة العُلْيا وهمْ بالعُدوَة السفلى» ، ووادي بدر آخذ بين الشرق والقبلة منحرف إلى البحر الذي هو قريب من ذلك الصِّقع ، والمدينة من الوادي من موضع الوقعة منه في الشرق ،

---

(١) جاء في (اللسان — عدا) : «العِدى والعُدْوَة والعِدْوة والعَدْوة ، كلُّه : شاطئ الوادي» ، ونقل عن الفراء : «العُدْوة : شاطئُ الوادي ، الدُّنيا مما يلي المدينة ، والقصوى مما يلي مكة» ونقل عن ابن السكّيت : «عُدْوة الوادي وعِدْوته : جانبه وحافته ، والجمع عِدّى وعُدّى» .

هذا وقد جاء بالكسر قول الراعي :

وَعَيْنَـــانِ حُمْرٌ مَآقيهمَـــا ... كما تَنْظُرَ العِدْوَةَ الْجُـــؤْذَرُ

وكذلك بيت أوس بن حجر :

وفَارسٍ لو تَحُلُ الخيْـــلُ عِدْوَتَهُ ... ولّوْا سراعاً وما هَمُّوا بإقْبَـــالِ

وبينهما مرحلتان ، حدَّثني أَبي أَنه رأَى هذه المواضع على ما وصفت . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : «بدرٌ بين مكة والمدينة» ، والدُّنيا من الدُّنوّ ، والقُصوى من القُصو وهو البعد ، وكان القياس أَن تكون القُصْيا لكنه من الشاذ ، وقال الخليل في «العَيْن» : «شذَّت لفظتان هما القصوى والفتوى ، وكان القياس فيهما بالياءِ كالدنيا والعليا» [١] .

[والرَّكْبُ] بإجماع من المفسرين : عِيرُ أَبي سفيان ، ولا يقال «ركْبٌ» إلا لركاب الإِبل ، وهو من أَسماءِ الجمع ، وقد يجمع «راكب» عليه كصاحب وصَحْبٍ وتاجر وتَجْر ، ولا يقال «ركْبٌ» لما كَثُر جداً من الجموع . وقال القتبي : «الركْبُ : العشرة ونحوها» ، وهذا غير جيّد لأَن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال : (والثلاثة ركْبٌ) [٢] . وقوله : [أَسْفَلَ] في موضع خفض تقديره : «في مكان أَسفل» ، كذا قال سيبويه ، قال أَبو حاتم : «نصب أَسفل على الظرف» ، ويجوز «الركب أَسفل» على معنى : وموضع الركب أَسفل ، أَو الركب مستقر أَسفل .

---

(١) معظم علماءِ التصريف فصّلوا في (الفُعْلى) مما لامُه واوٌ فقالوا : إن كان اسماً أُبدلت الواو ياءً ثم يمثلون بما هو صفة نحو الدنيا والعليا والقصيا ، وإن كان صفة أُقرّت نحو الحلوى تأنيث الأحْلى ، ولهذا قالوا : شذ القصوى بالواو وهي لغة الحجاز ، والقصيا لغة تميم . وذهب بعض النحويين إلى أنه إن كان اسماً أقرت الواو نحو حزوى ، وإن كان صفة أُبدلت نحو الدنيا والعليا وشذ إقرارها نحو الحلوى . راجع «البحر المحيط» .

(٢) الحديث كاملا كما رواه في «الجامع الصغير» : (الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب) ، أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه ، وأبو داود ، والترمذي — عن ابن عمرو .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكان الركب ومُدَبّر أَمره أَبو سفيان قد نكَّب عن بدر حينَ نَذِرَ[١] بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذ سِيفَ الْبحر[٢] فهو أَسفل بالإضافة إلى أَعلى الوادي من حيث يأْتي ، وقال مجاهد في كتاب الطبري : أَقبل أَبو سفيان وأَصحابه بالشام تجاراً لم يشعروا بأَصحاب بدر ، ولم يشعر أَصحاب (محمد صلى الله عليه وسلم) بكفار قريش ، ولا كفار قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَصحابه حتى التقوا على الماءِ ببدر ، من يسقي لهم كلهم ، فاقتتلوا فغلبهم أَصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فأَسروهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا تعقب . وكان من هذه الفرق شعور بين من الوقوف على القصة بكمالها .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَادِ﴾ ، قال الطبري وغيره : لتواعدتم على الاجتماع ثم علمتم كثرتهم وقِلَّتكم لخالفتم ولم تجتمعوا معهم . وقال المهدوي : المعنى : أَي لاختلفتم بالقواطع والعوارض القاطعة بالناس .

(١) نذِر بكسر الذال : علِم ، يقال : نذِر بالشيء نَذْراً ونِذَارةً : علِمه فحذِرَه ، ويقال : نَذِروا بالعدوِّ . (المعجم الوسيط) .

(٢) السِّيف : ساحل البحر ، وجمعه : أسياف ، وفي حديث جابر : (فأتينا سيفَ البحر) أي ساحله . (اللسان) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أَنْبَل وأَصَحّ [١] وإيضاحُه أن المقصد من الآية تبْيينُ نعمة الله تبارك وتعالى وقدرته في قصة بدر وتيسيره ما يسَّر من ذلك ، والمعنى : إذ هيَّأَ الله لكم هذه الحال ، ولو تواعدتم لاختلفتم إلا مع تيسير الله الذي تمَّم ذلك ، وهذا كما تقول لصاحبك في أمر سنَّاهُ الله [٢] دون تعب كثير : لو بَنَيْنا على هذا وسعينا فيه لم يتم هكذا .

ثم بيّن تعالى أن ذلك كان بلطف الله عزَّ وجلَّ ليقضي أمراً ، أي لِيُنْفِذَ ويُظهر أمراً قد قدَّره في الأَزَل مفعولا لكم بشرط وجودكم في وقت وجودكم ، وذلك كله معلوم عنده .

وقوله تعالى : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ، قال الطبري : المعنى : لِيُقْتَل من قُتل من كفار قريش وغيرهم ببيان من الله وإعذار بالرسالة ، ويحيا أَيضاً ويعيش من عاش عن بيان منه أَيضاً وإعذار لا حجة لأَحد عليه ، فالهلاك والحياة ـ على هذا التأْويل ـ حقيقتان .

---

(١) يعني أنه أنْبل من قول الطبري وأشرف . وهو الصواب لما ذكره بعد ذلك . وقوله : « وإيضاحه » يعني : وتوضيح النبل والصحة ... الخ .

(٢) سَنَّاه : أي سهَّله ويَسَّره ، يقال : سنَّيْتُ الشيء إذا فتحته ويسَّرته ، وتسنَّى لي الشيءُ أي تَيَسَّرَ لي وتأتَّى ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

وأَعْلَمُ علْماً ليس بالظَّنِّ أنَّـــه ... إذا اللهُ سَنَّى عَقْدَ شَيْءٍ تَيَسَّرَا

وقد نقل أبو حيان في البحر عبارة ابن عطية هكذا : « في أمر شاءه الله » من المشيئة .

وقال ابن إسحق وغيره : معنى [لِيَهْلِكَ] أي لِيَكْفُر ، [وَيَحْيا] أَي ليُؤمن ، فالهلاك والحياة – على هذا – مستعارتان ، والمعنى أَن الله تعالى جعل قصة بدرٍ عبرة وآية ليؤمن من آمن عن وضوح وبيان ، ويكفر أَيضاً من كفر عن مثل ذلك .

وقرأَ الناس : [لِيَهْلِك] بكسر اللام الثانية ، وقرأَ الأَعمش : [لِيَهْلَك] بفتح اللام ، ورواها عصمة عن أَبي بكر عن عاصم.

والبيِّنة صفة ، أَي قضية بيِّنة ، واللام الأُولى في قوله [لِيَهْلك] ردٌّ على اللام في قوله تعالى : [ليقْضيَ] .

وقرأَ ابن كثير – في رواية قنبل – وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم – في رواية حفْصٍ – : [مَنْ حَيَّ] بياءٍ واحدة مشددة ، وقرأَ نافع ، وابن كثير – في رواية البزيِّ – وعاصمٌ – في رواية أَبي بكر – : [منْ حَيِيَ] بإظهار الياءَين وكسر الأُولى وفتح الثانية . فمن قرأَ [حَيَّ] : فلأَن الياءَ قد لزمتها الحركة فصار الفعل بلزوم الحركة لها مشبهاً بالصحيح مثل عضَّ وشَمَّ ونحوه ، أَلا ترى أَن حذف الياءِ من (جوارٍ) في الجرّ والرفع لا يطَّرِدُ في حال النصب إذ قلت : «رأَيتُ جَوارِيَ» لمشابهتها بالحركة سائر الحروف الصحاح ، ومنه قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾[1] ، وعلى

(١) الآية (٢٦) من سورة (القيامة) .

نحو [حَيَّ] جاءَ قول الشاعر :

عَيُّـــوا بِأَمْرِهِـــمُ كَما عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا الحَمَـامهْ (١)

ومنه قول لبيد :

سَأَلَتْنِي جارَتي عنْ أَمَتي وإذا مَا عَيَّ ذُو اللُّبِّ سأَلْ (٢)

وقول المتلَمِّس :

فهذَا أَوَانُ الْعِرْض حَيٌّ ذُبَابُهُ زَنَابيرُهُ والأَزْرقُ المُتَلَمِّسُ (٣)

ويروى : جُنَّ ذُبابُهُ (٤) .

---

(١) هذا البيت للشاعر الجاهلي المعروف عَبيد بن الأبْرص ، وهو من قصيدة قالها بعد أن حبسه حُجْر الكندي والد امرئ القيس هو وأكثر قومه بني أسد حين امتنعوا عن دفع الجزية له في قصة طويلة عرف فيها بنو أسد بأنهم «عَبيد العصا» لأن حُجْرا كان يقتلهم بالعصا . والقصيدة تتضمن مفاخر بني أسد ، ورواية البيت في الديوان تؤكد ما أشرنا إليه ، فلفظه فيه :

بَرِمَتْ بَنُو أَسَدٍ كَمَـــا بَرِمَتْ بِبَيْضَتِهَا الحَمَـامهْ

ورواية اللسان هي رواية ابن عطية هنا ، وهي شاهد على أن (عَيَّ) تأتي مشددة الياء مثل (حَيَّ) .

(٢) البيت غير موجود في ديوان لبيد ، والقصيدة التي يمكن أن يكون واحداً من أبياتها هي التي بدأها بقوله :

إنَّ تَقْوى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَـــلْ وبِإذْن اللهِ رَيْثي وعَجَـــلْ

(٣) المتلَمِّس هو جرير بن عبد المسيح الضُّبَيْعي ، وبيتُه هذا من قصيدة يتحدث فيها عن إبائه ويسوق فيها الكثير من الحكمة . والعِرْض : وادٍ في اليمامة ، وحَيٌّ ذبابة أي عاش فيه بالخصب والحياة . و (زنابيرهُ) بدل من (ذبابُه) ، والأزرقُ المتَلَمِّس : نوع آخر من الذباب أخضر اللون كبير الحجم ، يقول مخاطباً النعمان : هذا موسم ذلك الوادي المسمَّى بالعِرْض وقد حامت فيه أنواع مختلفة من الذباب وذلك دليل على خصبه . وقد سُمِّي المتَلَمِّسَ لقوله هذا .

(٤) في بعض النسخ : دقَّ ذبابُه .

قال أَبو عليّ وغيره : هذا أَنَّ كل موضع تلزمُ الحركةُ فيه ياءً مستقبلة[١] فالإدغام في ماضيه جائز ، أَلا ترى أن قوله تعالى : ﴿عَلَىٰٓ أَنْ يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٢] لا يجوز الإدغام فيه لأَن حركة النصب غير لازمة ؟ أَلا ترى أَنها تزول في الرفع وتذهب في الجزم ؟ ولا يُلتفت إلى ما أَنشد بعضهم لأَنه بيت مجهول :

وكأَنَّهـــا بينَ النِّسَــاءِ سبِيكَةٌ تَمْشي لِسُدَّةِ بَيْتِهَا فَتُعِــيّ[٣]

قال أَبو عليّ : وأَما قراءة من قرأَ : [حَيِيَ] فَبَيَّن ولم يُدْغِم ، فإن سيبويه قال : أَخبرنا بهذه اللغة يونس ، قال : وسمعنا بعض العرب يقول : «أَحْيِيَاء»[٤] ، قال أَبو حاتم : القراءة إظهار الياءين والإدغام حسَنٌ ، فاقرأْ كيف تعلمت فإن اللغتين مشهورتان في كلام العرب ، والخطُّ فيه ياءٌ واحدة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذه اللفظة استوعب أَبو عليّ القول فيما تصرف من (حيِيَ) كالحيّ الذي هو مصدر منه وغيره .

---

(١) هي الياءُ الثانية الّتي تأتي بعد الياءِ الأولى وتكون حركتها لازمة . وقد شرح ابن عطية الفرق بين الحركة اللازمة والحركة العارضة الّتي تزول بزوال العامل .

(٢) من الآية (٤٠) من سورة (القيامة) .

(٣) ينسب هذا البيت إلى الحطيئة مع أنه غير موجود في ديوانه . والسبيكة : القطعة من الذهب أو الفضة الخالصة من الخبث المصبوبة في قالب على صورة معينة ، والكلام هنا على التشبيه ، والسدة : بابالدار ، أوالظُّلّة بباب الدار ، أوالسّاحة بين يديالباب ، وقد جاء (تعيّ) بالإدغام مع أنّ حركة الياء الثانية غير لازمة .

(٤) على وزن أغنياء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

قال المهدوي : [إِذْ] نصب بتقدير : واذكر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

أَو بدل من [إِذْ] المتقدمة ، وهو أَحسن .

وتظاهرت الروايات أَن هذه الآية نزلت في رؤْيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأَى فيها عدد الكفار قليلا فأَخبر بذلك أَصحابه فقويت نفوسهم ، وحَرَصوا على اللقاءِ(١) ، فهذا معنى قوله تعالى : [في مَنَامِكَ] ، أَي في نومك ، قاله مجاهد وغيره .

وروي عن الحسن أَن معنى قوله : ﴿في مَنَامِكَ﴾ أَي في عينك إذ هي موضع النوم ، وعلى هذا التأْويل تكون الرؤْية في اليقظة .

---

(١) أكمل أبو حيان في «البحر» الخبر : (وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين انتبه : أبْشروا ، لقد نظرتُ إلى مصارع القوم) — هذا والمراد بالقِلَّة هنا قِلَّةُ القدر والنجدة وأنهم مهزومون ، ولا يُحمل على قِلَّة العدد لأن رؤياه صلى الله عليه وسلم حق ، وقد كان علم أنهم ما بين تسعمائة وألف ، فلا يمكن حمل ذلك على قِلَّة العدد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول ضعيف ، وعليه فسّر النقاش وذكره عن المازني . والضمير على التأويلين من قوله : [يُرِيكَهُم] عائد على الكفار من أهل مكة ، ومما يضعف ما رُوي عن الحسن أن معنى هذه الآية يتكرر في التي بعدها لأن النبي صلى الله عليه وسلم مخاطب في الثانية أيضاً ، وقد تظاهرت الرواية أن النبي صلى الله عليه وسلم انتبه وقال لأصحابه : (أبشروا فلقد نظرت إلى مصارع القوم) ونحو هذا ، وقد كان علم أنهم ما بين التسعمائة إلى الألف ، فكيف يراهم ببصره بخلاف ما علم ؟ والظاهر أنه رآهم في نومه قليلا قدْرُهم وحالهم وبأْسهم مهزومين مصروعين ، ويحتمل أنه رآهم قليلا عددهم فكان تأْويل رؤْياه انهزامهم ، فالقِلَّة والكثرة على الظاهر مستعارة في غير العدد ، كما قالوا : «المرءُ كثير بأَخيه» إلى غير ذلك من الأَمثلة . والفَشَل : الخَوَر عن الأَمر إمّا بعد التَّلَبُّس وإمّا بعد العزم على التَّلَبُّس . و [لَتَنَازَعْتُمْ] أَي : لتخالفتم ، و ﴿فِي الأَمْرِ﴾ يريد : في اللقاءِ والحرب . و [سَلَّمَ] لفظ يعُمّ كل متخوف اتصل بالأمر أَو عرض في وجهه فسَلَّمَ الله من ذلك كلّه ، وعبّر بعض الناس بأَن قال : سلَّم لكم أَمركم ونحو هذا مما يندرج فيما ذكرناه ، وقوله : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَي : بإيمانكم وكفركم فيجازي بحسب ذلك .

وقرأ الجمهور من الناس : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ بشدّ النون ونصب المكتوبة[١] ، وقرأت فرقة : ﴿وَلَكِنِ اللَّهُ﴾ برفع المكتوبة .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ الآية . [وإِذْ] عطف على الأُولى ، وهذه الرؤية هي في اليقظة بإجماع ، وهي الرؤية التي كانت حين التقوا ووقعت العين على العين ، والمعنى أن الله تعالى لِمَا أَراد مِنْ إنْفاذ قضائه في نُصْرة الإسلام وإظهاره قَلَّل كل طائفة في عيون الأُخرى فوقع الخلل في التخمين والحزْر[٢] الذي يستعمله الناس في هذا التجَسُّس كل طائفة على الأُخرى وتتسبب أَسباب الحرب ، ورُوي في هذا عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لقد قلت ذلك اليوم لرجل إلى جنبي : أَتظنهم سبعين ؟ قال : بل هم مائة . قال : فلما هزمناهم أَسرنا منهم رجلا فقلنا : كم كنتم ؟ قال : أَلفاً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويَرد على هذا المعنى في التقليل ما رُوي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأَل عما ينحرون كلَّ يوم فأُخبر أَنهم يوماً عشراً ويوماً تسعاً قال : (هم ما بين التسعمائة إلى الأَلف) ، فإما أَن عبد الله ومن جرى مجراه لم يعلم بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما أَن نفرض التقليل الذي في الآية تقليل القدر والمهابة والمنزلة من

---

(١) المكتوبة : لفظ الجلالة (الله) .

(٢) حَزْرُ الشيء : تقديرُه بالتخمين .

النجدة . وتقدم القول في مثل قوله تعالى : ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا﴾ ، والأَمر المفعول المذكور في الآيتين هو القصة بأَجمعها ، وذهب بعض الناس إلى أنهما المعَنيَيْن من معاني القصة ، والعموم أَولى .

وقوله تعالى : ﴿وإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ تنبيه على أَن الحوْل بأَجمعه لله تبارك وتعالى ، وأَن كل أَمرٍ فَلَهُ وإِليه . وقرأَ الحسن ، وعيسى بن عمر ، والأَعمش : [تَرْجِـع] بفتح التاءِ وكسر الجيم ، قال أَبو حاتم : وهي قراءَة عامة النَّاس . وقرأَ الأَعرج ، وابن كثير ، وأَبو عمرو ، ونافع ، وغيرهم : [تُرْجَع] بضم التاءِ وفتح الجيم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

هذا أَمر فيه داعية إلى النصر وسبب العزِّ ، وهي وصية من الله متوجهة بسبب التقييد الذي في آية الضَّعْف (١) . ويجري مع معنى

(١) هي قوله تعالى في الآية (٦٦) من هذه السورة : ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ .

الآية قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تَتَمَنَّوْا لقاءَ العدو ، واسأَلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا) (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهكذا ينبغي أَن يكون المسلم في ولاية الإمارة والقضاءِ لا يطلب ولا يتمنى ، فإِن ابتُلِي صبر على إقامة الحق .

والفئة : الجماعة ، أَصلها فِئَوَة وهي من فَأَوْتُ أَي جمعت .

ثم أَمر الله تعالى بإكثار ذكره هنالك إذ هو عصمة المستنجد ووَزَرُ (٢) المستعين ، قال قتادة : افترض الله ذكره عند أَشغل ما يكونون ، عند الضراب بالسيوف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا ذكر خفي لأَن رفع الأَصوات في موطن القتال رديءٌ مكروه إذا كان أَلفاظاً (٣) ، فأَما إن كان من الجميع عند الحملة فحسن فاتٌّ

(١) قال ابن كثير في تفسيره : « ثبت في الصحيحيْن عن عبد الله بن أَبي أَوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدوّ حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : (يأَيُّها الناس ، لا تتمنَّوا لقاءَ العدوّ ، واسأَلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) ، ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم وقال : (اللّهم مُنْزِلَ الكتاب ، ومُجْرِي السحاب ، وهازم الأَحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم) . ثم نقل عن عبد الرزاق عن عبد الله بن عُمَر مثله . (تفسير ابن كثير ٣-٣٢٩ ، ٣٣٠) .

(٢) الوَزَرُ : الملجأُ والمعتصم (المعجم الوسيط) .

(٣) اضطربت الأصول في هذه الجملة ففي بعضها : « إذا كان إلغاطا » ، وفي بعضها : إذا كان الغايط واحدا ، والصواب ما ذكره محقق القرطبي ناقلا عن ابن عطية : « إذاكان الذكر واحداً ، فأما إن كان من الجميع ... الخ » .

في عضد العدو . وقال قيس بن عباد ، كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون الصوت عند ثلاث : عند قراءة القرآن ، وعند الجنازة ، والقتال . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اطلبوا إجابة الدعاء عند القتال ، وإقامة الصلاة ، ونزول الغيث)[١] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يكره التَّلَثُّم عند القتال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولهذا ـ والله أعلم ـ تَيمَّنَ[٢] المرابطون بطرحه عند القتال على ضنانتهم به .

و [تُفْلِحُونَ] : تنالون بُغْيَتَكُم وتبلغون آمالكم ، وهذا مثل قول لبيد :

أَفْلِح بما شِئْتَ فقَدْ يُبْلَغُ بالضَّعْفِ وقَدْ يُخْدَعُ الأَرِيبُ[٣]

---

(١) أخرج الحاكم وصححه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثنتان لا تُرَدَّان ، الدعاء عند النداء وعند البأس ، حين يلحم بعضهم بعضاً) (الدر المنثور) .

(٢) وأيضاً اضطربت الأصول في هذه الجملة ، ففي بعضها : «يتَسَنَّنُ» ، وفي بعضها «اسْتَنّ» ـ والتصويب عن القرطبي الذي قال : «والتصويب عن تفسير ابن عطية» ، والمراد أن المرابطين آثروا التبرك بترك اللثام عند القتال على شدة تمسكهم به .

(٣) المعروف أن البيت لعبيد بن الأبرص ، وهو من قصيدته المشهورة ـ على الرغم مما فيها من اضطراب في ـ والتي يقول مطلعها :

أقْفَرَ مِنْ أهْلِهِ مَلْحوبُ فالقُطَبِيَّاتُ ، فالذَّنُوبُ

وأفْلِح بما شِئْتَ : عِشْ به . والأريب : العاقل . ورواية الديوان : «فقديدرك» ، ويروى : «بالنَّوْك» بدلا من «بالضعف» . والمعنى : عِشْ كما تشاء فلربما نال الضعيف بضعفه مالا يناله القوي بقوته . هذا وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ الآية (٢٢) من سورة (الأنعام) .

وقوله تعالى : ﴿وأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية . استمرار على الوصية والأَخذ على أَيديهم في اختلافهم في أَمر بدر وتنازعهم . و [تَفْشَلُوا] نصب بالفاءِ في جواب النَّهي ، قال أَبو حاتم في كتاب «إبراهيم» : «فَتَفْشِلُوا» بكسر الشين ، وهذا غير معروف (١) . وقرأَ جمهور الناس : [وَتَذْهَبَ] بالتاءِ من فوق ونصب الباءِ ، وقرأَ هُبَيْرَة عن حفص عن عاصم : [وَتَذْهَبْ] بالتاءِ وجزم الباءِ ، وقرأَ عيسى بن عمر : [وَيذْهَبْ] بالياءِ من تحت وبجزم [يَذْهَبْ] ، وقرأَ أَبو حيوة : [وَيَذْهَبَ] بالياءِ من تحت ونصب الباءِ ، ورواها أَبان ، وعصمة عن عاصم . والجمهور على أَن الريح هنا مستعارة والمراد بها النصر والقوة ، كما تقول : «الريح لفلان» إذا كان غالباً في أَمر ، ومن هذا المعنى قول الشاعر وهو عبيد بن الأَبرص :

كَمَا حَمَيْنَاكَ يومَ النَّعْفِ مِنْ شَطِبٍ والفَضْلُ لِلْقَوْمِ مِنْ ريحٍ ومِنْ عَدَدِ (٢)

وقال مجاهد : الريح : النصر والقوة ، وذهبت ريح أَصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أُحد . وقال زيد بن علي : ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معناه : الرعب من قلوب عدوكم .

---

(١) جاء في «التاج» : «فشَل يفْشُل ككتب يكتُب ، وبه قُرِئَ [فتَفْشُلُوا] ، وفشِل يفْشِل كضَرب يضْرِب ، وبه قرأ الحسن البصري ، وهما لغتان نقلهما الصاغاني . ولهذا عقب أبو حيان في البحر على كلام أبي حاتم فقال : «وقال غيره : هي لغة» .

(٢) شَطِب : اسم جبَل بديار بني أسد ، وفي معجم ما استعجم للبكري : «بديار بني تميم» ، والنَّعْفُ : أسفل الجبَل ، أو المكان المرتفع في اعتراض ، والفضْلُ للقَوم : الريح معهم والعدد لهم ، ويروى البيت : «مِن صوْتٍ ومِن غَرِد» ويريد بالغرد الصوت ، والمعنى - على هذه الرواية الثانية - أن لهم صوتاً وجلبة يهزمون بها العدو .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا حسن بشرط أن يعلم العدوّ بالتنازع ، وإذا لم يعلم فالذاهب قوة المتنازعين فينهزمون ، وقال شاعر الأنصار :

قَدْ عَوَّدَتْهُم ظُبَاهُم أَنْ تَكُونَ لَهُم ريحُ القِتَالِ وأَسْلابُ الَّذينَ لَقُوا (١)

ومن استعارة الريح قول الآخر :

إِذَا هَبَّتْ رياحُكَ فَاغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ عاصِفَةٍ سكُونُ (٢)

وهذا كثير مستعمل . وقال ابن زيد وغيره : الريح على بابها ، وروي أن النصر لم يكن قطُّ إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار ، واستند بعضهم في هذه المقالة إلى قوله صلى الله عليه وسلم : (نُصِرتُ بالصَّبا) (٣) ، وقال الحكم : ﴿وَتَذْهَبَ ريحُكُمْ﴾ يعني الصَّبا إذْ بها نصر محمد صلى الله عليه وسلم وأُمته .

---

(١) الظُّبَةُ : حد السيف وما أشبهه ، والجمع : ظُبًا وظُبات وظُبُون . وريح القتال : النَّصر والغلبة فيه . والأسلاب : جمع سَلَب وهو ما مع القتيل من مال وسلاح ودابة . ولقوا : قابلوهم في الحرب . والمعنى : النصر دائماً لهم .

(٢) يروى : « لِكُلِّ خافقة » بدلا من « لِكُلِّ عاصفة » ، والقافية مرفوعة ، واسم (إن) هنا ضمير الشأن ، والخبر قوله : « لِكُلِّ خافقة سكون » ، وهذا تصحيح لمن روى البيت : « فإنَّ لكُلِ عاصفة سكوناً » بالنصب ، فالخطأ واضح ، والدليل أن مِنْ هذه القصيدة البيت المعروف :

ولا تَغْفل عن الإحسان فيها فما تَدْري السكونُ متى يكونُ

(٣) (نُصِرْت بالصَّبا وأُهلكت عادٌ بالدَّبُور) ، رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهناك حديث آخر نصّه : (نُصرت بالصَّبا وكانت عذاباً على من كان قبلي) ، رواه الشافعي عن محمد بن عمر مرسلا ، ذكر ذلك الإمام السيوطي في « الجامع الصغير » ، ورمز إلى الحديث الأول بالصحة ، ورمز إلى الثاني بالضعف . والصَّبا : ريح مَهَبُّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنث) ، والدبور : ريح تهب من المغرب وتقابل القبول وهي الصَّبا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا إنما كان في غزوة الخندق خاصة ، وقوله : [وَٱصْبِرُوا] إلى آخر الآية تَتْميم في الوصية وعِدَةٌ مُؤنسة .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ﴾ الآية . آية تتضمن الطعن على المشار إليهم وهم كفار قريش ، وخُرِّج ذلك على طريق النهي عن سلوك سبيلهم ، والإشارة هي إلى كفار قريش بإجماع . والبَطَر : الأَشَر وغَمْط النعمة والشغل بالمرح فيها عن شكرها ، والرِّياءُ : المباهاة والتصنع بما يراه غيرك ، وهو فِعَالٌ من : رَائَى يُرَائي ، سُهِّلت همزته ، وروي أن أبا سفيان لما أَحسَّ أَنه تجاوز بِعيره الخوفَ من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعث إلى قريش فقال : «إن الله قد سلم عيركم التي خرجتم إلى نصرتها فارجعوا سالمين قد بلغتم مرادكم» ، فأَتى رأْي الجماعة على ذلك ، فقال أبو جهل : «والله لا نفعل حتى نأْتي بدراً – وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب لها يوم موسم – فننحر عليها الإبل ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، ويسمع بنا العرب ، ويهابنا الناس» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهم إن قريشاً أقبلت بفخرها وخُيلائها تحادّك

وتكذِّب رسولك ، اللَّهم فأَحِنْها الغداةَ) [١] ، وقال محمد بن كعب القرظي : خرجت قريش بالقيان والدفوف .

وقوله تعالى : ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي غيرَهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لأَنهم أَحرى بذلك من أَن يقتصر صدهم على أَنفسهم . وقوله : ﴿واللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ آية تتضمن الوعيد والتهديد لمن بقي من الكفار ، ونفوذَ القَدَر فيمن مضى بالقتل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

التقدير : واذكروا إِذْ ، والضمير في [لَهُمُ] عائد على الكفار ، والشيطان : إِبليس نفسه . وحكى المهدوي وغيره أَن التزيين في هذه

(١) هذا جزء من حديث أخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية . وليس فيه الجملة الأخيرة ، ومعنى : (فأحِنْها الغداة) : فاجعل حَيْنها وهلاكها غداً ، وتخريج الحديث عن (الدر المنثور) .

الآية وما بعده من الأَقوال هو بالوسوسة والمحـادثة في النفـوس .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويضعف هذا القول أَن قوله : ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ ليس مما يلقى بالوسوسة . وقال الجمهور في ذلك بما رُوي وتظاهر أَن إبليس جاءَ كفار قريش ، ففي السير لابن هشام أَنه جاءَهم بمكة ، وفي غيرها أَنه جاءَهم وهُمْ في طريقهم إلى بدر وقد لحقهم خوف من بني بكر وكنانة لحروب كانت بينهم ، فجاءَهم إبليس في صورة سُراقة بن مالك بن جعشم وهو سيّد من ساداتهم ، وقال لهم : «إني جارٌ لكم ، ولن تخافوا من قومي وهم لكم أَعوان على مقصدكم ، ولن يغلبكم أَحدٌ» ، فسُرّوا عند ذلك ومضوا لِطِيَّتِهِم[١] ، وقال لهم : «أَنتم تقاتلون عن دين الآباءِ ولن تعدموا نصراً» ، فروي أَنه لما التقى الجمعان كانت يده في يد الحارث بن هشام ، فلما رأَى الملائكة نكص على عقبيه ، فقال له الحارث : أَتَفِرُّ يا سراقة ؟ فلم يَلْوِ عليه[٢] ، ويروى أَنه قال له ما تضمنت الآية . وروي أَن عُمَيْر بن وهب — أَو الحارث بن هشام — قال له : أَين يا سراق ؟ فلم يَلْوِ ودفع في صدر الحارث وذهب فوقعت الهزيمة[٣] ، فتُحُدِّث أَن سراقة فرَّ بالناس

---

(١) الطِّيَّةُ : النِّيَّة ، والحاجة .

(٢) يقال : مرَّ لا يَلْوي على أحد : لا يُقيم عليه ولا ينتظره .

(٣) اضطربت العبارات في الأصول في هذه الجملة ، والتصويب عن كتب السيرة ، والمفسرين الذين يأخذون عن ابن عطية كالقرطبي وأبي حيان .

فبلغ ذلك سراقة بن مالك فأتى مكة فقال لهم : «والله ما علمت بشيء من أمركم حتى بلغتني هزيمتكم ، ولا رأيتكم ولا كنت معكم» ،

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه ، رأيته في صورة رجل من بني مدلج ، فقال : ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ الآية

و [ٱلْيَوْمَ] ظرف والعامل فيه معنى نفي الغلبة ، ويحتمل أن يكون العامل متعلق [لكُمْ] ، وممتنع أن يعمل [غَالِبٌ] لأنه كان يلزم أن يكون : (لا غالبا) [١] .

وقوله : ﴿ إنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ معناه : فأنتم في ذمتي وحمايتي . و [تَرَاءَتْ] : تفاعلت من الرؤية ، أي رأى هؤلاء هؤلاء . وقرأ الأعمش ، وعيسى بن عمر : [تَرَأَتْ] مقصورة ، وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه أمال والراءُ مرقّقة ثم رجع عن ذلك .

وقوله : ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ معناه : رجع من حيث جاء ، وأصل النكوص في اللغة : الرجوع القهقرى ، قال زهير :

هُمْ يَضْرِبُون حبيكَ الْبَيْض إذْ لَحِقُوا ... لاينْكِصُونَ إذا ما اسْتُلْحِموا وحَمُوا [٢]

---

(١) لأنه يكون اسم (لا) مطولا ، والمطوّل يعرب ولا يبنى .

(٢) البيت في الديوان ، وهو من قصيدته التي يقول في مطلعها :

قِفْ بالدِّيار التي لَمْ يعْفُها القِدَمُ ... بلَى ، وغيَّرهــا الأرواحُ والدِّيَمُ

والبَيْضُ : جمع بَيْضة ، ما يوضع على الرأس كالخوذة . وحَبيك البيض : طرائقه ، والواحدة : حبيكة . ينكصُون : يتراجعون ويُحجمون عن القتال ، ونكَص على عقبيه: رجع عما كان =

كذا أَنشد الطبري ، وفي رواية الأَصمعي : استلأَموا ، وبذلك فسّر الطبري هذه الآية ، وفي ذلك بُعْد ، وإنما رجوعه في هذه الآية مُشَبَّه بالنكوص الحقيقي ، وقال اللغويون : النكوصُ : الإحجام عن الشيء ، يقال : أَراد أَمراً ثم نكص عنه ، وقال تـأَبَّطَ شرًّا :

ليْس النُّكُوصُ على الأَدْبارِ مكرُمَةً إنَّ المكارمَ إقدامٌ على الأَسَل (١)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فليس ها هنا قهقرى ، بل هو فِرار ، وقال مؤَرج (٢) : نكص هي رجع بلُغة سليم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ يبين أَنه إنما أَراد الانهزام والرجوع في ضِدّ إقباله . وقوله : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ﴾ هو خذلانه لهم وانفصاله

= عليه من الخير ، ولا يقال ذلك إلا في الرجوع عن الخير خاصة ، ونكَص ينكُـِص بضم الكاف وبكسرها في المضارع (قال ذلك في اللسان نقلا عن أبي منصور الأزهري) ، واستُلْحموا : أُدْركو ولوبسوا في أثناء المعركة . وحَمُوا : اشتد غضبهم . أما استَلأَموا (على رواية الأصمعي) فمعناها : لبسوا ما عندهم من عُدّة ، أو لبس كل واحد منهم "لأْمتَهُ" وهي أداة الحرب كلها من الرمح والمِغْفر والبَيْضَة والسيف والدرع .

(١) الأدبار : جمع دُبُر — بضم الباء وبسكونها — وهو الظَّهْر والاسْتُ . والأَسَلُ : الرماح وكل ما رُقّق من الحديد — على التشبيه بالشوك الطويل ، أو بنبات ذي أغصان كثيرة شائكة الأطراف من الفصيلة الأسلية ينبت في الماء أو في الأرض الرطبة وتصنع منه الحصر والحبال — فالنكوص على الأدبار فِرار وهزيمة كما قال المؤلف .

(٢) هو مؤرج بن عمرو السدوسي ، يكنى أبا فيد ، مات سنة ١٩٥ هـ .

عنهم ، وقوله : ﴿إِنِّي أَرَى مَالَا تَرَوْنَ﴾ يريد الملائكة ، وهو الخبيث إنما شرط أن لاغالب من الناس فلما رأى الملائكة وخرق العادة خاف وفرَّ . وفي الموطإ وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما رُئِيَ الشيطان في يوم أقل ولا أحقر ولا أصغر منه في يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رأى يوم بدر ، قيل : وما رأى يا رسول الله ؟ قال : رأى الملائكة يَزَعُها جبريل) [١] ، وقال الحسن : رأى إبليس جبريل عليه السلام يقود فرسه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وهو معتجر ببردة وفي يده اللجام .

وقوله : ﴿إِنِّي أَخافُ اللهَ﴾ قيل : إن هذه معذرة كاذبة ولم تلحقه قط مخافة ، قاله قتادة ، وابن الكلبي . وقال الزجاج وغيره : بل خاف مما رأى من الأمر وهَوْله ، وأنه يومه الذي أُنظر إليه [٢] ، ويقوي هذا أنه رأى خرق العادة ونزول الملائكة للحرب .

وحكى الطبري بسنده أنه لما انهزم المشركون يوم بدر حين رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبضة من التراب وجوه الكفار أقبل جبريل صلى الله عليه وسلم إلى إبليس ، فلما رآه إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبراً ، فقال له الرجل : أي سراقة تزعم أنك لنا جار؟ فقال : ﴿إِنِّي أَرى مَالا تَرَوْنَ﴾ الآية ، ثم ذهب .

---

(١) الحديث رواه مالك في الموطإ ، وقال ابن كثير بعد أن أورده كاملا بسنده : « هذا مرسل من هذا الوجه » ومعنى يَزَعُها : يُرَتِّبها ويسوّي صفوفها للحرب .

(٢) يعني : وظنَّ أنه يومه الذي أُنْظِرَ إليه فخاف ونكص على عقبيه .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية . العامل في [إِذْ] [زَيَّنَ] أو [نَكَصَ] لأن ذلك الموقف كان ظرفاً لهذه الأمور كلها ، وقال المفسرون : إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من أهل عسكر الكفار لمَّا أشرفوا على المسلمين ورأوا قِلَّتهم وقِلَّة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين : ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ ، أي : اغْتَرُّوا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والنفاق أخص من مرض القلب ، لأن مرض القلب يطلق على الكافر وعلى من اعترضته شُبْهَة وعلى من بينهما ، وكنى بالقلوب عن الاعتقادات إذ القلوب محلها ، ورُوي في نحو هذا التأويل عن الشعبي أن قوماً ممن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر ، منهم مَنْ أُكْرِه ، ومنهم من داجى وداهن[1] ، فلما أشرفوا على المسلمين ورأوا قِلَّتهم ارتابوا واعتقدوا أنهم مغلوبون فقالوا : ﴿غَرَّ هَؤلاءِ دِينُهُمْ﴾ ؛ قال مجاهد : منهم قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، وعليّ بن أُمية بن خلف ، والعاصي بن منبه بن الحجاج[2] .

(١) اختلفت النسخ الخطية في هذه الجملة ؛ فبعضها أسقط كلمة «داجى» ، وبعضها أثبتها (جاء) ، ومعنى داجى : أخفى ما في نفسه وداراه .

(٢) أثبت هذا الاسم الأخير في بعض النسخ : «العاصي بن أُمية» ، وآثرنا التي تتفق مع مافي الطبري والبحر المحيط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولم يُذكر أَحَدٌ ممن شهد بدراً بنفاق إلا ما ظهر بعد ذلك من معتب بن قشير أخي عمرو بن عوف فإنه القائل يوم أُحُد : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾[١] ، وقد يحتمل أن يكون منافقو المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا عن المسلمين هذه المقالة ، فأخبر الله بها نبيَّه في هذه الآية .

ثم أخبر الله عزَّ وجلَّ بأن من توكل على الله واستند إليه فإن عزَّة الله تبارك وتعالى وحكمته كفيلة بنصره وشدّ أعضاده ، وخرجت العبارة عن هذا المعنى بأوجز لفظ وأبلغه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

هذه آية تتضمن التعجب مما حلَّ بالكفار يوم بدر ، قاله مجاهد وغيره ، وفي ذلك وعيد لمن بقي منهم ، وحذف جواب [لَوْ] إبهام بليغ .

---

(١) من الآية (١٥٤) من سورة (آل عمران) .

وقرأ جمهور السبعة والناس : [يَتَوَفَّى] بالياء فأُسند فعل فيه علامة التذكير إلى مؤنث في اللفظ ، وساغ ذلك إذ التأْنيث غير حقيقي ، وارتفعت [الْمَلَائِكَةُ] بـ [يتوَفَّى] ، وقال بعض مَنْ قرأ هذه القراءة : إن المعنى : إذ يَتَوَفَّى اللهُ الذين كفروا ، و [الْمَلَائِكَةُ] رفع بالابتداء ، و [يَضْرِبُونَ] خبره ، والجمله في موضع الحال .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويضعف هذا التأْويل سقوط واو الحال ، فإنها في الأَغلب تلازم مثل هذا (١) . وقرأ ابن عامر من السبعة ، والأَعرج : [تَتَوَفَّى] بالتاءِ على الإسناد إلى لفظ [الْمَلَائِكَة] ، و [يَضْرِبُونَ] في موضع الحال .

وقوله تعالى : [وَأَدْبَارَهُمْ] قال جمهور المفسرين : يريد أَسْتَاهَهُم ، ولكن الله كريم يكني ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أَراد ظهورهم وما أَدبر منهم ، ومعنى هذا أَن الملائكة كانت تلحقهم في حال الإدبار فتضرب أَدبارهم ، فأَما في حال الإقبال فبيِّن تمكن ضرب الوجوه . وروى الحَسَن أَن رجلا قال : يا رسول الله ، رأَيت في ظهر أَبي جهل مثل الشِّراك (٢) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ذلك ضرب الملائكة) . وعبّر بجمع الملائكة وملَك الموت واحد إذ له على ذلك أَعوانٌ من الملائكة .

---

(١) قال أبو حيّان في « البحر » : « لا يضعفه إذ جاء بغير واو في كتاب الله وفي كثير من كلام العرب » .

(٢) الشِّراك : سير النَّعْل . (المعجم الوسيط) .

وقوله تعالى : ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ قيل : كانوا يقولون للكفار حينئذ هذا اللفظ فحذف (يقولون) اختصاراً ، وقيل : معناه : وحالهم أن يقال لهم هذا . والحريق : فعيل من الحرق .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة في وقت توفيتهم لهم على الصورة المذكورة ، ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً تقريعاً من الله عزَّ وجلَّ للكافرين حيِّهم وميِّتهم ، [وأنَّ] يصح أن تكون في موضع رفع على تقدير : والحكم أن ، ويصح أن تكون في موضع خفض عطفاً على (ما) في قوله سبحانه : ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ ، وقال مكّي ، والزهراوي : ويصح أن تكون في موضع نصب بإسقاط الباءِ ، وتقديره : «بأنَّ» ، فلما حذفت الباءُ حصلت في موضع نصب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غير متَّجهٍ ولا بيّن إلا أن تنصب بإضمار فعل .

وقوله تعالى : ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية . الدأْب : العادة في كلام العرب ، ومنه قول امرئ القيس :

كَدأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبابِ بِمَأْسَلِ (١)

(١) البيت من معلقة امرئ القيس ، والدأْب : العادة ، ومأسَل : موضع ماءٍ ، وأم الحُوَيْرِث وأم الرَّباب : اسما امرأتين ، والخطاب في قوله «كدأبك» لنفسه ، فهو يلومها على شغفه وهيامه بالنساء مما يسبب له العذاب والدموع ، فبعد حبّه لأم الحويرث ولأم الرباب لم يتعظ ، ولم يرعو ويرجع عن الحب ، بل دأب عليه معانياً ما فيه من لوعة وشقاء .

ويروى : كدينك ، ومنه قول خراش بن زهير العامري :

فَمَا زالَ ذاكَ الدَّأْبُ حتى تخاذَلَت هوازنُ وارْفَضَّتْ سليمٌ وعامِـــرُ

وهو مأْخوذ من : «دأَب على العمل» إذا لزمه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لصاحب الجمل الذي هشَّ إليه وأقبل نحوه وقد ذلَّ ودمعت عيناه : (إنه شكا إليَّ أَنك تجيعه وتُدئبُهُ)(١) ، فكأَن العادة دُؤُوب ما .

وقال جابر بن زيد ، وعامر الشعبي ، ومجاهد ، وعطاءٌ : المعنى : كَسُنَن آل فرعون ، ويحتمل أَن يراد : كعادة آل فرعون وغيرهم ، فتكون عادة الأُمم بجملتها لا على انفراد أُمة ، إذ آل فرعون لم يكفروا وأُهلكوا مراراً بل لكل أُمة مرة واحدة ، ويحتمل أَن يكون المراد : كعادة الله فيهم ، فأَضاف العادة إليهم إذ لهم نسْبة إليها كما يضاف المصدر إلى الفاعل وإلى المفعول . والكاف من قوله : [كَدَأْب] يجوز أَن تتعلق بقوله : [وَذُوقُوا] ، وفيه بُعْد ، والكاف على هذا في موضع نصب نعت لمصدر محذوف ، ويجوز أَن تتعلق بقوله : ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وموضعها أيضاً – على هذا – نصب كما تقدم ، ويجوز

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ، والدارمي في سننه ، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن جعفر ، قال : (أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم خلفه ، فأسرّ إلي حديثاً لا أُخبر به أحداً أبداً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبَّ ما استتر به في حاجته هدف أو حائش نخل ، فدخل يوماً حائطاً من حيطان الأنصار ، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم سراته وذفراه فسكن ، فقال : من صاحب الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار فقال : هو لي يا رسول الله ، فقال : أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّككها الله ؟ إنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه) . (المسند ١-٢٠٤)

أَن يكون معنى الكلام : الأَمر مثلُ دأْب آل فرعون ، فتكون الكاف في موضع خبر الابتداءِ . وقوله : [فَأَخَذَهُمْ] معناه : أَهلكهم وأَتى عليهم ، بقرينة قوله : [بِذُنُوبِهِم] ، ثم ابتدأَ الإِخبار بقوة الله تبارك وتعالى وشدَّة عقابه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

[ذَلِكَ] في موضع رفع على خبر الابتداءِ تقديره عند سيبويه : الأَمر ذلك . ويحتمل أَن يكون التقدير : وجب ذلك ، والباءُ باءُ السبب[1] .
وقوله : ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّراً﴾ جزم بـ [لَمْ] وجزمه بحذف النون ، والأَصل : (يكونُ) فإذا دخلت (لم) جاءَ : (لم يكن) ، ثم قالوا : (لم يك) كأَنهم قصدوا التخفيف فتوهموا دخول (لم) على (يكن) فحذفت

(١) يريد الباء في قوله تعالى ﴿بأنَّ اللهَ﴾ .

النون للجزم ، وحسُنَ ذلك فيها لمشابهتها حروف اللِّين التي تحذف للجزم ، كما قالوا : «لم أُبال» ثم قالوا : «لم أُبل» فتوهموا دخول (لم) على (أُبال) .

ومعنى هذه الآية الإخبار بأَن الله عزَّ وجلَّ إذا أَنعم على قوم نعمة فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيءَ ذلك منهم بأَن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم ، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أَو الكفر الذي يوجب عقابهم غير الله نعمته عليهم بنقمته منهم ، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فكفروا وغيّروا ما كان يجب أَن يكونوا عليه فغيَّر الله تلك النعمة بأَن نقلها إلى غيرهم من الأَنصار ، وأَحلَّ بهم عقوبته .

وقوله تعالى : [وَأَنَّ] عطف على الأُولى ، و ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي لكُلِّ وبِكُلِّ ما يقع من الناس في تغيير ما بأَنفسهم لا يخفى عليه من ذلك سرٌّ ولا جهر .

وقوله تعالى : ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية . الكاف من [كَدَأْبِ] في هذه الآية متعلقة بقوله : ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ ، وهذا التكرير هو لمعنى ليس للأَول ، إذ الأَول دأْب في أَن هلكوا لمّا كفروا ، وهذا الثاني دأْب في أَن لم يُغَيّر نعمتهم حتى غيَّروا ما بأَنفسهم ، وقد ذكرنا متعلقات الكاف في الآية الأُولى ، والإشارة بقوله : ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوم هود ، وصالح ، ونوح ، وشعيب ، وغيرهم .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ إلى ﴿يَتَّقُونَ﴾ ، المعنى المقصود تفضيل الدواب الذميمة كالخنزير والكلب العقور على الكافرين الذين حتم عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وهذا الذي يقتضيه اللفظ ، وأما الكافر الذي يؤمن فيما يستأنفه من عمره فليس بشرِّ الدواب . وقوله : ﴿ٱلَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ يحتمل أن يريد أن الموصوفين بـ ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ هم الذين لا يؤمنون المعاهدون من الكفار ، فكانوا شرّ الدواب على هذا بثلاثة أوصاف : الكفر ، والموافاة عليه ، والمعاهدة مع النقض . و [الَّذين] - على هذا - بدل البعض من الكل . ويحتمل أن يريد بقوله : ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ﴾ الذين الأُولى ، فتكون بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة ، والمعنى - على هذا - : الذين عاهدت فرقة أو طائفة منهم ، ثم ابتدأ يصف حال المعاهدين منهم بقوله : ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ ، والمعاهدة في هذه الآية: المسالمة وترك الحرب.

وأجمع المتأولون أن الآية نزلت في بني قريظة ، وهي بعْدُ تَعُم كل من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة - ومن قال : «إن المراد بـ [الدَّوَابّ﴾ الناس» فقولٌ لا يستوفي المذمة ، ولامرية في أن (الدواب) تعم الناس وسائر الحيوان ، وفي تعميم اللفظة في هذه الآية استيفاءُ المذمة ، وقوله : ﴿في كلِّ مرَّةٍ﴾ يقتضي أن الغدر قد كان وقع منهم ، وتكرر ذلك .

وحديث قريظة هو أنهم عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدُوًّا من غيرهم ، فلما اجتمعت

الأَحزاب على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة غلب على ظن بني قريظة أَن النبي صلى الله عليه وسلم مغلوب ومستأْصل ، وخدع حيَيُّ ابن أَخطب النضري كعبَ بن أَسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، فغدروا ووالوا قريشاً وأَمدوهم بالسلاح والأَدراع ، فلما انجلت تلك الحال عن النبي صلى الله عليه وسلم أَمره الله بالخروج إليهم وحربهم ، فاستنزلوا وضربت أَعناقهم بحكم سعد بن معاذ ، واستيعاب القصة في سير ابن هشام ، وإنما اقتضبت منها ما يخص تفسير الآية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

دخلت النون مع [إِمَّا] تأْكيداً ، ولتفرق بينها وبين (إِمَّا) التي هي حرف انفصال في قولك : جاءَني إما زيد وإما عمرو . و ﴿ تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ معناه : تأْسرهم وتحصلهم في ثقافك ، أَو تلقاهم بحال ضعف تقدر عليهم فيها وتغلبهم ، وهذا لازم من اللفظ لقوله : ﴿ في الْحَرْبِ ﴾ ،

وقيل : ثَقِفَ : أخذ بسرعة ، ومن ذلك قولهم : رجل ثقِفٌ لقِف[1] .
وقال بعض الناس : معناه : تُصَادِفَنَّهم ، إلى نحو هذا من الأقوال التي لا ترتبط في المعنى ، وذلك أن المُصَادَفَ قد يُغْلَب فيمكن التشريدُ به وقد لا يُغْلَب . والثِّقاف في اللغة : ما تُشَدّ به القناة ونحوها ، ومنه قول الشاعر :

إنَّ قَنَاتي لنَبْعٌ ما يُؤَيِّسُهَا ... عَضُّ الثِّقَافِ ولا دُهْنٌ ولا نارُ[2]

وقال آخر :

تَدْعو قُعَيْناً وقَدْ عَضَّ الحَدِيدُ بِهَا ... عَضَّ الثِّقَافِ على صُمِّ الأَنابيب[3]

وقوله تعالى : [فَشَرِّدْ] معناه : طَرِّدْ وخوِّفْ وأَبْعِدْهُ عن مِثْل فعلهم ، والشريد : المبْعَدُ عن وطن أو نحوه ، والمعنى : بفعل تفعله بهم من قَتْل

---

(١) عن اللسان : « اللّحياني : رجلٌ ثَقْفٌ لَقْفٌ وثَقِفٌ لقِفٌ وثَقيفٌ لَقيفٌ بين الثقافة واللقافة . ابن السّكيت : رجلٌ ثَقْفٌ لَقْفٌ إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به » ، والأصل أن يقال : ثَقْفٌ وثَقيفٌ بمعنى حاذق فَهِم ، ثم أتبعوه فقالوا : ثقْفٌ لقْفٌ .

(٢) القناة : الرُّمْح ، والنَّبْعُ : شجر ينبت في قُلَّة الجبل تُتَّخذ منه القسي والسهام ، ويقال : فلان صليب النبع ، والمراد أنها من نوع فائق الجودة والمتانة ، يُؤَيِّسُها : يُذَلّلها ويؤثّر فيها ، والثِّقافُ : أداة من حديد أو خشب تُثَقَّف بها الرماحُ لتَسْتَوِيَ وتَعْتَدل . يصف رمحه بأنه من شجر جيد أصيل لا يؤثر فيه تثقيف بالحديد ولا دهن ولا نار .

(٣) قُعَيْن على وزن زُبَيْر : بطْن من أسد وهو قُعَيْن بن الحارث بن ثعلبة بن داود ابن أسد ، سئل بعض العلماء : أي العرب أفصح ؟ فقال : نصر قُعَيْن أو قُعَيْن نصر ، وقيل : بل هما قُعَيْنان ، قُعَيْن في بني أسد ، وقُعَيْن في قيس عيلان . والقَعَن (بالتحريك) قصَر في الأنف فاحش ، وقد اشتق منه قعين هذا اسماً لهذا الحي من العرب ، والأنابيب : جمع أنبوبة ، وهي كعب القصبة والرمح . والرمح الأصم أمتن من الأجوف .

أَو نحوه يكون تخويفاً لـمَنْ خلفهم ، أَي لِمَنْ يـأْتي بعدهم بمثل ما أَتَوْا به ، وسواءٌ كان معاصراً لهم أَم لا .

وما تقدم الشيءَ فهو بين يديه ، وما تـأَخر عنه فهو خلفه ، فمعنى الآية : فإن أَسرت هؤلاءِ الناقضين في حربك لهم فافعل بهم من النقمة ما يكون تشريداً لمن يـأْتي خلفهم في مثل طريقتهم ، والضمير في [لَعَلَّهُمْ] عائد على الفرقة المُشَرَّدة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : نكل بهم مَنْ خلفهم . وقالت فرقة : «شرِّدْ بهم» معناه : سمّع بهم ، حكاه الزهراوي عن أَبي عبيدة ، والمعنى متقارب لأَن التسميع بهم في ضمن ما فسرناه أَولا ، وفي مصحف عبد الله : [فَشَرِّذْ] بالذال منقوطة ، وهي قراءَة الأَعمش ، ولم يحفظ (شرذ) في لغة العرب ، ولا وجه لها إلا أَن تكون الذال المنقوطة تُبدل من الدال كما قالوا : لحم خراديل وخراذيل[1] . وقرأَ أَبو حيوة ـ وحكاها المهدوي عن الأَعمش بخلاف عنه ـ : ﴿مِنْ خلْفِهِم﴾ بكسر الميم مِنْ قوله : [مِنْ] وخفض الفاءِ من قوله : [خَلْفِهم] . والترجي في قوله : [لَعَلَّهُمْ] بحسب البشَر ، و [يذَّكَّرُونَ] معناه : يتّعظون .

وقوله تعالى : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ الآية . قال أَكثر المؤلفين في التفسير : إن هذه الآية هي في بني قريظة ، وحكاه الطبري عن مجاهد ، والذي

---

(١) خرَاديل : جمع خرُدُولة ، وهي العضو الوافر من اللحم ، والخرْذَل : لغة في الخرْدل . (المعجم الوسيط) .

يظهر من ألفاظ القرآن أنَّ أَمْر بني قُريْظَة قد انقضى عند قوله تعالى : ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ ، ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية بأمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر(١) ، وبنو قُريْظَة لم يكونوا في حدّ من تخاف خيانته فترتب فيهم هذه الآية ، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشتهرة ، فهذه الآية هي عندي فيمن يستقبل حاله من سائر الناس غير بني قريظة ، وخوف الخيانة أَن تبدو جَنادِعُ الشر (٢) من قبل المعاهدين ، وتتَّصل عنهم أَقوالٌ ، وتُحَسُّ من تلقائهم مبادئ الغدر ، فتلك المبادئ معلومة ، والخيانة التي هي غايتهم مَخُوفة لا مُتَيَقَّنَة ، وحينئذ ينبذ إليهم على سواءٍ ، فإن التزموا السلم على ما يجب وإلا حوربوا . وبنو قُرَيْظَة نبذوا العهد مرتين(٣) ، وقال يحيى بن سلام : «تَخَاف» في هذه الآية بمعنى : تعْلم .

---

(١) تأمل أنه يتحدث عن المستقبل ولا يتفق مع هذا قوله : « إلى سالف الدهر » ، فإن معنى (سَلَفَ) هو تقدم وسبق ، والسالف : المتقدم . قال الجوهري وحكاه اللسان : « سلَف يسْلُف سَلَفاً مثال طَلَب يطْلُب طَلَباً أيْ : مضى » .

(٢) جَنادِعُ الشر : أوائله ، والجُنْدُع : جُنْدب أسود له قرنان طويلان ، وهو أضخم الجنادب ، وكل جُندب يؤكل إلا الجُندع . وجنادع الضّب : دوابّ أصغر من القردان تكون عند جُحْره ، فإذا بدت هي عُلم أن الضب خارج ، فيقال حينئذ : بدت جنادِعُه ، ويقال للشرير المُنْتظر هلاكه : « ظهرت جنادعُه والله جادِعُه » ، ويضرب مثلا للرجل الذي يأتي عنه الشر قبل أن يُرى . (عن اللسان) .

(٣) في بعض النسخ : « نبذوا العهد مبتدئين » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس كذلك . وقوله تعالى : [خِيَانَةً] يقتضي حصول عهد ، لأن من ليس بينك وبينه عهد فليست محاربته لك خيانة ، فأمر الله تبارك وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إذا أحسَّ من أهل عهد ما ذكرنا وخاف خيانتهم أن يلقي إليهم عهدهم ، وهو النَّبْذ ، ومفعول قوله [فَانْبِذْ] محذوف تقديره : فانبذ إليهم عهدهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتقتضي قوة هذا اللفظ الحضَّ على حربهم ومناجزتهم إن لم يستقيموا . وقوله : ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ قيل : معناه : حتى يكون الأمر في بيانه والعلم به على سواءٍ منك ومنهم ؛ فتكونون فيه ــ أي في استشعار الحرب ــ سواءً ، وقيل : معنى قوله : ﴿على سَوَاءٍ﴾ على معدلة ، أي : فذلك هو العَدْلُ والاستواءُ في الحق ، وقال المهدوي : معناه : جهراً لا ســـرًّا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا نحو الأول . وقال الوليد بن مسلم : ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ معناه : على مَهَل ، كما قال تعالى : ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَىٰ ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ (١) .

(١) الآية (١) ، وجزء من الآية (٢) من سورة (التوبة) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واللغة تأبى هذا القول . وذكر الفراءُ أن المعنى : انبذ إليهم على اعتدالٍ وسواءٍ من الأمر ، أيْ : بيّن لهم على قدر ما ظهر منهم ، لا تفرط ولا تفجأْ بحرب ، بل افعل بهم مثلما فعلوا بك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يعني موازنة ومقايسة . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون طعناً على الخائنين من الذين عاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يريد : فانبذ إليهم على سواءٍ حتى تبعد عن الخيانة فإن الله لا يحب الخائنين ، فيكون النبذ ـ على هذا التأْويل ـ لأجل أن الله لا يحب الخائنين .

والسَّواءُ في كلام العرب قد يكون بمعنى العدل والمَعْدلة ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِلَى كلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْننَا وبَيْنَكُمْ﴾[1] ، ومنه قول الراجز :

فَاضْرِبْ وُجُوهَ الْغُدَّر الأَعْـداءِ حَتَّى يُجيبُوكَ إِلَى السَّـواءِ[2]

---

(١) من الآية (٦٤) من سورة (آل عمران) .

(٢) الغَدْرُ : نَقْضُ العَهْد ، وصَفَهم بأنهم أعداءٌ لا يوفون بعهودهم ، وقد رُوي : «واضرب» ، والسواءُ والسَّويَّةُ : العَدْلُ والنَّصَفَة ، قال زهير :

أَرُوني خُطَّةً لا عَيْبَ فيهـا يُسَوِّي بَيْنَنَـا فيهـا السَّـوَاءُ

أي : يُسَوِّي فيها العدلُ بيننا ، وقال البراءُ بن عازب الضَّبّي :

أَتَسْأَلُني السَّوِيَّةَ وَسْطَ زَيْـدٍ؟ ألا إنَّ السَّـوِيَّةَ أن تُضَـاموا

أي : أتسألني العدلَ والإنصاف ؟

وقد يكون بمعنى الوسط ، ومنه قوله تعالى : ﴿في سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[1] ، ومنه قول حسّان بن ثابت :

يا وَيْحَ أنصـــارِ النَّبيِّ ورَهْطِهِ بَعْدَ الْمُغَيَّبِ في سواءِ المُلحَدِ[2]

وقوله تعالى : ﴿ولَا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا سبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ ، قرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، والكسائي : ﴿وَلَا تَحْسِبنَّ﴾ بالتاءِ مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وبكسر السِّين – غير عاصم فإنها فتحها – و ﴿الَّذينَ كَفَرُوا﴾ مفعول أول ، و [سَبَقوا] مفعول ثان ، والمعنى : فاتُوا بأَنفسهم وأنجوها ، ﴿إِنَّهُم لا يُعْجِزُونَ﴾ بكسر ألف [إِنَّ] على القطع والابتداءِ ، و [يُعْجِزونَ] معناه : يُفْلِتُونَ ويُعجزون طالبهم ، فهو مُعَدّى (عجز) بالهمزة ، تقول : عجز زيد وأعجزه غيره وعجَّزَه أيضاً قال سويد :

وأَعْجزنا أَبو لَيْلى طُفَيْـــل صحيح الجِلْدِ مِنْ أَثَر السِّلاح

وروي أن الآية نزلت فيمن أفلت من الكفار في حرب النبي صلى الله عليه وسلم ، كقريش في بدر وغيرهم ، فالمعنى : لا تظنهم ناجين بل هم مدركون ، وقيل : معناه : لا يُعجزون في الدنيا ، وقيل : المرادُ : في الآخرة .

---

(١) من الآية (٥٥) من سورة (الصافات) .

(٢) رواه في اللسان ، وفي القرطبي : « أصحابِ النبي » ، ومثل الآية الكريمة وبيت حسّان هذا في أن (سواء) تكون بمعنى (وسط) حديث ابن مسعود : (يُوضع الصِّراط على سواء جهنـــم) .

قال أَبو حاتم : وقرأَ مجاهد ، وابن كثير ، وشبل : [وَلَا تِحْسِبنَّ] بكسر التاءِ . وقرأَ الأَعرج ، وعاصم ، وخالد بن إلياس : [تَحْسَبَنَّ] بفتح التاءِ من فوق وبفتح السين . وقرأَ الأَعمش : [وَلَا يحْسَبُ] بفتح السين والياءِ من تحت وحذف النون . وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع ، وأَبو عبد الرحمن ، وابن محيصن ، وعيسى : [وَلا يَحْسِبَنَّ] بياءٍ من تحت وسين مكسورة ونون مشددة . وقرأَ حفص عن عاصم ، وابن عامر ، وحمزة : [وَلَا يَحْسَبن] بالياءِ على الكناية عن الغائب وبفتح السين ، فإِمَّا أَن يكون في الفعل ضمير النبي صلى الله عليه وسلم ، أَو يكون التقدير : ولا يَحْسَبَن أَحد ، ويكون قوله : ﴿الَّذينَ كَفَرُوا﴾ مفعولا أَولا ، و [سَبقُوا] مفعولا ثانياً ، وإِما أَن يكون ﴿الَّذينَ كَفَرُوا﴾ هم الفاعلون ، ويكون المفعول الأَول مضمراً ، و [سَبَقُوا] مفعولا ثانياً ، وتقدير هذا الوجه : ولا يحسبن الذين كفروا أَنفسهم سبقوا ، وإما أَن يكون ﴿الَّذين كَفَرُوا﴾ هو الفاعل وتُضْمر (أَنْ) فيكون التقدير : ولا يحسبن الذين كفروا أَن سبقوا ، وتَسُدّ «أَنْ سبقوا» مسدَّ المفعولين . قال الفارسي : ويكون هذا كما تأَوله سيبويه في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿قُلْ أَفَغَيْر اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُد﴾[1] ، فالتقدير : «أَنْ أَعْبُد» .

---

(١) من الآية (٦٤) من سورة (الزُّمَر) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ونحوه قول الشاعر :

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجري أَحْضُرُ الْوَغَى .... (١)

قال أَبو علي : وقد حذفت (أَنْ) وهي مع صلتها في موضع الفاعل ، وأَنشد أَحمد بن يحيى في ذلك :

وَمَا راعَنَــا إِلَّا يَسيرُ بِشُرْطة وعهْدِي به قَينا يَسيرُ بِكِيرِ (٢)

وقرأَ ابن عامر وحده من السبعة : ﴿أَنَّهم لا يُعْجِزُون﴾ بفتح الأَلف من [أَنَّهُم] ، ووجهه أَن يقدر بمعنى : لأَنهم لا يعجزون ، أَي : لا تحسبن عليهم النجاة لأَنهم لا ينجون ، وقرأَ الجمهور : [يُعْجزون] بسكون العيْن ، وقرأَ بعض الناس فيما ذكر أَبو حاتم : [يُعَجِّزون] بفتح العين وشدّ الجيم ، وقرأَ ابن محيصن : [يُعجزونِ] بكسر النون ، ومنحاها

(١) الشاعر هو طرفة بن العبد ، والبيت من معلقته ، والرواية : «ألا أيهذا اللائمي ...»، ورواية «الزّاجري» هي التي رواها الشّنتمري ، والوغى : الحرب ، والمعنى : يأيها الذي تزجرني أو تلومني على الاشتراك في الحروب وشهود اللذات ، هل تضمن لي الخلود إن كففت عنها ؟ يريد أن أحداً لا يضمن له الخلود في الدنيا ولهذا فإن من حقه أن يتمتع بما يريد قبل الرحيل . و (أحْضُرَ) هنا يجوز فيها الرفع والنصب .

(٢) يروى : «وما راعني» ، والشُّرْطة هو الشُّرْطي ، والجمع : شُرَط ، وقد نَقَل في الصحاح عن الأصمعي أنهم سُمُّوا شُرَطاً لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها ، وقال أبو عبيدة : لأنهم أُعِدّوا . والقَيْن : الحدّادُ ، وجمعه قُيُون ، والكيرُ : كير الحداد وهو زقٌّ أو جِلْدٌ غليظ ذو حافات ، وأما المبني من الطين فهو الكُور . وهذا البيت يذكره النحويون غير منسوب في موضوع خلافهم في الفاعل ونائبه ـ: هل يكونان جملة أم لا ؟ فالمشهور المنع ، وأجاز ذلك هشام وثعلب مطلقاً ، وفصل الفراءُ وجماعة بين الفعل القلبي والمعلّق عن العمل وغيره ، ودليل هشام وثعلب على الجواز هذا البيت . راجع «مغني اللبيب» لابن هشام .

[يُعْجزونَني] بإلحاق الضمير ، قال الزجاج : الاختيار فتح النون ، ويجوز كسرها على أن المعنى : «إنهم لا يُعْجزونني» ، وتحذف النون الأُولى لاجتماع النونين ، كما قال الشاعر :

تراهُ كالثَّغـام يُعَلُّ مِسْـكاً يسُوءُ الْفَالِياتِ إذَا فَلَيْنِي (١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

البيت لعمرو بن معديكرب . وقال أبو الحسن الأَخفش في قول مُتَمّم بن نُوَيْرَة :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ ولا محـالة أَنَّني لِلحادِثاتِ ، فَهَلْ تَرَيْني أَجْزَعُ؟(٢)

هذا يجوز على الاضطرار ، فقال قوم : حذَف النونَ الأُولى وحذْفُها لا يجوز لأَنها موضع الإعراب ، وقال أبو العباس المُبَرِّد : أَرى فيما كان مثل هذا حذْفَ الثانية ، وهكذا كان يقول في بيت عمرو بن معد يكرب.

(١) البيت كما قال لعمرو بن معد يكرب ، هكذا في سيبويه (٢-١٥٤) ، والخزانة ٢-٤٤٥ ، والضمير في (تراه) للشَّيب في الرأس ، والثَّغام بفتح الثاء المشددة : نباتٌ إذا يبس صار أبيض كالثلج ، وبه يشبه الشيب ، والعَلُّ والعَلَلُ هو الشرب ثانية ، أو الشرب تباعاً ، والمعنى هنا : يُسْقَى المسكَ مرّةً بعد مرّة ، والفاليات : مخرجات القمل من الرأس ، وهو مفعول به للفعل (يسوءُ) . قال الأخفش في هذا البيت : «حذَفَ النون الأخيرة لأن هذه النون وقاية للفعل وليست باسم ، فأما النون الأولى فلا يجوز طرحها لأنها الاسم المضمر» هكذا في «الصحاح» عنه ، وفي «الصحاح» أيضاً : «وعلى هذا قرأ بعض القراء : ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونِ﴾ فأذهب إحدى النونين استثقالا ، وقال أبو حيّة النمري :

أَبِالْمَوْتِ الذي لابُدَّ أَنّي مُلاقٍ لا أَباكِ تُخَوِّفيني ؟

أراد : (تخوفينني) فحذف .

(٢) يريد : تَرَيْنَني . والمعنى أنه لا يجزع أو يخاف من مصائب الأيام مع علمه بأنه معرض لها .

وفي مصحف عبد الله : «وَلَا يَحْسب الَّذينَ كفَرُوا أَنَّهُمْ سبَقُوا إنَّهُم لا يُعْجِزون» ، قال أَبو عمرو الداني : بالياءِ من تحت وبغير نون في (يحسب) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :
وذكرها الطبريّ بنُون .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ * وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين ، والضمير في قوله تعالى : [لَهُمْ] عائد على الذين ينبذ إِليهم العهد ، أَو على الذين لا يعجزون على تـأْويل من تـأَول ذلك في الدنيا ، ويحتمل أَن يعود على جميع الكفار المأْمور بِحرْبهم في ذلك الوقت ثم استمرت الآية في الأُمة عامة ، إِذ الأَمر قد توجَّه بحرب جميع الكفار .

وقال عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما : القوة : ذُكُور الخيل ، والرِّباط : الإِناث . وهذا قول ضعيف ، وقالت فرقة :

القُوَّة : الرَّمْيُ ، واحتجت بحديث عقبة بن عامر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ ، ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ ، ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ)(١) ، وقال السدي : القوة : السلاح ، وذهب الطبري إلى عموم اللفظة ، وذكر عن مجاهد أنه رؤي يتجهز وعنده جُوَالق(٢) فقال : هذا من القوة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الصواب ، والخيلُ والمركوبُ في الجملة والمحمولُ عليه من الحيوان والسلاحُ كله والملابسُ الباهية والآلات والنفقاتُ كلُّها داخلة في القوة ، وأُمر المسلمون بإعداد ما استطاعوا من ذلك ، ولما كانت الخيل هي أصل الحروب وأوزارها والتي عُقد الخير في نواصيها ، وهي أقوى القوى وحصون الفرسان خصَّها الله بالذكر تشريفاً ، على نحو قوله : ﴿منْ كَانَ عدُوًّا لِلهِ ومَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾(٣) ، وعلى نحو قوله : ﴿فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾(٤) ، وهذا كثير ، ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (جُعلت لي الأرض

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وأبو يعقوب إسحق بن إبراهيم القراب في كتاب فضل الرمي ، والبيهقي في شعب الإيمان . (الدر المنثور) .

(٢) الجُوالِق بضم الجيم وبكسرها : الغرارة . (المعجم الوسيط) .

(٣) من الآية (٩٨) من سورة (البقرة) .

(٤) من الآية (٦٨) من سورة (الرحمن) .

مسجداً وطهوراً)[١] ، هذا في البخاري وغيره ، وقال في صحيح مسلم : (جعلت لي الأَرض مسجداً وترابها طهوراً) فذكر التراب على جهة التحفي به ، إذ هو أَعظم أَجزاءِ الأَرض مع دخوله في عموم الحديث الآخر ، ولما كانت السهام من أَنجع ما يُتعاطى في الحرب وأَنكاه في العدو وأَقربه تناولا للأَرواح خصها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر والتنبيه عليها ، وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله تعالى يُدخل بالسهم الواحد الثلاثة من المسلمين الجنة ، صانعه ، والذي يحتسب في صنعته ، والذي يرمي به)[٢] ، وقال عمرو بن عنبة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من رمى بسهم في سبيل الله أَصاب العدو أَو أَخطأَ فهو كعتق رقبة)[٣] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ارموا واركبوا ، وأَنْ ترموا أَحب إلي من أَن تركبوا)[٤].

---

(١) رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وأبو داود عن أبي ذر ، هكذا قال السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بالضعف.

(٢) لفظه كما أثبته في «الجامع الصغير» هو : (إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنّة ، صانعه يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ، ومنبله). وقال إن الإمام أحمد رواه في مسنده ، وكذلك رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي . ثم رمز له السيوطي بالضعف.

(٣) رواه في «الجامع الصغير» بلفظ : (مَنْ رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر) ثم رمز إلى أن رواته هم الترمذي ، والنسائي ، والحاكم في مستدركه — عن أبي نجيح . ورمز له بعد ذلك بأنه صحيح .

(٤) هذا جزء من حديث رمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه حديث حسن ، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده ، والترمذي ، والبيهقي في شعب الإيمان — عن عقبة بن عامر — والحديث بتمامه هو : (ارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا ، كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رمي الرجل بقوسه ، أو تأديبه فرسه ، أو ملاعبته امرأته ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمْي بعد ما علمه فقد كفر الذي علمه).

ورباطُ الخيل جمع ربْطٍ ككَلْبٍ وكلاب ، ولا يكثر ربطها إلا وهي كثيرة ، ويجوز أن يكون الرِّباطُ مصدراً من رَبَط ، كصاح صياحاً ونحوه ، لأن مصادر الثلاثي غير المزيد لا تنقاس[١] ، وإن جعلناه مصدراً من رابط فكأن ارتباط الخيل واتخاذها يفعله كل واحد لفعل آخر له فيُرابط المؤمنون بعضهم بعضاً ، فإذا ربط كل واحد منهم فرساً لأجل صاحبه فقد حصل بينهم رباط ، وذلك الذي حضَّ في الآية عليه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (من ارتبط فرساً في سبيل الله فهو كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها)[٢] ، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وقرأ الحسن ، وعمرو بن دينار ، وأبو حيوة : ﴿وَمِنْ رُبُطِ﴾ بضم الراءِ والباءِ ، وهو جمع رباطٍ ككتابٍ وكُتُب ، كذا نصَّه المفسرون ، وفي جمعه وهو مصدر غير مختلف نظر .[٣]

---

(١) قال أبو حيان في « البحر المحيط » تعليقاً على ذلك : « ليس بصحيح ، بل لها مصادر مُنْقاسَةٌ ذكرها النحويون » .

(٢) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه الدارمي في (اللّباس) ، ورواه الإمام أحمد في مسنده عن سهل بن الحنظلية ، قال الراوي عن سهل وكان جليساً لأبي الدرداء : كان بدمشق رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له : ابن الحنظلية ... إلى أن قال : ثم مرَّ بنا يوماً آخر فقال له أبو الدرداء : كلمة تنفعنا ولا تضرك : قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن المنفق على الخيل في سبيل الله كباسط يديه بالصدقة لا يقبضها) .

(٣) عقب أبو حيان في « البحر » على ذلك بقوله : « ولا يتعين كونه مصدراً ، ألا ترى إلى قول أبي زيد : إنه من الخيل الخَمْسُ فما فوقها » .

و [تُرْهِبُونَ] معناه : تُفْزعون وتُخَوّفون ، والرهبة : الخوف ، قال طفيل الغنوي :

وَيْلُ امِّ حيٍّ دفَعتُمْ في نُحورِهِمُ بَني كلابٍ غداةَ الرُّعْبِ والرَّهَبِ[1]

ومنه راهِب النصارى ، يقال : رَهِبَ إذا خاف ، فـ[تُرْهِبونَ] معدى بالهمزة.

وقرأ الحسن ، ويعقوب : [تُرَهّبون] بفتح الراءِ وشدّ الهاءِ معدى بالتضعيف ، ورويت عن أَبي عمرو بن العلاءِ ، قال أَبو حاتم : وزعم عمرو أَن الحسن قرأَ : [يُرهِبو ن] بالياءِ من تحت وخففها ، فهو على هذا تعدى بالتضعيف ، وقرأَ ابن عباس ، وعكرمة: « تُخْزونَ بِهِ عدوَّ اللهِ » .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ذكرها الطبري تفسيراً لا قراءَة ، وأَثبتها أَبو عمرو الداني قراءَة .

وقوله تعالى: ﴿عدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُم﴾ ذكر الصفتين وإن كانت[2] متقاربة إذ هي متغايرة المعنى ، وبذكرهما يتقوّى الذم وتتضح وجوه بُغضنا لهم . وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي : [عَدُوًّا للهِ] بتنوين [عَدُوّ]

(١) هذا البيت واحد من ثلاثة أبيات قالها طُفَيل الغنوي يمدح بها بني جعفر بن كلاب ، وهو يصفهم بالشجاعة وبأن مَنْ عاداهم فلأمه الويل والثكل . ويُرْوَى: « لله قَوْمٌ دفعْتُم في جنوبهم » ، وأشار محقق الديوان إلى أن هذه الرواية الثانية في النقائض ، وقال محقق تفسير الطبري : « ورأيناها ثمّة » — والويل هو الهلاك والعذاب .

(٢) يُريد : وإن كانت الصفات متقاربة فإنها متغايرة في المعنى ، وظاهر اللفظ يقتضي التثنية ولكنا وجدنا النص هكذا في الأصول .

وبلام في المكتوبة[١] ، والمراد بهاتين الصفتين منْ قَرُب وصاقَبَ[٢] من الكفار وكانت عداوته متحركة بَعْدُ ، ويجوز أن يراد بهما جميع الكفار ، ويبين هذا من اختلافهم في قوله : ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ الآية ، قال مجاهد : الإشارة بقوله : [وَآخَرِين] إلى قريظة ، وقال السُّدي : إلى أهل فارس ، وقال ابن زيد : الإشارة إلى المنافقين ، وقالت فرقة : الإشارة إلى الجن ، وقالت فرقة : هم كل عدوّ للمسلمين غير الفرقة التي أُمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يُشَرّد بهم من خلفهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الخلاف إنما ينبغي أن يترتب على ما يتوجه من المعنى في قوله تعالى : ﴿لَا تَعْلَمُونَهُم﴾ ، فإذا حملنا قوله : ﴿لَا تَعْلَمُونَهُم﴾ على عمومه ، ونفينا علم المؤمنين بهذه الفرقة المشار إليها جملة واحدة ، وكان العلم بمعنى المعرفة لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد لم يثبت من الخلاف في قوله : [وآخَرِينَ] إلا قول من قال : «الإشارة إلى المنافقين» ، وقول من قال : «الإشارة إلى الجن» ، وإذا جعلنا قوله : ﴿لَا تَعْلَمُونَهُم﴾ مجازاً بيِّناً أو نحو هذا مما نفيد به نفي العلم عنهم حَسُنت الأَقوال ، وكان العلم متعدّياً إلى مفعوليْن .

---

(١) المكتوبة هي لفظ الجلالة .

(٢) صاقبَه صِقَاباً ومصاقبَةً : قاربَهُ وواجَهَهُ ، يقال : جارٌ مصاقب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الوجه أشبه عندي ، ورجح الطبري أن الإشارة إلى الجن ، وأسند في ذلك ما رُوي من أن صهيل الخيل ينفر الجن ، وأن الشيطان لا يدخل داراً فيها فرس للجهاد ، ونحو هذا ، وفيه - على احتماله - نظر ، وكان الأهم في هذه الآيات أن يبرز معناها في كل ما يقوّي المسلمين على عدوهم من الإنس وهم المحاربون والذين يدافعون على الكفر ، ورهبتُهم من المسلمين هي النافعةُ للإسلام وأهله ، ورهبةُ الجن وفزعُهم لا غناءَ له في ظهور الإسلام ، وهو أجنبي جداً ، والأَولى أن يُتأَول أن المسلمين إذا ظهروا وعزوا هابهم من جاورهم من العدوّ المحارب لهم ، فإذا اتصلت حالهم تلك بمن بعُد من الكفار داخلته الهيبة وإن لم يقصد المسلمون إرهابهم ، فأُولئك هم الآخرونَ [1] .

ويحسُن أن يقدر قوله : ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ بمعنى : «لا تعلمونهم فازعين راهبين ولا تظنون ذلك بهم ، والله تعالى يعلمهم بتلك الحالة » ، ويحسُن أيضاً أن تكون الإشارة إلى المنافقين على جهة الطعن عليهم ، والتنبيه على سوءِ حالهم ، وليستريب بنفسه كل من يعلم منها نفاقاً إذا سمع الآية ، ولِفَزَعهم ورَهْبتهِم غناءٌ كثير في ظهور الإسلام وعُلُوّه .

(١) قال القرطبي بعد نقل هذه الآراء : «ولا ينبغي أن يُقال فيهم شيءٌ ، لأن الله سبحانه قال : ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فكيف يدعي أحد علماً بهم ، إلا أن يصح حديث جاءَ في ذلك .»

وقوله تعالى : ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ بمنزلة قولك : دون أن يكون هؤلاء ، فـ «دون» في كلام العرب و «من دون» يقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة التي فيها القول ، ومنه المثل : «وأُمِرٌّ دونَ عُبيْدَةَ الوذَمُ» (١) .

ثم تفضَّل تبارك وتعالى بِعِدَةِ المؤمنين على إنفاقهم في سبيل الله بأن النفقة لابُدّ أن تُوفّى ، أي أن تجازى ويُثاب عليها . ولزوم هذا هو في الآخرة ، وقد يمكن أن يُجازي الله تعالى بعض المؤمنين في الدنيا مجازاة مضاعفة إلى مجازاة الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ الآية . الضمير في [جَنَحُوا] هو للذين نبذ إليهم على سواءٍ ، وجَنَح الرجل إلى الأمر إذا مالَ إليه وأعطى يده فيه ، ومنه قيل للأضلاع : جوانح لأنها مالت على الحُشوة (٢) ، وللخِباءِ : جناح ، وجنحت الإبل إذا مالت أعناقها في السَّيْر ، وقال ذو الرُّمّة :

إذا مات فوْقَ الرَّحْلِ أَحْيَيْتُ رُوحَه ... بِذِكْرَاكِ والعِيسُ المراسِيلُ جُنَّحُ (٣)

---

(١) تقدمت الإشارة إلى هذا المثل عند تفسير قوله تعالى : ﴿لا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ﴾ الآية (٢٨) من سورة (آل عمران) . وأُمِرَّ : أُحكِم ، والوَذَمُ : سَيْرٌ تُشَدُّ به أُذُن الدلْو ، وجمعه أَوْذُم وأَوْذامٌ . ويضرب هذا المثل لمن يحكم الأمر دونه . (مجمع الأمثال للميداني ٢–٢٨٥) .

(٢) الحُشوة بضم الحاء وبكسرها : الأمعاءُ .

(٣) الرَّحْل : ما يوضع فوق ظهر البعير للركوب عليه . والعِيس : الإبل البيض ، والمراسيل : سهْلة السير التي تعطيك ما عندها عفواً دون إجهاد لها أو لك ، وجُنَّح : مائلة صدورها إلى الأرض، وقيل : مائلة في سيرها من النشاط ، يريد أنَّه يغني بأشعاره فيحيى روحه .

وجَنَح الليلُ إذا أقبل وأمال أطنابه (١) على الأرض ، ومنه قول النابغة :

جــوانِحُ قدْ أَيْقَــنَّ أَنَّ قَبيلَــهُ إذا ما الْتقَى الْجمْعانِ أَوَّلُ غَالِبِ (٢)

أي موائل ، وقال لبيد :

جُنُوحَ الْهالِكيِّ علَى يديْــهِ مُكِبًّا يجْتَلِي نُقَبَ النِّصَــالِ (٣)

وقرأ جمهور الناس : [لِلسَّلْم] بفتح السين وشدّها ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر : [للسِّلْم] بكسرها وشدها ، وهما لغتان في المسالمة . ويقال أيضاً : (السَّلَم) بفتح السين واللام ، ولا أحفظها قراءة . وقرأ جمهور الناس : [فاجْنَح] بفتح النون ، وهي لغة تميم ، وقرأ الأشهب العقيلي : [فاجْنُح] بضم النون وهي لغة قيس ، قال أبو الفتح :

---

(١) الأطْناب : جمع طُنُب بضمتين ، والطُّنُب : حبل الخباء ، يقال : خباءٌ مُطَنَّب ورواقٌ مُطَنَّب ، أي مشدودٌ بالأطْناب .

(٢) البيت في وصف الطيور التي تتبع الجيش ، ويوضح هذا البيتُ الذي قَبْلَه ، وفيه يقـــول :

إذا ما غزَا بالجَيْش أبْصَرْتَ فوقَهُ عَصَــائِبَ طيْر تَهْتدي بعَصَــائبِ

والقبيل : الجماعة من قوم شتّى تكون من الثلاثة فصاعدا ، وقد فسّر ابن عطية رحمه الله كلمة « جوانح » .

(٣) البيت مع الأبيات السابقة عليه في وصف ثور وحشي ناشط كثير الحركة ضلّ عن القطيع الذي كان يرعى معه ، وبات في حِمَى بعض الأشجار يحرك قرنه كلما تحركت أغصان الشجر أو قطرت على ظهره ، وقد أكَبَّ كما يكبُّ الصَّيْقل الذي يشحذ السيوف ، ومعنى جُنُوح : إكْباب ، أي أكبَّ مثْل إكباب ، والهالكيّ : الصيقلي الذي يشحذ السيوف على يديه أو يصنعها ، ويجتلي : يجْلُو ، والنُّقَب : الصدأ الذي ظهر في النصال . والصورة التي عرضها لبيد في هذه الأبيات وما تبعها من معركة بين الثور والكلاب من روائع الصور في الشعر العــــربي .

وهذه القراءة هي القياس ، لأن فَعَلَ إذا كان غير متعد فمستقبله[(١)] يفعُل بضم العين أقيس ، قعَد يقعُد أقيس من جلَس يجْلِس . وعاد الضمير في [لَهَا] مؤنثاً إذ السّلم بمعنى المسالمة والهدنة ، وقيل : السّلم مؤنثة كالحرب، ذكره النحاس . وقال أبو حاتم : يذَكَّر السّلم .

وقال قتادة ، والحسن بن أبي الحسن ، وعكرمة ، وابن زيد : هذه الآية منسوخة بآيات القتال في (براءة)[(٢)] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد يحتمل أَلَّا يترتب نسخها بها بأَن يُعنى بهذه من تجوز مصالحته ، وتبقى تلك التي في (براءة) في عَبَدَة الأَوثان ، وإلى هذا ذهب الطبري ، وقول الجماعة صحيح أيضاً إذْ كان الجنوح إلى سلْم العرب مستقراً في صدر الإسلام فنَسَخَت ذلك آية (براءة) ونبذت إليهم عهودهم ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَىٰ ٱلسَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾[(٣)] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول بعيد من أَن يقوله ابن عباس رضي الله عنهما ، لأَن الآيتين مدنيَّتان . وقوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ﴾ أَمرٌ في ضمنه وعيد .

---

(١) أي : مُضَارعُه .

(٢) كقوله تعالى في الآية (٥) : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وقوله في الآية (٣٦) : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ .

(٣) من الآية (٣٥) من سورة (محمد) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : ﴿وإنْ يُريدُوا﴾ عائد على الكفار الذين قيل فيهم : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ . وقوله : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ يريد : بأَن يظهروا له السّلم ويبطنوا الغدر والخيانة ، أي فاجنح وما عايك من نياتهم الفاسدة . ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾ أي كافيك ومعطيك نُصرةً وإظهاراً ، وهذا وعدٌ محضٌ . و [أَيَّدكَ] معناه : قوّاكَ ، [وبِالْمُؤْمِنِينَ] يريد : بالأَنصار بقرينة قوله : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية ، وهذه إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأَوس والخَزْرج في حروب بعاث ، فألَّف الله تعالى قلوبهم على الإسلام ، وردّهم متحابّين في الله ، وعددت هذه النعمة تأْنيساً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أَي : كما لطف بك ربُّك أَولاً فكذلك يفعل آخراً .

وقال ابن مسعود : نزلت هذه الآية في المتحابِّين في الله ، وقال مجاهد : إذا تراءى المتحابان فتصافحا وتضاحكا تحاتَّت خطاياهم ، فقال له

عَبْدَة بن أبي لبابة : إن هذا ليسير ، فقال له : لا تقل ذلك ، فإن الله يقول : ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جمِيعاً مَا أَلَّفْت بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ ، قال عَبْدة : فعرفتُ أنه أفقه مني .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله تَمَثُّل حسَنٌ بالآية ، لا أن الآية نزلت في ذلك ، بل تظاهرت أقوال المفسرين أنها في الأوس والخزرج كما ذكرنا ، ولو ذهبَ ذاهبٌ إلى عموم المؤمنين في المهاجرين والأنصار وجعل التأليف ما كان بين جميعهم من التحابّ حتى تكون أُلْفة الأوس والخزرج جزءًا من ذلك لَساغَ ذلك . وكل تآلف في الله فتابع لذلك التآلف الكائن في صدر الإسلام ، وقد روى سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (المؤمن مألفة ، لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)(١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتشابُه هو سبب الأُلفة ، فمن كان من أهل الخير أَلِف أشباهه وأَلِفوه .

وقوله تعالى : ﴿يـأَيُّها النَّبيُّ حسْبُكَ اللهُ وَمنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . قال النقاش : نزلت هذه الآية بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال ،

---

(١) لفظه في « الجامع الصغير » للإمام السيوطي : (المؤمن يألف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) ، ثم قال : رواه الإمام أحمد في مسنده عن سهل بن سعد، وذكر السيوطي أنه حديث صحيح . ولكن الرواية في مسند الإمام أحمد : (المؤمن مألف ...) كما ذكر ابن عطية . (راجع المسند ٥ــ٣٣٥) . وبلفظ (مألف) ذكره في « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي » .

وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في الأوس والخزرج خاصة ، قال : ويقال : إنها نزلت حين أسلم عمر رضي الله عنه وكمل المسلمون أربعين ، قاله ابن عمر ، وأنس ، فهي – على هذا – مكيّة .

و [حَسْبُكَ] في كلام العرب و (شرْعُكَ][1] بمعنى : كافيك ويكفيك ، والمحسب : الكافي . وقالت فرقة : معنى هذه الآية : يكفيك الله ويكفيك من اتّبعك من المؤمنين ، فـ [مَنْ] – في هذا التأويل – رفع عطفاً على اسم الله عزَّ وجلَّ ، وقال عامر الشعبي ، وابن زيد : معنى الآية : حسبك الله وحسب من اتّبعك من المؤمنين ، فـ [مَنْ] – في هذا التأويل – في موضع نصب عطفاً على موضع الكاف ، لأَن موضعها نصب على المعنى لِـ (يَكْفيك) التي سدّت [حَسْبُك] مسدَّها ، ويصح أَن تكون [مَنْ] في موضع خفضٍ بتقدير محذوف كأَنه قال : وحسب ، وهذا كقول الشاعر :

أَكُلَّ امْرِئٍ تحْسَبينَ امْـــرءًا ونارٍ تَوَقَّدُ باللَّيْلِ نارا ؟ [2]

التقدير : «وكلّ نارٍ» ، وهذا الوجه من حذف المضاف مكروه ، بابُه

---

(١) يقال في المثَل : «شَرْعُكَ ما بلّغكَ المحَلَّ» ، أي : يكفيك من الزاد ما بلّغك مقصدك . (مجمع الأمثال للميداني) .

(٢) نُسب هذا البيت لجارية بن الحجاج ، وحارثة بن حمران ، وعدي بن زيد العبادي ، وأبي دؤاد – وهو في كتاب سيبويه ١–٣٣ ، وابن عقيل ٢–٢٠ ، والكامل ٢٤٧ ، ٨٢٥ ، والسيوطي ٢٣٩ .

ضرورة الشعر [١] ، ويروى البيت «ونارًا» ، ومن نحو هذا قول الشاعر :

إذا كانَتِ الْهَيْجاءُ وانْشَقَّتِ الْعَصَا فحَسْبُكَ والضَّحّاكُ سيْفٌ مُهَنَّدُ [٢]

يروى «الضحاكُ» مرفوعـاً ، «والضحاكَ» منصـوباً ، و «الضحاكِ» مخفوضاً ، فالرفع عطف على قوله : «سيْفٌ» بِنِيَّةِ التـأْخير ، كما قال الشاعر :

.... علَيْك ورَحْمَةُ اللهِ السَّـــلامُ [٣]

ويكون «الضحاك» – على هذا – محسباً للمخاطب [٤] . والنصب عطفٌ على موضع الكاف من قوله : «حَسْبُكَ» ، والمُهنَّد – على هذا – محسب للمخاطَب ، «والضحاكِ» على تقدير محذوف ، كأنه قال : «فحسبك وحسب الضحاك» .

---

(١) قال أبو حيان في «البحر المحيط» تعقيباً على ذلك : «وليس بمكروه ولا ضرورة ، وقد أجازه سيبويه في الكلام وخرّج عليه البيت وغيره من الكلام الفصيح» . (البحر المحيط ٤–٥١٦) .

(٢) لم نقف على قائل البيت ، و «كان» هنا تامة ، والهيجاء : الحرب ، وانشقت العصا : تفرقت الجماعة ، وقد ذكر ابن عطية بالتفصيل الأوجه الثلاثة في إعراب كلمة «الضحاك» ، وقد روي بها البيت . وذكر صاحب اللسان البيت دليلا على أن الكاف في (حَسْبُكَ) في موضع نصب كما هي في الآية الكريمة ، وذكر أن (مَنْ) في موضع نصب أيضاً .

(٣) هذا عجز بيت للأحوص ، والبيت بتمامه :

ألا يا نخلةً مِنْ ذاتِ عِرْقٍ علَيْكِ ورحمةُ اللهِ السلامُ

هكذا ذكره في الخزانة ١–١٩٢ ، ٣١٢ – وفي مجالس ثعلب ١–١٩٨ رُوي الشطر الثاني : «بَرُودِ الظِّلِّ شاعَكمُ السَّلامُ» . وعلى هذا فلا شاهد فيه على العطف ، وتقدير العطف بنيّةِ التأخير كما في رواية الخزانة وابن عطية : «عليكِ السلامُ ورحمةُ الله» ، فـ (رحمة) معطوفة على (السلام) على نيّة التأخير . والنخلة كناية عن امرأة . ومعنى «شَاعَكُم» : عَمَّكُم وصَحِبَكُم .

(٤) أي : هو الكافي للمخاطب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قوله تعالى : [حَرِّض] معناه : حُثَّهم وحُضَّهم . قال النقاش : وقرئت [حَرِّص] بالصاد غير منقوطة ، والمعنى متقارب ، والحارض ـ الذي هو القريب من الهلاك ـ لفظة مباينة لهذه ليست منها في شيء[1] . وقالت فرقة من المفسرين : المعنى : حرِّضْ على القتال حتى يبين لك فيمن تركه أنه حُرّض .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول غير ملتئم ولا لازم من اللفظ ، ونحا إليه الزجاج . والقتالُ مفترض على المؤمنين بغير هذه الآية ، وإنما تضمنت هذه

(١) يقال : حَرَضَ يحْرُض ويحْرِض حرْضاً وحُروضاً : هَلَك ، ومنه قوله تعالى : ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾ ، وهذا معنى آخر غير معنى حَرِّض أي حَثَّ وحَضَّ . (اللسان) .

الآية أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتحريضهم على أمر قد وجب عليهم من غير هذا الموضع .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ إلى آخر الآية في لفظ خبر ضمنه وعد بشرط ، لأن قوله : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ بمنزلة أن يقال : إنْ يصبرْ منكم عشرون يَغْلِبُوا ، وفي ضمنه الأمر بالصبر ، وكسرت العين من [عِشرون] لأن نسبة عشرين من عشرة نسبة اثنين من واحد ، فكما جاءَ أول اثنين مكسورا كسرت العين من عشرين ، ثم اطرد في جُمُوع أجزاءِ العشرة ، فالمفتوح كأربعة وخَمسة وسبعة فُتح أول جمعه ، والمكسور كسِتَّة وتِسْعَة كُسر أول جمعه ، هذا قول سيبويه ، وذهب غيره إلى أن (عشرين) جمع عِشْر الإبل ، وهو ورودها للتِّسع[1] ، فلما كان في عَشرة وعَشرة عِشْرٌ وعِشْرٌ ويومان من الثالث جمع ذلك على عِشْرين . كما قال امرؤ القيس :

. . . . ثلاثينَ شَهْراً في ثلاثة أَحْوال[2]

لما كان في الثلاثين حولٌ وحولٌ وبعض الثالث .

---

(١) إذا مُنعت الإبل من الماء تسعاً ثم وردت في العاشر فهو «عِشْر الإبل» .

(٢) هذا عجز بيت ، والبيت بتمامه :

وهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كانَ أقْرَبُ عَهْدِهِ ثلاثين شَهْراً في ثَلاثةِ أحْوالِ ؟

وهو في الديوان ، ورواية الأصمعي : يعِمَنْ ، ورواية الطوسي والسكري وأبي سهل : أقرب عهده ، والبيت في «معاني القران» لابن النحاس ، ورقة ١٢٩ وروايته : آخر عهده ، وفي الخصائص ٢–٣١٣ : أحدث عهده .

وتظاهرت الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من الصحابة بأَن ثبوت الواحد للعشرة كان فرضاً من الله عزَّ وجلَّ على المؤمنين ، ثم لمّا شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا هو النَّسخ ، لأَنه رفع حكم مستقر بحكم آخر شرعي ، وفي ضمنه التخفيف إذ هذا من نسخ الأَثقل بالأَخف ، وذهب بعض الناس إلى أَن ثبوت الواحد للعشرة إنما كان على جهة ندب المؤمنين إليه ، ثم حط ذلك حين ثقل عليهم إلى ثبوت الواحد للاثنين ، وروي أَيضاً هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال كثير من المفسرين : وهذا تخفيف لا نسخ إذ لم يستقر لفرض العشرة حكم شرعي ، قال مكي : وإنما هو كتخفيف الفطر في السفر وهو لو صام لم يأْثم وأَجزأَه

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر ، ولا يمتنع كون المنسوخ مباحاً من أَن يقال : نُسخ ، واعتبر ذلك في صدقة النجوى ، وهذه الآية التخفيف فيها نسخ للثبوت للعشرة ، وسواءٌ كان الثبوت للعشرة فرضاً أَو ندباً هو حكم شرعي على كل حال ، وقد ذكر القاضي ابن الطيب أَن الحكم إذا نُسخ بعضه أَو بعض أَوصافه أَو غير عدده فجائز أَن يقال له : نسخ ، لأَنه حينئذ ليس بالأَول ، وهو غيره ، وذكر في ذلك خلافاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يظهر في ذلك أن النسخ إنما يقال حينئذ على الحكم الأول مقيداً لا بإطلاق ، واعتبر ذلك في نسخ الصلاة إلى بيت المقدس(١) .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم : ﴿إِنْ يكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ﴾ في الموضعين بياءٍ على تذكير العلامة ، ورواها خارجة عن نافع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بحسب المعنى ، لأن الكائن في تلك المائة إنما هم رجال ، فذلك في الحمل على المعنى كقوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(٢) ، إذ أمثالها حسنات . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : ﴿إِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ﴾ بالتاءِ في الموضعين على تأنيث العلامة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بحسب اللفظ والمقصد ، كأنه أراد : إن تكن فرقة عددها مائة . وقرأ أبو عمرو بالياءِ في صدر الآية ، وبالتاءِ في آخرها ،

---

(١) من أسرار الفصاحة في التعبير القرآني هنا ما ذكره المفسرون عن التقييد بالصبر ، إذ جاء هذا التقييد في أول كل شرط ﴿عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ و ﴿مَائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ ، ثم حذف من الشرط الثاني ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائةٌ يَغْلِبوا أَلْفاً﴾ ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ ، وسبب الحذف من الشرط الثاني دلالة الأول عليه ، وفي المقابل قُيِّد الشرط الثاني بقوله : ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على حين حذف من الشرط الأول في قوله ﴿يَغْلِبُوا مَائتَيْن﴾ . فالقيد المذكور في الجملة الأولى يحذف من الثانية ،والقيد المذكور في الثانية يحذف من الأولى ليحدث في الآيتين توازن .

(٢) من الآية (١٦٠) من سورة (الأنعام) .

ذهب في الأُولى إلى مراعاة [يغْلِبُوا] ، وفي الثانية إلى مراعاة [صابِرة]، قال أَبو حاتم : وقرأَ الأَعرج ﴿إِنْ تَكُنْ﴾ بالتاءِ من فوق ﴿مِنْكُمْ عِشْرونَ صابِرُونَ﴾ وجعلها كلها على التاءِ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

إلا قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ﴾ فإنه لا خلاف في الياءِ من تحت . وقوله : ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ معناه : لا يفهمون مراشدهم ولا مقصد قتالهم ، ولا يريدون به إلا الغَلَبة الدنياوية . فهم يخافون الموت إذا صُبر لهم ، ومن يقاتل ليَغْلِب أَو يستشهد فيصير إلى الجنة أَثبت قدماً لا محالة .

وروى المفضل عن عاصم : [وعُلِم] بضم العين وكسر اللام على البناءِ للمفعول . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وابن عمرو ، والحسن ، والأَعرج ، وابن القعقاع ، وقتادة ، وابن أَبي إسحق : [ضُعْفاً] بضم الضاد وسكون العين . وقرأَ عاصم ، وحمزة ، وشيبة ، وطلحة : [ضَعْفاً] بفتح الضاد وسكون العين ، وكذلك اختلافهم في سورة الروم[1] . وقرأَ عيسى بن عمر : [ضُعُفاً] بضم الضاد والعين ، ذكره النقاش ، وهي مصادر بمعنى واحد ، قال أَبو حاتم : من ضم الضاد جاز له ضم العين ، وهي لغة ، وحكى

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٥٤) : ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ .

سيبويه الضَّعْف والضُّعْف لغتان بمنزلة الفَقْر والفُقْر ، حكى الزهراوي عن أَبي عمرو بن العلاءِ أَنه قال : ضم الضاد لغة أَهل الحجاز ، وفتحها لغة تميم ، ولا فرق بينهما في المعنى . وقال الثعالبي في كتاب «فقه اللغة» له : الضَّعف بفتح الضاد في العقل والرأْي ، والضُّعف بضمها في الجسم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ترده القراءة ، وذكره أَبو غالب بن التياني غير منسوب . وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع أَيضاً «ضُعَفَاءَ» بالجمع كظريف وظرفاءَ ، وحكاه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقوله : ﴿والله مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ لفظ خبر في ضمنه وعدٌ وحضٌ على الصبر ، ويُلحظ منه وعيدٌ لِمَن لمْ يصبر بأَنه يُغْلب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

هذه الآية تتضمن ـ عندي ـ معاتبة من الله عزَّ وجلَّ لأَصحاب نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : ما كان ينبغي لكم أَن تفعلوا هذا الفعل الذي أَوجب أَن يكون للنبي أَسرى قبل الإِثخان ، والإِخبار

هو لهم ، ولذلك استمر الخطاب بـ [تُرِيدُونَ] ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأْمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرَض الدنيا ، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب ، وجاء ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الآية مشيراً إلى دخوله صلى الله عليه وسلم في العتب حين لم يَنْه عن ذلك حين رآه من العريش وأنكره سعد بن معاذ ، ولكنه صلى الله عليه وسلم شغله بغْتُ الأَمر وظهور النصر فترك النهي عن الاستبقاء ، ولذلك بكى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر حين نزلت هذه الآية ، ومرّ كثير من المفسرين على أَن هذا التوبيخ إنما كان بسبب إشارة من أَشار على النبي صلى الله عليه وسلم بأَخذ الفدية ، وذلك أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جمع أَسرى بدر استشار فيهم أَصحابه ، فقال أَبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله هم قرابتك ، ولعل الله أَن يهديهم بعْدُ إلى الإسلام ، ففادِهم واستبقِهِم ويتقوى المسلمون بأَموالهم ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يا رسول الله ، بل نضرب أَعناقهم فإنهم أَئمة الكفر ، وقال عبد الله بن رواحة : بل نجعلهم في وادٍ كثير الحطب ثم نضرمه عليهم ناراً ، وقد كان سعد بن معاذ قال وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش وقد رأَى الأَسر : لقد كان الإثخان في القتل أَحب إليَّ من استبقاء الرجال : فأَخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أَبي بكر رضي الله عنه ومال إليه ، فنزلت هذه الآية مخبرة أَن الأَوْلى والأَهيب على سائر الكفار كان قتل أَسرى

بدر ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية والمسلمون قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم نزل في الأسر : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وإِمَّا فِدَاءً﴾[١] ، وذكر الطبري وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تكلَّم أصحابه في الأسرى بما ذكر دخل ولم يُجبهم ، ثم خرج فقال : (إن الله تعالى يُلين قلوب رجال ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال : ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢] ، ومثل عيسى قال : ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣] ، ومثلك يا عمر مثل نوح قال : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارا﴾[٤] ، ومثل موسى قال : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[٥] ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنتم اليوم فلا يُفْلتن منهم رجل إلا بفدية أو ضرب عنق)[٦] وفي هذا الحديث قال عمر رضي الله عنه :

---

(١) من الآية (٤) من سورة (محمد) .

(٢) من الآية (٣٦) من سورة (إبراهيم) .

(٣) من الآية (١١٨) من سورة (المائدة) .

(٤) من الآية (٢٦) من سورة (نوح) .

(٥) من الآية (٨٨) من سورة (يونس) .

(٦) الحديث مروي من طرق كثيرة ، وقد أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وحسَّنه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وأخرج مثله أحمد عن أنس رضي الله عنه ، وكذلك أخرج مثله ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والمضمون واحد ، ولكن توجد اختلافات يسيرة في الألفاظ . (الدر المنثور) .

«فَهَوِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أَبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه حجة على ذكر «الهوى» في الصلاح .

وقرأت فرقة : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ معرفا ، وقرأ جمهور الناس : [لِنَبِيٍّ] ، وقرأ أبو عمرو بن العلاءِ وحده ، : [أَنْ تَكُونَ] على تأنيث العلامة مراعاة لِلَفْظ الأَسرى ، وقرأ باقي السبعة وجمهور الناس : [أَنْ يكُونَ] بتذكير العلامة مراعاة لمنع الأَسرى ، وقرأ جمهور الناس والسبعة : [أَسْرَى]، وقرأ بعض الناس : [أُسَارَى] ، ورواها المفضل عن عاصم ، وهي قراءَة أبي جعفر .

والقياس والباب أَن يجمع أَسيرٌ على أَسْرى ، وكذلك كل فَعيل بمعنى مفعول ، وشُبِّه به فَعيلٌ وإن لم يكن بمعنى مفعول كمريض ومَرْضى إذا كانت أَيضاً أَشياءَ سبيلُ الإنسان أن يجبر عليها وتأْتيه غَلَبة فهو فيها بمنزلة المفعول ، وأَمّا جمعه على أُسارى فشبيه بكُسالى جمع كسلان ، وجمع أيضاً كسْلان على كَسْلَى تشبيهاً بأَسْرى في جمع أَسير ، قال سيبويه : وهما شاذّان ، وقال الزجاج : أُسارَى جمع أَسْرى ، فهو جمع الجمع (١) .

(١) أُسارَى تكون بضم الهمزة وتكون بفتحها ، وكانوا يشدون الأسير بالقِدّ وهو الإسَارُ ، فسُمِّي كل أخيذ وإنْ لم يؤسر أسيرا ، قال الأعشى :

وقَيَّدني الشِّعْرُ في بيْتِهِ كما قَيَّدَ الآسِرَاتُ الحِمارا

وقال أبو عمرو بن العلاء : الأَسْرى : هم غير المُوثقين عندما يؤخذون ، والأُسارى : هم الموثوقون ربطاً ، وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب .

وقرأ جمهور الناس : [يُثْخِن] بسكون الثاء ، وقرأ أبو جعفر ، ويحيى بن يَعْمرَ ، ويحيى بن وثاب : [يُثَخِّن] بفتح الثاء وشد الخاء ، ومعناه في الوجهين : يبالغ في القتل ، والإثخان إنما يكون في القتل والجراحة وما كان منهما .

ثم أَمَدَّ [1] مخاطبةَ أَصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي : مالها الذي يعِنُّ ويعرض ، والمراد ما أُخذ من الأَسرى من الأَموال ، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلآخِرَةَ﴾ أَي عمل الآخرة ، فحُذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه ، وقرأ ابن جماز : [الآخِرةِ] بالخفض على تقدير المضاف ، وينظر ذلك لقول الشاعر :

أَكُلَّ ٱمْـــرِئٍ تَحْسَبِينَ امْـرَءًا ونارٍ تَوَقَّدُ باللَّيل نارا ؟ [2]

على تقدير : وكلَّ نارٍ .

وذكر الطبري وغيره أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس : إن شئتم أَخذتم فداءَ الأَسرى ويقتل منكم في الحرب سبعون على عددهم ، وإن شئتم قُتلوا وَسلِمْتُم ، فقالوا : نأْخذ المال ويستشهد منا سبعون . وذكر عبد بن حميد بسنده أَن جبريل نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بتخْيير الناس هكذا .

---

(١) تأتي (أَمَدَّ) بمعنى (مَدَّ) ، يقال : أَمَدَّ الشيْءَ ومدَّه : زاد فيه ، والمعنى المراد هنا أن الله زاد في مخاطبة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) سبق الاستشهاد بهذا البيت والتعليق عليه عند تفسير قوله تعالى في هذه السورة : ﴿يَـٰأَيُّها النَّبي حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِين﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى الروايتين فالأمر في هذا التَّخْيير من عند الله فإنه إعلامٌ بغيب ، وإذا خُيِّروا فكيف يقع التوبيخ بعْدُ بقوله تعالى : ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ؟ والذي أقول في هذا : إن العَتْب لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ إلى قوله : ﴿عَظِيمٌ﴾ إنما هو على استبقاءِ الرجال وقت الهزيمة رغبة في أخذ المال منهم ، وجميع العتْب إذا نظر فإنما هو للناس ، وهناك كان عمر رضي الله عنه يقتل ويحضّ على القتل ولا يرى الاستبقاءَ ، وحينئذ قال سعد بن معاذ : الإثخان أحب إليَّ من استبقاءِ الرجال ، ولذلك جعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ناجِيَيْن من عذاب إن لو نزل ، ومما يدل على حرص بعضهم على المال قول المقداد حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل عقبة بن أبي معيط : «أسيري يا رسول الله» ، وقول مصعب بن عُمير للذي يأْسر أخاه : «شُدَّ يدك عليه فإن له أُمًّا موسرة» ، إلى غير ذلك من قصصهم . فلما تحصل الأَسرى وسيقوا إلى المدينة وأنفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم القتل في النَّضْر وعُقْبة ، والمَنَّ في أَبي عزَّة وغيره ، وجعل يرتئي في سائرهم نَزَلَ التخيير من الله تعالى ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ ، فمرَّ عمر رضي الله عنه على أَول رأْيه في القتل ، ورأَى أَبو بكر رضي الله عنه المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداء ، ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رأْي

أبي بكر رضي الله عنه ، وكلا الرأيين اجتهاد بعد تخيير ، فلم ينزل على شيءٍ من هذا عتب ، وذكر المفسرون أن الآية نزلت بسبب هذه المشورة والآراءِ ، وذلك معترض بما ذكرته ، وكذلك ذكروا في هذه الآيات تحليل المغانم لهذه الأُمة ، ولا أقول ذلك ، لأَن حكم الله بتحليل المغنم لهذه الأُمة قد كان تقدم قبل بدر ، وذلك في السَّرِيَّة التي قُتل فيها عمرو بن الحضرميّ ، وإنما المبتدع في بدر استبقاءُ الرجال لأَجل المال ، والذي منَّ الله به فيها إلحاق فدية الكافر بالمغانم التي قد تقدم تحليلها .

ووَجْهُ ما قال المفسرون أن الناس خُيِّروا في أمرين أحدهما غير جيّد على جهة الاختبار لهم ، فاختاروا المفضول فوقع العتب ، ولم يكن تخييراً في مستويين ، وهذا كما أُتِي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بإِنَاءَيْنِ فاختار الفاضل[1] .

و ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان من قِبلِ الآية لأَن بالعزَّة والحكمة يتم مراده على الكمال والتوفية . وقال أَبو عمرو بن العلاءِ : الأَسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون ، والأُسارى هم الموثقون ربطاً .

---

(١) حديث الإسراء حديث طويل ، وقد رواه البخاري ، وفيه مما يشير إليه ابن عطية هنا : (ثُمَّ أُتيت بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن وإناءٍ من عسل فأخذت اللبن فقال : هي الفطرة ، أنت عليها وأُمتك) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب ، وقد ذكره أيضاً أبو الحسن الأخفش وقال : العرب لا تعرف هذا وكلاهما عندهم سواءٌ .

وقوله تعالى : ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية . قالت فرقة : الكتاب السابق هو القرآن ، والمعنى : لولا الكتاب الذي سبق فآمنتم به وصدَّقتم لمسَّكم العذاب لأَخْذكم هذه المفاداة . وقال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والحسن أَيضاً ، وابن زيد : الكتاب السابق هو مغفرة الله لأَهل بدر ما تقدم من ذنوبهم أَو تأَخر . وقال الحسن ، وابن عباس ، وأَبو هريرة ، وغيرهم : الكتاب هو ما قد كان الله قضاه في الأَزل من إحلال الغنائم والفداءِ لمحمد صلى الله عليه وسلم وأُمته ، وكانت في سائر الأُمم محرَّمة . وقالت فرقة : الكتاب السابق هو عفو الله عنهم في هذا الذنب مُعَيَّنا . وقالت فرقة : الكتاب السابق هو أَن الله عزَّ وجلَّ قضى أَلَّا يعاقب أَحداً بذنب أَتاه بجهالة ، وهذا قول ضعيف تعارضه مواضع من الشريعة . وذكر الطبري عن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أَبي طالب أَن الكتاب السابق هو أَلَّا يعذب أَحداً بذنب إلا بعد النهي عنه ، ولم يكونوا نُهوا بعْدُ . وقالت فرقة : الكتاب السابق هو ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر . وذهب الطبري إلى دخول هذه المعاني كلها تحت اللفظ وأَنه يَعُمُّها ، ونَكَّبَ[1] عن تخصيص معنى دون معنى .

(١) نكَّب عن الشيء : عدل عنه وتَنَحَّى .

واللام في [لَمَسَّكُمْ] جواب [لَوْلَا] ، و [كِتَابٌ] رفع بالابتداء والخبر محذوف ، وهكذا حال الاسم الذي بعد (لولا) ، وتقديره عند سيبويه : لولا كتاب سابق من الله تدارككم ، و [ما] من قوله تعالى : [فيمَا] يراد بها إمَّا الأَسرى وإمَّا الفداءُ ، وهي موصولة . وفي [أَخَذْتُمْ] ضمير عائد عليها ، ويحتمل أَن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى العائد ، وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لو نزل في هذا الأَمر عذاب لَنَجا منه عمر بن الخطاب) [١] ، وفي حديث آخر : (وسعد بن معاذ) ، وذلك أَن رأْيهما كان أَن يُقتل الأَسرى[٢] .

وقوله تعالى : ﴿فكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية . نصٌّ على إباحة المال الذي أُخذ من الأَسرى وإلحاقٌ له بالغنيمة التي كان تقدم تحليلها . وقوله : ﴿حَلَالًا طَيِّباً﴾ حالان من [ما] في قوله : [مِمَّا] ، ويصح أَن يكونا من الضمير الذي في [غَنِمْتُمْ] . ويحتمل أَن يكون [حَلَالًا] مفعولا بـ[كُلُوا] . ﴿وَٱتَّقُوا اللهَ﴾ معناه : في التسرع حسب إرادة البشر

---

(١) أخرجه ابن مردويه ، ولفظه فيه : (لو نزل العذاب ما أفلت إلا ابن الخطاب) ، ورواية ابن جرير : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَوْ عُذِّبنا في هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك) .

(٢) يرى بعض المفسرين أن معنى هذه الآية هو : لولا كتاب من الله سبق بنصركم وتأييدكم حتى استوليتم عليهم قتلا وأسراً على قلَّة عددكم لمسَّكم فيما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذابٌ عظيم منهم لكونهم أكثر منكم عَدَداً ، ولكنه تعالى سهَّل عليكم ونصركم فلم ينلكم هذا العذابُ منهم ، وينظر أصحاب هذا الرأي إلى قوله تعالى : ﴿إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه﴾ وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ .

وشهوته في نازلة أُخرى . وجاءَ قوله : ﴿وَٱتَّقُوا اللَّهَ﴾ اعتراضاً فصيحاً في أَثناءِ الكلام ، لأَن قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هو متصل بالمعنى بقوله : ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم حَلَالًا طَيِّباً﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

رُوي أَن الأَسرى ببدر أَعلموا رسول الله صلى الله عايه وسلم أَنهم لهم ميل إلى الإسلام ، وأَنهم يُؤَملونه ، وأَنهم إن فدوا ورجعوا إلى قومهم التزموا جلبهم إلى الإسلام وسَعَوْا في ذلك ، ونحو هذا الغرض ، ففي ذلك نزلت هذه الآية ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الأَسرى في هذه الآية عباس وأَصحابه ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : آمنا بما جئت به ونشهد أَنك لرسول الله ، لَنَنْصَحنَّ لك على قومنا فنزلت هذه الآية .

وقرأَ جمهور الناس : ﴿مِنَ الْأَسْرَى﴾ ، وقرأَ أَبو عمرو وحده من السبعة : ﴿مِنَ الأُسَارَى﴾ ، وهي قراءَة أَبي جعفر ، وقتادة ، ونصر ابن عاصم ، وابن أَبي إسحق ، واختلف عن الحسن بن أَبي الحسن ،

وعن الجحدري ، وقرأ ابن محيصن : [مِن لَسْرَىٰ] بالإدغام ، ومعنى الكلام : إن كان هذا عن جدّ منكم وعلم الله من نفوسكم الخير والإسلام سيجبر عليكم[1] أفضل مما أعطيتم فدية ، وسيغفر لكم جميع ما اجترحتموه ، وقرأ الأعمش : «يُثِبْكُمْ خَيْراً» . وقرأ جمهور الناس : [أُخِذَ] بضم الهمزة وكسر الخاء ، وقرأ شيبة بن نصاح ، وأبو حيوة [أَخَذَ] بفتحهما .

ورُوي أن أسرى بدر افتدوْا بأربعين أُوقية أربعين أُوقية إلا العباس فإنه افتدي بمائة أُوقية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأُوقية أربعون درهماً ، وقال قتادة : فادُوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف ، وقال عبيدة السلماني : كان فداءُ أسرى بدر بمائة أُوقية ، والأُوقية أربعون درهماً ، ومن الدنانير ستة ، وروي أن العباس بن عبد المطلب قال : فيَّ وفي أصحابي نزلت هذه الآية ، وقال حين أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من ماءِ البحرين ما قَدَر أن يُقِل : هذا خيرٌ مما أُخذ مني ، وأنا أرجو أن يغفر الله لي . وأسند الطبري أيضاً إلى العباس أنه قال : فيَّ نزلت حين أعلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين أُوقية التي أُخذت مني قبل

(١) أي : يُعَوِّضْكم ما ذهب ويُعْطيكم أفضل منه ، وفي حديث الدعاء : (واجْبُرْني واهْدني) .

المفاداة فأَبى وقال: (ذلك فيْءٌ)(١) فأَبدلني الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجرَ بمالي ، وروي عن العباس أَنه قال : ما أَودُّ أَن هذه الآية لم تنزل ولي الدنيا بأَجمعها ، وذلك أَن الله قد آتاني خيراً مما أُخذ مني ، وأَنا أَرجو أَن يغفر لي .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ﴾ الآية . قولٌ أُمِرَ أَن يقوله للأَسرى ويورد معناه عليهم ؛ والمعنى : إن أَخلصوا فُعِل بهم كذا ، وإِن أَبطنوا خيانة ما زعموا أَن يُؤتمنُوا عليه من العهد فلا يسرهم ذلك ولا يسكنوا إِليه ، فإِن الله بالمرصاد لهم ، الذي خانوه من قبْلُ بكفرهم وتركهم النظر في آياته ، وهو قد بيَّنها لهم إدراكاً يحصلونها به ، فصار ذلك كعهد متقرِّر ، فجعل جزاءهم على خيانتهم إِياه أَنْ مكَّن منهم المؤمنين ، وجَعَلَهُم أَسرى في أَيديهم .

وقوله تعالى : ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان ، أَي عليم بما يبطنونه من إخلاص أَو خيانة ، حكيم فيما يُجازيهم به .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَما تفسير هذه الآية بقصة عبد الله بن أَبي سرْح فينبغي أَن يُحَرَّر(٢) ، فإِن جُلبت قصة عبد الله بن أَبي سرح على أَنها مثال كما

(١) وأخرج مثله أبو نعيم في الدلائل من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، في حديث طويل عن هذا .

(٢) تتلخص قصة ابن أبي سرح هذا فيما رواه قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا كتب لنبي الله صلى الله عليه وسلم ، ثم عمد فنافق ، فلحق بالمشركين بمكة ، ثم قال : ما كان محمد يكتب =

يمكن أَن تجلب أَمثلة في عصرنا من ذلك فحسن ، وإن جُلبت على أَن الآية نزلت في ذلك فخطأٌ ، لأَن ابن أَبي سرح إنما تبيَّن أَمره في يوم فتح مكة ، وهذه الآية نزلت عقيب بدر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

مقصد هذه الآية وما بعدها تَبْيين منازل المهاجرين والأَنصار والمؤمنين الذين لم يهاجروا والكفار والمهاجرين بعد الحديبية ، وذِكْر

= إلا ما شئت، فلما سمع ذلك رجل من الأنصار نذر : لئن أمكنه الله منه ليضربنه بالسيف ، فلما كان يوم الفتح أمَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ إلا عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ومقيس ابن ضبابة ، وابن خطل ، وامرأة كانت تدعو على النبي صلى الله عليه وسلم كل صباح ، فجاء عثمان بابن أبي سرح وكان رضيعه أو أخاه من الرضاعة — فقال : يا رسول الله هذا فلان أقبل تائباً نادماً ، فأعرض نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع به الأنصاري أقبل متقلداً سيفه ، فأطاف به ، وجعل ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاءَ أن يوميءُ إليه ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّم يده فبايعه ، فقال : أما والله لقد تَلَوَّمْتُك فيه لتوفي نذرك ، فقال : يا نبي الله إني هِبْتُك فلولا أومضت إليّ ، فقال : إنه لا ينبغي لنبي أن يومض . (رواه ابن جرير) .

نسب بعضهم من بعض ، فقدم أولا ذكْرَ المهاجرين وهم أَصل الإسلام ، وانظر تقديم عمر رضي الله عنه لهم في الاستشارة ، وهاجر معناه : هجر أَهله وقرابته وهجروه ، و [جَاهَدُوا] معناه : أَجهدوا أَنفسهم في حرب من أَجهد نفسه في حربهم . ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ هم الأَنصار ، وآوَى معناه : هيأَ مأْوى وهو الملجأُ والحِرْزُ ، فحكم الله على هاتين الطائفتين بأَن بعضهم أَولياءُ بعض ، فقال كثير من المفسرين: هذه المولاةُ هي المؤازرة والمعاونة واتصال الأَيدي ، وعليه فسّر الطبري الآية ، وهذا الذي قالوا لازمٌ من دلالة اللفظ . وقال ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، وكثير منهم : إن هذه الموالاةُ هي في الميراث ، وذلك أَن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين والأَنصار ، وكانت بين الأَنصار أُخوة النسب ، وكانت أَيضاً بين بعض المهاجرين ، فكان المهاجري إذا مات ولم يكن له بالمدينة مهاجري وَرِثَهُ أَخوه الأَنصاري ، وإن كان له وليٌّ مسلم لم يهاجر ، فكان المسلم الذي لم يهاجر لا ولاية بينه وبين قريبه المهاجري فلا يرثه ، قال ابن زيد : واستمر أَمرهم كذلك إلى فتح مكة ، ثم توارثوا بعد ذلك لما لم تكن هجرة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فذهبت هذه الفرقة إلى أَن هذا هو مقصد الآية . ومن ذهب إلى أَنها من التآزر والتعاون فإنما يحمل نفي الله تعالى ولايتهم عن

المسلمين على أَنها صفة الحال ، لا أَن الله حكَم بأَنْ لا ولاية بين المهاجرين وبينهم جملة ، وذلك أَن حالهم إذا كانوا متباعدي الأَقطار تقتضي أَنَّ بعضهم إنْ حَزَبَهم حازب لا يجد الآخر ولا ينتفع به ، فعلى هذه الجهة نفي الولاية ، وعلى التأْويلين ففي الآية حض للأَعراب على الهجرة ، قاله الحسن بن أَبي الحسن . ومن رأَى الولاية في الموارثة فهو حكم من الله بنفي الولاية في الموارثة ، قالوا : ونَسَخَ ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1] الآية .

وقرأَ جمهور السبعة والناس : [وَلَايتهم] بفتح الواو ، و [الْوَلَايةُ] أَيضاً بفتح الواو [2] ، وقرأَ الكسائي : [وَلَايَتهم] بفتح الواو ، و [الوِلاية] بكسر الواو ، وقرأَ الأَعمش ، وابن وثاب : [وِلايتهم] و [الْوِلاية] بكسر الواو ، وهي قراءة حمزة ، قال أَبو علي : والفتح أَجود لأَنها في الدين ، قال أَبو الحسن الأَخفش : «والكسر فيها لغة» ،

---

(١) ستأتي بعد ثلاث آيات ، فهي الآية (٧٥) من هذه السورة .

(٢) يريد [الْوَلاية] في قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة (الكهف) : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لله الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وخَيْرٌ عُقْباً ﴾ .

وليست بذلك ، ولحن الأَصمعي الأَعمش[1] ، وأَخطأَ عليه لأَنها إذا كانت لغة فلم يلحن .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

لاسيما ولا يُظن به إلا أَنه رواها ، قال أَبو عبيدة : الوِلاية بالكسر هي من وليت الأَمر إليه فهي في السلطان ، والوَلاية هي في المولى ، يقال : مولى بيّن الوَلاية بفتح الواو .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ يعني : إن استدعى هؤلاءِ المؤمنون الذين لم يهاجروا نصركم على قوم من الكفرة فواجب عليكم نصرهم ، إلا إن استنصروكم على قوم كفار قد عاهدتموهم أَنتم وواثقتموهم على ترك الحرب فلا تنصروهم عليهم ، لأَن ذلك غدر ونقض للميثاق وترك لحفظ العهد والوفاءِ به ، والقراءَة : ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ برفع الراءِ ، ويجوز ﴿فعَلَيْكُم ٱلنَّصْرَ﴾ على الإغراءِ ، ولا أَحفظه قراءَة .

وقرأَ جمهور الناس : ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على مخاطبة المؤمنين ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي ، والأَعرج : ﴿بِمَا يعْمَلُونَ﴾ بالياءِ على ذكر الغائب .

(١) هكذا في جميع النسخ المخطوطة ، ولكن من الواضح أنها « الأخفش » فالكلام عنه ، ويؤيد ذلك ما قاله في « البحر » ونصه : « ولحن الأصمعي الأخفش في قراءته بالكسر وأخطأ في ذلك لأنها قراءة متواترة » ، وكلام ابن عطية يؤيد هذا حين يقول : « لأنها إذا كانت لغة فلم يلحن » ، والذي قال إنها لغة هو الأخفش .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

هذا حكم بأَن الكفار ولايتهم واحدة ، وذلك بجمع الموارثة والمعاونة والنُّصرة ، وهذه العبارة ترغيب وإقامة للنفوس ، كما تقول لمن تريد أَنْ يستضلع [١] : « عدوّك مجتهد » ، أَي : فاجتهد أَنت .

وحكى الطبري في تفسير هذه الآية عن قتادة أَنه قال : أَبى الله أَن يقبل إيمان من آمن ولم يهاجر ، وذلك في صدر الإسلام ، وذلك أَيضاً مذكور مستوعب في تفسير قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾[٢] .

(١) استضلع وتضلّع بمعنى واحد ، إذ يراد بهما : امتلأ من العلوم وشبع .
(٢) الآية (٩٧) من سورة (النساء) .

والذي يظهر من الشرع أَن حكم المؤمن التارك للهجرة مع علمه بوجوبها حكم العاصي لا حكم الكافر ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ إنما هي فيمن قتل مع الكفار ، وفيهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَنا بريءٌ من مسلم أَقام بين المشركين لا تراءى ناراهما) الحديث [١] على اختلاف أَلفاظه ، وقوْلُ قتادة إنما هو فيمن كان يقوم متربصاً يقول : مَنْ غَلَب كنت معه ، وكذلك ذكر في كتاب الطبري والكشي .

والضمير في قوله تعالى : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ قيل : هو عائد على الموارثة والتزامها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا لا تقع الفتنة عنه إلَّا عن بُعْد وبوساطة كثيرة ، وقيل : هو عائد على المؤازرة والمعاونة واتصال الأَيدي ، وهذا تقع الفتنة عنه

(١) أخرجه أبو داود في سُنَنه عن جابر بن عبد الله في كتاب الجهاد قال : (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود فأسرع فيهم القتل ، قال : فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأمر لهم بنصف العَقل ، وقال : أنا بريءٌ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا : يا رسول الله لِمَ ؟ قال : لا تراءى ناراهما) . والمعنى كما جاء في « النهاية » لابن الأثير : يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك ، ولا ينزل بالموقع الذي إذا أُوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوْقدها في منزله ، ولكنه ينزل مع المسلمين في دارهم ، وإنما كره مُجاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان ، وحثَّ المسلمين على الهجرة . والترائي : تفاعُلٌ من الرؤية ، يقال : تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضا ، وتراءى لي الشيءُ : أي ظهر حتى رأيته ، وإسناد الترائي إلى الناريْن مجازٌ ، من قولهم : داري تنظر إلى دار فلان ، أي تقابلها ، يقول : ناراهما مختلفتان ، هذه تدعو إلى الله ، وهذه تدعو إلى الشيطان ، فكيف يتَّفقان ؟ والأصل في تراءى : تَتَراءى ، فحذفت إحدى التَّاءيْن تخفيفاً .

عن قُرْب فهو آكد من الأَول ، ويظهر أَيضاً عوده على حفظ العهد والميثاق الذي يتضمنه قوله : ﴿إِلَّا عَلَى قَوْم بَيْنَكُمْ وَبيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ ، وهذا إن لم يفعل فهو الفتنة نفسها ، ويظهر أَن يعود الضمير على النصر للمسلمين المنتصرين في الدِّين ، ويجوز أَن يعود الضمير مجملا على جميع ما ذكر .

والفتنة : المحنة بالحرب وما أُنجز معها من الغارات والجلاءِ والأَسر . والفسادُ الكبير : ظهور الشِّرك . وقرأَ جمهور الناس : [كَبيرٌ] بالباءِ المنقوطة بواحدة ، وقرأَ أَبو موسى الحجازي عن الكسائي بالثاءِ المنقوطة مثلثة ، وروى أَبو حاتم المدني أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأَ : «وفساد عريض»، وقرأَت فرقة : «والذين كفروا بعضُهم أَوْلى ببعض» .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ الآية . آية تضمنت تخصيص المهاجرين والأَنصار وتشريفهم بهذا الوصْف العظيم . و [حَقًّا] نصب على المصدر المؤكد لما قبله ، ووَصْفُ الرزق بالكريم معناه أَنه لا يستحيل نجواً[1] ، والمراد به طعام الجنة : كذا ذكره الطبري وغيره ، ولازم اللفظ نفي المذمَّات عنه ، وما ذكروه فهو في ضمن ذلك .

---

(١) النَّجْو : ما يخرج من البطن ، ويقال : أَنْجَى ، أي أحْدث ، والمعنى الذي يقصده المؤلف : لا يتغير في أجوافهم فيصير نَجْوا ، ولكنه يصير رشحاً كرشح المسك على ما وضحه الطبري في تفسيره .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ يريد به : مِنْ بَعْد الحديبية وبيعة الرضوان، وذلك أَن الهجرة من بعد ذلك كانت أَقل رتبة من الهجرة قبل ذلك ، وكان يقال لها : الهجرة الثانية ، لأَن الحرب وضعت أَوزارها نحو عامين ، ثم كان فتح مكَّة ، وبه قال صلى الله عليه وسلم : (لا هجرة بعد الفتح) [١] ، وقال الطبري : المعنى : من بَعْد ما بيَّنْتُ لكم حكم الولاية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فكان الحاجز بين الهجرتين نزول الآية ، فأَخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآية بأَنهم من الأَولين في المؤازرة وسائر أَحكام الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ لفظ يقتضي أَنَّهم تبع لا صدر ، وقوله : ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ كذلك ، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام : (مَوْلى القوم منهم)[٢] ، (وابن أُخت القوم منهم)[٣] ،

(١) رواه البخاري عن مجاشع بن مسعود ، ولفظه فيه : (لا هجرة بعد فتح مكة) ، ورمز له السيوطي بأنه صحيح . (الدر المنثور) .

(٢) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه ، ولفظه فيه : (مولى القوم من أنفسهم) ، وقد رمز له الإمام السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير» .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والشيخان ، والترمذي ، والنسائي عن أنس ، وأبو داود عن أبي موسى ، والطبراني عن جبير بن مطعم ، وعن ابن عباس ، وعن أبي مالك الأشعري . ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير» .

وقوله تعالى : ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ﴾ (١) إلى آخر السورة . قال من تقدم ذكره : هي في المواريث ، وهي ناسخة للحكم المتقدم ذكره من أن يرث المهاجري الأنصاري ، ووجب بهذه الآية الأخيرة أن يرث الرجل قريبه وإن لم يكن مهاجراً معه . وقالت فرقة منها مالك ابن أنس رحمه الله : إن الآية ليست في المواريث ، وهذا فِرار عن توريث الخال والعمة ونحو ذلك . وقالت فرقة : هي في المواريث إلا أنها نُسخت بآية المواريث المُبَيِّنَة .

وقوله تعالى : ﴿في كِتَابِ اللهِ﴾ معناه : القرآن ، أي ذلك مثبت في كتاب الله ، وقيل : المعنى : في كتاب الله السابق في اللوح المحفوظ ، و [عَلِيمٌ] صفةٌ مناسبة لنفوذ هذه الأحكام .

كمل تفسير سورة الأنفال بتوفيق من الله
والحمد لله رب العالمين

---

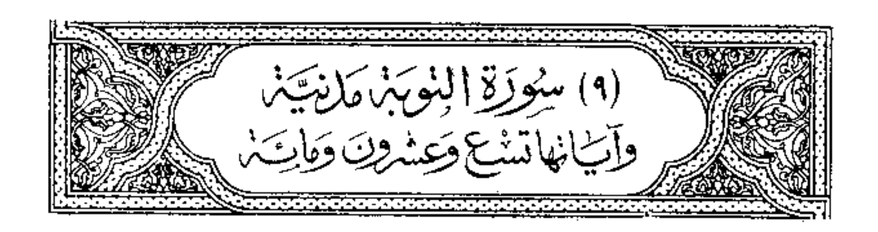
(١) الرَّحِمُ مؤنثة ، والجمع : أرحام ، والمراد بها ها هنا العصبات دون المولود بالرحم ، والواحد : ذو رحم ، ومما يبين أن المراد بالرحم العصبات قول العرب : وصَلَتْكَ رَحِمٌ ، لا يريدون قرابة الأم .

والخلاف في توريث ذوي الأرحام معروف من أيام السلف رضوان الله عليهم . فقال قوم : لا يرث من لا فرض له من ذوي الأرحام ، روي ذلك عن أبي بكر ، وزيد بن ثابت ، وابن عمر ، وروي عن علي ، وهو قول أهل المدينة ، وروي عن مكحول والأوزاعي ، وبه قال الإمام الشافعي رضي الله عنه . وقال بتوريثهم عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، ومعاذ ، وأبو الدرداء ، وعائشة ، وعلي في رواية عنه ، وهو قول الكوفيين وأحمد ، واحتجوا بهذه الآية ، ولكن أصحاب الرأي الأول قالوا : هذه آية مجملة جامعة ، والظاهر بكل رحم قرُب أو بعُد ، وآيات المواريث مُفَسِّرة ، والمُفَسِّر قاض على المجمل ومُبَيِّن .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين



تفسير سورة براءة على بركة الله

هذه السورة مدنية إلا آيتين : ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخرها ، وتُسمى سورة التَّوبة ، قاله حذيفة وغيره ، وتُسمى الفاضحة[1] ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وتُسمى الحافرة لأَنها حفرت عن قلوب المنافقين ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما زال ينزل : «ومنهم ، ومنهم» حتى ظن أنه لا يبقى أَحد ، وقال حذيفة : هي سورة العذاب ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : كنا ندعوها المُقَشْقِشَة ، قال الحارث بن يزيد : كانت تدعى المبعثرة ، ويقال لها المثيرة ، ويقال لها البحوث[2] .

(١) لأنها فضحت أسرار المنافقين ، وهذا بدليل قول ابن عباس رضي الله عنهما : «ما زال ينزل : ومنهم ومنهم حتى ظن أنه لا يبقى أحد» .

(٢) وهذا لأنها أيضاً تبحث عن أسرار المنافقين ، وبقية الأسماء تدور حول هذا المعنى بالنسبة للمنافقين .

وقال أبو مالك الغفاري : أول آية نزلت من براءة ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ ، وقال سعيد بن جبير : كانت براءة مثل سورة البقرة في الطـــول .

واختُلف ــ لم سقط سطر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ من أولها ــ فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : أشبهت معانيها معاني الأنفال ، وكانتا تدعيان القرينتين في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلذلك قَرَنْت بينهما ، ولم أكتب «بِسْمِ اللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» ، ووضعتها في السبع الطُّوَل[1] . وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهما : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أمانٌ وبِشارة ، و «براءة» نزلت بالسَّيف ونبذ العهود ، فلذلك لم تبدأْ بالأَمان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويعزى هــذا القول للْمُبَرِّد وهو لِعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهذا كما يبدأُ المخاطب الغاضب : «أَمَّا بَعْدُ» دون تقريظ ولا استفتاح بِتَبْجِيل ، وروي أن كَتَبَةَ المصحف في مدة عثمان رضي الله عنه اختلفوا في الأنفال وبراءة ، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان ؟ فتركوا فصلا بينهما مراعاة لقول من قال : هما سورتان ،

(١) السبع الطُّوَل : سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعــام ، والأعراف ، فهذه ست سُوَر متواليات ، واختلفوا في السابعة ، فمنهم من قال : هي الأنفال وبراءة ، وعدَّهما سورة واحدة ، ومنهم من جعل السابعة سورة يونس .

ولم يكتبوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ مراعاة لقول من قال منهم: هما واحدة، فرضي جميعهم بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول يضعفه النظر أن يُختلف في كتاب الله هكذا. ورُوي عن أُبي بن كعب أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأْمرنا بوضع ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول كل سورة، ولم يأْمرنا في هذه بشيء، فلذلك لم نضعه نحن. ورُوي عن مالك أنه قال: بلغنا أنها كانت نحو سورة البقرة ثم نُسخ ورُفع كثير منها وفيه البسملة، فلم يَرَوْا بعْدُ أن يضعوه في غير موضعه[1].

وسورة براءة من آخر ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وحكى عمران بن جدير أن أعرابياً سمع سورة براءة فقال: أظن هذه من آخر ما أُنزل الله على رسوله، فقيل له: لِم تقول ذلك؟ فقال أرى أشياء تنقض وعهوداً تنبذ.

---

(١) وقيل: كان من شأن العرب في زمانها في الجاهلية، إذا كان بينهم وبين قوم عهد فأرادوا نقْضه كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بَسْملة، فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقرأها عليهم في الموسم، ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادتهم في نقض العهد من ترك البسملة. وقال القرطبي بعد أن ذكر أكثر من رأي: «والصحيح أن التسْمية لم تكتب لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة، قاله القُشَيْري».

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

[بَرَاءَةٌ] رفع على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : هـــذه الآيات براءة ، ويصح أَن ترتفع بالابتداءِ والخبرُ في قوله : ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ ، وجاز الابتداءُ بالنكرة لأَنها موصوفة فتعرفت تعريفاً ما ، وجاز الإِخبارُ عنها ، وقرأَ عيسى بن عمر : [بَرَاءَةً] بالنصب على تقدير : الزموا براءةً ، ففيها معنى الإِغراءِ . و [بَرَاءَةٌ] معناها : تخلُّصٌ وتَبرُّؤٌ من العهود التي بينكم وبين الكفار البادئين بالنقض ، تقول : برئتُ إِليك من كذا ، فبرئَ الله تعالى ورسوله بهذه الآية إِلى الكفار من تلك العهود التي كانت ونقضها الكفار . وقرأَ أَهل نجران : [مِنِ الله] بكسر النون .

وهذه الآية حُكْم من الله عزَّ وجلَّ بنقض العهود والموادعات التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين طوائف المشركين

الذين ظهر منهم أَو تُحسِّس مِن جِهتهم نقض ، ولما كان عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لازماً لأُمته حسن أَن يقول : [عَاهدْتُمْ] ، قال ابن إسحق وغيره من العلماء : كانت العرب قد واثقها (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً عاماً على أَلا يُصد أَحد عن البيت الحرام ، ونحو ذلك من الموادعات ، فَنَقَض ذلك بهذه الآية ، وأَجَّل لجميعهم أَربعة ، فمن كان له مع النبي صلى الله عليه وسلم عهد خاص وبقي منه أَقل من الأَربعة الأَشهر بلغ به تمامها ، ومن كان أَمده أَكثر من أَربعة أَشهر أَتم له عهده ، إلا إنْ كان ممن تحسس منه نقض فإنه قصر على أَربعة أَشهر ، ومن لم يكن له عهد خاص فرضت له الأَربعة الأَشهر يسيح فيها في الأَرض ، أَي يذهب مسرَّحاً آمناً كالسَّيْح من الماءِ وهو الجاري المنبسط ، ومنه قول طرفة بن العبد :

لوْ خِفْتُ هــــذا منْكَ ما نِلْتَني حتَّى تَرَى خيْلا أَمامي تَسِيحْ (٢)

وهذا يُنْبِئُ عن أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم استشْعر من الكفار نقضاً وتربُّصاً به إلا من الطائفة المستثناة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أَول الأَشهر الأَربعة شوَّال وحينئذ نزلت الآية ، وانقضاؤُها

(١) واثق فلاناً : عاهَدَه . وفي أكثر النسخ الخطية : وافقها بالفاء ، ولفظ «البحر المحيط» : «أوثقها» .

(٢) السَّيْح : الماءُ الظاهر الجاري على وجه الأرض ، والسِّياحة : الذهاب في الأرض للعبادة والترهب ، ومنه الحديث الشريف : (لا سياحة في الإسلام) ، ويقال كما في اللسان : ساح في الأرض يسيح سياحةً وسيوحاً وسيْحاً وسيحاناً ، فمعنى أن الخيل تسيح أنها تذهب في الأرض . هذا والبيت موجود في الديوان .

عند انسلاخ الأَشهر الحرم ، وهو انقضاءُ المحرم بعد يوم الأَذان بخمسين يوماً ، فكأَن أَجل من له عهد أَربعة أَشهر من يوم نزول الآية ، وأَجل سائر المشركين خمسون ليلة من يوم الأَذان .(١)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

اعتُرِض هذا بأَن الأَجل لا يلزم إلا من يوم سُمِع ، ويحتمل أَن البراءة قد كانت سُمِعت من أَول شوال ، ثم كرر إشهارها مع الأَذان يوم الحج الأَكبر ، وقال السدي وغيره : بل أَولها يوم الأَذان وآخرها العشرون من ربيع الآخر ، وهي الحُرُم ، استعير لها الاسم بهذه الحرمة والأَمن الخاص الذي رسمه الله وأَلزمه فيها ، وهي أَجل الجميع ممن له عهد وتحسس منه نقض ، وممن لا عهد له .

وقال الضحاك وغيره من العلماء : «كان من العرب من لا عهد بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم جملة ، وكان منهم من بينه وبينهم عهد وتَحَسَّس منهم النقض ، وكان منهم من بينه وبينهم عهد ولم ينقضوا ، فقوله تعالى : ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبعةَ أَشْهُرٍ﴾ هو أَجل ضربه لمن كان بينه وبينهم عهد وتَحسَّس منهم نقضه ،

(٣) يوم الأذان هو يوم الإعلام بهذه الأحكام التي جاءت في هذه الآية نحو العهود مع المشركين ، وهواليوم الذي أذن فيه عليّ رضي الله عنه وقرأ هذه السورة على الناس ، وقد اختلف الناس فيه فقيل : هو يوم عرفة ، وقيل : هو يوم النحر — وسيأتي بيان ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿يَوْمَ الحَجِّ الأَكبَرِ﴾ .

وأوّل هذا الأَجل يوم الأَذان ، وآخره انقضاءُ العشر الأُول من ربيع الآخر ، وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ هو حُكْم مباين للأَوَّل حَكَم به في المشركين الذين لا عهد لهم البَتَّةَ ، فجاءَ أَجل تأْمينهم خمسين يوماً ، أَولها يومُ الأَذان وآخرها انقضاءُ المحرم ، وقوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ يريد به الذين لهم عهد ولم ينقضوا ولا تُحسِّس منهم نقض ، وهم – فيما روي – بنو ضمرة من كنانة ، عاهد لهم المحسّر بن خويلد وكان بقي من عهدهم يوم الأَذان تسعة أَشهر» .

وحكى الطبري عن فرقة أَنها قالت : إنما أَجَّل الله أَربعة أَشهر من كان عهده ينصرم عند انقضائها أَو قبله ، والمعنى : فقل لهم يا محمد : سيحوا . وأَما من كان له عهد يتمادى بعد الأَربعة الأَشهر فهم الذين أَمر الله لهم بالوفاءِ .

وقوله تعالى : ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ معناه : واعلموا أَنكم لا تغلبون الله ولا تعجزونه هرباً من عقابه ، ثم أَعلمهم بحُكْمه بخزي الكافرين ، وذلك حَتْم إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ الآية . [وأَذانٌ] معناه : إعلامٌ وإشْهارٌ ، و [النَّاس] هاهنا : عام في جميع الخلق ، و [يوْمَ] منصوب على الظرف ، والعامل فيه [أَذَانٌ] وإن كان قد وصف فإن رائحة الفعل باقية ، وهي عاملة في الظرف ، وقيل ، لا يجوز ذلك

إذ قد وُصف المصدر فزالت عنه قوة الفعل ويصح أن يعمل فيه فعل مضمر تقتضيه الألفاظ ، وقيل : العامل فيه صفة الأذان ، وقيل : العامل فيه [مُخْزي] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد .

ويوم الحجّ الأكبر ـ قال عمر ، وابن عمر ، وابن المسيب ، وغيرهم : هو يوم عرفة ، وقال به علي رضي الله عنه ، ورُوي عنه أيضاً أنه يوم النحر ، وروي ذلك عن أبي هريرة وجماعة . وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال منذر بن سعيد وغيره : كان الناس يوم عرفة مفترقين إذ كانت الحمس تقف بالمزدلفة . وكان الجمع يوم النحر بمنى ، فلذلك كانوا يسمونه «الحج الأكبر» أي : من الأصغر الذي هم فيه مفترقون .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا زال في حجة أبي بكر رضي الله عنه لأنه لم يقف أحد بالمزدلفة ، وقد ذكر المهدوي أن الحمس ومن اتبعها وقفوا بالمزدلفة في حجة أبي بكر رضي الله عنه ، والذي تظاهرت به الأحاديث في هذا المعنى أن عليًّا رضي الله عنه أذَّن بتلك الآية يوم عرفة إثر خطبة أبي بكر ، ثم رأى أنه لم يعلم الناس بالإسماع فتتبعهم بالأذان بها يوم النحر ، وفي ذلك اليوم بعث معه أبو بكر مَن يُعينه بالأذان

بها كأبي هريرة رضي الله عنه وغيره ، وتتبعوا بها أيضاً أسواق العرب كذي المجاز وغيره ، فمن هنا يترجح قول سفيان : إن [يَوْمَ] في هذه الآية بمعنى «أيام» ، وبسبب ذلك قالت طائفة : يومُ الحج الأكبر : عرفة حيث وقع أول الأذان ، وقالت طائفة أُخرى : هو يوم النحر حيث وقع إكمال الأذان ، واحتجوا أيضاً بأنه من فاته الوقوف يوم عرفة فإنه يجزيه الوقوف ليلة النحر ، فليس يوم عرفة ـ على هذا ـ يوم الحج الأكبر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا حجة في هذا .

وقال سفيان بن عُيَيْنَة : المراد أيام الحج كلها كما تقول : «يوم صفين ، ويوم الجمل» ، تريد جميع أيامه . وقال مجاهد : يوم الحج الأكبر : أيام منى كلها ومجامع المشركين حيث كانوا بذي المجاز ، وعكاظ ، ومجنة ، حين نودي فيهم ألَّا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كما قال عثمان لعمر رضي الله عنهما حين عرض عليه زواج حفصة رضي الله عنها : إني قد رأيت ألا أتزوج يومي هذا ، وكما ذكر سيبويه أنك تقول لرجل : ما شغلك اليوم ؟ وأنت تريد : في أيامك هذه .

واختلف ، لم وُصف بالأكبر ؟ فقال الحسن بن أَبي الحسن ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل : لأَنه حجَّ ذلك العام المسلمون والمشركون وصادف أَيضاً عيد اليهود والنصارى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف أَن يصفه الله تعالى في كتابه بالكبر لهذا ، وقال الحسن أَيضاً : إنما سُمِّي أَكبر لأَنه حجَّ فيه أَبو بكر رضي الله عنه ونبذت فيه العهود .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا هو القول الذي يشبه نظر الحسن ، وبيانه أَن ذلك اليوم كان المفتتح بالحق وإمارة الإسلام بتقديم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونبذت فيه العهود ، وعزَّ فيه الدِّين وذلَّ الشِّرك ، ولم يكن ذلك في عام ثمان حين ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج عتَّاب ابن أَسِيد[1] ، بل كان أَمر العرب على أَوله ، فكل حجٍّ بعد حجّ

(١) عتاب بن أَسيد (بفتح الهمزة من أَسيد) : صحابي جليل ، أَسلم يوم الفتح ، واستعمله النبي صلوات الله وسلامه عليه على مكة وذلك حين سار إلى حنين وحجّ بالناس عام الفتح ، وأَقرّه أبو بكر على مكة إلى أَن مات ، قالوا : وكان صالحاً فاضلا ، وكان حين استعمله النبي صلى الله عليه وسلم شديداً على المريب ، ليِّناً على المؤمنين ، وكان يقول : والله لا أَعلم متخلفاً عن هذه الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه فإنه لا يتخلف عنها إلا منافق ، وقد تزوج بنت أبي جهل حتى لا يتزوجها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على فاطمة رضي الله عنها ، وقد ولدت له ابنه عبد الرحمن . (الإصابة . والاستيعاب) .

أَبي بكر رضي الله عنه فمتركب عليه ، فحقه لهذا أَن يُسَمّى أَكبر . وقال عطاءُ بن أَبي رباح ، وغيره : الحج الأَكبر بالإِضافة إلى الحج الأَصغر وهي العمرة . وقال الشعبي : بالإِضافة إلى العمرة في رمضان فإنها الحج الأَصغر ، وقال مجاهد : الحج الأَكبر : القِرانُ ، والأَصغر : الإِفراد ، وهذا ليس من الآية في شيءٍ ، وقد تقدم ما ذكره منذر ابن سعيد ، ويتجه أَن يوصف بالأَكبر على جهة المدح لا بالإِضافة إلى أَصغر معين ، بل يكون المعنى : الأَكبر من سائر الأَيام ، فتأَمله .

واختصار ما تحتاج إليه هذه الآية على ما ذكر مجاهد وغيره من صور تلك الحال أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح مكة سنة ثمان ، فاستعمل عليها عتَّاب بن أَسِيد ، وقضى أَمر حنين والطائف وانصرف إلى المدينة فأَقام بها حتى خرج إلى تبوك ، ثم انصرف من تبوك في رمضان سنة تسع فأَراد الحج ، ثم نظر في أَن المشركين يحجون في تلك السنة ويطوفون عراة فقال : لا أُريد أَن أَرى ذلك ، فأَمَّر أَبا بكر رضي الله عنه على الحج بالناس وأَنفذه ، ثم أَتْبعه عليَّ بن أَبي طالب رضي الله عنه على ناقته العضباءِ ، وأَمره أَن يؤذن في الناس بأَربعة أَشياء وهي : (لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ــ وفي بعض الروايات : ولا يدخل الجنة كافر ــ ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه

وسلم عهد فهو إلى مدته)[١] . وفي بعض الروايات : ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فأَجلُه أَربعة أَشهر يسيح فيها ، فإذا انقضت فإن الله بريءٌ من المشركين ورسولُه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَقول : إنهم كانو ينادون بهذا كله ، فهذا للذين لهم عهد وتحسس منهم نقضه ، والإبقاءُ إلى المدة لمن لم يخبر منه نقض . وذكر الطبري أَن العرب قالت يومئذ : نحن نبرأُ من عهدك وعهد ابن عمك إلا من الطعن والضرب ، فلام بعضهم بعضاً وقالوا : ما تصنعون وقد أَسلمت قريش ؟ فأَسلموا كلهم ولم يسِحْ أَحدٌ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وحينئذ دخل الناس في دين الله أَفواجاً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أَمر عليًّا أَن يقرأَ على الناس الأَربعين آية صدر سورة براءَة ، وقيل : ثلاثين ، وقيل : عشرين ، وفي بعض الروايات : عشر آيات . وفي بعضها ، تسع آيات ، ذكرها النقاش [٢] . وقال

(١) الحديث مروي من طرق كثيرة ، فقد أخرجه ابن أبي حاتم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وأخرجه أحمد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن المسيب . (الدر المنثور) .

(٢) هو محمد بن الحسن بن محمد بن زياد — أبو بكر النقاش — مقرئ مفسر ، وكان إمام أهل العراق في القراءات والتفسير ، قرأ القرآن على هارون بن موسى الأخفش ، وروى الحديث =

سليمان بن موسى الشامي : ذلك ثمان وعشرون آية ، فلحق علي أبا بكر رضي الله عنهما في الطريق ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أَمير أَو مأْمور ؟ فقال : بل مأْمور ، فنهضا حتى بلغا الموسم ، فلما خطب أبو بكر رضي الله عنه بعرفة قال : قم يا علي فأَدِّ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام علي رضي الله عنه ففعل ، قال : ثم وقع في نفسي أَن جميع الناس لم يشاهدوا خطبة أَبي بكر فجعلت أَتَتَبّع الفساطيط يوم النحر .

وقرأَ جمهور الناس : ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ بفتح الأَلف على تقدير : بـأَن الله . وقرأَ الحسن ، والأَعرج : [إِنَّ اللّهَ] بكسر الأَلف على القطع ، إِذ الأَذان في معنى القول . وقرأَ جمهور الناس : [وَرسولُه] بالرفع على الابتداءِ وحذف الخبر ، وتقديره : ورسوله بريءٌ منهم ، هذا وهو عند شيخنا الفقيه الأُستاذ أَبي الحسن بن الباذش [1] رحمه الله معنى العطف على الموضع ، أَي تُؤنس بالجملة الأُولى التي هي ابتداءٌ وخبر فعُطفت عليها هذه الجملة ، وقيل : هو معطوف على موضع

= عن أبي مسلم الكَجِّيّ ، وصنف تفسيراً سماه « شفاء الصدور » ، وله: « الإشارة في غريب القرآن » و « الموضح في معاني القرآن » و « دلائل النبوة » و « القراءات » . وقد ضعفه جماعة منهم الدارقطني . (طبقات المفسرين) . وله ترجمة في إرشاد الأريب ، وفي الأنساب ، وفي تذكرة الحفاظ ، والبداية والنهاية ، ووفيات الأعيان ، وغيرها .

(١) علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي المعروف بابن الباذش ، من العلماء بالعربية ، من كتبه : « المقتضب من كلام العرب » ، و « شرح كتاب سيبويه » و « شرح أُصول ابن السّرّاج في النحو » و « شرح الإيضاح » للفارسي . (الأعلام) .

المكتوبة قبل دخول [أَنَّ] التي لا تغير معنى الابتداء بل تؤكده وإذ قد قرئت بالكسر[١] ، لأنه لا يعطف على موضع (أَنّ) بالفتح ، وانظره فإنه مختلف في جوازه ، لأن حكم (أَن) رفع حُكم الابتداء إلَّا في هذا الموضع وما أشبهه ، وهذا قول أبي العباس ، وأبي علي رحمهما الله . ومذهب الأُستاذ[٢] على مقتضى كلام سيبويه ألاّ موضع لما دخلت عليه (أَنّ) إذ هو معرب قد ظهر فيه عمل العامل ، ولأنه لا فرق بين (أَنَّ) و (ليْت) و (لَعلَّ) ، والإجماع على ألاَّ موضع لما دخلت عليه هذه[٣] . وقيل : هو عطف على الضمير المرفوع الذي في [بَريءٌ] ، وحسّن ذلك أن المجرور قام مقام التوكيد ، كما قامت [لا] في قوله تعالى ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آباؤُنَا﴾[٤] . وقرأ ابن أبي إسحق ، وعيسى بن عمر : [رسولَه] بالنصب عطفاً على لفظ المكتوبة . وبهذه الآية امتحن معاوية أبا الأسود حتى وضع النحو إذ جعل قارئاً يقرأ بخفض [وَرَسُولُهُ] .

والمعنى في هذه الآية : بريءٌ من عهودهم وأديانهم براءة عامة تقتضي المحاربة وإعمال السيف .

---

(١) واضح أن الواو زائدة قبل كلمة (إذ) — وهكذا وجدناها في جميع الأصول .

(٢) يعني بالأستاذ أبا الحسن بن البـاذش . وقد سبق التعريف به في الصفحة السابقة .

(٣) قال أبو حيان في «البحر المحيط ٥–٦» (وهذا كلام فيه تعقب لأن علة كون (أنَّ) لا موضع لما دخلت عليه ليس ظهور عمل العامل بدليل : «ليس زيد بقائم» و «ما في الدار من رجل» ، فإنه ظهَر عملُ العامل ولهما موضع ، وقوله : «والإجماع ... الخ» يريد أن (ليْتَ) لا موضع لها من الإعراب بالإجماع ، وليس كذلك ، لأن الفراء خالف وجعل حكم «ليت ، ولعَلَّ ، وكأن ، ولكِنَّ ، وأنَّ» حكم (إنَّ) في كون اسمهن له موضع) .

(٤) من الآية (١٤٨) من سورة (الأنعام) .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أي : عن الكفر . وَوَعَدَهم مع شرط التوبة وتَوعدهم مع شرط التولِّي ، وجاز أن تدخل البشارة في المكروه لما جاءَ مصرَّحاً به مرفوع الإشكال .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

هذا هو الاستثناءُ الذي تقدم ذكره في المشركين الذين بقي من عهدهم تسعة أَشهر وكانوا قد وفوا بالعهد على ما يجب ، وقال قتادة : هم قريش الذين عوهدوا زمن الحديبية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا مردود بإسلام قريش في الفتح قبل الأَذان بهذا كله ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قوله تعالى : ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ : إلى الأَربعة الأَشهر التي في الآية . وقرأَ الجمهور : [يَنْقُصُوكُمْ] بالصاد

غير منقوطة ، وقرأ عطاءُ بن يسار ، وعكرمة ، وابن السميفع : [ينْقُضُوكُمْ] بالضاد ، من النقض ، وهي متمكنة مع العمد . ولكنها قلقة في تعدِّيها إلى الضمير . ويحسن ذلك أن النقض نقض وفاءٍ وحق للمعاهد ، وكذلك تعدّى [أَتِمُّوا] بـ [إلى] لما كان العهد في معنى ما يؤدى ويبرأُ منه (١) وكأَنهم ينقضون العهد . و [يُظَاهِرُوا] معناه : يعاونوا ، فالظَّهر : المُعين ، وأَصلُهُ من الظهر ، كأَن هذا يسند ظهره إلى الآخر ، والآخر كذلك ، وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تنبيه على أَن الوفاء بالعهد من التقوى .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ الآية . الانسلاخ : خروج الشيءِ عن الشيءِ المتلبس به ، كانسلاخ الشاة عن الجلد والرجل عن الثياب ، ومنه قوله تعالى : ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ (٢) ، فشبَّه انصرام الأَشهر بأَسمائها وأَحكامها من الزمن بذلك (٣) . وقد تقدم القول فيمن جُعِل له انقضاءُ الأَشهر الحَرَم أجلا ، وما المعنيّ بالأَشهر الحُرُم بما أَغنى عن إعادته .

---

(١) في بعض النسخ : ويبرأ به .

(٢) من الآية (٣٧) من سورة (يس) .

(٣) يقال : سلختُ الشهر إذا صرت في أواخر أيامه ، قال أبو الهيثم : يقال : أهللنا هلال شهر كذا أي دخلنا فيه ولبسناه فنحن نزداد كل ليلة إلى مُضِيّ نصفه لباساً منه ، ثم نسلخه عن أنفسنا بعد تكامل النصف منه جزْءًا فجزْءًا حتى نسلخه كله ، وأنشد :

إذا ما سلَخْتُ الشَّهْرَ أهْلَلْتُ مِثْلَهُ ... كفَى قاتلا سَلْخي الشُّهورَ وإهْلالي

ويقال أيضاً : سلَخت المرأةُ درعها : نزعته .

وقوله تعالى : ﴿فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أمر بقتال المشركين فخرج الأَمر بذلك بلفظ [اقْتُلوا] على جهة التشجيع وتقوية النفس ، أَي : هكذا يكون أَمركم معهم ، وهذه الآية نسخت كل موادعة في القرآن أَو مهادنة وما جرى مجرى ذلك ، وهي على ما ذُكر مائة آية وأَربع عشرة آية ، وقال الضحاك ، والسدي وعطاء : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿فَإِمَّا منًّا بعْدُ وإمَّا فِداءً﴾[1] ، وقالوا : لا يجوز قتل أَسير البتَّة صبرا ، إما أَن يُمنَّ عليه وإِمَّا أَن يُفادى ، وقال قتادة ، ومجاهد ، وغيرهما : قوله تعالى : ﴿فإمَّا منًّا بعْدُ وإمَّا فِداءً﴾ منسوخ بهذه الآية ، وقالوا : لا يجوز المنُّ على أَسير ولا مفاداته ، ولا شيءَ إلا القتل ، وقال ابن زيد : هما محكمتان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولم يفسر أَكثر من هذا ، وقوله هو الصواب ، والآيتان لا يشبه معنى واحدة معنى الأُخرى ، وذلك أَن هذه الآية قوله تعالى : ﴿فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ﴾ أَفعالٌ إنما تتمثل مع المحارب المرسل المناضل ، وليس للأَسير فيها ذكْر ولا حُكم ، وإذا أُخذ الكافر خرج عن درجات هذه الآية وانتقل إلى حكم الآية الأُخرى ، وتلك الآية لا مدخل فيها لغير الأَسير ، فقول ابن زيد هو الصواب . وقوله :

---

(١) من الآية (٤) من سورة (محمد) .

[خُذُوهُمْ] معناه : الأَسر ، وقوله : ﴿كُلَّ مرْصدٍ﴾ معناه : في مواضع الغِرَّة حيث يُرصدون ، وقال النابغة (١) :

أَعَاذِلُ إِنَّ الجهْلَ مِن لَذَّةِ الْفتى وإِنَّ الْمنايا لِلنُّفُوسِ بِمَرْصَدِ (٢)

ونُصب [كُلَّ] على الظرف ، وهو اختيار الزجاج ، أَو بإِسقاط الخافض ، التقدير : في كل مرصد ، أَو على كل مرصد ، وحكى سيبويه : ضُرِب الظهرَ والبطنَ (٣).

(١) البيت لعديّ بن زيد ، وقد نسبه القرطبي للنابغة أيضاً ، ونسبه في اللسان لعديّ بن زيد وهو الصواب ، وهو من قصيدة مطلعها :

أَتَعْرِفُ رسْمَ الدار مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ ؟ نَعَم، وَرَماكَ الشَّوْقُ قَبْلَ التَّجَلُّدِ

(٢) العذْلُ : اللَّوم ، والعاذل هنا زوجُه ، وقد أشار إليها في بيت آخر قبل هذا يقول فيه :

وعَـــاذِلَةٍ هَبَّتْ بلَيْلٍ تَلُومُني فلمَّا غَلَتْ في اللَّوْم قُلْتُ لَها اقْصِدي

ويروى الشطر الثاني : (وإنَّ المنايا للرِّجال بمَرْصَد) . والمعنى : إن المرء قد يطلب اللذة جهلاً إذ يتوهم فيها السعادة في حين أنها تنتهي به إلى التعاسة ، وإن الموت يترصَّد الناس ويتربص بهم لينقضَّ عليهم .

(٣) المرصد : مَفْعَل من رصَدَ يرصُد بمعنى رقَب – يكون مصدراً وزماناً ومكاناً ، قال عامر بن الطفيل :

ولقَد علِمْتَ وما إخالُكَ ناســـياً أن المنيَّةَ لِلْفَتى بالمَرْصَـــــــدِ

وقال الزمخشري : ﴿كُلَّ مَرْصَد﴾ : كل مَمَرٍّ ومُجْتاز ترصدونهم فيه ، وانتصابُه على الظرف كقوله تعالى : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ المُسْتَقيمَ﴾ . وقال الزجاج : مَرْصَد : ظرف كقولك : ذهبتُ مذهباً ، وردَّه أبو علي الفارسي لأن المرصد هو المكان الذي يرصد فيه العدو فهو مكان مخصوص لا يحذف الحرف منه إلا سماعاً كما حكى سيبويه : دخلتُ البيتَ ، وكقول الشاعر : كما عَسَل الطريقَ الثَّعلبُ ، قال أبو حيَّان الأندلسي رداً على الفارسي : يصح انتصابه على الظرف لأن قوله : [واقْعُدُوا] ليس معناه حقيقة القُعود ، بل المعنى : ارصدوهم في كل مكان يرصد فيه، ومتى كان العامل من لفظ الظرف أو معناه جاز أن يعمل =

وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ يريد : من الكفر ، فهي متضمنة الإيمان ، ثم قرن بها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تنبيهاً على مكان الصلاة والزكاة من الشرع [1] . وقوله : ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ تأمين .

وقال أنس بن مالك : هذا هو دين الله الذي جاءت به الرسل ، وهو من آخر ما نزل قبل اختلاف الأهواء ، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من فارق الدنيا مخلصاً لله تعالى مطيعاً له لقي الله وهو عنه راض) [2] ، ثم وعد بالمغفرة في صيغة الخبر عن أوصافه تعالى .

= فيه بغير واسطة: تقول : «جلست مجلس زيد وقعدت مجلس زيد» تريد : في مجلس زيد . هذا والذي قدّر الواسطة المحذوفة (عَلَى) هو الأخفش قال : معناه : علَى كل مرصد — فحذف الحرف وأعمل الفعل — والذي عليه النحاة أن حذف الحرف وإعمال الفعل مخصوص بالشعر ، كقول الشاعر :

تَحِنُّ فتُبْدي ما بها مِنْ صَبَابَةٍ وأُخْفِي الَّذي لَوْلا الأسى لَقَضَاني

أي : لقضى عَلَيّ .

(١) هذا هو التعليل الذي يراه ابن عطية لذكر الصلاة والزكاة بعد التوبة أو معها ، ولكن كثيراً من العلماء يرون رأياً آخر هو أن الله تعالى علَّق القتل على الشرك ، ثم قال : ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ وذلك يقتضي زوال القتل بمجرد التوبة من غير اعتبار لشيء آخر كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين هما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فلا سبيل إلى إلغائهما ، ونظير ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله) ، قال ابن العربي : فانتظم القرآن والسنة واطّردا . ويرى العلماء أن ذلك فيمن يترك الصلاة والزكاة مستحلا لذلك . وقد يلتقي تعليل ابن عطية برأي العلماء عند التأمل والنظر الدقيق .

(٢) أخرجه ابن جرير عن أنس ولكن بلفظ : (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئاً فارقها والله راض عنه) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾

أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ـ بعد الأَمر بقتال المشركين ـ بأَن يكون متى طَلَب مشركٌ عهداً يأْمن به حتى يسمع القرآن ويرى حال الإِسلام أَنْ يُعْطيه ذلك ، وهي الإِجارة من الجوار . ثم أُمر بتبليغه المأْمن إذا لم يرض بالإِسلام ولم يُهْد إِليه . وقال الحسن : هي محكمة سُنَّة [1] إلى يوم القيامة ، وقاله مجاهد . وقال الضحاك ، والسدي : هذا منسوخ بقوله تعالى : ﴿فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ . وقال غيرهما : هذه الآية إنما كان حكمها مدة الأَربعة الأَشهر التي ضربت لهم أَجلا .

وقوله سبحانه : ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن[2] ، وهي

---

(١) هكذا في جميع الأصول ، وفي القرطبي نقلا عن الحسن أيضاً ، والمعنى بها يكاد يكون غير واضح .

(٢) لما كان القرآن أعظم المعجزات ومصدر الهداية والإرشاد علَّق السماع به .

و (حتَّى) يصحُّ أن تكون للغاية ، أي : إلى أن يسمع ، ويصحُّ أن تكون للتعليل ــ وهي في الحالين متعلقة بـ [أَجِرْهُ] ، ولا يصح أن يكون من باب التنازع وذلك لمانع لفظي ، وهو لو أُعمل الأول وهو [اسْتَجَارَكَ] لأضمر في الثاني [أَجِرْهُ] وحتى لا تجر المضمر ، =

إضافة صفة إلى موصوف ، لا إضافة خلق إلى خالق ، والمعنى : ويَفْهَم أَحكامه وأَوامره ونواهيه ، فذُكر السماعُ بالآذان إذ هو الطريق إلى الفهم ، وقد يجيءُ السماع في كلام العرب مستعملا بمعنى الفهم ، كما تقول لمن خاطبته فلم يقبل منك : «أنت لم تسمع قولي» ، تريد : لم تفهمه ، وذلك في كتاب الله تعالى في عدة مواضع . و [أَحدٌ] في هذه الآية مرتفع بفعل يفسره قوله تعالى : [اسْتَجاركَ] ، ويضعف فيه الابتداءُ لولاية الفعل لِ [إنْ] . وقوله تعالى : [ذلكَ] إشارة إلى هذا اللطف في الإجارة والإسماع وتبليغ المأْمن . و [يعْلَمُونَ] نَفى علمهم بمراشدهم في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿كَيْفَ يكُونُ لِلْمُشْرِكين عهْدٌ عِنْد اللهِ﴾ الآية . لفظ استفهام وهو على جهة التعجب والاستبْعاد ، أَي : على أَي وجه يكون للمشركين عهد وهم قد نقضوا وجاهروا بالتعدي ؟ ثم استثنى من عموم المشركين القوم الذين عوهدوا عند المسجد الحرام ، أَي : في ناحيته وجهته . وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما رُوي عنه : المعنيّ بهذا قريش . وقال السدي : المعني بنو جذيمة من الديل . وقال ابن إسحق : هي قبائل بني بكر ، كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الديل من بني بكر ، فأُمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض . وقال قوم : المعني خزاعة ، قاله مجاهد ،

= لكن من النحويين من أجاز أن تجر (حتّى) المضمر على خلاف رأي الجمهور ، ولا مانع عند هؤلاءِ أن يكون من باب المتنازع ، مع العلم بأنه لا مانع من حيث المعنى من كونه من باب التنازع ، وإنما المانع لفظي كما قلنا — ذكر ذلك أبو حيان في «البحر المحيط» .

وهو مردود بإسلام خزاعة عام الفتح ، وقال بعض من قال إنهم قريش : إن هذه الآية نزلت فلم يستقيموا ، بل نقضوا فنزل تأْجيلهم أَربعة أَشهر بعد ذلك ، وحكى الطبري هذا القول عن ابن زيد ، وهو ضعيف متناقض ، لأَن قريشاً وقت الأَذان بالأَربعة الأَشهر لم يكن منهم إلا مسلم ، وذلك بعد فتح مكة بِسنَة ، وكذلك خزاعة ، قاله الطبري وغيره .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يريد به الموفين بالعهد من المؤمنين ، فلذلك جاء بلفظ معرف للوفاءِ بالعهد متضمن للإِيمان .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

بعد [كَيْفَ] في هذه الآية فعل مقدر ولا بُدّ ، يدل عليه ما تقدم ، فيحسن أن يُقدّر : « كيف يكون لهم عهد »؟ ونحوه قول الشاعر :

وخبَّرْتُماني أَنَّما الموتُ في القُرى فكَيْفَ وهاتا هضْبَةٌ وكثيبُ ؟[1]

(١) هذا البيت لكعب بن سعيد الغَنَوي (مجموع أشعار العرب ١-١٤) من قصيدة له يرثي أخاً له ، ورواية البيت فيه :

وَحَدَّثْتُمَاني أَنَّمَا الْمَوْتُ في القُرى فَكَيْفَ وهاتا روْضَةٌ وَقَلِيبُ ؟

والتقدير : فكيف مات ؟ والبيت في شواهد سيبويه وفي جمهرة أشعار العرب: « هضبة =

وفي [كَيْفَ] هنا تأكيد للاستيعاب الذي في الأُولى ، و [لَا يَرْقُبُوا] معناه : لا يراعوا ولا يحافظوا ، وأصل الارتقاب بالبصر ، ومنه الرقيب في المسير وغيره ، ثم قيل لكل من حافظ على شيءٍ ورعاه : راقبه وارتقبه .

وقرأ جمهور الناس : [إلاًّ] ، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما بياءٍ بعد همزة خفيفة اللام : [إيلاً] ، وقرأت فرقة : [ألاًّ] بفتح الهمزة . فأمَّا من قرأ : [إلاًّ] فيجوز أن يراد به الله عزَّ وجلَّ ، قاله مجاهد ، وأبو مجلز ، وهو اسمه بالسريانية وعُرِّب ، ومن ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع كلام مسيلمة ، فقال : هذا كلامٌ لم يخرج من إلٍّ(١) . ويجوز أن يراد به العهد ، والعرب تقول للعهْد والحِلْف والجِوار ونحو هذه المعاني : إلاًّ ،

= وقليب» ، قال الشنتمري : أراد بالقليب القبر ، وأصله البئر ، كأن الشاعر حُذِّر من وباء الأمصار وهي القُرى فخرج إلى البادية فرأى قبْراً فعلم أنه لا نجاة من الموت فقال هذا ينكر على مَنْ حذَّره من الإقامة في القرى . هذا وقد جاء حذف الفعل بعد (كيف) لدلالة المعنى عليه في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ ؟

(١) قال الأزهري : الإلّ : اسم الله بالعبرانية ، وأصله من الأليل وهو البريق ، وقال السهيلي في «الروض» : حذار أن تقول هو اسم الله تعالى فتسمي الله باسم لم يُسَمِّ به نفسه لأنه نكرة ، ونفى ذلك أيضاً صاحب اللسان لأنه لم يسمع . وأصل الإل في اللغة : التَّحديد ، ومنه الألَّة للحربة ، ومنه أُذن مؤَلَّلةٌ أي مُحَدَّدة ، ومنه قول طرفة بن العبد يصف أذني ناقته بالحِدَّة والانتصاب . :

مُؤَلَّلَتانِ يُعْرَفُ العِتْقُ فيهما كَسَامِعَتَي شاةٍ بحَوْمَل مُفْـرَدِ

أي هما مثل أُذني ثور وحشي مفرد في هذه الرملة المعروفة بحومل .

ومنه قول أبي جهل :

لإلٌّ علَيْنَا واجبٌ لا نُضيعُـــه   مَتينٌ قُواهُ غيْرُ مُنْتَكَثِ الْحَبْلِ (١)

ويجوز أن يراد به القرابة ، فإنها في لغة العرب يقال لها : إلٌّ ، ومنه قول ابن مقبل :

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خلَفُـــوا   قَطعُوا الإلَّ وَأَعْراقَ الرَّحِمْ (٢)

أنشده أبو عبيدة على القرابة ، وظاهره أنه في العهود ، ومنه قول حسان :

لَعَمْـــرُكَ إنَّ إلَّكَ من قُرَيْشٍ   كإلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعامِ (٣)

وأما من قرأ : [أَلاًّ] بفتح الهمزة فهو مصدر من فعل الأَلّ الذي هو العهد ، ومن قرأ : [إيلاً] فيجوز أن يراد به الله عزَّ وجلَّ ، فإنه يقال : إلّ وإيل ، وفي البخاري : قال الله : جَبْر ، وميك ، وسراف : عَبْدٌ بالسريانية ، وإيلُ : اللهُ عزَّ وجلَّ (٤) ، ويجوز أن يريد : [إلاًّ]

---

(١) نَكَثَ الحبلَ : نَقَضه ، وانتكث الحبلُ : انْتَقَضَ أي تَفَكَّكَ وتفرقت خيوطه . والإلُّ في البيت بمعنى : العَهْد والحِلْف والجوار كما ذكر ابن عطية .

(٢) الخُلُوف : جمع خلْف بسكون اللام ، وهم الذين يَخْلُفونَ غيرهم في ديارهم خياراً كانوا أو شراراً ، وقيل : هو خاص بالأشرار ، يقال : هؤلاء خلْف سوءٍ وهم الأخساء الأراذل ، والإلّ في البيت : القرابة على ما قال أبو عبيدة ، وإن كان المعنى ينسجم مع العَهْد كما قال ابن عطية رحمه الله ، والأعراق : جمع عِرْق وهو أصل الشيء .

(٣) استشهد صاحب اللسان بالبيت على أن (الإلّ) بمعنى القرابة ، ونسبه أيضاً لحسَّان ابن ثابت ، والسَّقْب : ولَدُ الناقة ، والرَّأل : ولد النعام . يقول : إن قرابتك من قريش مثل قرابة ولد الناقة لولد النعام .

(٤) معنى ذلك أن هذه الأسماء تحمل معنى العبودية لله ، فهي كلها بمعنى « عبد الله » .

المتقدم فأبدل من أحد المثلين ياءً ، كما فعلوا ذلك في قولهم : أمّا وأَيْما ، ومنه قول سعد بن قرط يهجو أُمّه :

يا لَيْتَمَا أُمُّنَا شَالَتْ نعامَتُهـــا أَيْما إلى جنَّةٍ أَيْما إلى نار [1]

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

رأَتْ رجُلا أَيْما إذا الشَّمْسُ عارضت فَيضْحى وأَمّا بالعَشِيِّ فيخصَرُ [2]

وقال الآخر :

لا تُفْسِدُوا أَباً لَكُمْ إيْما لنا إيْما لَكُمْ [3]

قال أَبو الفتح : ويجوز أَن يكون مأْخوذاً من آل يؤول إذا ساس [4].

---

(١) نسب البيت إلى سعد بن قرط ، أو سعد بن قرين ، أو معبد بن قرط ، وهو فيه يدعو على أُمّه بالموت وقد كان عاقاً لها ، والبيت في الخزانة ٤-٤٣١ ، وفي شواهد السيوطي ٦٧ ، وفي مغني اللبيب ٨٥ ، والنحويون يستشهدون بهذا البيت على أمور منها : فتح الهمزة في (إمّا) ، والإبدال ، وأن (إمّا) الثانية عاطفة عند أكثرهم ، قالوا : وزعم يونس ، والفارسي ، وابن كيسان أنها غير عاطفة كالأولى ، ووافقهم ابن مالك لأنها غالباً ما تلازم الواو ، ومن غير الغالب جاء هذا البيت .

(٢) عارضت : غدت في عرض السماء ، ويضحى : يبرز للشمس ، ويخصر : يبرد ، والبيت كناية عن مواصلة السفر بالنهار وفي العشي ، وهو في الديوان ، وذكره في الخزانة ٤-٥٥٢ .

(٣) لم نعثر على قائله ، والشاهد فيه إبدال الميم ياءً في إمّا الأولى وإما الثانية .

(٤) يقال : أُلْتُ الشيءَ أَوْلاً وإِيالاً ، سُسْتُه ، والإِيالَةُ : السياسة ، وآل عليهم أَوْلاً وإِيالاً وإِيالةً : وَلِيَ ، وفي المَثَل : « قد أُلْنا وإِيلَ علينا » . نسبه ابن برّي إلى عمر وقال : معناه : سُسْنا وسِيسَ علينا . وقال الشاعر :

أَبا مالِكٍ فانْظُرْ فإنَّكَ حالبٌ صَرَى الحَرْبِ فانْظُرْ أَيَّ أَوْلٍ تؤُولُها

(عن اللسان) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «قد أُلْنا وإيلَ عَلَيْنَا» ، فكأن المعنى ـ على هذا ـ : لا يرقبون فيكم سياسة ولا مداراة ولا ذمة ، وقلبت الواو ياءً لسكونها والكسرة قبلها .

والذمَّة أيضاً بمعنى المتاب والحِلْفِ والجوار ، ونحوُهُ قول الأصمعي : «الذمة كل ما يجب أن يحفظ ويُحمى»[(1)] ، فمن رأى في (الإلِّ) أنه العهد جعلهما لفظتين مختلفتين لمعنى واحد أو متقارب ، ومن رأى (الإلَّ) لغير ذلك فهما لفظان لمعنيين .

و ﴿تَأْبَى قُلُوبُهُم﴾ معناه : تأبى أن تذعن لما يقولونه بالألسنة ، وأَبَى يَأْبَى شاذٌّ ، لا يُحفظ فعل يفْعل بفتح العين في الماضي والمستقبل ، وقد حُكي ركَن يركَن . وقوله : [وأَكْثَرُهُم] يريد به الكل ، أو يريد استثناءً من قضى له بالإيمان ، كل ذلك محتمل .

وقوله تعالى : ﴿ٱشْتَرَوْا بِآيَاتِ ٱللهِ ثَمناً قَلِيلًا﴾ الآية . اللازم من ألفاظ هذه الآية أن هذه الطائفة الكافرة الموصوفة بما تقدم لمَّا تركت آيات الله ودينه وآثرت الكفر وحالها في بلادها ، كل ذلك كالشراءِ والبيع لمَّا كان تَرْكاً لما قد مُكِّنوا منه وأَخْذاً لما يمكن نبذه ، وهذه نزعة مالك رحمه الله في منع اختيار المشتري فيما تختلف آحاد

---

(١) قال أبو عبيدة مَعْمر : الذِمَّةُ : التَّذَمُّم ، وجمع ذِمَّةٍ : ذِمَمٌ ، وبئر ذَمَّة (بفتح الذال) : قليلة الماء ، وجمعها : ذمام . وأهل الذمة : أهل العقد .

جنسه ولا يجوز التفاضل فيه[١] . وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة . وقوله : ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يريد : صدُّوا أنفسهم وغيرهم ، ثم حكم عليهم بأن عملهم سَيِّئٌ ، و [ساءَ] في هذه الآية ـ إذْ لم يُذكر مفعولها ـ يحتمل أن تكون مضمنة كبئس ، فأما إذا قلت : «ساءني فعل زيد» فليس بتضمين بوجه ، وإن قدرت في هذه الآية مفعولا زال التضمين .

وروي أن أبا سفيان بن حرب جمع بعض العرب على طعام ، وندبهم إلى وجه من وجوه النقض فأجابوا إلى ذلك فنزلت الآية ، وقال بعض الناس : هذه في اليهود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول وإن كانت ألفاظ هذه الآية تقتضيه فما قبلها وما بعدها يردُّه ويتبرأُ منه ، ويختل أُسلوب القول به .

وقوله تعالى : ﴿لا يَرْقُبُونَ﴾ الآية . وصف لهذه الطائفة المشترية يضعف ما ذهب إليه من قال إن قوله : ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هو في اليهود ، وقوله تعالى : ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ إعلامٌ بأن عداوتهم إنما هي

(١) مفهوم الآية أن هؤلاء الكفرة لم يخيروا بين الدخول في الإسلام والبقاء على كفرهم إلا مع بيان الحقيقة لهم ، وهي ما ينالهم من العذاب الأليم الدائم إن هم اختاروا الكفر ، وبناء على هذا المفهوم أخذ الإمام مالك رحمه الله حكماً في عمليات البيع والشراء يمنع بمقتضاه الإنسان من الشراء على أن يختار في كل ما تختلف آحادُ جنسه ولا يجوز فيه التفاضل إلا مع بيان ثمن كل فرد من أفراد الجنس المذكو توضيحاً للحقيقة .

بحسب الإيمان فقط . وقوله أولا : [فِيكُمْ] كان يحتمل أن يظن ظانٌّ أن ذلك لِلْإِحن التي وقعت فزال هذا الاحتمال بقوله : [في مُؤْمِنٍ]، ثم وصفهم بالاعتداء والبداءة بالنقض للعهود والتعمق في الباطن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

[تَابُوا] : رجعوا عن حالهم ، والتوبة منهم تتضمن الإيمان ، ثم قرن تعالى بإيمانهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : حرّمت هذه الآيةُ دماءَ أهل القِبْلَة ، وقال ابن زيد : قرن الله الصلاة بالزكاة ولم يرض بإحداهما دون الأُخرى [(١)] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا مرَّ أبو بكر رضي الله عنه وقت الردَّة .

---

(١) في هذا المعنى روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مَنْ فرّق بين ثلاثٍ فرّق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة ، من قال : أطيع الله ولا أطيع الرسول ، والله تعالى يقول : ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ، ومن قال : أقيم الصلاة ولا أُوتي الزكاة ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ، ومن فرّق بين شكر الله وشكر والديه ، والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ .

والأُخوّة في الدين هي أُخوّة الإسلام ، وجمعُ الأَخ منها : إخوان ، وجمعهُ من النسب : إخوة قاله بعض اللغويين ، وقد قيل : إن الأَخ من النَّسب يجمع على إخوان أَيضاً ، وذلك ظاهر من قوله تعالى : ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ﴾[١] ، ويبين ذلك قوله تعالى في آخر الآية : ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ ، وكذلك قوله في هذه السورة : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُم وإِخْوانُكُمْ وأَزْواجُكُمْ﴾[٢] الآية . فأَما الأَخ من التَّوادِّ فَفي كتاب الله : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣] . وقال أَبو هريرة في البخاري : «كان إخوتي من المهاجرين يشغلهم الصفق بالأَسواق[٤] ، » فيصح من هذا كله أَن الأَخ يجمع إخوة وإخواناً سواءٌ كان من نسب أَو مودة . وتفصيلُ الآيات : بيانها وإيضاحها.

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الآية . النكثُ : النقض ، وأَصله في كل ما قُبِل ثم حُلَّ ، فهي في الأَيمان والعهود مستعارة ، وقوله : ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أَي بالاستنقاص والحرب وغير ذلك مما يفعله المشرك ، وهذه استعارة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) من الآية (٦١) من سورة (النور) .
(٢) من الآية (٢٤) من هذه السورة – (براءة) أو (التوبة) .
(٣) من الآية (١٠) من سورة (الحجرات) .
(٤) الصفق بالأسواق هو البيع والشراء ، يقال : صفَق البيعَ ، أمضاه ، وكانت العرب إذا أرادوا إنفاذ البيع ضربَ أحدهما يده على يد صاحبه ، فقالوا : صفق يده ، أو صفق على يده بالبيع فوصفوا به البيع .

حين أَمَّر أُسامة : (إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أَبيه من قبل) الحديث [١] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويليق هنا ذكر شيء من طعن الذمي في الدين ، فالمشهور من مذهب مالك رحمه الله أَنه إذا فعل شيئاً من ذلك مثل تكذيب الشريعة وسبّ النبي صلى الله عليه وسلم ونحوه قُتِل ، وقيل : إذا كفر وأَعلن بما هو معهود من مُعتقده وكُفْره أُدّب على الإعلان وتُرك ، وإذا كفر بما ليس من معهود كفره كالسبِّ ونحوه قُتِل ، وقال أَبو حنيفة في هذا : إنه يُسْتَتاب ، واختلف إذا سبَّ الذمّي النبي صلى الله عليه وسلم ثم أَسلم تقية القتل ، فالمشهور من المذهب أَنه يُترك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (الإسلام يَجُبُّ ما قبله) [٢] وفي «العتبية» أَنه يقتل ولا يكون أَحسن حالا من المسلم .

وقوله تعالى : ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي رؤُوسهم وأَعيانهم الذين يقودون الناس إليه ، وقال قتادة : المراد بهذا أَبو جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وغيرهم .

---

(١) الحديث رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، وغيرهم ، ولفظه كما في البخاري : (عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعثاً وأمّر عليهم أُسامة ابن زيد ، فطعن بعض الناس في إمْرَتِهِ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن كنتم تطعنُون في إمْرَتِهِ فقد كنتم تطْعُنُون في إمْرَةِ أبيه من قبلُ ، وأيم الله إن كان لَخَليقاً لِلإمارة ، وإن كان لِمن أحبِّ الناس إليَّ ، وإنَّ هذا لَمِن أحب الناس إليَّ بَعْدَهُ) .

(٢) رواه ابن سعيد عن الزبير وعن جُبَيْر بن مطعم بلفظ (الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله) ، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ـ إن لم يتأَول أنه ذكرهم على جهة المثال ـ ضعيف ، لأَن الآية نزلت بعد بدر بكثير ، وروي عن حذيفة أَنه قال : لم يجئْ هؤلاءِ بعْدُ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يريد : لم ينقرضوا فهم يحيون أَبداً ويقاتلون ، وأَصوب ما في هذا أَن يقال : إنه لا يُعنى بها مُعيَّن ، وإنما وقع الأَمر بقتال أَئمة الناكثين بالعهود من الكفرة إلى يوم القيامة دون تعيين ، واقتضت حال كفار العرب ومحاربي رسول الله صلى الله عليه وسلم أَن تكون الإشارة إليهم أَولا بقوله : ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ ، وهم حصلوا حينئذ تحت اللفظة إذ الذي يتولى قتال النبي صلى الله عليه وسلم والدفع في صدر شريعته هو إمام مَنْ يكفر بذلك الشرع إلى يوم القيامة ، ثم تأْتي في كل جيل من الكفار أئمة خاصة بجيلٍ جيلٍ .

وقرأَ نافع ، وابن كثير ، وأَبو عمرو : [أَيِمَّة] بهمزة واحدة وبعدها ياءٌ مكسورة . وقد رُوي عن نافع مدُّ الهمزة ، وروى عنه ابن أَبي أَويس [أَئِمَّة] بهمزتين ، وأَصْلها : (أَأْمِمَةْ) وزنها أَفْعِلة جمع إمام ، كعمادٍ وأَعْمِدة ، نقلت حركة الميم إلى الهمزة التي هي فاءُ الفِعل[1] ، وأُدْغِمَت الميم في الميم الأُخرى وقلبت الهمزة ياءً لانكسارها

(١) معنى ذلك أن الهمزة الأولى هي همزة الجمع ، والثانية همزة الأصل التي كانت في (إمام) ـ وكان إدغام الميم في الميم للمجانسة .

ولاجتماع همزتين من كلمة واحده . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي [أَئِمَّة] والتعليل واحد إلا أنهم لم يقلبوا الهمزة ياءً . وقرأ المُسَيِّبي [1] عن نافع : [آيِمَّة] بهمزة ممدودة ، وقرأ هشام عن أبي عامر بِمَدَّة بين الهمزتين[2] .

وقرأ الناسُ الجم الغفير : ﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ على جمع يمين ، وليس المرادُ نفي الأَيْمَانَ جملة ، وإنما المعنى : لا أَيْمَان لهم يُوَفىّ بها ويُبَرّ ، وهذا المعنى يشبه الآية . وقرأ الحسن ، وعطاءٌ ، وابن عامر وحده من السبعة : ﴿لَا إِيمَانَ لَهُمْ﴾ وهذا يحتمل وجهين ، أحدهما ، لا تصديق ، قال أبو علي : وهذا غير قويّ لأنه تكرير ، وذلك أنه وصف أئمة الكفر بأنهم لا إيمان لهم ، فالوجه في كسر الألف أنه مصدر من آمنه إيماناً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[3] ، فالمعنى أنهم لا يُؤَمَّنون كما يُؤَمَّن أهلُ الذمة الكتابيون ، إذ المشركون لم يكن لهم إلا الإسلام أو السيف . قال أبو حاتم : فسّر الحسَن قراءته : لا إسلام لهم .

---

(١) المُسَيَّبِيّ : هو إسحق بن محمد بن عبد الرحمن بن المسيَّب ، أبو محمد المسيَّب المدني ، إمام جليل ، عالم بالحديث ، قيّم في قراءة نافع ، ضابط لها ، قال أبو حاتم السجستاني : إذا حدثت عن المُسَيَّبِيِّ عن نافع ففرِّغ سمعك وقلبك فإنه أتقن الناس ، وأعرفهم بقراءة أهل المدينة . (غاية النهاية ١–١٥٧ ، ١٥٨) .

(٢) الأولى حينئذ أن تكتب (أآئمة) ويمكن أن تكتب (آئمة) ، وتأمل الفرق بين هذه القراءة وبين قراءة المسيَّبيِّ عن نافع .

(٣) من الآية (٤) من سورة (قريش) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتكرير الذي فرَّ أبو علي منه متَّجه لأنه بيان المبهم الذي يوجب قتلهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾ عرض وتحضيض ، وقوله : ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُمْ بَدؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن : المراد : من المدينة ، وهذا يستقيم كغزوة أُحُد والأحزاب وغيرهما ، وقال السدي : المراد : من مكة ، فهذا على أن يكون المعنى : همُّوا وفعلوا ، أو على أن يقال : هموا بإخراجه بأيديهم فلم يصلوا إلى ذلك ، بل خرج بأمر الله عزَّ وجلَّ ، وهذا يجري مع إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على أبي سفيان بن الحارثة قوله :

وَرَدَّني للهِ منْ طرَّدْتُ كلَّ مُطَرَّد

ولا ينسب الإخراج إليهم إلا إذا كان الكلام في طريق تَذْنيبهم ،

كما قال تعالى : ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ ٱللهِ﴾[١] ، وقوله : ﴿مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾[٢] ، والأول على أن ما فعلوا به من أسباب الإخراج هو الإخراج .

وقوله : ﴿أَوَّل مرَّةٍ﴾ قيل : يراد أفعالهم بمكة بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين ، وقال مجاهد ، يراد به ما بدأت به قريش من معونة بني بكر حلفائهم على خزاعة حلفاءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا بدءَ النقض ، وقال الطبري : يعني فعلهم يوم بدر . وقوله : [أَتَخْشَوْنَهُمْ] استفهام على معنى التقرير والتوبيخ ، وقوله : [فاللهُ] مرتفع بالابتداءِ ، و [أَحَقُّ] خبره ، و ﴿أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ بدل من اسم الله ، بدل اشتمال ، أو في موضع نصب على إسقاط خافض تقديره : بأن تخشوه ، ويجوز أن يكون [الله] ابتداءً ، و [أَحَقُّ] ابتداءٌ ثان[٣] ، و [أَن تَخْشَوْهُ] خبر الثاني ، والجملة خبر الأول ، وقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين﴾ كما تقول : افعل كذا إن كنت رجلا ، أي : رجلا كاملا ، فهذا معناه : إن كنتم مؤمنين كاملي الإيمان ، لأن إيمانهم كان قد استقر .

---

(١) من الآية (٢١٧) من سورة (البقرة) .

(٢) من الآية (١٣) من سورة (محمد) .

(٣) هكذا في جميع الأصول ، وقال أبو حيان تعليقاً على ذلك : «وحسن الابتداء بالنكرة لأنها أفعل التفضيل ، وقد أجاز سيبويه أن تكون المعرفة خبراً للنكرة في نحو : أقصِدُ رجلاً خيرٌ منه أبوه .»

وقوله تعالى : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ﴾ الآية . قررت الآيات قبلها أفعالَ الكفرة ، ثم حضَّض على القتال مقترناً بذنوبهم لتنبعث الحمية مع ذلك ، ثم جزم الأَمر بقتالهم في هذه الآية مقترناً بوعد وكيد يتضمن النصرة عليهم والظفر بهم ، وقوله : [يُعَذِّبْهُمْ] معناه : بالقتل والأَسر وذلك كله عذاب ، [وَيُخْزِهِمْ] معناه : يذلهم على ذنوبهم ، يقال : خَزِي الرجل يخزى خزياً إذا ذلَّ من حيث وقع في عار ، وأَخزاه غيره ، وخَزِي يَخْزى خزايةً إذا استحيا . وأَما قوله : ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الكلام يحتمل أن يريد جماعة المؤمنين ، لأَن كل ما يهد من الكفر هو شفاءٌ من همّ صدور المؤمنين ، ويحتمل أَن يريد تخصيص قوم من المؤمنين ، وروي أَنهم خزاعة ، قاله مجاهد والسدي ، ووجه تخصيصهم أَنهم الذين نقض فيهم العهد ونالتهم الحرب ، وكان يومئذ في خزاعة مؤمنون كثير ، ويقتضي ذلك قول الخزاعي المستنصر بالنبي صلى الله عليه وسلم :

. . . . ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْـــزِع يدا

وفي آخر الرجز يقول :

. . . . وقَتَّـــلونَا رُكَّعاً وسُجَّـــدا [1]

---

(١) الخزاعي الذي قال هذا الرجز اسمه عمرو بن سالم ، وقصتُه أن صلح الحديبية جعل بني بكر يدخلون في عَقْد قريش وعهدهم ، وخزاعة تدخل في عقد النبي صلى الله عليه وسلم وعهده . وبقيت الهدنة سبعة عشر شهراً بين الطرفين ، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة حلفاء=

وقرأ جمهور الناس : ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ على إسناد الفعل إلى الله عزَّ وجلَّ . وقرأت فرقة : ﴿ويذْهَبُ غيْظُ قُلُوبِهِمْ﴾ على إسناد الفعل إلى الغيظ . وقرأ جمهور الناس : [ويَتُوبُ] بالرفْع على القطع مما قبله ، والمعنى أن الآية استأنفت الخبر بأنه قد يتوب على بعض هؤلاء الكفرة الذين أمر بقتالهم ، قال أبو الفتح : وهذا أمر موجود سواءٌ قوتلوا أو لم يقاتلوا ، فلا وجه لإدخال التوبة في جواب الشرط الذي في [قَاتِلُوهُمْ] على قراءة النصب ، وإنما الوجه الرفع على الاستئناف والقطع . وقرأ الأعرج ، وابن أبي إسحق ، وعيسى الثقفي ، وعمرو ابن عبيد ، وأبو عمرو – فيما رُوي عنه – : [ويتُوبَ] بالنصب على تقدير : «وأن يتوب» ، ويتوجه ذلك عندي إذا ذهبت إلى أن التوبة إنما يراد بها هنا أن قتل الكافرين والجهاد في سبيل الله هو توبة لكم أيها

=الرسول صلى الله عليه وسلم ليلا بماءٍ لهم يقال له: «الوتير» قرب مكة ، فقالت قريش : ما يعلم بنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهذا الليل وما يرانا أحد ، فأعانوا بني بكر على خزاعة بالكراع والسلاح ، وركب عمرو بن سالم هذا حتى قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبيات أنشده إياها ، ومنها :

اللَّهُمَّ إنِّي ناشدٌ مُحَمَّدا ... حِلْفَ أبينَا وأبيهِ الأتْلَدَا
كُنَّا والداً وكنت ولَدا ... ثُمَّتَ أسْلَمْنَا ولم نَنْزِعْ يَدَا
فانْصُرْ رسول الله نصْراً أعْتَدا ... وادْعوا عِبَادَ الله يَأتُو مَدَدا

إلى أن يقول: هُمْ بَيَّتُونا بالهَجير هُجَّدَا ... وقَتَّلُونَا رُكَّعاً وسُجَّدَا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نُصِرتَ يا عمرو بن سالم) وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاد ، وكان أن كتم مخرجه ، وسأل الله أن يُعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم ، وكان نصر الله الأكبر ، وتم فتح مكة .

المؤمنون وكمال لإيمانكم ، فتدخل التوبة ـ على هذا في شرط القتال[1] .
و ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان نِسْبَتُهُمَا إلى الآية واضحة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

[أَمْ] في هذه الآية ليست المعادلة ، وإنما هي المتوسط في الكلام ، وهي عند سيبويه التي تتضمن إضراباً عن اللفظ الأَول لا معناه ،

---

(١) بدأت الآية الكريمة بأمر هو ﴿قَاتِلوهُمْ﴾ . وبعده جوابُه ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ﴾ ، وفي الأمر معنى الشرط ، والتقدير : إن تقاتلوهم يعذبْهم الله بأيديكم ، ثم جاء بعد الجواب قوله ﴿ويُخزِهِم﴾ ، ﴿وينصرْكُم عَلَيهم﴾ ، ﴿ويَشْفِ صُدورَ قَوْمٍ﴾ ، ﴿ويُذْهِبْ غيْظَ قُلوبِهِمْ﴾ ـ وكلها مجزومة بالعطف على [يُعذبْ] ، ويجوز فيها كلها الرفع على القطع من الأول والاستئناف ، ويجوز النصب على إضمار (أنْ) وهو ما يسمَّى الصرف عند الكوفيين ، وعليه قول الشاعر : فَإن يَهْلِكْ أبو قابوسَ يَهْلِكْ ربيعُ النَّاسِ والشَّهْرُ الحـرامُ
ونأخُذْ بَعْدَه بذِنَابِ عَيْشٍ أجَبِّ الظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنامُ
وإن شئت رفعت (نأخذ) على القطع ، وإن شئت نصبته . لكن جاءت بعد ذلك جملة ﴿وَيَتُوبُ اللهُ﴾ والقراءة فيها بالرفع على الاستئناف ، ولا يجوز الجزم لأنه ليس من جنس الأول ، لأن القتال غير موجب لهم التوبة من الله كما أوجب لهم العذاب والخزي ، وكما أوجب شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ فقد تم الكلام ، ثم قال سبحانه : ﴿وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ﴾ ، هذا وقد ذكر ابن عطية التعليل المقبول لجواز النصب في [وَيَتُوبَ] على معنى أن نعتبر الجهادَ في سبيل الله وقَتْلَ الكفار توبةً .

واستفهاماً ، فهي تسُدّ مسدَّ «بلْ وألف الاستفهام» ، وهي التي في قولهم : «إنَّهَا لَإِبل أَمْ شَاءٌ» ، التقدير : بل أهي شاءٌ؟ وقوله : ﴿أَنْ تُتْرَكُوا﴾ يَسُد عند سيبويه مسَدَّ مفعولي (حسِب) . وقال المبرّد : [أَنْ] وما بعدها مفعول أول ، والثاني محذوف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كأَن تقديره : مُهْملين ، أو سُدًى ، ونحو ذلك .

وقوله تعالى : [وَلَمَّا] هي (ما) دخلت على (لم) وفيها مبالغة ، ومعنى الآية : أظننتم أن تُتركوا دون اختبار وامتحان ؟ ف [لَمَّا] في هذه الآية بمنزلة قول الشاعر :

بِأَيْدِي رجالٍ لم يَشيموا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ تَكْثُرِ الْقَتْلَى بها حينَ سُلَّتِ [١]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمراد بقوله : ﴿وَلَمَّا يعْلَم﴾ لما يعلم ذلك موجوداً كما علمه أزلاً بشرط الوجود ، ولما يظهر فعلكم واكتسابكم الذي يقع عليه الثوابُ والعقاب ، ففي العبارة تجوز ، وإلاّ فحَتْم أنه قد علم الله في الأزل

---

(١) الشاعر هو الفرزدق ، والبيت في المدح ، وكلمة (شام) من الأضداد ، يقال : شام السيْف شيما : سلَّه وأغمده ، والمراد هنا الإغماد ، والواو في قوله : (ولم تكثر) واو الحال ، أي : لم يغمدوها والقتلى بها لم تكثر ، وإنما يغمدونها بعد أن تكثر القتلى ، ومن الشواهد الواضحة على أن شام بمعنى أغمد قول الطرماح :

وقَدْ كنْتُ شِمْتُ السَّيْفَ بعْدَ استِلاله وحاذَرْتُ يومَ الوَعْد ما قبلَ في الوَعْدِ

الذين وصفهم بهذه الصفة مشروطاً وجودهم ، وليس يحدث له علم[١] تبارك وتعالى عن ذلك .

و [وَلِيجَةً] معناه : بطانة ودخيلة ، قال عبادة بنُ صَفْوان الغَنَوي :

ولائِجُهُم في كلِّ مَبْدَى وَمَحْضَرٍ إلى كُلِّ مَنْ يُرْجى وَمنْ يُتَخَوَّف[٢]

وهو مأْخوذ من الولوج ، فالمعنى : أَمراً باطناً مما ينكره الحق .

وهذه الآية مخاطبة للمؤمنين معناها أَنه لابد من اختبارهم ، فهي كقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٣] ، وكقوله : ﴿الـم ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[٤] ، وفي هذه الآية طعن على المنافقين الذين اتخذوا الولائج لاسيما عندما فُرض القتال . وقرأَ جمهور الناس : ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاءِ على المخاطبة ، وقرأَ الحسن ، ويعقوب - في رواية رويس - وسلام بالياءِ على الحكاية عن الغائب .

---

(١) نص هذه الجملة في بعض النسخ : « وليس يحدث أنه علم » .

(٢) الولائج : جمع وليجة وهو بطانة الرجل وخاصته ، والمَبْدَى خلاف المَحْضَر ، قاله في اللِّسان ، وقال : البَدْوُ والباديَةُ والبَدَاةُ والبَدَاوَةُ : خلاف الحضر ، وفي الحديث : (مَنْ بَدَا جَفَا) ، أي : من نزل البادية صار فيه جفاءُ الأعراب ، والرجاءُ ضد الخوف ، يقول : إن بطانتهم من كل نوع ، من البدو ، ومن الحضر ، فهم موضع القصد من الجميع . وهم موضع الرجاءِ والخوف .

(٣) من الآية (٢١٤) من سورة (البقرة) .

(٤) الآيتان (١ ، ٢) من سورة (العنكبوت) .

وقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [١] . معناه : ما كان للمشركين بحق الواجب أَن يعمروا ، وهذا هو الذي نفى الله عزَّ وجلَّ ، وإلا فقد عمروا مساجده قديماً وحديثاً وتَغَلُّباً وظُلْماً . وقرأ حماد بن أَبي سلمة عن ابن كثير ، والجحدري : [مَسْجِد اللهِ] بالإِفراد في الموضعين . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، والأَعرج ، وشيبة ، وأَبو جعفر ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : [مساجِدَ] بالجمع في الموضعين ، وقرأ ابن كثير أَيضاً ، وأَبو عمرو : [مسْجِدَ] بالإِفراد في هذا الموضع الأَول ، و [مساجِدَ] بالجمع في الثاني ، كأَنه ذكر أَولا الذي فيه النازلة ذلك الوقت ، ثم عمم المساجد ثانياً في الحكْم الثابت ما بقيت الدنيا ، ولفظ الجمع يقتضي عموم المساجد كلها ، ويحتمل أَن يراد به المسجد الحرام في الموضعين وحده على أَن يقدر كل موضع سجود فيه مسجداً ثم يُجمع ، ولفظ الإِفراد في الموضعين يقتضي خُصُوص المسجد الحرام وحده ، ويحتمل أَن يُراد به الجنس فيعم المساجد كلها ، ولا يمنع من ذلك إِضافته كما ذهب

---

(١) قيل في سبب نزول هذه الآية : إن العباس لما أُسر وعُيِّر بالكفر وقطيعة الرحم قال : تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا ، فقال علي : أَلَكُم محاسن ؟ قال : « نعم ، إنَّا لنَعْمُرُ المسجد الحرام ، ونَحْجُبُ الكعبة ، ونسقي الحجاج ، ونَفُكّ العاني » ، فنزلت هذه الآية ردّاً عليه ؛ ولهذا قال الزمخشري : معنى الآية : « ما صحّ وما استقام لهم ذلك » ؛ وهذا هو معنى قول ابن عطية هنا : « ما كان للمشركين بحق الواجب أَن يعمروا ، وهذا هو الذي نفى الله عزّ وجلّ ، وإلا فقد عمروا مساجده قديماً وحديثا وتغلُّباً وظلماً » .

إليه من لا بصر له ، وقال أَبو عليّ : الثاني في هذه القراءَة يراد به الأَول وسائر المساجد كلها حكمها حكم المسجد الحرام .

وقوله تعالى : ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ إشارة إلى حالهم ، إذ أَقوالهم وأَفعالهم تقتضي الإقرار بالكفر والتحلي به ، وقيل : الإشارة إلى قولهم في التَّلْبِيَة : «إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك» ونحو ذلك ، وحكى الطبري عن السدي أَنه قال : الإشارة إلى أَن النصراني كان يقول : أَنا نصراني ، واليهودي كذلك ، والوثني يقول : «أَنا مشرك».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا لم يحفظ . ثم حكم الله عليهم بأَن أَعمالهم قد حَبِطت ، أَي : بطلت ، ولا أَحفظها تستعمل إلا في السعي والعمل ، ويشبه أَن يكون من الحبط وهو داءٌ قاتل يأْخذ السائمة إذا رعَتْ وبيلا ، وهو الذي في قوله عليه الصلاة والسلام : (إنَّ مما ينبت الربيع ما يقتل حبَطاً أَو يُلِم) الحديث [1] .

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس ذات يوم على المِنْبر وجلسنا حوله فقال: (إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفْتَح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل : يا رسول الله أو يأتي الخير بالشَّر ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقيل له: ما شأنك تُكلِّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يكلمك ؟ فرأينا أنه يُنْزَلُ عليه ، قال : فمسح عنه الرُّحَضَاء فقال : أين السائل ؟ وكأنه حمده ، فقال : إنه لا يأتي الخير بالشَّر ، وإن مما ينبت الربيع يَقْتُل أو يُلِمّ ، إلا آكلة الخضراءِ أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثَلَطَتْ وبَالَتْ وَرَتَعَتْ ، وإن هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَة ، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، أو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ، ويكون شهيداً عليه يوم القيامة) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

المعنى في هذه الآية : إنَّمَا يعمر مساجد الله بالحق لهم والواجب ، ولفظ هذه الآية الخبر وفي ضمنها أمر المؤمنين بعمارة المساجد، وقد قال بعض السلف : إذا رأيتم الرجل يعمر المساجد فحسنوا به الظن ، وروى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان)(١) ، وقد تقدم القول في قراءة [مساجد] . وقوله : ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلاَةَ وَآتَى ٱلزَّكَاةَ﴾ يتضمن الإيمان بالرسول إذ لا يتلقى ذلك إلا منه ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ حذفت الألف من (يخشى) للجزم ، قال سيبويه : « واعلم أن الأخير إذا كان يسكن في الرفع حذف في الجزم لئلا يكون الجزم بمنزلة الرفع » ، ويريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ، وهذه مرتبة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجة ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، والنسائي ، والبيهقي في شعب الإيمان – عن أبي سعيد ، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة . (الجامع الصغير) .

العدل بين الناس ، ولا محالة أن الإنسان يخشى غيره ويخشى المحاذير الدنيوية ، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاءَ الله وتصريفه ، و [عَسَى] من الله واجبة حيثما وقعت في القرآن ، ولم يرْجُ الله بالاهتداء إلا من حصل في هذه المرتبة العظيمة من العدالة ، ففي هذا حضٌّ بليغ على التقوى .

وقرأ الجمهور : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحرَامِ﴾ ، وقرأ ابن الزُّبير[1] ، وأبو وجْزَة[2] ومحمد بن عليّ ، وأبو جعفر القاري[3] : ﴿أَجعلْتُمْ سُقَاةَ الْحاجِّ وعمرَةَ ٱلْمسْجِدِ ٱلْحرام﴾[4] ، وقرأها كذلك ابن جبير إلا أنه نصب [الْمسْجِد] على إرادة التنوين في [عَمَرَةَ] . وقرأ الضحاك ، وأبو وجزة ، وأبو جعفر القاري [سُقايةَ] بضم السين[5] ، و [عمرة] . فأما من قرأ [سِقَاية] و [عِمارة] ففي

---

(١) هو عبد الله بن الزبير بن العوّام القرشي الأسدي ، أمّه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه ، ولد عام الهجرة ، وحنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرة فكان أول شيء دخل في جوفه هو ريق النبي صلى الله عليه وسلم ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن ، وقتل سنة ٧٣ من الهجرة ، وهو قول الجمهور (الإصابة) .

(٢) اسمه يزيد بن عبيدة السعدي المدني ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن ، وتوفي سنة ١٣٠ من الهجرة . (طبقات القراء)

(٣) هو يزيد بن القعقاع أبو جعفر المخزومي المدني القاري ، أحد القراء العشرة المشهورين ، تابعي كبير القدر (طبقات القراء) .

(٤) (سُقَاة) في هذه القراءة : جمع ساقٍ مثل رامٍ ورماة ، و (عَمَرَة) بفتح العين وحذف الألف : جمع عامر مثل صانع وصَنَعة . قال ابن الجزري في كتابه « النَّشر في القراءات العشر » : « وهي رواية ميمونة والقورسي عن أبي جعفر ، وكذا رواها ابن جبير عن ابن جماز » .

(٥) قال القرطبي تعقيباً على هذه القراءة : وهي لغة .

الكلام عنده محذوف إمّا في أَوله وإمّا في آخره ، فإمَّا أن يُقَدّر : أجعلتم أَهل سقاية ، وإما أن يُقَدّر : كفعل من آمن بالله . وأما من قرأ : [سُقاة] و [عَمَرَة] فنمط قراءته مستو . وأَما قراءة الضحاك فجمع ساقٍ إلا أنه ضم أَوله ، كما قالوا : عرق وعُراق وظِئْر وظُؤَار[١] ، وكان قياسه أن يقال : سُقاة وإن أُنّث كما أُنّث من الجموع (حجارة) وغيره .

وسقاية الحاج كانت في بني هاشم ، وكان العباس يتولاها ، قال الحسن : ولما نزلت هذه الآية قال العباس : ما أُراني إلا أترك السقاية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أقيموا عليها فإنها لكم خير)[٢]. وعمارة المسجد ، قيل : هي حفظه من الظلم فيه أو يقال هُجْرا ، وكان ذلك إلى العباس . وقيل : هي السدانة خدمة البيت خاصة ، وكانت في بني عبد الدار ، وكان يتولاها عثمانُ بن طلحة بن أبي طلحة – واسم أَبي طلحة عبد الله بن عبد العزّى بن عبد الدار – وشيبةُ بن عثمان بن أَبي طلحة المذكور . هذان هما الذان دفع إليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة في ثاني يوم الفتح بعد أن طلبه العباس وعلي رضي الله عنهما ، وقال صلى الله عليه وسلم

(١) العُراق : العظم أُكل لحمه . والظِّئْرُ : المرضعة لغير ولدها ، يقال : ظأَرت المرأةُ والناقة على غير ولدها : عَطَفَت .

(٢) أخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ﴾ قال : أرادوا أن يدعوا السقاية والحجابة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تدعوها فإن لكم فيها خيرا) . (الدر المنثور) .

لعثمان وشيبة : (يوم وفاءٍ وبِرّ ، خذوها خالدة تالدة لا ينازعكموها إلا ظالم)(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يعني السدانة . واختلف الناس في سبب نزول هذه الآية ـ فقيل : إن كفار قريش قالوا لليهود : إنا نسقي الحجيج ونعمر البيت ، أفنحن أفضل أم محمد صلى الله عليه وسلم ودينه ؟ فقالت لهم أحبار اليهود : بل أنتم ، فنزلت الآية في ذلك . وقيل : إن الكفار افتخروا بهذه الآية فنزلت الآية في ذلك . وأسند الطبري إلى النعمان بن بشير أنه قال : كنت عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه ، فقال أحدهم : ما أتمنى بعد الإسلام إلا أن أكون ساقي الحجاج ، وقال الآخر : إلا أن أكون خادم البيت وعامره ، وقال الثالث : إلا أن أكون مجاهداً في سبيل الله ، فسمعهم عمر بن الخطاب فقال : اسكتوا حتى أدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فأستفتيه ، فدخل

---

(١) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة : اسمه عبد الله بن عبد العزّى ، أسلم في هدنة الحديبية ، وهاجر مع خالد بن الوليد . وشهد الفتح مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة ودخل معه بلال وعثمان بن طلحة ، وأسامة بن زيد ، وفي هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم طاب من عثمان مفتاح البيت فدخل فمكث فيه نهاراً ثم خرج ، وقد سكن عثمان بالمدينة إلى أن مات بها سنة اثنين وأربعين من الهجرة .

فاستفتاه ، فنزلت الآية في ذلك (١). وقال ابن عباس ، والضحاك : إن المسلمين عيَّروا أَسرى بدر بالكفر ، فقال العباس : بل نحن سقاة الحاج وعمرة البيت ، فنزلت الآية في ذلك (٢) ، وقال مجاهد : أُمِروا بالهجرة فقال العباس : أنا أَسقي الحاج ، وقال عثمان بن طلحة : أَنا حاجب للكعبة فلا نهاجر ، فنزلت ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ﴾ إلى قوله : ﴿حَتَّى يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (٣) ، قال مجاهد : وهذا كله قبل فتح مكة . وقال محمد بن كعب : إن العباس ، وعليًّا ، وعثمان بن طلحة تفاخروا ، فقال العباس : أَنا ساقي الحاج ، وقال عثمان : أَنا عامر البيت ولو شئت بتُّ فيه ، وقال علي : أَنا صاحب جهاد الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي آمنت وهاجرت قديماً ، فنزلت الآية في ذلك (٤) .

---

(١) أخرجه مسلم ، وأبو داود ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه — عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، وفيه : (فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الخ ((الدر المنثور) .

(٢) أخرجه ابن جرير ، وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه — عن عبد الله بن عبيدة رضي الله عنه ، وأخرج الفرياني مثله عن ابن سيرين . (الدر المنثور) .

(٤) أخرج مثله أبو نعيم في فضائل الصحابة ، وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه ، وفيه « شيبة بن عثمان » بدلا من « عثمان » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

لما حكم الله تعالى في الآية المتقدمة بأَن الصنفين لا يستويان بيَّن ذلك في هذه الآية الأَخيرة وأَوضحه ، فعدَّد الإِيمان ، والهجرة ، والجهاد بالمال والنفس ، وحكم أَن أَهل هذه الخصال أَعظم درجة عند الله من جميع الخلق ، ثم حكم لهم بالفوز برحمته ورضوانه ، والفوزُ : بلوغ البُغْية ، إما في نيل رغبة ، أَو نجاة من مهلكة . وينظر إلى معنى هذه الآية الحديث الذي جاء (دعوا لي أَصحابي ، فلو أَن أَحدكم أَنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أَحدهم ولا نَصيفه)[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه ، ولفظه : (دعوا لي أصحابي ، فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغتم أعمالهم) . قال الإمام السيوطي ، وهو حديث صحيح . وفي الصحيحين وغيرهما من الصحاح عن أبي سعيد الخُدري أنه صلى الله عليه وسلم قال : (والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدِهم ولا نصيفَه) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

لأَن أَصحاب هذه الخصال على سيوفهم انبنى الإِسلام ، وهم ردُّوا الناس إِلى الشرع .

وقوله تعالى : ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ الآية . هذه آية وعد . وقراءَة الناس : [يُبشِّرُهُم] بضم الياءِ وكسر الشين المشددة . وقرأَ الأَعمش ، وطلحة بن مصرف ، وحميد بن هلال : [يبْشُرهم] بفتح الياءِ وسكون الباءِ وضم الشين خفيفة . وأَسند الطبري إِلى جابر بن عبد الله أَنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِذا دخل أَهل الجنةِ الجنةَ قال الله عزَّ وجلَّ : أَعطيتكم أَفضل من هذا ، فيقولون : ربنا أَي شيءٍ أَفضل من هذا ؟ قال : رضواني) (١) ، وفي البخاري في كتاب السُّنة منه : (فلا أَسخط عليكم أَبداً) .

وقرأَ الجمهور : [ورِضْوان] بكسر الراءِ ، وقرأَ عاصم ، وعمرو :

---

(١) الحديث رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، ولفظه كما جاء في كتاب التوحيد في البخاري : (عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله يقول لأهل الجنة : يأهل الجنة ، فيقولون : لبَّيْك ربنا وسعْديْك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلْقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك ؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) .

[ورُضوان] بضم الراءِ ، وقرأَ الأَعمش بضم الراءِ والضاد جميعاً ، قال أَبو حاتم : لا يجوز هذا[١] .

وقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ﴾ الآية . ظاهر هذه المخاطبة أَنها لجميع المؤمنين كافة ، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة ، وَرَوَتْ فرقة أَن هذه الآية إنما نزلت في الحضّ على الهجرة ورفض بلاد الكفر ، فالمخاطبة ـ على هذا ـ إنما هي للمؤمنين الذين كانوا في مكة وغيرها من بلاد العرب ، خوطبوا بأَلَّا يُوالوا الآباءَ والإخوة فيكونون لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفرة . ولم يذكر الأَبناءُ في هذه الآية إذ الأَغلب من البشر أَن الأَبناءَ هم التبع للآباءِ . و (الإخوان) في هذه الآية جمع أَخ النسب . وكذلك هي في قوله تعالى : ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ﴾[٢] .

وقرأَ عيسى بن عمر : ﴿أَن ٱسْتَحبُّوا﴾ بفتح الأَلف من [أَن] ، وقرأَ الجمهور [إن] بكسر الأَلف على الشرط ، و [اسْتحبّوا] متضمنة معنى : فَضَّلوا وآثروا ، ولذلك تعدت بـ [عَلَى] .

ثم حكم الله تعالى بأَن مَنْ والاهم واتَّبعهم في أَغراضهم فإنه ظالم، أَي واضع للشيءِ غير موضعه ، وهذا ظلم المعصية لا ظلم الكفر .

---

(١) ردّ عليه أبو حيان في « البحر » فقال : « ينبغي أن يجوز ، فقد قالت العرب : « سُلُطان » بضم اللام ، وأورده التصريفيون في أبنية الأسماء » .

(٢) من الآية (٦١) من سورة (النور) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

هذه الآية تقوّي مذهب من رأَى أَن هذه والتي قبلها إنما مقصودها الحضُّ على الهجرة ، وفي ضمن قوله : [فَتَربَّصُوا] وعيد بيّن . وقوله : [بِأَمْرِهِ] قال الحسن : الإشارة إلى عذاب أَو عقوبة من الله ، وقال مجاهد [1] : الإشارة إلى فتح مكة ، والمعنى : فإذا جاءَ الله بأمرهِ فلم تُسْلفوا ما يكون لكم به أَجر ومكانة في الإسلام .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذُكر الأَبناءُ في الآية لمَّا جلَبَت ذكرَهم المحبةُ ، والأَبناءُ صدرٌ في المحبة ، وليسوا كذلك في أَن يتبعهم آباؤُهم في آرائهم كما في الآية المتقدمة . وقرأَ جمهور الناس : [وَعَشِيرتُكُم] ، وقرأَ عاصم وحده بخلاف عنه ، وأَبو رجاءٍ ، وأَبو عبد الرحمن ، وعصمة : [وَعشيراتُكُم] ، وحسُنَ هذا الجمع إذْ لكل أَحدٍ عشيرة تختص به ، ويُحسِّن الإفراد أَن أَبا الحسن الأَخفش قال : إنما تجمع العرب «عشائر»

(١) مجاهد : يكنى أبا الحجّاج ، وهو مولى عبد الله بن السائب بن أبي السائب المخزومي ، أسند مجاهد إلى ابن عباس ، وابن عمر ، وابن عمرو ، ومات سنة اثنتين ومائة يوم السبت وهو ساجد . راجع (صفوة الصفوة — الجزء الثاني) .

ولا تكاد تقول «عشيرات» . و [اقْتَرَفْتُموها] معناه : اكتسبتموها ، وأصل الاقتراف والمقارفة : مقاربة الشيء (١) . ﴿وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بيِّنٌ في أنواع المال ، وقال ابن المبارك : الإشارة إلى البنات اللواتي لا يتزوجن ولا يوجد لهن خاطب (٢) [ومسَاكِنُ] جمع مسكن بفتح الكاف ، مفْعل من السُّكْنى ، وما كان من هذا معتل الفاءِ فإنما يأتي على مَفْعِل بكسر العين كموعِد وموطِن ، والمساكن : القصور والدور ، و [أَحَبَّ] خبر [كان] ، وكان الحجاج بن يوسف يقرؤُها [أَحب] بالرفع ، وله في ذلك خبرٌ مع يحيى بن يَعْمَر ، سأله الحجّاج : هل تسمعني ألحن ؟ قال : نعم ، في هذا الحرف ، وذكَر له رفع [أَحَبّ] فنفاه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك خارج في العربية على أن يضمر في كان الأَمر والشأْن (٣) ، ولم يُقْرَأ بذلك . وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ عموم لفظ يراد به الخصوص فيمن يوافي على فسقه ، أَو عموم مطلق على أنه لا هداية من حيث الفسق .

---

(١) قال القرطبي : أصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره .

(٢) نقل المفسرون هنا بيت شعر يؤيد هذا المعنى ، وهو :

كَسَدْنَ مِنَ الفَقْرِ في قَوْمِهِنَّ وقَدْ زادَهُنَّ مَقَامي كُسودا

ولكن أبا حيان قال تعقيباً على رأي ابن المبارك : «وتفسير ابن المبارك بأن ذلك إشارة إلى البنات اللواتي لا يتزوجن لِقِلَّة خطابهن تفسير غريب ينبو عنه اللفظ» .

(٣) يجوز – في غير القرآن – رفع (أَحَبّ) على الابتداء والخبر ، واسم كان مضمر فيها ، والمبتدأ والخبر في محلّ نصب خبر كان ، وعليه أنشد سيبويه قول العُجَيْر السلولي :

إذا متُّ كان الناسُ صِنْفَانِ : شامتٌ وآخرُ مُثْنٍ بالّذي كنْتُ أصْنَعُ

كما أنشد لهشام أخي ذي الرّمة :

هِيَ الشِّفاءُ لِدَائي لَوْ ظفِرْتُ بها وليْسَ مِنها شفاءُ الداءِ مَبْذولُ

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

هذه مخاطبة لجميع المؤمنين ، يعدِّد ٱللهُ نعمه عليهم . و [مَوَاطِن] جمع موطِن بكسر الطاءِ ، والموطن : موضع الإقامة أَو الحلول لأَنه أَول الإِقامة ، والمَوَاطن المشار إليها بدرٌ ، والخندق ، والنضير ، وقُريظة ، ولم يصرف [مواطن] لأَنه جمع ونهاية جمع . [وَيَوْمَ] عطف على موضع قوله : [في مَوَاطِنَ] أَو على لفظه بتقدير : «وفي يوم» ، فانحذف حرف الخفض . و [حُنَيْن] وادٍ بين مكة والطائف قريب من ذي المجاز ، وصُرف حين أُريد به الموضع والمكان ، ولو أُريد به البقعة لم يصرف ، كما قال الشاعر :

نَصرُوا نَبِيَّهُمُ وشَدُّوا أَزْرهُ بِحُنَيْنَ يوم تَواكُلِ الأَبْطَالِ (١)

---

(١) البيت لحسّان بن ثابت (الصحاح – حَنَنَ) قال : وحُنَيْنٌ : موضع يذكَّر ويؤنَّث ، فإن قصدت به البلد والموضع ذكَّرته وصرَفْته ، كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ ، وإن قصدت به البَلْدة والبقعة أنَّثْته ولم تصرفه كما قال الشاعر : وساق البيت . وقال الفراءُ =

وقوله تعالى : ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ، رُوي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رأى جملته اثني عشر أَلفاً : (لنْ نُغلب اليوم من قِلَّة) ، ورُوي أَن رجلا من أَصحابه قالها فأَراد الله إِظْهَار العجز فظَهر حين فر الناس . ثم عطف القدر بنصره .

وقوله تعالى : ﴿وضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ، أَي : بقدر ما هي رَحْبَة واسعة لِشدَّة الحال وصعوبتها ، ف (ما) مصدرية .

وقوله : ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ يريد فِرار الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

واختصار هذه القصة أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة وكان في عشرة آلاف من أَصحابه وانْضاف إليه أَلفان من الطلقاءِ فصار في اثني عشر أَلفاً سمع بذلك كفار العرب فشق عليهم ، فجمعت له هوازن وأَلْفافُها وعليهم مالك بن عوف النصري ، وثقيف وعليهم عبد ياليل بن عمرو ، وانضاف إِليهم أَخلاط من الناس حتى كانوا

= في « معاني القرآن » : « وقوله ﴿ويَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ : وادٍ بين مكة والطائف . وجرى حنينٌ لأنه اسمٌ لمذكر ، وإذا سمّيْتَ ماءً أو وادياً أو جبلا باسم مذكّر لا علة فيه أجريته ، من ذلك حنينٌ وبدرٌ وأُحدٌ وحِراءٌ وثَبيرٌ ودابقٌ وواسطٌ . وإنما سمّي واسطاً بالقصر الذي بناه الحجاج بين الكوفة والبصرة ، ولو أراد البلدة أو اسماً مؤنثاً لقال : واسطة ، وربما جعلت العرب (واسط وحنينَ وبدرَ) اسماً لبلدته التي هو فيها فلا يجرونه ؛ وأنشد بعضهم : نصروا نبيَّهُمُ ... الخ » .

ثلاثين ألفاً ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اجتمعوا بِحُنَين ، فلما تصَافَّ الناس حمل المشركون من جوانب الوادي فانهزم المسلمون ، قال قتادة : ويقال : إن الطُّلقاءَ من أهل مكة فرُّوا وقصدوا إلقاءَ الهزيمة في المسلمين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة شهباءَ ، وقال أبو عبد الرحمن الفهري : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ ، وكان على فرس قد اكتنفه العباسُ عمُّه وابنُ عمِّه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وبين يديه أيمن بن أُم أيمن – وثَمَّ قُتِل رحمه الله – فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة الحال نزل عن بغلته إلى الأرض – قاله البراءُ بن عازب – واسْتَنْصَرَ الله عزَّ وجلَّ فأخذ قبضة من تراب وحصى فرمى بها وجوه الكفار وقال : (شاهت الوجوه) ، وقال أبو عبد الرحمن : تطاول من فرسه فأخذ قبضة التراب ، ونزلت الملائكة لنصره ، ونادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا لَلْأَنصار) ، وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم العباسَ أن ينادي : أين أصحاب الشجرة ؟ أين أصحاب سورة البقرة ؟ فرجع الناس عُنُقاً واحداً [1] وانهزم المشركون ، قال يَعْلَى بن عطاءٍ : فحدثني أبناؤُهم عن آبائهم قالوا : لم يبق منا أحد إلا دخل في عينيه من ذلك التراب . واستيعاب هذه القصة في كتاب السير .

(١) بضم العين والنون : جماعة واحدة ، ومنه حديث فزارة : (فانظروا إلى عُنُق الناس) أي : جماعتهم ، ومنه حديث الحُدَيْبِيَة : (وإنْ نَجَوْا تكن عُنُق قطعها الله) أي : جماعة من الناس . قاله ابن الأثير في النهاية .

وظاهر كلام النحاس أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في أَربعة عشر أَلفاً ، وهذا غلط .

وقوله : [مُدْبِرِينَ] نصب على الحال المؤكدة كقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾[1] ، والمؤكدة هي التي يدل ما قبلها عليها كدلالة التَّولِّي على الإدبار .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ الآية . [ثُمَّ] ها هنا على بابها من الترتيب . والسكينةُ : النصر الذي سكنت إليه ومعه النفوس والحال . والإشارة بالمؤمنين إلى الأَنصار على ما رُوي ، وذلك أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى في ذلك اليوم : (يا معشر الأَنصار) ، فانصرفوا وهم ردّوا الهزيمة . والجنود : الملائكة والرعب . قال أَبو حاجر يزيد ابن عامر[2] : «كان في أَجوافنا مثل ضربة الحجر في الطست من الرعب». وعذابُ الذين كفروا هو القتل الذي استحر فيهم والأَسر الذي تمكن في ذراريهم ، وكان مالك بن عوف النَّصْري قد أَخرج الناس بالعيال والذَّراري ليقاتلوا عليها فخطَّأَهُ في ذلك دُرَيْد بن الصّمة وقال لمالك ابن عوف : راعي ضأْن ، وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ ؟ وفي ذلك اليوم قُتل

---

(١) من الآية (٩١) من سورة (البقرة) ، وفيها يقول سبحانه : ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ﴾ .

(٢) يزيد بن عامر بن الأسود بن حبيب ــ أبو حاجر السُّوَائي . قال أبو حاتم : له صحبة ، رَوَى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، كان شهد حنينا مع المشركين ، ثم أسلم ، ولما انهزم المشركون يوم حنين لحق بالطائف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو أتاني مسلماً لرددت عليه أهله وماله) فلحق به ، فرَدَّ عليه أهله وماله ، وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة منها :

ما إنْ رأيْتُ ولا سَمِعْتُ بِوَاحِدٍ   في النّاسِ كُلِّهِمُ كمثل محمــــد

دُرَيد بن الصمة القتلة المشهورة ، قتله ربيعة بن رُفَيْع بن أَهْبان السلميُّ ، ويقال له ابن الدُّغُنَّة [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ إعلام بأَن من أَسلم وتاب من الكفار الذين نجوا ذلك اليوم فإنهم مقبولون مسلمون موعودون بالغفران والرحمة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

قال قتادةُ ، ومعْمرُ بن راشد ، وغيرهما : صفة المشرك بالنجس إنَّما كانت لأَنه جُنُب ، إذْ غسله من الجنابة ليس بغسل . وقال ابن عباس وغيره : بل معنى الشرك هو الذي نجسه كنجاسة الخمر ، قال الحسن البصري : من صافح مشركاً فليتوضأْ .

(١) يزيد بن رُفَيْع (بالتصغير) بن ثعلبة — السُّلَمِيّ ، كان يقال له : ابن الدُّغُنَّة ، وهي أُمُّه ، ويقال : اسمها لدغة ، وجزم بذلك ابن هشام ، والكلبي ، وأبو عبيدة ، وفي غزوة حنين أدرك ربيعةُ دُرَيْد بن الصمة وهو في شجار له (أي هودج أو سرير) فظنه أولا امرأة ، فإذا به شيخ ، وفي قصة قتله له أن دريداً قال له : فإذا رجعت إلى أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فلما أخبرها بذلك قالت : لقد اعتق أُمَّهاتٍ لك ، ألا تكرّمت عن قتله لمّا أخبرك بِمَنّه علينا ؟ فقال : ما كنتُ لأَتكَرَّم عن رضا الله ورسوله .
(عن الإصابة هو والهامش السابق) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فمن قال : «بسبب الجنابة» أوجب الغسل على من يُسْلم من المشركين ، ومن قال بالقول الآخر لم يوجب الغسل ، والمذهب كله على القول بإيجاب الغسل إلا ابن عبد الحكم فإنه قال : ليس بواجب .

وقرأ أبو حيوة : [نِجْسٌ] بكسر النون وسكون الجيم[(١)] .

ونَصَّ الله تعالى في هذه الآية على المشركين وعلى المسجد الحرام ، فقاس مالك رحمه الله وغيره جميعَ الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على المشركين ، وقاس سائر المساجد على المسجد الحرام ، ومنع من دخول الجميع في جميع المساجد ، وكذلك كتب عمرُ بن عبد العزيز إلى عماله ، ونَزَع في كتابه بهذه الآية ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿في بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾[(٢)] ، وقال الشافعي : هي عامة في الكفار خاصة في المسجد الحرام ، فأباح دخول اليهود والنصارى والوثنيين في سائر المساجد ، ومن حُجَّته حديث رَبْط ثُمامةَ بن أثال[(٣)] ، وقال

(١) وهذا على تقدير حذف الموصوف ، أي : جنس نِجْسٌ ، أو ضربٌ نِجْسٌ ، وهو اسم فاعل من (نجس) فخففوه بعد الاتباع .

(٢) من الآية (٣٦) من سورة (النور) .

(٣) خالف ابن العربي الإمام الشافعي في رأيه وفي حجته بحديث ثُمامة هذا فقال : « وهذا جمود منه (أي من الشافعي) على الظاهر ، لأن قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة ، فإن قيل : فقد ربط النبي صلى الله عليه وسلم ثُمَامَةَ في المسجد وهو مشرك ، قيل : أجاب علماؤنا عن هذا الحديث — وإن كان صحيحاً — بأجوبة أحدها : أن ذلك كان متقدماً على نزول الآية ». وقد نقل القرطبي رأي ابن العربي هذا تعقيباً على رأي الشافعي .

أَبو حنيفة : هي خاصة في عبَدة الأَوثان وفي المسجد الحرام ، فأَباح دخول اليهود والنصارى في المسجد الحرام وغيره ، ودخول عَبَدة الأَوثان في سائر المساجد ، وقال عطاء : وصف المسجد الحرام ومنع القُرْب يقتضي منعهم من جميع الحرم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقوة قوله : ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ تقتضي أَمْرَ المسلمين بمنعهم ، وقال جابر بن عبد الله ، وقتادة : لا يقربُ المسجد الحرام مشركٌ إلا أَن يكون صاحب جزية أَو عبداً لمسلم ، وعبَدة الأَوثان مشركون بإِجماع . واختلف في أَهل الكتاب ـ فمذهب عبد الله بن عُمَر وغيره أَنهم مشركون ، وقال جمهور أَهل العلم : ليسوا بمشركين ، وفائدة هذا الخلاف تَتَبَيَّن في فقه مناكحتهم وذبائحهم وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ يريد : بعد عام تسع من الهجرة ، وهو عامٌ حجَّ فيه أَبو بكر بالناس وأَذَّن عليٌّ بسورة براءَة (١) .

وأَما قوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ قال عمرو بن قائد : المعنى : وإِذْ خِفْتُم .

(١) قال قتادة : بل سنة عشْر ، وأَيّده ابن العربي فقال : « وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ ، وإن من العجب أن يقال : إنه سنة تسع وهو العام الذي وقع فيه الأذان ، ولو دخل غلامُ رجلٍ داره يوماً فقال له مولاه : لا تدخل هذه الدار بعد يومك ، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه » . نقل ذلك أيضاً القرطبي عن ابن العربي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه عُجمة ، والمعنى بارعٌ بـ [إنْ]، وكان المسلمون لمَّا ـ مُنِــع المشركون من الموسم وهم كانوا يجلبون الأَطعمة والتجارات ـ قذف الشيطان في نفوسهم الخوف من الفقر ، وقالوا : من أين نعيش ؟ فوعدهم الله بأَن يُغْنِيهم من فضله ، قال الضحاك : ففتح عليهم باب أَخذ الجزية من أَهل الذِّمَّة بقوله : ﴿قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله : ﴿وهُمْ صَاغِرُونَ﴾ . وقال عكرمة : أَغناهم بإدرار المطر عليهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَسلمت العرب فتمادى حجُّهم وتَجْرُهم[1] وأَغنى الله من فضله بالجهاد والظهور على الأُمم .

والعيْلَةُ : الفقر ، يقال : عال الرجل يعيل عيْلَة إذا افتقر ، قال الشاعر :

وَمَا يدْرِي الفقيرُ متى غِنَاهُ وما يدري الغَنِــيُّ متى يعِيلُ[2]

وقرأَ علْقَمَة وغيرُه من أَصحاب ابن مسعود : [عَائِلَةً] وهو مصدر كالقائِلة من قالَ يقيلُ ، وكالعاقِبة والعافية ، ويحتمل أَن تكون نعتاً لمحذوف تقديره : «حالًا عائلة» ، وحكى الطبري أَنه يقال : «عال يعول» إذا افتقر .

(١) يقال : تَجَرَ تَجْراً وتِجارَةً : مارس البيع والشراء ، ويقال : اتَّجر ، ويقال : تاجر فلانٌ فلاناً : اتَّجَرَ معه (المعجم الوسيط) .

(٢) قال هذا البيت أحَيْحَةُ بن الجَلاج ، من أربعة أبيات ذكرها صاحب اللسان في عَيَلَ . وعَال يَعيل من باب ضرب ، والمصدر : عيْلة وعُيول .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

تضمنت هذه الآية قتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى حتى يقتلوا أو يُؤَدُّوا الجزية ، قال مجاهد : وعند نزول هذه الآية أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزو الروم ، ومشى نحو تبوك ، ومن جعل أهل الكتاب مشركين فهذه الآية عنده ناسخة بما فيها من أخذ الجزية لقوله تبارك وتعالى : ﴿فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [1] ، ونفى عنهم الإيمان بالله وباليوم الآخر من حيث تركوا شرع الإسلام الذي يجب عليهم الدخول فيه ، فصار جميع ما لهم في الله عزَّ وجلَّ وفي البعث من تخيلات واعتقادات لا معنى لها ، إذ تلقوها من غير طريقها ، وأيضاً فلم تكن اعتقاداتهم مستقيمة ، لأنهم تشعبوا وقالوا : عزير ابن الله ، والله ثالث ثلاثة ، وغير ذلك . ولهم أيضاً في البعث آراءٌ كثيرة ، كشراءِ منازل الجنة من الرهبان ، وقول اليهود في النار : نكون فيها أياماً بِعَدَد ، ونحو ذلك .

---

(١) من الآية (٥) من سورة (التوبة) .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فبيّن ونص على مخالفتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأما قوله : ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾ فمعناه : ولا يطيعون ويمتثلون ، ومنه قول عائشة رضي الله عنها : ما عقلتُ أبويّ إلّا وهما يدينان الدين (١) ، والدِّين في اللغة لفظة مشتركة ، وهي ها هنا : الشريعة ، وهي مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ﴾(٢) ، وأما قوله : ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ فنصّ في بني إسرائيل وفي الروم ، وأجمع الناس على ذلك . وأما المجوس فقال ابن المنذر : لا أعلم خلافاً في أن الجزية تؤخذ منهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ورُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)(٣) ، فقال كثير من العلماء : معنى ذلك في أخذ الجزية

---

(١) قال ابن جرير : «كُلُّ مطيع مَلِكاً أو ذا سلطانٍ فهو دائن له ، يقال منه : دان فلان لفلان فهو يَدين له ديناً» ، ثم استشهد بقول زهير :

لَئِنْ حَلَلْتَ بِجَوٍّ في بني أَسَدٍ ... في دِينِ عَمْرٍو وحالتْ بَيْنَنَا فَدَكُ

و (جوّ) وادٍ بعينه ، ودِينُ عمرو : طاعته وسلطانه ، وهو عمرو بن هند ، وفَدَك : قريةٌ في وادي القرى ، وهو في هذا البيت يخاطب الحارث بن ورقاء الصيداوي من بني أسد ، وكان أغار على بني عبد الله بن غطفان فغنم واستاق إبلاً لزهير فهو يقول له : لئن حللتَ بحيث لا أدركك فسيصلك هجائي ، وسأُدَنِّس عرضك كما يدنِّس الودكُ القبطية .

(٢) من الآية (١٩) من سورة (آل عمران) .

(٣) ذكر في الموطأ عن مالك بن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذُكِرَ أمْرَ المجوس فقال : ما أدري كيف أصنع في أمرهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب) . وفي (الدر المنثور) : «أخرجه مالك ، والشافعي ، وأبو عُبيدة في كتاب «الأموال» ، وابن أبي شيبة – عن جعفر عن أبيه ، ثم ساق نص الحديث .

منهم ، وليسوا أهل كتاب ، فعلى هذا لم يتعد التشبيه إلى ذبائحهم ومناكحهم ، وهذا هو الذي ذكره ابن حبيب في «الواضحة» . وقال بعض العلماء : معناه : سنوا بهم سنة أهل الكتاب إذ هم أهل كتاب ، فعلى هذا يتجه التشبيه في ذبائحهم وغيرها ، والأول هو قول مالك وجمهور أصحابه ، ورُوي أنه قد كان بعث في المجوس نبي اسمه زرادشت ، وأما مجوس العرب فقال ابن وهب : لا تقبل منهم جزية ولابد من القتال أو الإسلام ، وقال سحنون ، وابن القاسم ، وأشهب : تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأمم كلها ، وأما عَبَدة الأوثان من العرب فلم يستثن الله فيهم جزية ، ولا بقي منهم على الأرض بَشَر ، وقال ابن حبيب : وإنما لهم القتال أو الإسلام ، وهو قول أبي حنيفة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويوجد لابن القاسم أن الجزية تؤخذ منهم ، وذلك أيضاً في «التفريع» لابن الجلاب ، وهو احتمالٌ لا نَصّ . وأما أهل الكتاب من العرب فذهب مالك رحمه الله إلى أن الجزية تؤخذ منهم ، وأشار إلى المنع من ذلك أبو حنيفة . وأما السامرة والصابئة فالجمهور على أنهم من اليهود والنصارى تؤخذ منهم الجزية وتؤكل ذبائحهم ، وقالت فرقة : لا تؤكل ذبائحهم وعلى هذا لا تؤخذ الجزية منهم ، ومنع بعضهم الذبيحة مع إباحة أخذ الجزية منهم . وأما عبدة الأوثان

والنيران وغير ذلك فجمهور العلماء على قبول الجزية منهم ، وهو قول مالك في «المدونة» ، وقال الشافعي ، وأبو ثور : «لا تؤخذ الجزية إلا من اليهود والنصارى والمجوس فقط» . ومذهب مالك رحمه الله أن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال البالغين الأحرار العقلاء ، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة ، ولا تضرب على الصبيان والنساء والمجانين ، ولا تضرب على رهبان الديارات والصوامع المنقطعين ، قال مالك في «الواضحة» : «وأما إن كانت قد ضربت عليهم ثم انقطعوا بعد ذلك فلا تسقط عنهم» ، وأما رهبان الكنائس فتضرب عليهم ، واختلف في الشيخ الفاني ، ومنْ راعى أن عِلَّتها الإذلال أمضاها في الجميع ، وقال النقاش[1] : «العقوبة الشرعية تكون في الأموال والأبدان ، فالجزية من عقوبات الأموال»

وأما قَدْرها فذهب مالك رحمه الله وكثير من أهل العلم إلى ما فرضه عمر رضي الله عنه ، وذلك أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهماً على أهل الفضة ، وفرض عُمَرُ رضي الله عنه ضيافة وأرزاقاً

(١) محمد بن الحسن بن محمد بن زياد ، أبو بكر النقاش ، عالم بالقرآن وتفسيره ، أصله من الموصل ، ونشأته ببغداد ، كان في مبدأ أمره يتعاطى نقش السقوف والحيطان فعرف بالنقاش . من تصانيفه : «شفاء الصدور . خ» في التفسير ، و «الإشارة» في غريب القرآن ، و «الموضح» في القرآن ومعانيه ، و «المعجم الكبير» في أسماء القُرّاء وقراءاتهم ، و «مختصره» و «أخبار القصاص» ، قال الذهبي : «وقد اعتمد الداني في التيسير على روايته للقراءات ، والله أعلم فإن قلبي لا يسكن إليه ، وهو عندي متهم ، عفا الله عنه . توفي سنة ٣٥١ هـ – ٩٦٢ م . (وفيات الأعيان . وإرشاد الأريب) .

وكسوة ، قال مالك في «الواضحة» : «ويحط ذلك عنهم اليوم لما حدث عليهم من اللوازم» ، فهذا أَحد ما ذكر عن عمر ، وبه أَخذ مالك . قال سفيان الثوري : «رُويت عن عُمر ضرائب مختلفة» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَظن ذلك بحسب اجتهاده رضي الله عنه في يُسرهم وعُسْرهم .

وقال الشافعي ، وغيره : قدر الجزية دينارٌ على الرأْس ، ودليل ذلك أَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً بذلك [1] ، وأَخذه جزية اليمن كذلك أَو قيمته معافر [2] ، وهي ثياب . وقال كثير من أَهل العلم : ليس لذلك في الشرع حدّ محدود ، وإنما ذلك إلى اجتهاد الإمام في كل وقت ، وبحسب قوم قوم . هذا كله في العنْوة [3] ، وأَما الصلح فهو ما صولحوا عليه من قليل أَو كثير ، واختلف في المذهب في العبد الذي يعتقه الذميّ أَو المسلم ، هل يلزمه جزية أَم لا ؟ وقال ابن القاسم : لا ينقص أَحد من أَربعة دنانير كان فقيراً أَو غنيّاً ، وقال أَصبغ :

---

(١) رواه النسائي ، والإمام أحمد في مسنده ، ولفظه : عن معاذ قال : (بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين من البقر تبيعاً أو تبيعة ، ومن كل أربعين مُسِنّة ، ومن كل حالم ديناراً أو عِدْله معافر) . (المسند ٥ـ٢٣٠)

(٢) قال في الصحاح : «ومَعافر بفتح الميم : حيٌّ من هَمْدان ، لا ينصرف في معرفة ولا نكرة ، لأنه جاء على مثال مالا ينصرف من الجمع ، وإليهم تُنسب الثياب المَعافريّة ، تقول : ثوب مَعَافريٌّ فتصرفه لأنك أدخلت عليه ياء النسبة ولم تكن في الواحد» .

(٣) يقال : عَنَا الشيْءَ عَنْوةً : أخَذَه قسْراً وقهْراً . والعَنْوَة: القَهْرُ . وفي حديث الفتح : (أنه دخل مكة عَنْوَةً) أي قَهْراً وغَلَبَةً .

يحط الفقير بقدر ما يرى من حاله ، وقال ابن الماجشون : لا يؤخذ من الفقير شيءٌ .

والجِزْية وزْنها فِعْلة من جَزَى يجزي إذا كافأ عمَّا أُسدي إليه ، فكأنهم أَعْطَوْها جزاءَ مَا مُنحوا من الأَمن ، وهي كالقِعْدة والجِلْسة ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عليْكَ وإنَّ منْ أَثْنى عَلَيْكَ بما فَعَلْتَ كمن جَزَى(١)

وقوله تعالى : [عَنْ يَدٍ] يحتمل تأْويلات ، منها أن يريد سوق الذميّ لها بيده لَا مع رسولٍ ليكون في ذلك إذلالٌ له ، ومنها أَنْ يريد : عن نعمة منكم قِبَلَهم في قبولها منهم وتأْمينهم ، والْيَدُ في اللغة : النعمة والصنع الجميل . ومنها أن يريد : عن قوة منكم عليهم وقهر لا تبقى لهم معه راية ولا معقل ، واليد في كلام العرب : القوّة ، يقال : فلانٌ ذو يدٍ ، ويقال : ليس لي بكذا وكذا يدٌ ، أي : قوة . ومنها أن يريد : أن ينقدوها ولا يؤخروها ، كما تقول : بعته يداً بيَدٍ . ومنها أن يريد : عن استسلام منهم وانقياد ، على نحو قولهم : «أَلقى فلان بِيَده» إذا عجز واستسلم .

وقوله : ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ لفظ يعُمّ وجوهاً لا تنحصر لكثرتها ، ذُكِر منها ـ عن عكرمة ـ أن يكون قابضها جالساً والدافع من أهل الذِّمّة قائم ، وهذا ونحوه داعٍ إلى صغارهم .

---

(١) قال في (اللسان) : «الجَزَاءُ : المكافأة على الشيء» ، وقال : «الجِزْيَةُ : خراجُ الأرض ، والجمع : جِزًى وجِزْيٌ ، وجزية الذّمي منه ، والجمع الجِزَى ، مثل لِحْيَةٍ ولِحىً ، وهي فِعْلة من الجزاء كأنها جَزَت عن قَتْلِه ، ومنه الحديث (ليس على مسلم جِزْيَة) » وقد استشهد كل المفسرين بهذا البيت ، ولم نقف على قائله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾

الذي كثر في كُتُب أهل العلم أن فرقة من اليهود تقول هذه المقالة ، ورُوي أنه لم يقلها إلا فنحاص . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قالها أربعة من أحبارهم ، سلّام بنُ مِشْكَمْ ، ونُعمان بن أَبي أَوْفى ، وشاسُ بن قَيْس ، ومالك بن الصَّيف ، وقال النقاش : لم يبق يهودي يقولها بل انقرضوا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فإذا قالها واحد فينبغي(١) أن يلزم الجماعة شنعة المقالة لأَجل نباهة القائل فيهم ، وأقوال النبهاءِ أبداً مشهورة في الناس يحتج بها ، فمن هنا صحَّ أَن تقول الجماعة قول نَبِيِّها .

وقرأ عاصمٌ ، والكسائي : ﴿عُزَيْرٌ ٱبنُ ٱللهِ﴾ بتنوين [عُزَيْر] والمعنى أن (ابْناً) ــ على هذا ــ خبر ابتداءٍ عن [عُزَيْر] ، وهذا هو أَصح المذاهب لأَنه المعنى المنعيّ عليهم . و (عُزَيْر) ــ ونَحْوُهُ ــ ينصرف عجمياً كان أَو عربياً ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن

---

(١) في بعض النسخ : (فيَتَوَجَّه) .

عامر : ﴿عُزَيْرُ ابنُ اللهِ﴾ دون تنوين [عُزَيْر] ، فقال بعضهم : [ابن] خبر عن [عُزَير] ، وإنما حذف التنوين من [عزير] لاجتماع الساكنيْن[(١)] ، ونحوه قراءةُ من قرأ : ﴿أَحَدُ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[(٢)] ، قال أبو عليّ : وهو كثير في الشعر ، وأنشد الطبري في ذلك :

لَتجِدَنِّي بِالأَمير بَـــرًّا
وبالقَنَاةِ مِدْعساً مِكَــرًّا
إِذا عُطَيْفُ السُّلَمِيُّ فَــرَّا[(٣)]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالألف ـ على هذه القراءة والتأْويل ـ ثابتةٌ في [ابْن] ، وقال بعضهم : [ابن] صفة لـ [عُزَيْر] ، كما تقول : «زيدُ بنُ عمرو» ، وجعلت الصفة والموصوف بمنزلة اسم واحد ، وحذف التنوين إذا جاء الساكنان كأنهما التقيا من كلمة واحدة ، والمعنى : عُزَيْر ابنُ اللهِ معبودنا وإلَهُنا ، أو المعنى : معبودنا أَو إلهُنا عُزَيْرٌ بن الله .

---

(١) يرى أبو حيان في «البحر» أنّ من زعم ذلك وكذلك من زعم أن (ابْناً) صفة لـ [عزَيْر] وقع بين علَمَيْن فحُذف تنوينه والخبر محذوف ، أي : معبودنا ـ فقوله مُتَمَحَّل ، لأن الذي أنكر عليهم إنما هو نسبة البُنُوّة إلى الله تعالى .

(٢) الآيتان (١ ، ٢) من سورة (الإخلاص) .

(٣) دعَسَه بالرُّمْح يدْعَسُه دَعْساً : طعنة ، ورجلٌ مِدْعَسٌ : طعَّان ، ويكون بالصاد ، قال صاحب اللسان : «وهو الأعرف» ، وقال سيبويه : «وكذلك الأنثى بغير هاءٍ ، ولا يجمع بالواو والنون لأن الهاء لا تدخُلُ مُؤَنثه» . والشاهد في قوله : «عُطَيْفُ السُّلَمي» بدون تنوين في (عُطَيْف) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقياس هذه القراءة والتأْويل أن يحذف الألف من [ابْن] لكنها ثبتت في خط المصحف ، فيتدرج من هذا كله أن قراءة التنوين في [عُزَيْر] أقواها .

وحكى الطبري وغيره أن بني إسرائيل أصابتهم فِتن وبلاءٌ — وقيل مرضٌ — وأذهب الله عنهم التوراة في ذلك ونسوها ، وكان علماؤُهم قد دفنوها أول ما أحسوا بذلك البلاء ، فلما طالت المدة فُقدت التوراة جملة فحفظها الله عزيراً كرامة منه له ، فقال لبني إسرائيل : إن الله قد حفظني التوراة فجعلوا يدرسونها من عنده ، ثم إن التوراة المدفونة وُجدت فإذا هي مساوية لما كان عُزَيْر يدرس ، فضلوا عن ذلك وقالوا : إن هذا لم يتهيّأْ إلا وهو ابن الله . وظاهر قول النصارى المسيح ابن الله أنها نُبُوَّة النسل كما قالت العرب في الملائكة ، وكذلك يقتضي قول الضحاك والطبري وغيرهما ، وهذا أشنع في الكفر ، قال أبو المعالي : أطبقت النصارى على أن المسيح إلٰه وأنه ابن الإلٰه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويقال : إن بعضهم يعتقدها بنوة حُنُوٍّ ورحمة ، وهذا المعنى أيضاً لا يحل أن تطلق البنوة عليه ، وهو كُفر لمكان الإشكال الذي يدخل من جهة التناسل ، وكذلك كفرت اليهود في قولهم : عُزَيْر ابن الله ، وقولهم : نحن أبناءُ الله ، وإنما توجد في كلام العرب استعارة البنوة

عبارة عن نِسَبٍ وملازماتٍ تكون بين الأَشياءِ إذا لم يُشْكل الأَمر وكان أَمر النسل من الاستحالة ، ومن ذلك قول عبد الملك بن مروان : «وقد زَبنَتْنا الحرب وزَبنَّاها [١] ، فنحن بنوها وهي أُمنا» ، يريد الملازمة ، ومن ذلك قول حُرَيْث بن محصن :

بنُو الْمجْد لم تَقْعُد بِهِم أُمَّهاتُهم وَآبَاؤُهم أَبْنَاءُ صِدْقٍ فَأَنْجبُوا [٢]

ومن ذلك : ابنُ نَعْش ، وابن ماءٍ ، وابنُ السبيل ، ونحو ذلك ، ومنه قول الشاعر :

* والأَرْضُ تَحْمِلنا وكانتْ أُمّنا *

ومنه أَحد التأْويلات في قوله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة ابن زنى) [٣] أَي ملازمه ، والتأْويل الآخر : لا يدخلها مُشكل الأَمْر ، والتأْويلان في قول النصارى : المسيح ابن الله كما تقدم من الصفة والخبر إلا أَن شغب التنوين ارتفع ها هنا ، وعُزَيْر نَبِيٌّ من أَنبياءِ بني إسرائيل .

---

(١) ومنه قولهم : «حرْبٌ زَبون» لأنها تزْبِن الناسَ أي تدفعهم وتصدمهم على التشبيه بالناقة الزّبون وهي التي تدفع حالبها عن حلبها ، وفي حديث معاوية : «فَرُبَّمَا زَبَنَت فكسرت أنف حالبها» .

(٢) يصفهم بالمجد والشرف من جهة الأمهات ومن جهة الآباء ، ومعنى «لم تقعد بهم أمهاتهم» : لم تقصر من ناحية الشرف ، يقال : فلان مُقْعَد الحسب إذا لم يكن له شرف ، وقد أقْعَدَهُ آباؤُه وتَقَعَدوه . قال الطّرمّاح يهجو رجلا :

ولكِنَّهُ عَبْدٌ تَقَعّد رأيَهُ لِئَامُ الْفُحولِ وارْتِخَاصُ الْمَنَاكِحِ

وأنجب الرجل : ولد نجيبا . والنجيب الكريم ، قال الشاعر :

أنْجَبَ أزْمَانَ والداهُ بِهِ إذْ نَجَلاهُ فنعْمَ ما نَجَلا

(٣) تقدم الكلام على هذا عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّم كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ﴾ وهي الآية (١٧٩) من سورة (الأعراف) .

وقوله تعالى : [بِأَفْواهِهِمْ] يتضمن معنيين ، أَحدهما : إلزامهم المقالة بالتأْكيد في ذلك كما قال : ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[1] ، وكقوله : ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[2] ، والمعنى الثاني في قوله سبحانه [بِأَفْواهِهِمْ] أَي هو ساذج لا حجة عليه ولا برهان[3] ، غاية بيانه أَن يقال بالأَفواه قولًا مجرداً نَفْس دعوى[4].

و [يُضَاهُونَ] قراءَة الجماعة ، ومعناه : يحاكون ويُبارون ويماثلون . وقرأ عاصم وحده من السبعة ، وطلحة بن مصرف [يُضَاهِئُون] بالهمز على أَنه من (ضاهأ) ، وهي لغة ثقيف بمعنى (ضاهى) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومن قال إن هذا مأْخوذ من قولهم : «امرأَةٌ ضَهْيَاءُ» — وهي التي لا تحيض ، وقيل : التي لا ثدي لها ، سُميت بذلك لشبهها بالرجال — فقوله خطأٌ ، قاله أَبو عليّ ، لأَن الهمزة في (ضاهأ) أَصلية ، وفي (ضهياء) زائدة كحمراءَ[5] ، وإن كان الضمير في [يُضَاهِئُونَ] لليهود

---

(١) من الآية (٧٩) من سورة (البقرة) .

(٢) من الآية (٣٨) من سورة (الأنعام) .

(٣) وردت كلمة (ساذج) في بعض النسخ بالدال المهملة أي (سادج) ، والسَّدْجُ والتَّسَدّج : الكذب وتَقَوّل الأباطيل ، وقد سدَج سدْجاً وتسَدَّج أي : تكذب ، قال الشاعر : «فينا أقاويل امرئٍ تَسَدَّجا» ، فالمعنى : هو كلام كاذب لا حجة عليه .

(٤) هكذا بالأصل .

(٥) اختلف العلماءُ في (ضَهْيَأ) هل يمد أو لا ؟ فقال ابن ولاَّد : امرأةٌ ضهيَأ ، وهي التي لا تحيض ، مهموز غير ممدود ، وسيبويه يمدُّه فيجعله ضهياء ، والهمزة فيه زائدة لأنهم عند الجمع يقولون : نساءٌ ضُهْيٌ فيحذفون الهمزة ، ونقل أبو الحسن عن النَّجيرميّ «امرأة ضَهْيَاءَة» بالمدّ والهاء ، جمع بين علامتي تأنيث ، حكاه عن أبي عمرو الشيباني ، وأنشد :

«ضَهْيَاءَةٌ أو عاقِرٌ جمـــاد»

والنصارى جميعاً فالإشارة بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ هي إمَّا لمشركي العرب إذ قالوا : «الملائكة بنات الله» ، وهم أول كافر ، وهو قول الضحاك ، وإما لأُمَمٍ سالفة قبلهما ، وإما للصدر الأول من كفرة اليهود والنصارى ، ويكون [يُضَاهِئُونَ] لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم . وإن كان الضمير في [يُضَاهِئُونَ] للنصارى فقط كانت الإشارة بـ ﴿الَّذينَ كَفَرُوا منْ قبْلُ﴾ إلى اليهود، وعلى هذا فَسّر الطبري ، وحكاه الزهراوي عن قتادة .

وقوله تعالى : ﴿قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاءٌ عليهم عام لأَنواع الشَّر ، ومعلوم أَن من قاتله الله فهو المغلوب المقتول ، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن المعنى : لعنهم الله[1] . و ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ مقصده : أَنَّى توجهوا وأَنَّى ذهبوا ، وبُدّل مكان هذا الفعل المقصود فعل سوءٍ يحلُّ بهم ، وذلك فصيح في الكلام كما تقول : «لعن الله الكافر أَنَّى هلك» كأَنك تحتم عليه بهلاك ، وكأَنه حتم عليهم في هذه الآية بأَنهم يؤفكون ، ومعناه : يحرمون ويصرفون عن الخير ، والأَرض المأْفوكة التي لم يصبها مطر ، قال أَبو عبيدة : [يُؤْفَكُونَ] معناه : يحدّون .

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما : كل شيءٍ في القرآن قتْل فهو لعن ، ومنه قول أبان بن تغلب :

قاتَلَها اللهُ تَلْحاني وقَدْ عَلِمَتْ أَنّي لِنَفسيَ إفْسَادي وإِصْلاحي

وقال النقاش : أصل « قاتل الله » الدعاءُ ، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء ، وأنشد الأصمعي :

يا قاتَلَ اللهُ ليلى كيْفَ تُعجبني وأُخْبِرُ الناسَ أني لا أُباليهَا ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يريد : من قولك «رجلٌ محدود» أي : محروم لا يصيب خيراً ، وكأنه من الإفك الذي هو الكذب ، فكأن المأفوك هو الذي تكذبه أراجيه فلا يلقى خيراً [١]. ويحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ابتداء تقرير ، أي : بأي سبب ومن أي جهة يصرفون عن الحق بعد ما تبين لهم ؟

و[قَاتَلَ] في هذه الآية بمعنى (قتل) ، وهي مفاعلة من واحد ، وهذا كُلُّهُ بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

واحد الأحبار حِبْر بكسر الحاء ، ويقال حَبْر بفتح الحاء ، والأول أفصح ومنه مداد الحبر ، والحَبر بالفتح : العالِم ، وقال يونس

(١) من الأفْك بمعنى الصرف عن الحق قوله تعالى : ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي : يصرف عن الإيمان من صُرِف ، ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي : لتصرفنا وتصدنا ؟ ويأتي الأفيك والمأفوك بمعنى المخدوع عن رأيه ، وبمعنى من لا حزم له ولا حيلة ، وعليه قول الشاعر : «مَالي أرَاكَ عاجزاً أفيكاً» ؟

ابن حبيب : لم أَسمعه إلا بكسر الحاءِ ، وقال الفراءُ : سمعت فتح الحاءِ وكسرها في العالِم ، وقال ابن السكِّيت : الحِبر بالكسر : المداد ، والحَبْر بالفتح : العالِم . والرهبانُ : جمع راهب وهو الخائف، من الرهبة ، وسماهم أَرباباً وهم لا يعبدونهم ولكن من حيث تلقوا الحلال والحرام من جهتهم وهو أَمر لا يُتلقى إلا من جهة الله عزَّ وجلَّ ، ونحو هذا قال ابن عباس ، وحذيفة بن اليمان ، وأَبو العالية . وحكى الطبري أَن عدي بن حاتم قال : جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب ذهب ، فقال : يا عدي اطرح هذا الصليب من عنقك ، فسمعته يقرأُ : ﴿ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللهِ﴾ فقلت : يا رسول الله وكيف ولم نعبدهم ؟ فقال : أَليس تستحلُّون ما أَحلوا وتحرِّمون ما حرَّموا ؟ قلت : نعم ، قال : فذاك .(١) [وٱلْمَسِيح] عطف على الأَحبار والرهبان ، و [سُبْحَانَهُ] نصب على المصدر والعامل فيه فعل من المعنى لأَنه ليس من لفظ (سُبحان) فعل، والتقدير : أُنزهه

(١) أخرجه ابن سعد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسَّنه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن عدي بن حاتم ولكن دون ذكر الصليب الذي في عنقه . (الدر المنثور) ، وفي تفسير ابن كثير أن هذا الحديث رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن جرير من طُرق عن عديّ بن حاتم ، وفيه أنه رضي الله عنه لما بلغته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فرَّ إلى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأُسِرَت أُخته وجماعة من قومه ، ثم مَنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أُخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيءٍ ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدَّث الناس بقدومه فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنق عديّ صليب ... الخ .

تنزيها ، فمعنى [سُبْحَانَهُ] : تنزيهاً له ، واحتج من يقول إن أهل الكتاب مشركون بقوله تعالى : ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، والغير يقول : إن اتخاذ هؤلاءِ الأَرباب ضرب من الإشراك ،وقد يقال في المرائي : إنه أشرك ، وفي ذلك آثار .

وقوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُور ٱللَّهِ﴾ الآية . نور الله في هذه الآية : هداه الصادر عن القرآن والشرع المثبت في قلوب الناس ، فمن حيث سماه نوراً سمَّى محاولة إفساده والصد في وجهه إطفاءً . وقالت فرقة : النور : القرآن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا معنى لتخصيص شيءٍ مما يدخل تحت المقصود بالنور . وقوله : [بِأَفْوَاهِهِمْ] عبارة عن قلة حيلتهم وضعفها ، أخبر عنهم أَنهم يحاولون مقاومة أَمر جسيم بسعي ضعيف فكان الإطفاءُ بنفخ الأَفواه ، ويحتمل أَن يراد : بأَقوال لا برهان عليها فهي لا تجاوز الأَفواه إلى فهم سامع . وقوله : [وَيَأْبَى] إيجابٌ يقع بعده أحياناً (إلَّا) وذلك لوقوعه هو موقع الفعل المنفي ، لأَن التقدير : ولا يريد الله إلا أَن يتم نوره ، وقال الفراءُ : «هو إيجابٌ فيه طرف من النفي» ، وردّ الزجاج على هذه العبارة وبيانه ما قلناه.(١)

---

(١) قال الزجاج : الجحد والتحقيق ليسا بذوي أطراف ، وأدوات الجحد : ما ، ولا ، وإنْ ، وليس ، وهذه لا أطراف لها ينطق بها ، ولو كان الأمر كما أراد – أي الفراءُ – لجاز : كرهت إلا زيداً . وقد رد عليه ابن عطية ، وخلاصته أن (أَبى) مَنْع وامتناع فضارعت النفي ، قال الشاعر :

وهَلْ لِيَ أُمٌّ غَيْرُها إنْ تَرَكْتُها ؟ أَبَى اللهُ إلا أنْ أكونَ لَهَا ابْنَمَا

وقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية . [رَسُولَهُ] يراد به محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله : [بِالْهُدَىَ] يعُم القرآن وجميع الشرع ، وقوله : ﴿ودِينِ ٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى الإسلام والمِلَّة بجمعها وهي الحنيفية ، وقوله : [لِيُظْهِرهُ] قال أَبو هريرة ، وأَبو جعفر محمد بن عليّ ، وجابر بن عبد الله[1] ما معناه : إن الضمير عائد على الدين ، وإظهاره عند نزول عيسى بن مريم وكون الأَديان كلها راجعة إلى دين الإسلام ، فذلك إظهاره .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فكأَن هذه الفرقة رأت الإظهار على أتم وجوهه ، أي : حتى لا يبقى معه دين آخر . وقالت فرقة : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ﴾ أي ليجعله أعلاها وأظهرها ، وإن كان معه غيره كان دونه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا لا يحتاج إلى نزول عيسى ، بل كان هذا في صدر الأُمة وهو حتى الآن إن شاءَ الله . وقالت فرقة : الضمير عائد على الرسول ، ومعنى [لِيُظْهِرَهُ] ليطلعه ويعلِّمه الشرائع كلها والحلال والحرام .

(١) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي ، صحابي . من المكثرين في الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة من الصحابة ، غزا تسع عشرة غزوة ، وكانت له في أواخر حياته حلقة في المسجد النبوي ، روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً ، توفي ٧٨ هـ (الإصابة ، وكشف النقاب ، وتهذيب الأسماء) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا التأْويل وإن كان جائزاً صحيحاً فالآخر أَبْرع منه وأَلْيق بنظام الآية وأَجْرى مع كراهية المشركين ، وخُصَّ المشركون هنا بالذكر لما كانت كراهية مختصة بظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فذُكِر العُظْم(١) والأُوَلُ مِمَّن كرِه وصدَّ فيه ، وذُكر الكافرون في الآية قَبْلُ لأَنها كراهية إتمام نور الله في قديم الدهر وفي باقيه فعَمَّ الكفرة من لدن خلق الدنيا إلى انقراضها إذ قد وقعت الكراهية والإتمام مراراً كثيرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

المراد بهذه الآية بيان نقائص المذكورين ، ونَهْيُ المؤمنين عن تلك النقائص مترتبٌ ضمن ذلك ، واللام في [لَيَأْكُلُونَ] لام تأْكيد ،

(١) عُظْمُ الشيء ومُعْظَمه : جُلُّه وأكثره ، وعُظْم الشيء : أكبره ، وفي الحديث : «أنه كان يُحدِّث ليلةً عن بني إسرائيل لا يقوم فيها إلا إلى عُظْم صلاة» . كأنه أراد : لا يقوم إلا إلى الفريضة . ومنه الحديث : «فأسْنَدوا عُظْم ذلك إلى ابن الدُّخْشُم» ، أي معظمه . (اللسان) ، أما الأُوَل فجمع أوّل يريد السابقين .

وصورة هذا الأَكل هي أَنهم يأْخذون أَموال أَتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبِيع وغير ذلك مما يوهمونهم أَن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله ، وهم خلال ذلك يحْتَجِنونَ [(١)] تلك الأَموال كالذي ذكره سلمان في كتاب السير عن الراهب الذي استخرج كنزه [(٢)] ، وقيل : كانوا يأْخذون منهم من غلاتهم وأَموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع ، وقيل : كانوا يرتشون في الأَحكام ، ونحو ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقوله تعالى : [بِالْبَاطِلِ] يعُم كل ذلك ، وقوله : [يَصُدُّونَ] الأَشبه هنا أَن يكون مُعدى ، أَي : يصدُّون غيرهم ، وهذا الترجيح إنما هو لنباهة منازلهم في قومهم ، و (صدَّ) يستعمل واقفاً ومتجاوزاً ، ومنه قول الشاعر :

صَدَدْتِ ٱلْكَأْسَ عنَّا أُمَّ عمْروٍ وكَانَ ٱلْكَأْسُ مجْرَاها ٱلْيَمِينَا [(٣)]

و ﴿سَبِيلِ ٱللهِ﴾ : الإسلام وشريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، ويحتمل أَن يريد : ويصدون عن سبيل الله في أَكلهم الأَموال بالباطل ،

---

(١) من قولهم : احتجن الشيء بمعنى احتوى عليه وضمَّه إليه ، ويقال : احتجن عليه بمعنى حَجَر ، فهو من الاحتجان بمعنى جَمْع الشيء وضمه ، وفي بعض النسخ (يَحْتَجِبُون) والمعروف أن الاحتجاب معناه الاختفاء خلف ستار ، وعبارة القرطبي (يَحْجُبون) .

(٢) الكنز للراهب والذي استخرج هذا الكنز هو سلمان الفارسي . وفي العبارة غموض .

(٣) البيت لعمرو بن كلثوم – من معلقته المشهورة ، وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة الأنفال : ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ .

والأَّول أَرجح . وقوله : [وَٱلَّذِينَ] ابتداءٌ وخبره [فَبَشِّرْهُمْ] ، ويجوز أَن يكون [ٱلَّذِينَ] معطوفاً على الضمير في قوله : [يَأْكُلُونَ] على نظر في ذلك لأَن الضمير لم يؤكد ، وأَسند أَبو حاتم إلى علباءَ بن أَحمد أَنه قال : لما مر عثمان بكتب المصحف أَراد أَن ينقص الواو من قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ فأَبى ذلك أُبي بن كعب وقال : «لتلحقنها أَو لأَضعن سيفي على عاتقي» فأَلحقها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعلى إرادة عثمان يجري قول معاوية : إن الآية في أَهل الكتاب ، وخالفه أَبو ذَرٍّ فقال : بل هي فينا ، فشكاه إلى عثمان فاستدعاه من الشام ثم أَخرجه إلى الرَّبذَة[1] ، والذي يظهر من الأَلفاظ أَنه لما ذكر بعض الأَحبار والرهبان الآكلين المال بالباطل ذكر بعد ذلك مقولة نقص الكانزين المانعين حق المال .

---

(١) الرَّبَذَة بفتح الراء المشددة ، وبفتح الباء : موضع قريب من المدينة . وظاهر الخبر أن عثمان هو الذي أخرج أبا ذرٍّ إلى الرَّبَذَة ، ولكن يظهر من رواية البخاري أنه عرض عليه ذلك وترك له حرية الخروج إليها ، فقد روى البخاري عن زيد بن وهب قال : (مررتُ بالرَّبَذة فإذا بأبي ذرّ فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا في سَبِيلِ اللهِ﴾ فقال معاوية : نزلت في أهل الكتاب ، فقلت : نزلت فينا وفيهم ، وكان بيني وبينه في ذلك ، فكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إلي عثمان أن اقدم المدينة ، فقدمتُها فكثر علي الناس حتى كأنهم لم يروني من قبل ، فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تَنَحَّيْتَ فكنت قريباً ، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ، ولو أمَّروا عليَّ حبشياً لسمعتُ وأطعتُ) .

وقرأ طلحة بن مصرف : ﴿ٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ بغير واو ، و [يَكْنِزُونَ] معناه : يجمعون ويحفظون في الأَوعية . ومنه قول المَنَخَّل الهُذلي :

لا دَرَّ دريَ إنْ أَطْعَمْتُ جائِعَهُمْ قِرْفَ ٱلْحَتِـيِّ وعنديالبُرُّ مكْنوزُ[١]

أَي محفوظ في أَوعيته ، وليس من شروط الكنز الدفن لكن كثُر في حفظة المال أَن يدفنوه حتى تعورف في المدفون اسم الكنز ، ومن اللفظة قولهم : «رَجل مُكْتَنِز الخَلْق» أَي مجتمع ، ومنه قول الراجز :

عَلَى شَدِيدٍ لَحْمُهُ كِنَــاز باتَ يُنَـزّيني عَلَى أَوْفــاز[٢]

والتَّوعد في الكنز إنما وقع على منع الحقوق منه ، ولذلك قال كثير من العلماء : الكنز هو المال الذي لا تُؤَدَّى زكاته وإن كان على وجه الأَرض ، وأَما المدفون إذا أُخرجت زكاته فليس بكنز كما قال رسول الله

---

(١) الدَّرُّ : اللَّبن ، والدَّرُّ أيضاً : العمل من خير أو شر ، ومنه قولهم : لله درُّك ، يكون مدحاً ويكون ذمّاً ، وغلب في مجال المدح : لله « درُّك » ، وفي مجال الذّم : « لا درَّ درُّك ». قال الفراءُ : وقد استعملوه من غير أن يقولوا (لله) ، فيقولون : درَّ دَرُّ فلان ، ولا دَرَّ درُّه ، ومنه هذا البيت . ويروى : « نازلَـهُم » بدلا من «جائعَهم» ، وقِرْفُ الْحَتِـيِّ هو سوَيقُ المُقْل ، والمُقْلُ هو ثمر شجر الدوم ينضج ويؤكل ، يقول : إنه نزل بقوم فكان قراه عندهم قِرفَ الْحَتِـيِّ ، فلما نزلوا به قال : لا دَرَّ درِّي ... الخ .

(٢) الراجز يصف جملا ، وقد رواه في (اللسان) غير منسوب وبلفظ آخر ، قال :

أسوقُ عيراً مائلَ الْجِهاز صعْباً يُنَزّيني علَى أَوْفاز

واللحم الكِناز : المجتمِع الصّلب ، والنَّزْوُ : الوثبان ، يقال : نَزَا يَنْزُو ، ومنه : أنْزَاه ونَزَّاه تَنْزِيَةً ، والوَفْزُ : ألا يطمئن في قُعود ، ويقال : قعد على أَوْفَاز من الأرض ، يقول : إن جملي صلب مجتمع اللحم يثب بي في سرعة فَينزّيني فلا أطمئن في قعودي عليه .

صلى الله عليه وسلم : (كُل ما أُدِّيت زكاته فليس بكنز)[١] ، وهذه الألفاظ مشهورة عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وروي هذا القول عن عِكرمة ، والشعبي ، والسّدي ، ومالك ، وجمهور أَهل العلم . وقال عليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه : «أَربعة آلاف درهم فما دونها نفقة ، وما زاد عليها فهو كنز وإن أُدّيت زكاته» ، وقال أَبو ذرٍّ وجماعة معه : «ما فَضَل من مال الرجل عن حاجة نفسه فهو كنز» ، وهذان القولان يقتضيان أَن الذم في حبس المال لا في منع زكاته فقط ، ولكن قال عُمَر بن عبد العزيز رضي الله عنه : هي منسوخة بقوله : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[٢] فأَتى فرض الزكاة على هذا كله .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

كأَن مضمن الآية : «لا تجمعوا مالًا فتعذبوا» ، فنسخه التقرير الذي في قوله : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ . والضمير في قوله : [يُنْفِقُونَهَا] يجوز أَن يعود على الأَموال والكنوز التي يتضمنها المعنى ، ويجوز أَن يعود على الذهب والفضة إِذْ هما أَنواع ، وقيل : عاد على الفضة

---

(١) أخرج ابن عديّ ، والخطيب عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أيُّ مال أُدِّيَتْ زكاتُه فليس بكنز) ، وأخرجه ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه موقوفاً .

(٢) من الآية (١٠٣) من سورة (التوبة) .

واكتفي بضمير واحد عن ضمير الآخر إذْ أفهمه المعنى ، وهذا نحو قول الشاعر :

نَحْنُ بِما عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمـــا عِنْدكَ رَاضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِفُ(١)

ونحو قول حسَّان :

إنَّ شرْخَ الشَّبابِ والشَّعَر الأَسْـــوَدَ ما لم يُعاص كان جُنوناً(٢)

وسيبويه يكره هذا في الكلام ، وقد شبه كثير من المفسرين هذه الآية بقوله تعالى : ﴿وإذَا رأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ٱنْفَضُوا إلَيْهَا﴾(٣) ، وهي لا تشبهها لأَن [أَوْ] قد فصلت التجارة عن اللَّهو وحسنت عود الضمير على أَحدهما دون الآخر .

والذهب يؤنث ويذكر والتأْنيث أَشهر ، وروي أَن أَصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : قد ذم الله كسب الذهب والفضة ، فلو علمنا أَي المال خير حتى نكسبه ، فقال عمر رضي الله عنه : أَنا أَسأَل

---

(١) البيت لقيس بن الحطيم ، وقد أنشده سيبويه مستشهداً على جواز الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر عند فهم المعنى ، إذْ لم يقل : راضون .

(٢) الشاهد فيه أنه لم يقل : يُعاصيا ، ومثل هذا البيت والذي قبله في الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فُهم المعنى قول ابن أحمر يصف رجلا كانت بينه وبينه مشاجرة في بئر (تُسَمَّى الطَّوِيّ) ، وأن هذا الرجل رماه بأمر يكرهه ، ورمى أباه بمثله على براءتهما منه :

رَمَاني بِأَمْرٍ كنْتُ منهُ ووالدي بريئاً ومن أجْلِ الطَّوِيِّ رَمَاني

(٣) من الآية (١١) من سورة (الجمعة) .

لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فسأله فقال : (لسانٌ ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة تعين المؤمن على دينه)(١) ، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت الآية : (تبًّا للذهب تبًّا للفضة)(٢) ، فحينئذ أشفق أصحابه وقالوا ما تقدم .

والفاءُ في قوله : [فَبَشِّرْهُمْ] جواب لِمَا في قوله : [وَالَّذِينَ] من معنى الشرط ، وجاءت البشارة مع العذاب لمّا وقع التصريح بالعذاب ، وذلك أن البشارة تقيد بالخير والشر فإذا أُطلقت لم تُحمل إلّا على الخير فقط ، وقيل : بل هي أبداً للخير فمتى قُيِّدت بِشرّ فإنما المعنى : أَقِم لهم مقام البشارة عذاباً أليماً ، وهذا نحو قول الشاعر :

وخَيْل قَدْ دلَفْتُ لها بِخيْـــل تَحِيَّةُ بَيْنَهُمْ ضربٌ وجيـعُ(٣)

(١) رواه الترمذي وحسّنه ، ورواه ابن ماجة من غير وجه عن سالم بن أبي الجعد ، ذكر ذلك القرطبي وابن كثير ، وفي ابن كثير أن الإمام أحمد رواه عن ثوبان بلفظ : لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا : فأيّ المال نتّخذ ؟ فقال عمر : فأنا أعلم لكم ذلك ، فأوضع على بعير فأدركه وأنا في أثره (قائل ذلك ثوبان) ، فقال : يا رسول الله أي المال نتّخذ ؟ قال : (قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة) .

(٢) رواه عبد الرزاق عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ الآية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (تَبًّا للذهب تَبًّا للفضة) يقولها ثلاثاً ، قال : فَشَقَّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : فأي المال نتخذ ؟ فقال عمر ... الخ . (ابن كثير) .

(٣) قائل هذا البيت عمرو بن معديكرب ، والدَّلَف : المشي رويداً في خطو متقارب ، وقيل : هو فوق الدبيب ، والشاهد في البيت أن في كلمة (تحية) استعارة تهكمية فيها السخرية منهم كما في قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وفيهما نُزّل التّضادُّ منزلة التناسب .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ الآية . [يوْمَ] ظرف والعامل فيه [أليم] . وقرأ جمهور الناس : [يُحْمَى] بالياء بمعنى : تُحمى الوقود ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [تُحْمَى] بالتاء من فوق بمعنى : تُحْمى النار ، والضمير في [عليها] عائد على الكنوز أو الأموال حسبما تقدم . وقرأ قوم [جِبَاهُّم] بالإدغام وأشموها الضم ، حكاه أبو حاتم .

ووردت أحاديث كثيرة في معنى هذه الآية من الوعيد لكنها مُفسَّرَة في منع الزكاة فقط لا في كسب المال الحلال وحفظه ، ويؤيد ذلك حال الصحابة وأموالهم رضي الله عنهم ، فمن تلك الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم : (من ترك بعده كنزاً لم يُؤَدّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع) الحديث [(١)] ، وأسند الطبري قال : كان نعْل سيف أبي هريرة من فضة فنهاه أبو ذَرٍّ وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَن ترك صفراءَ أو بيضاءَ كوي بها)[(٢)] ، وأُسند إلى أبي أُمامة الباهلي قال : (مات رجل من أهل الصُّفَّة فوجد في بردته دينار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيَّة ، ثم مات

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الزكاة — باب إثم مانع الزكاة — ولفظه : (من آتاه الله مالا فلم يُؤَدّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شُجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه ثم يأخذ بلهزمتيه — يعني شدقيه — ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ . الآية .

(٢) أخرجه أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم ، وابن مردويه عن ثوبان رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

آخر فوجد له ديناران فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيَّتان)[١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا إما لأنهما كانا يعيشان من الصدقات وعندهما التِّبْر ؛ وإمَّا لأن هذا كان في صدر الإسلام ثم قرر الشرع ضبط المال وأداءَ حقه ، ولو كان ضبط المال ممنوعاً لكان حقه أن يخرج كله لا زكاته فقط ، وليس في الأُمة من يُلْزم هذا .

وقوله : ﴿هذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ إشارة إلى المال الذي يكوى به ، ويحتمل أن يكون إلى الفعل النازل بهم ، أي : هذا جزاءُ ما كنزتم ، وقال ابن مسعود : والله لا يمس دينار ديناراً ، بل يمد الجلد حتى يكوى بكل دينار وبكل درهم ، وقال الأحنف بن قيس : دخلت مسجد المدينة وإذا رجل خشن الهيئة رَثُّها يطوف في الخلق وهو يقول : بشِّر أصحاب الكنوز بكيٍّ في جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ثم انطلق يتذمّر وهو يقول : وما عسى تصنع في قريش .

---

(١) أسنده الطبريُّ إلى أبي أُمامة ، ذكر ذلك القرطبي كما ذكره ابن عطية ، وفي ابن كثير أن الإمام أحمد رواه عن يزيد بن الصّرم قال : سمعتُ علياً رضي الله عنه يقول : مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كيّتان» ، صلوا على صاحبكم ، ورواه قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أُمامة صدي بن عجلان بمثل إسناد الطبري إلا أنه قال : «بمئزره» بدلا من «بردته» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

هذه الآية ـ والتي بعدها ـ تتضمن ما كانت العرب شرعته في جاهليتها من تحريم شهور الحلِّ ، وتحليل شهور الحُرمة ، وإذا نُصّ ما كانت العرب تفعله تبين معنى الآيات . فالذي تظاهرت به الروايات ويَنْفَكُّ من مجموع ما ذكر الناس أن العرب كانت لا عيش لأكثرها إلا من الغارات وإعمال سلاحها ، فكانوا إذا توالت عليهم حرمة ذي القعده وذي الحجة والمحرم صعب عليهم وأملقوا ، وكان بنو فُقَيْم (١) من كنانة أهل دين في العرب وتَمَسُّكٍ بشرع إبراهيم عليه السلام ، فانتدب منهم القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد فُقَيم فنسأَ الشهور للعرب ، ثم خلفه على ذلك ابنه عباد بن حذيفة ، ثم خلف ابنه قلع بن عباد ، ثم خلفه ابنه أُمية بن قلع ، ثم خلفه ابنه عوف ابن أُمية ، ثم خلفه ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف ، وعليه قام الإسلام ؛

---

(١) بضم الفاء وفتح القاف بعدهما ياءٌ ساكنة ، والقَلَمَّس بفتح القاف واللام وتشديد الميم . وكان القَلَمَّس هذا يقوم بعد صدورهم من منىً فيقول : أنا الذي لا يُرَدُّ لي قضاءٌ ، فيقولون : أنْسِئنا شهراً ، أي أخّر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر ، فيحل لهم المحرم ... الخ .

وذكر الطبري وغيره أن الأمر كان في عدوان قبل بني مالك بن كنانة ، وكانت صورة فعلهم أن العرب كانت إذا فرغت من حجّها جاء إليهم من شاء منهم مجتمعين فقالوا : أنسئنا شهراً ، أي : أخّر عنا حرمة المحرّم فاجعلها في صفر ، فيحلُّ لهم المحرم فيُغيرون فيه ويعيشون ، ثم يلتزمون حرمة صفر ليوافقوا عدة الأشهر الأربعة ، قال مجاهد : ويسمون ذلك الصفر المحرَّم ، ثم يسمون ربيعاً الأول صفراً وربيعاً الآخر ربيعاً الأول ، وهكذا في سائر الشهور يستقبلون سنتهم من المحرم الموضوع لهم فيسقط على هذا حكم المحرم الذي حُلِّل لهم ، وتجيءُ السَّنَة من ثلاثة عشر شهراً أولها المحرم المحلَّل ثم المحرَّم الذي هو في الحقيقة صفر ثم استقبال السَّنَة كما ذكرنا ، ففي هذا قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِنْدَ ٱللهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً ﴾ أي : ليست ثلاثة عشر شهراً . قال الطبري : حدثني ابن وكيع عن عمران بن عُيَيْنَة بن حصين عن أبي مالك قال : كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً ، قال مجاهد : ثم كانوا يحجون في كل شهر عامين ولاءً ثم بعد ذلك يُبَدّلون فيحجون عامين ولاءً ، ثم كذلك حتى جاءت حجة أبي بكر رضي الله عنه في ذي القعدة حقيقة وهم يسمونه ذا الحجة ، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر في ذي الحجة حقيقة ، فذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم :

ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان)[١] ، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب في حجة الوداع فساق الحديث فقال فيه : (أَولهن رجب مُضر الذي بين جمادى وشعبان ، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويجيءُ في أَكثر الكتب أَنهم كانوا يجعلون حرمة المحرم في صفر ويُسكت عن تمام القصة ، والذي ذكرناه هو بيانها ، وأَمَّا كون المحرم أَول السنة العربية ، وكان حقه – إذ التاريخ من الهجرة – أَن يكون أَول السَّنَة في ربيع الأَول ، فإِن ذلك فيما يروى لأَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دوّن ديوان المسلمين وجعل تاريخه المحرم إذ قبله انقضاءُ الموسم والحج فكان الحج خاتمة للسَّنَة ، واعتد بعام الهجرة وإن كان قد نقص من أَوله شيءٌ ، ولما كانت سنة العرب هلالية بدأَ العام من أَول شهر ، ولم يكن في الثاني عشر من ربيع الذي هو يوم دخول النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، ولا كان عند تمام الحج لأَنه في كسر شهر . وأَما الأَربعة الحُرُم فهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ،

(١) الحديث رواه الإمام أحمد عن أبي بَكْرَة ، ورواه البخاري في التفسير وغيره ، ورواه مسلم عن عبد الرحمن بن أبي بَكْرة عن أبيه ، وابن جرير عن أبي هريرة ، ورواه البزار عن محمد بن معمر ، ورواه ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وهو ثابت في كتب التفسير والسير من طرق عدة .

والمحرم ورجب . ومعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان) قصد التفريق بينه وبين ما كانت تفعله قبائل ربيعة بأسرها ، فإنها كانت تجعل رجبها رمضان وتحرّمه ابتداءاً منها ، وكانت قريش ومن تابعها في ذلك من قبائل مضر على الحق ، فقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ونسبه إلى مضر إذْ كان حكمه وتحريمه إنما كان من قِبَلِ قريش ، وفي المفضّليات لبعض شعراءِ الجاهلية :

وشَـــهْر بَني أُميَّةَ والْهدايا . . . .(١)

البيت . قال الأَصمعي : يريد رجباً . وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع : ﴿ اثْنَــا عْشَـر شَهْـــراً ﴾ بســكون العين(٢) ، وذلك تخفيف لتــوالي

---

(١) هذا شطر بيت قاله عوف بن الأحوص العامريّ ضمن أبيات يهجو بها رجلا من بني الحارث بن كعب ، وهي :

وَإِنّي والّذي حَجَّتْ قريْشٌ محارمَهُ وما جَمَعَتْ حِراءُ
وشَهْرِ بَني أُمَيَّةَ والْهَدايَــا إذَا حُبِستْ مُضَرِّجَها الدِّمَاءُ
أذُمُّكَ ما تَرَقْرقَ ماءُ عَيْنِي عَلَيَّ إذاً من الله الْعَفَــاءُ

ومُضَرِّجها : اسم فاعل ، «والدماءُ» فاعله ، و «ها» عائدة على الهدايا ، وهو منصوب على الحال من ضمير الهدايا في «حُبِست» ، وهو جائز لأن إضافة الصفة كاسم الفاعل إلى معمولها ليست محضة فلا تفيد تعريفاً (راجع همع الهوامع ٢–٤٧) . وأذمك معناها : لا أذمك .

(٢) قرأ بها أيضاً هُبَيْرَة عن حَفْص كما قال في «البحر المحيط» ، قال : بإسكان العين مع إثبات الألف ، وهو جمع بين ساكنين على غير حدِّه ، كما روي : «التقَتْ حلْقَتَا الْبطان» بإثبات ألف «حلْقتا» .

الحركات ، وكذلك قرأ : ﴿ أَحَـدَ عْشَرَ ﴾ و ﴿ تِسْعَةَ عْشَـرَ ﴾ [١] .

وقوله تعالى : ﴿ فِي كِتَابِ ٱللهِ ﴾ أي فيما كتبه وأثبته في اللوح المحفوظ أو غيره ، فهي صفة فعل مثل خلقه ورزقه وليست بمعنى قضائه وتقديره ، لأن تلك هي قبل خلق السموات والأرض ، والكتاب الذي هو المصدر هو العامل في [يَوْمَ] ، و [في] من قوله : ﴿ في كِتَابِ اللهِ ﴾ متعلقة بـ «مُسْتَقِرّة أو ثابتة» ونحوه ، ويقلق أن يكون الكتاب : القرآن في هذا الموضع ، وتأمل ، ولا يتعلق [في] بـ [عِدَّة] للتفرقة بين الصلة والموصول بخبر [إنَّ] [٢] . وقوله : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ نصٌّ على تفضيل هذه الأربعة وتشريفها ، قال قتادة : «اصطفى الله من الملائكة والبشر رسلا ، ومن الشهور المحرّم ورمضان ، ومن البقع المساجد ، ومن الأيام الجمعة ، ومن الليالي ليلة القدر ، ومن الكلام ذكْره ، فينبغي أن يُعظَّم ما عظَّم الله» .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ قالت فرقة : معناه : الحساب المستقيم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما حكى المهدوي : معناه : القضاءُ المستقيم .

---

(١) الأولى من قوله تعالى في الآية (٤) من سورة (يوسف) : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ ، والثانية من قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (المدثر) : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ . ولكن لا يوجد هنا التقاءٌ بين ساكنين .

(٢) وهو ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ ، وهذا هو رأي أبي علي ، وقد نقله عنه أيضاً أبو حيّان في «البحر» وعلق عليه بقوله : «وهو كلام صحيح» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأَصوب عندي أن يكون [الدِّينُ] ها هنا على أشهر وجوهه ، أي : ذلك الشرع والطاعة لله ، [الْقَيِّمُ] أي : القائم المستقيم ، وهو من «قام يقوم» بمنزلة «سيِّد» من «ساد يسود» ، وأَصله قَيْوِمٌ . وقوله ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ الضمير عائد على «الاثْنَا عَشَر شَهْراً» أَي : لا تظلموا أَنفسكم بالمعاصي في الزمن كله ، وقال قتادة : الضمير عائد على «الأَربعة الأَشهر»[1] ، ونهى عن الظلم فيها تشريفاً لها بالتخصيص والذكر وإن كان منهياً عنه في كل الزمن ، وزعم النحاة أَن العرب تكني عما دون العشرة من الشهور : «فيهن» ، وعمّا فوق العشرة : «فيها» ، وروي عن الكسائي أَنه قال : إني لأَتعجب من فعل العرب هذا ، وكذلك يقولون فيما دون العشرة من الليالي : «خَلَوْن» ، وفيما فوقها : «خَلَتْ» . وقال الحسن : معنى «فيهِنَّ» أي بِسَبَبِهِنَّ ومن جرّاهن في أَن تُحِلُّوا حرامها وتبدلوه بما لا حرمة له ، وحكى المهدوي أَنه قيل : «لا تظلموا فيهن أَنفسكم بالقتال» ثم نسخ بفرض القتال في كل زمن ، قال سعيد بن المسيب في كتاب الطبري : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرم القتال في الأَشهر الحرم بما أَنزل الله في ذلك حتى نزلت براءة .

---

(١) والسبب أنه إليها أقرب ، ولأن لها مزية في تعظيم الظلم لقوله تعالى : ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ في الحَجِّ ﴾ ، وليس المعنى أن الظلم في غير هذه الأيام جائز ، بل هو حرام في كل وقت وبخاصة في هذه الأوقات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ معناه : فيهن فأحرى في غيرهن ، وقوله : [كَافَّةً] معناه : جميعاً ، وهو مصدر في موضع الحال ، قال الطبري : كالعاقبة والعافية ، فهو – على هذا – كما تقول : خاصة وعامة ، ويظهر أيضاً أنه من كفَّ يكفُّ ، أي جماعة تكف من عارضها ، وكذلك تقول : الكافة ، أي تكف من خالفها ، فاللفظة – على هذا – اسم فاعل . وقال بعض الناس : معناه : يكف بعضهم بعضاً عن التخلف ، وما قدمناه أَعَمُّ وأحسن ، وقال بعض الناس : كان الفرض بهذه الآية قد توجّه على الأعيان ثم نسخ ذلك بعْدُ وجُعل فرض كفاية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الذي قالوه لم يُعلم قط من شرع النبي صلى الله عليه وسلم أنه ألزم الأُمة جميعاً النَّفْر ، وإنما معنى الآية الحض على قتالهم والتحزب عليهم وجمع الكلمة ، ثم قيدها بقوله سبحانه : ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ ، فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم ، وأما الجهاد الذي يندب إليه فإنما هو فرض على الكفاية إذا قام به بعض الأُمة سقط عن الغير .

وقوله : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ خبر في ضمنه أَمْرٌ بالتقوى ووعْد عليها بالنصر والتأْييد .

قوله عز وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

[ٱلنَّسِيءُ] على وزن فَعيل مصدر بمعنى التأْخير ، تقول العرب : أَنْسأَ ٱللهُ في أَجلك ونسأً في أَجلك ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (منْ سرَّه النَّسأَ في الأَجل والسَّعة في الرزق فَلْيصل رحمه) [١] ، وهذه قراءة الجمهور والسبعة ، وقرأَ ابن كثير فيما روي عنه وقوم معه في الشَّاذ [٢] : [النَّسيّ] مشددة الياء ، وقرأَ فيما روى عنه جعفر بن محمد ، والزهري : [النَّسيءُ] ، وقرأَ أَيضاً فيما رُوي عنه : [النَّسْءُ] على وزن «النَّسْع» ، وقرأَت فرقة [النَّسْيُ] . فأَما [النَّسيءُ] بالمدّ والهمز فقال أَبو علي : هو مصدرٌ مثل النكير والنذير وعذير الحيّ [٣] ،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع بلفظ : (من سرَّه أن يُبْسَط له رزقه أو ينْسَأَ له في أثره فَلْيَصِلْ رحمه) ، وأخرجه مسلم في كتاب البرّ ، وأبو داود في كتاب الزكاة .

(٢) هذه القراءةُ ليست من الشاذّ ، فقد قرأ بها نافع . قال أبو حيان في «البحر» : وقرأ الزهري ، وحميد ، وأبو جعفر ، وورش عن نافع والحلواني : (النَّسِيّ) بتشديد الياء من غير همز» . ونقل القرطبي عن النحاس قوله : «ولم يرْوِ أحدٌ عن نافع فيما علمناه (إنَّما النَّسِيُّ) بلا همز إلا ورش وحده» . وعلى هذا يكون معنى قول ابن عطية : «وقومٌ معه في الشاذّ» وقوم ممن يُعَدّون في الشاذ ، وليس غرضه أن يجعل هذه القراءة من الشاذّ .

(٣) العَذير : العاذِر ، يقال : عذيرَكَ من فلانٍ ، بالنصب ، أي : هات من يعذرك ، فَعيل بمعنى فاعل ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو ينظر إلى ابن مُلْجَم :

* عذيرَك مِنْ خليلِكَ من مراد *

ولا يجوز أَن يكون فعيلا بمعنى مفعول لأَنه يكون المعنى : إنَّما المؤَخَّر زيادة ، والمُؤَخِّر الشهر ، ولا يكون الشهر زيادة في الكفر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقال أَبو حاتم : هو فعيل بمعنى مفعول ، وينفصل عن إلزام أَبي علي بأَن يُقَدّر مضاف ، كأَن المعنى : إنما إنساءُ النسيءِ ، وقال الطبري : هو من معنى الزيادة ، أَي زيادتهم في الأَشهر ، وقال أَبو وائل : كان «النسيءُ» رجلا من بني كنانة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف . وأَما [النَّسيُّ] فهو الأَول بعينه خففت الهمزة ، وقيل : قلبت الهمزة ياءً وأُدغمت الياءُ في الياءِ ، وأَما [النَّسْءُ] فهو مصدر من نسأَ إذا أَخَّر ، وأَما [النَّسْيُ] فقيل : تخفيف همزة «النَّسْءِ» ، وذلك على غير قياس ، وقال الطبريُّ : هو مصدر من نَسِي ينْسى إذا تَرَك .

= والعاذِرُ والعذير : من يفعل شيئاً لقومه فيقبلون عُذْرَه فلا يلومونه ، فيكون كأنه اعتذر عن التقصير وهم قبلوا عذره ، كمن يتخذ طعاماً لقومه في ختان أو عُرْس ، وإضافة «عذير» للحيّ على معنى اللام وليست من إضافة المصدر إلى مفعوله ، لأن أعذر المذكور لازم ، قال ذو الأصبع العدواني :

عَذِيرَ الحيِّ مِنْ عُـــدْوا نَ كانوا حيَّـــةَ الأرْض
بغَـــى بعضٌ على بَعْضٍ فلم يرعَـــوْا عَلى بَعْض

يقول : هات عُذْراً فيما فعل بعضهم ببعض من التباعد والتباغض والقتل ، ولم يرْع بعضهم على بعض بعد ما كانوا حيّة يحذرها الناس جميعاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والنسيءُ هو فعل العرب في تأْخيرهم الحرمة ، وقوله تعالى : ﴿ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ ﴾ أي : جارٍ مع كفرهم بالله ، وخلافٌ منهم للحق ، فالكفر متكثر بهذا الفعل الذي هو باطلٌ في نفسه (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومما وجد في أشعارها من هذا المعنى قول بعضهم :

* ومنَّا مُنْسِئُ الشَّهْرِ القَلَمّس(٢) *

وقال الآخر :

نَسَئُوا الشُّهور بها وكانوا أَهْلَها   مِنْ قبْلِكُمْ والعِزُّ لَمْ يتَحَوّل(٣)

---

(١) قال بعض العلماء : لأن الكافر إذا أحدث معصية ازداد كفراً ، قال تعالى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ ، كما أن المؤمن إذا أحدث طاعة ازداد إيماناً ، قال تعالى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ . ذكر ذلك أبو حيان في « البحر » . وقال القرطبي : « لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر ، فإنها أنكرت وجود الله ، وأنكرت البعث ، وأنكرت بعثة الرسل » . الخ .

(٢) القَلَمّس بفتح القاف واللام وتشديد الميم سبقت الإشارة إليه ، واسمه حُذَيْفَة ابن عبد من بني فُقَيْم من بني كنانة ، وشاعرهم يقول هذا الشعر افتخاراً منه لأن الذي يظفر بالنسيء تختاره العرب للرياسة ، وروي هذا الشطر من بحر الوافر : « ومنَّا ناسِيءُ » بدلا من « مُنْسِئُ » .

(٣) لم نقف على قائل هذا البيت ، والشاعر فيه يفخر بقوم كان لهم النسيءُ قبل غيرهم ولا يزال العزّ فيهم لم يتحول عنهم .

ومنه قول جِذْلِ الطِّعانِ :

وَقَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ أَنَّ قَوْمِي كِرَامُ النَّاسِ إِنَّ لهُم كِرامَا
فَأَيُّ الناسِ فاتونا بِوِتْرٍ ؟ وأَيُّ النَّاس لم تَعْلُك لِجَامَا ؟
أَلَسْنَا النَّاسِئينَ عَلَى مَعَدٍّ شهور الحِلِّ نَجْعَلُها حرامَا ؟[1]

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : [يَضِلُّ] بفتح الياءِ وكسر الضاد ، وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وعمرو بن ميمون : [يُضِلُّ] بضم الياءِ وكسر الضاد ، فإمّا على معنى : يُضِل الله ، وإما على معنى : يُضِل به الذين كفروا أتباعهم ، فـ [ٱلَّذينَ] في التأْويل الأَول في موضع نصب ، وفي الثاني في موضع رفع ، وقرأ عاصم أيضاً ، وحمزة ، والكسائي ، وابن مسعود – فيما روي عنه – : [يُضَل] بضم الياءِ وفتح الضاد على المفعول الذي لم يُسم فاعله ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : [زُيِّن] للتناسب في اللفظ ، وقرأ أبو رجاءٍ : [يَضَلُّ] من ضلَّ يضَل ، على وزن فعِل بكسر العين يفعَل بفتحها ، وهما لغتان ، يقال : ضلَّ يَضِل وضلَّ يضَلُّ والوزن الذي ذكرناه يفرق بينهما ، وكذلك يروى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (حتَّى يَضِلَّ الرجل أَن يدري كم صلَّى) بفتح الضاد وكسْرها .[2]

(١) هذه الأبيات مختلف في نسبتها ، فصاحب اللسان ، وصاحب التاج ينسبان البيت الأخير فيها إلى عُمَيْر بن قَيْس بن جِذْل الطِّعان ، والألوسي والقُرطبي ينسبانه إلى الكميت ، وواضح أن ابن عطية ينسبها كلها إلى عُمَيْر هذا لكنَّ خطأ النساخ جعله : جِذْل الطِّعان .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب « الصلاة » ، ورواه في الموطأ في « النداء » – (عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) جـ ٣ ص ٥١٥ .

وقوله تعالى : ﴿ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً ﴾ معناه : عاماً من الأعوام ، وليس يريد أن تلك كانت مداولة في الشهر بعينه ، عام حلال وعام حرام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد تأول بعض الناس القصة أنهم كانوا إذا شق عليهم توالي الأشهر الحرم أحل لهم المحرم وحرم عليهم صفر بدلاً منه ، ثم مشت الشهور مستقيمة على أسمائها المعهودة ، فإذا كان من قابل حرّم المحرم على حقه وأحل صفر ، ومشت الشهور مستقيمة ، ورأت هذه الطائفة أن هذه كانت حالة القوم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي قدمناه قبْلُ أليق بألفاظ الآيات ، وقد بيَّنه مجاهد ، وأبو مالك ، وهو مقتضى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الزمان قد استدار) مع أن الأمر كله قد تقضَّى ، والله أعلم أيُّ ذلك كان .

وقوله : [لِيُواطِئُوا] معناه : ليوافقوا ، والمواطأة : الموافقة ، تواطأ الرجلان على كذا إذا اتفقا عليه ، ومعنى ﴿ لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ ﴾ : ليحفظوا في كل عام أربعة أشهر في العدد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فأزالوا الفضيلة التي خصّ الله بها الأشهر الحرم وحدها ، بمثابة أن يفطر أحدٌ رمضان ويصوم شهراً من السَّنَة بغير مرض أو سفر ،

وقوله : [زُيِّنَ] يحتمل هذا التَّزْيين أَن يضاف إلى الله عزَّ وجلَّ والمراد به خلقه لكفرهم وإقرارهم عليه وتحبيبه لهم ، ويحتمل أَن يضاف إلى مُغْويهم ومُضِلهم من الإنس والجن ، ثم أَخبر تعالى أنه لا يهديهم ولا يرشدهم ؛ وهو عموم معناه الخصوص في الموافقين أَو عموم مطاق لكن لاهداية من حيث هم كفار .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذكر أَبو علي البغدادي في أَمر النسيءِ أَنه كان إذا صدر الناس من (منى) قام رجل يقال له نعيم بن ثعلبة فيقول : أَنا الذي لا أُعاب ولا يردّ لي قضاءٌ ، فيقولون : أَنْسئنا شهراً ، أَي أَخِّر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

واسم نعيم لم يعرف في هذا ، وما أَرى ذلك إلَّا كما حكى النقاش من بني فُقَيْم ، كانوا يسمون القلامس وأَحدهم قَلَمّس ، وكانوا يفتون العرب في الموسم ، يقوم كبيرهم في الحجر ، ويقوم آخر عند الباب ، ويقوم آخر عند الركن فيفتون .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهم على هذا عدّة ، منهم نعيم وصفوان ومنهم ذرّيّة القَلَمّس حذيفة وغيرهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا عَدْوى ولا هامةَ ولا صفر)[1] ، فقال بعض الناس : إنه يريد بقوله : (ولا صفر) هذا النسيءَ ، وقيل غير ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

هذه الآية هي بلا اختلاف نازلة عتاباً على تخلف من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوه تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، غزا فيها الروم في عشرين ألفاً بين راكب وراجل ، وتخلف عنه قبائل من الناس ورجال من المؤمنين كثير ومنافقون ، فالعتاب في هذه الآية هو للقبائل وللمؤمنين الذين كانوا

---

(١) رواه الشيخان ، و أبو داود عن أبي هريرة ، وعن السائب بن زيد ، وكذلك أخرجه الإمام أحمد في مسنده بهذا اللفظ عن أبي هريرة ، وعن السائب بن زيد ، وأخرجه هو ومسلم في صحيحه عن جابر بلفظ : (لا عَدْوى ولا طِيَرَةَ ولا هامَةَ ولا صَفَرَ ولا غول) .

بالمدينة ، وخص الثلاثة : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال ابن أُمية بذلك التذنيب الشديد بحسب مكانهم من الصحبة إذ هم من أَهل بدر وممن يقتدى بهم ، وكان تخلفهم لغير علَّة كما يأْتي .

وقوله : [مَالَكُمْ] استفهام بمعنى التقرير والتوبيخ ، وقوله : [قِيلَ] يريد النبي صلى الله عليه وسلم إلَّا أَن صرفه الفعل لا يُسَمّى فاعله يقتضي غلاظاً ومخاشنة مّا .

والنَّفْر هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأَمر يحدث ، يقال في ابن آدم : نَفَر إلى الأَمر ينفِرُ نفيراً ونفْراً ، ويقال في الدابة : نفرتْ تنفُر بضم الفاءِ نُفوراً[١] ، وقوله : [أَثَّاقَلْتُمْ] أَصله تثاقلتم ، أُدغمت التاءُ في الثاءِ فاحتيج إلى أَلف الوصل ، كما قال : [فَادَّارَأْتُمْ][٢] وكما تقول : «ازَّيَّن» ، وكما قال الشاعر :

تُولي الضَّجيعَ إذا ما استَافَها خَصِراً عذْب الْمَذَاقِ إذا ما اتَّابَع القُبَلُ[٣]

---

(١) ويقال أَيْضاً «تنفير» بكسر الفاءِ كما قال صاحب اللسان . ويقال : قومٌ نُفُور ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ الإسراء (٤٦).

(٢) من قوله تعالى في الآية (٧٢) من سورة (البقرة) : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فادَّارَأْتُمْ فِيهَا واللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

(٣) البيت أنشده الكسائي كما قال القرطبي . وساف الشيءَ يَسُوفه ويَسَافُه سوفاً وساوَفَه واستافه ، كل ذلك بمعنى : شَمَّه ، والخَصِر بكسر الصاد : الباردُ من كل شيءٍ . والشاهد في قوله : اتَّابع ، إذ أَصْلُها «تتابع» ، ومن الكلمات التي حصل فيها الإدغام على مثال «اثَّاقلتم» «اطَّيَّرْنا» في قوله تعالى في سورة النمل : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ ، «وَازَّيَّنَتْ» في قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ ﴾ .

وقرأ الأعمش - فيما حكى المهدوي وغيره - : [تَتَاقَلْتُمْ] على الأصل، وذكرها أبو حاتم «تتثاقلتم» بتاءين ثم ثاءٍ مثلثة ، وقال : هي خطأٌ أو غلط ، وصوّب [تَثَاقَلْتُمْ] بتاءٍ واحدة وثاءٍ مثلثة إن لو قرئ بها ، وقوله : ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ عبارة عن تخلفهم ونكولهم وتركهم الغزو لسكنى ديارهم والتزام نخلهم وظلالهم ، وهو نحو من : أَخْلَدَ إلى الأرض . وقوله : [أَرَضِيتُمْ] تقرير يقول : أرضيتم نزر الدنيا على خطير الآخرة وحَظِّها الأسعد ؟ ثم أخبر فقال : إن الدنيا بالإضافة إلى الآخرة قليل نَزْر ، فتعطي قوةُ الكلام التعجبَ من ضلال من يرضى النَّزْر بدل الكثير الباقي[1] .

وقوله : ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ الآية . ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعذِّبْكُمْ﴾ شرط وجواب ، وقوله : [يُعذِّبْكُمْ] لفظ عام يدخل تحته أنواع عذاب الدنيا والآخرة ، والتهديد بعمومه أشدُّ تخويفاً ، وقالت فرقة : يريد : يُعذبكم بإمساك المطر عنكم ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيلة من القبائل فقعدت فأمسك الله عنها المطر وعذَّبها به ، و«أليمٌ» بمعنى مُؤلم ، بمنزلة قول عمرو بن معديكرب :

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدّاعي السَّميع . . . .[2]

---

(١) النَّزْر : القليل التافه من كل شيء .

(٢) هذا صدر بيت ، وهو بتمامه :

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعي السَّميعُ ... يُؤَرِّقُني وأصْحَابي هُجوعُ ؟

والسميع بمعنى : المُسْمِع ، قال الأزهري : ولست أنكر أن يكون السميع سامعاً ، ويكون مُسْمِعاً كما قال عمرو بن معديكرب ، ولكنه شاذٌ .

وقوله : ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ توعّد بأن يبدل لرسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً لا يقعدون عند استنفاره إياهم ، والضمير في قوله : ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً ﴾ عائد على الله عزّ وجلّ ، أي : لا يَنقص ذلك من عِزّه وعِزّ دينه ، ويحتمل أن يعود على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أليق . ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : على كل شيء مقدور ، وتبديلهم منه ليس بمحال ممتنع .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا أيضاً شرط وجواب ، والجواب في الفاء من قوله : [فَقَدْ] وفيما بعدها ، قال النقاش : هذه أول آية نزلت من سورة براءة ، ومعنى الآية : إنكم إن تركتم نصره فالله متكفل به إذ قد نصره في موضع القِلّة والانفراد وكثرة العدو ، فنَصْره إياه اليوم أحرى منه حينئذ . وقوله : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يريد : فعلوا من الأفاعيل ما أدّى إلى خروجه ، وأسند الإخراج إليهم إذ المقصود تذنيبهم ، ولما كان مقصد أبي سفيان بن الحارث الفخر في قوله :

«مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطرَّدِ» لم يقرره النبي صلى الله عليه وسلم . والإشارة إلى خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة وفي صحبته أبو بكر رضي الله عنه ، واختصار القصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتظر أمر الله عزَّ وجلَّ في الهجرة من مكة ، وكان أبو بكر رضي الله عنه حين ترك ذمة ابن الدُّغُنة قد أراد الخروج من مكة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اصبر فلعل الله أن يسهل في الصحبة) ، فلما أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في الخروج تجهز من دار أبي بكر وخرجا فبقيا في الغار الذي في جبل ثور في غربي مكة ثلاث ليال ، وخرج المشركون في أثرهم حتى انتهوا إلى الغار ، فطمس عليهم الأثر ، وقال أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم : «لو نظر أحدهم إلى قدمه لرآنا» ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (ما ظنك باثنين الله ثالثهما) ؟ ويروى أن العنكبوت نسجت على باب الغار ، ويروى أن الحمامة عشَّشت عند باب الغار ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يجعل ثُمَاماً(١) في باب الغار فتخيله المشركون نابتاً وصرفهم الله عنه ، ووقع في «الدلائل» في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه نبتت على باب الغار «رَاءَةٌ» أمرها الله بذلك في الحين ، قال الأصمعي : جمعها «راءٌ» وهي من نبات السهل . وروي أن أبا بكر رضي الله عنه لما دخل الغار

---

(١) الثُّمامُ : نبت معروف في البادية ،ولا تَجْهده النَّعَمُ إلا في الجدوبة . والثمَام : نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص ، وربما حُشي به وسُدَّ به خصاص البيوت ، والثمام : نبت ضعيف قصير لا يطول ،وفي حديث عمر رضي الله عنه : اغزُوا والغزو حُلْوٌ خَضِر قبل أن يصير ثُماما ، جاء ذلك كله في (لسان العرب) .

خرق رداءه فسَدّ به كِواءَ[1] الغار لئلا يكون فيها حيوان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ، وروي أنه بقيت فيه واحدة فسدها برجله فوقى الله تعالى ، وكان يروح عليهما باللَّبن عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه .

وقوله : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ معناه : أحد اثنين ، وهذا كثالث ثلاثة ورابع أربعة ، فإذا اختلف اللفظ فقلت : «رابع ثلاثة» فالمعنى : صيّر الثلاثة بنفسه أربعة ، وقرأ جمهور الناس : ﴿ ثانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ بنصب الياءِ من [ثاني] ، قال أبو حاتم : لا يعرف غير هذا ، وقرأت فرقة : ﴿ ثَانِيْ ٱثْنَيْن ﴾ بسكون الياء من [ثاني] ، قال أبو الفتح : حكاها أبو عمرو بن العلاءِ ، ووجهه أنه سكن الياءَ تشبيهاً لها بالألف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذه كقراءَة : ﴿ مَا بقِي مِنَ ٱلرِّبا ﴾[2] وكقول جرير :

هُوَ الْخليفَةُ فارْضَوْا ما رَضي لكُمُ ... مَاضِي العَزِيمَةِ ما في حُكْمِهِ جَنفُ[3]

---

(١) الكَوُّ والكَوّة : الخرق في الحائط ، والثّقْبُ في البيت ، والجمع كوًى بالقصر نادرٌ وكِواءٌ بالمدّ ، والكاف مكسورة فيهما ، وقال اللحياني : من قال كَوّة فَفَتَح فجمعه كِواءٌ ممدود ، والكُوّة بالضم لغة ، ومن قال كُوّة بالضم فجمعه كِوًى مكسور مقصور .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٢٧٨) من سورة (البقرة) : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

(٣) الأصل في الكلام «ما رَضِيَ» بفتح الياء ، ولكن الشاعر سكّن هنا على أساس تشبيه الياء بالألف ، فكما أن الحركة لا تصل إلى الألف فهي كذلك هنا لا تصل إلى الياء ، والجنف : الميْل والجور .

وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه ، وروي أن أبا بكر الصديق قال يوماً وهو على المنبر : أيكم يحفظ سورة التوبة ؟ فقال رجل : أنا ، فقال : اقرأْ ، فقرأ فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ بكى وقال : أنا واللهِ صاحبُه . وقال الليث : ما صحب الأنبياءَ مثل أبي بكر الصديق ، وقال سفيان بن عيينة : خرج أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أقول : بل خرج منها كل من شاهد غزوة تبوك ولم يتخلف ، وإنما المعاتبة لمن تخلَّف فقط ، أما إن هذه الآية منوهة بأبي بكر حاكمة بتقدمه وسابقته في الإسلام رضي الله عنه .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ يريد به النصر والإنجاء واللطف[1] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ الآية . قال حبيب بن أبي ثابت : الضمير في [عَلَيْهِ] عائد على أبي بكر لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل ساكن النفس ثقة بالله عزَّ وجلَّ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول من لم يَر السكينة إلَّا سكون النفس والجأْش . وقال جمهور الناس : الضمير عائد على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا

(١) قال المُحَاسِبيّ : يعني : معهما بالنصر والدفاع ، لا على معنى ما عمّ به الخلائق فقال : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ فمعناه العموم ، وأنه يسمع ويرى من الكفار والمؤمنين .

أقوى ، والسكينة عندي إنما هي ما ينزل الله على أنبيائه من الحياطة لهم والخصائص التي لا تصلح إلا لهم[١] ، كقوله تعالى : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[٢] ، ويحتمل أن يكون قوله : ﴿فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ إلى آخر الآية يراد به ما صنعه الله لنبيّه إلى وقت تبوك من الظهور والفتوح ، لا أن تكون هذه الآية تختص بقصة الغار والنجاة إلى المدينة ، فعلى هذا تكون الجنود الملائكة النازلين ببدرٍ وحُنَيْن ، ومن رأى أن الآية مختصة بتلك القصة قال : الجنود : ملائكة بشّروه بالنجاة وبأن الكفار لا ينجح لهم سعي ، وفي مصحف حفصة رضي الله عنها : «فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِمَا وَأَيَّدَهُمَا» ، وقرأ مجاهد : [وَآيَدَهُ] بألفين ، والجمهور : [وَأَيَّدَهُ] بشد الياء .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَى ﴾ يريد بإدحارها ودحضها وإذلالها ،﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ قيل : يريد :«لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّه» ، وقيل : الشرع بأسره . وقرأ جمهور الناس : [وكَلِمةُ] بالرفع على الابتداءِ ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، ويعقوب : [وكَلِمةَ] بالنصب على تقدير : «وجعل كلمة» . قال الأعمش : ورأيت في مصحف أنس ابن مالك المنسوب إلى أُبي بن كعب «وَجعلَ كَلِمتَهُ هِيَ الْعُليا» .

---

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : السكينةُ : الرحمة ، وقال قتادة : الوقار ، وقال ابن قتيبة . الطمأنينة . وكلها أقوال متقاربة .

(٢) من الآية (٢٤٨) من سورة (البقرة) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

هذا أَمْرٌ من الله تعالى لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم بالنَّفير إلى الغزو ، فقال بعض الناس : هذا أَمْر عامٌّ لجميع المؤمنين فعبّر عنه بالفرض على الأَعيان في تلك المدة ، ثم نسخه الله عزَّ وجلَّ بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا ﴾[١] ، روي ذلك عن الحسن وعكرمة . وقال جُلُّ الناس : بل هذا حضٌّ ، والأَمر في نفسه موقوف على فرض الكفاية ، ولم يقصد بالآية فرضه على الأَعيان .

وأَما قوله : ﴿ خِفَافاً وثِقَالًا ﴾ فنصب على الحال من الضمير في قوله : [ٱنْفِرُوا] ، ومعنى الخِفَّة والثِّقل هنا مستعار لمن يمكنه السَّفَر[٢] بسهولة ومن يمكنه بصعوبة ، وأَما من لا يمكنه كالعُمْي ونحوهم فخارج عن هذا ، وروي أَن ابن أُم مكتوم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أَعَليَّ أَن أَنفر ؟ فقال له : نعم ، حتى نزلت : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمى حَرَجٌ ﴾[٣] ، وذكر الناس من معاني الخفة والثقل أَشياء

(١) من الآية (١٢٢) من سورة (التوبة).

(٢) في بعض النسخ : لمن يمكنه النَّفْر .

(٣) تكررت — فهي في الآية (٦١) من سورة (النور) ، وفي الآية (١٧) من سورة (الفتح) وهي المقصودة هنا .

لا وجه لتخصيص بعضها دون بعض ، بل هي وجوه متفقة ، فقيل : الخفيف : الغني والثقيل : الفقير ، قاله مجاهد ، وقيل : الخفيف : الشاب والثقيل : الشيخ ، قاله الحسن وجماعة ، وقيل : الخفيف : النشيط والثقيل : الكاسل ، قاله ابن عباس وقتادة ، وقيل : المشغول ومن لا شغل له ، قاله الحكم بن عُيينة وزيد بن علي ، وقيل : الذي له ضيْعة هو الثقيل ومن لا ضيْعة له هو الخفيف ، قاله ابن زيد ، وقيل : الشجاع هو الخفيف والجبان هو الثقيل ، حكاه النقاش ، وقيل : الراجل هو الثقيل والفارس هو الخفيف ، قاله الأوزاعي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذان الوجهان الآخران ينعكسان وقد قيل ذلك ولكنه بحسب وطأَتهم على العدوّ ، فالشجاع هو الثقيل وكذلك الفارس ، والجبان هو الخفيف وكذلك الراجل ، وكذلك ينعكس الفقير والغني فيكون الغني هو الثقيل بمعنى صاحب الشغل ، ومعنى هذا أَن الناس أُمروا جملة ، وهذه الأَقوال إنما هي على معنى المثال في الثقل والخفة ، وقال أَبو طلحة : ما سمع الله عذر أَحد ، وخرج إلى الشام فجاهد حتى مات ، وقال أَبو أَيوب : ما أَجدني أَبداً إلا ثقيلا أَو خفيفاً ، وروي أَن بعض الناس رأى في غزوات الشام رجلا سقط حاجباه على عينيه من الكبر فقال له : يا عم ، إن الله قد عذرك ، فقال يا ابن أَخي إنَّا قد أُمرنا بالنفْر خفافاً وثقالا ، وأَسند الطبري عمن رأَى المقداد

ابن الأَسود بحمص وهو على تابوت صرّاف وقد فضل على التابوت من سمنه وهو يتجهز للغزو ، فقال له : لقد عذرك الله ، فقال : أتت علينا سورة البعوث ﴿ ٱنْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالًا ﴾ ، وروي : سورة البحوث .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ وصفٌ لأَكمل ما يكون من الجهاد وأَنْفَعه عند الله تعالى ، فحض على أكمل الأَوصاف ، وقدمت الأَموال في الذكر إذ هي أَول مصرف وقت التجهيز ، فرتب الأَمر كما هو في نفسه ، ثم أَخبر أَن ذلك لهم خير للفوز برضى الله وغلبة العدو ووراثة الأَرض ، وفي قوله : ﴿ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ تنبيه وهز للنفوس .

وقوله تعالى : ﴿ لوْ كَان عَرَضاً قرِيباً ﴾ الآية . ظاهر هذه الآية وما يحفظ من قصة تبوك أَن الله لما أَمر رسوله بغزو الروم ندب الناس ، وكان ذلك في شدة من الحر وطيب من الثمار والظلال ، فنفر المؤمنون ، واعتذر منهم لا محالة فريق لا سيّما من القبائل المجاورة للمدينة ، ويدل على ذلك قوله تعالى في أَول هذه الآية ﴿ يـأَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا مالَكُمْ إذا قِيل لَكُمُ ٱنْفِرُوا في سبِيلِ ٱللهِ ٱثَّاقلْتُمْ إلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ لأَن هذا الخطاب ليس للمنافقين خاصة ، بل هو عام ، واعتذر المنافقون بِأَعذارٍ كاذبة ، وكانوا بسبيل كسل مفرط وقصْد للتخلف ، وكانت أَعذار المؤمنين حقيقة ولكنهم تركوا الأَوْلى من التحامل ، فنزل ما سلف من الآيات في عتاب المؤمنين ، ثم ابتدأَ من هذه الآية ذكر المنافقين

وكشف ضمائرهم ، فيقول : لو كان هذا الغزو لِعَرَضٍ أي لمالٍ وغنيمة تنال قريباً بسفر قاصد يسير لبادروا إليه ، لا لوجه الله ولا لظهور كلمته ، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ في غزو الروم ، أي المسافة الطويلة . وذكر أبو عبيدة أن أعرابياً قدم البصرة وكان قد حمل حمالة فعجز عنها ، وكان معه ابن له يسمى الأحوص ، فبادر الأحوص أباه بالقول فقال : «إنا من تعلمون ، وابنا سبيل ، وجئنا من شُقَّة ، ونطلب في حق ، وتُنْطونَنا[1] ويجزيكم الله» . فتهيأ أبوه ليخطب فقال له : «يا ، إياك ، إنِّي قد كفيتك» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يا : تنبيه ، و إيَّاك : نهي . وقرأ عيسى بن عمر : [ٱلشِّقَّة] بكسر الشين ، وقرأ الأعرج : [بعِدت] بكسر العين ، وحكى أبو حاتم أنها لغة بني تميم في اللفظتين .

وقوله تعالى : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ﴾ يريد المنافقين ، وهذا إخبارٌ بغيب ، وقوله : ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يريد عند تخلفهم مجاهرة وكفرهم ، فكأنهم يوجبون على أنفسهم الحتم بعذاب الله . ثم أخبر أن الله الذي هو أعدل الشاهدين يعلم كذبهم ، وأنهم كانوا يستطيعون

(١) لغة في «تُعطونَنا» ، وهي لغة أهل اليمن ، وفي الحديث : (اليَدُ المُنْطية خير من اليد السفلى) ، وفي حديث الدعاء (لا مانع لما أنْطَيْتَ ، ولا مُنْطي لما منعت) . وقد جاءت في بعض النسخ على اللغة المشهورة : «تعطوننا» .

الخروج ولكنهم تركوه كفراً ونفاقاً ، وهذا كله في الجملة لا بتعيين شخص ، ولو عُيّن لقتل بالشرع .

وقرأ الأعمش على جهة التشبيه بواو ضمير الجماعة : [لَوُ ٱسْتَطَعْنَا] بضم الواو ، ذكره ابن جني ، ومثله بقوله[1] تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ﴾[2] ، ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾[3] ، و ﴿ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ﴾[4] وما أشبهه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

هذه الآية في صنف مُبالغ في النفاق واستأْذنوا دون اعتذار ، منهم عبد الله بن أُبي ، والجَدُّ بن قيس ، ورفاعة بن التابوت ، ومن اتبعهم ، فقال بعضهم : ائذن لي ولا تفتني ، وقال بعضهم : ائذن لنا في الإقامة ، فأَذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم استبقاءً منه

(١) هكذا في جميع النسخ ، ولعلّ الصواب : «ومثلُه قولُه» ولكن أخطأ النساخ ، ولعلّه أراد : (مَثَّلَه) بفتح الميم وشد الثاء المفتوحة ، يعني ابن جني .

(٢) من الآية (٤٨) من سورة (التوبة) .

(٣) من الآية (٦) من سورة (الجمعة) .

(٤) من قوله في الآية (١٦) من سورة (البقرة) : ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ ، وتكررت في الآية (١٧٥) من نفس السورة .

عليهم ، وأخذاً بالأَسهل من الأُمور ، وتوكلا على الله . وقال مجاهد : قال بعضهم : نستأْذنه فإن أَذن لنا في القعود قعدنا وإلا قعدنا ، فنزلت الآية في ذلك . وقالت فرقة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَذن لهم دون أَن يؤمر بذلك فعُفي عنه ما يلحق من هذا ، وقُدم ذكرُ العفو قبل العقاب إكراماً له صلى الله عليه وسلم ، وقال عمرو بن ميمون الأَودي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدع برأْيه في قصتين دون أَن يؤمر فيهما بشيءٍ . هذه وأَمر أُساري بدرٍ ، فعاتبه الله فيهما . وقالت فرقة : بل قوله سبحانه في هذه الآية : ﴿ عفا ٱللَّهُ عَنْكَ ﴾ استفتاح كلام ، كما تقول : أَصلحك الله ، وأَعزك الله ، ولم يكن منه صلى الله عليه وسلم ذنب يُعفى عنه ، لأَن صورة الاستنفار وقبول الأَعذار مصروفة إلى اجتهاده ، وأَما قوله سبحانه : ﴿ لِمَ أَذِنْتَ ﴾ فهي على معنى التقرير[1] .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ صَدقُوا ﴾ يريد : في استئذانك وأَنك لو لم تأْذن لهم خرجوا معك ، وقوله : ﴿ وتَعْلَم ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ يريد : في أَنهم استأْذنوك يظهرون لك أَنهم يقفون عند حدك وهم كذبة قد عزموا

(١) قال أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة المعروف بنفطويه : «كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وألا يفعل حتى ينزل عليه الوحي ، كما قال : (لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لجعلتها عمرة) ، وقد قال الله تعالى: ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ ، فكان له أن يفعل ما يشاء مما لم ينزل عليه فيه وحي ، واستأذنه المتخلفون في التخلف واعتذروا واختار أيسر الأمرين تكرماً وتفضُّلا منه عليه الصلاة والسلام ، وعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ ﴾ افتتاح كلام وليس عفواً عن ذنب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق) وما وجبتا قط ، ومعناه : ترك أن يلزمكم ذلك . اهـ مع بعض التصرف .

على العصيان أذنت لهم أو لم تأْذن . وقال الطبري : معناه : حتى تعلم الصادقين في أن لهم عذراً والكافرين في ألّا عذر لهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا التأْويل يختلط المعتذرون ، وقد قدمنا أن فيهم مؤمنين كالمستأْذنين وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، والأول أصوب ، والله أعلم . وأدخل الطبري أيضاً في تفسير هذه الآية عن قتادة أن هذه الآية نزلت بعدها الآية الأُخري في سورة النور ﴿ فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾[1] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غلط لأَن آية النور نزلت سنة أربع من الهجرة في غزوة الخندق في استئذان بعض المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شأْنهم في بيوتهم في بعض الأَوقات ، فأَباح الله له أن يأْذن ، فتباينت الآيتان في الوقت والمعنى .

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ الآية . نفي عن المؤمنين أن يستأْذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف دون عذر كما فعل الصنف المذكور من المنافقين .

وقوله : ﴿ أَنْ يُجاهِدُوا ﴾ يحتمل أن تكون [أَنْ] في موضع نصب على معنى : لا يستأْذنون في التخلف كراهية أن يجاهدوا ، قال سيبويه : ويحتمل أن تكون في موضع خفض .

---

(١) من الآية (٦٢) من سورة (النور) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

على معنى : لا يحتاجون إلى أن يستأْذنوا في أن يجاهدوا ، بل يمضون قدماً ، أي : فَهُم أحرى ألّا يستأْذنوا في التخلف . ثم أخبر بعلمه تعالى بالمتقين وفي ذلك تعيير للمنافقين وطعن عليهم بيّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ * وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

هذه الآية تنص على أن المستأْذنين إنما هم مخلصون للنفاق ، ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ معناه : شكّت ، والريب نحو الشك ، و [يَتَرَدَّدُونَ] أي : يتحيرون ولا يتجه لهم هدى ، ومن هذه الآية نزع أهل الكلام في حدّ الشّك إلى أنه تردُّدٌ بين أمرين ، والصواب في حده أنه توقف بين أمرين . والتردُّد في الآية إنما هو في ريب هؤلاءِ المنافقين ، إذ كانوا تخطر لهم صحة أمر النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً ، وأنه غير صحيح أحياناً ، ولم يكونوا شاكّين طالبين للحق لأنه كان يتضح لهم لو طلبوه ، بل كانوا مذبذبين لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ ، كالشاة

العائرة بين الغنمين[١] ، وأيضاً فبين الشك والريب فرق مّا ، وحقيقة الرّيب إنما هو الأمر يستريب به الناظر فيخلط عليه عقيدته ، فربما أدّى إلى شكٍّ وحيرة ، وربما أدّى إلى علم النازلة التي هو فيها ، ألا ترى أنَّ قول الهُذَلي :

كَأَنَّني أَرَبْتُهُ بِرِيْبِ [٢]

لا يتجه أن يفسر بشكٍّ .

قال الطبري : وكان جماعة من أهل العلم يرون أن هاتين الآيتين منسوختان بالآية التي ذكرنا في سورة النور . وأسند عن الحسن وعِكْرمة أنهما قالا في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ : منسوخة بآية النور : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إلى ﴿ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

---

(١) هي الشاة المتردّدة بين قطيعين لا تدري أيّهما تتبع ، ومنه الحديث : (مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين) ، (اللسان) .

(٢) الهُذَلِيّ هو خالد بن زهير ، وهذا البيت جاء آخر أبيات يقول فيها :

يا قَوْمِ مَالي وَأبَا ذُؤَيْبِ
كنْتُ إذا أتيْتُهُ مِنْ غَيْبِ
يَشَمُّ عِطْفِي وَيَبُزُّ ثَوْبي
كَأنّي أرَبْتُهُ بِرَيْبِ

وعلّق عليها ابن برّي بقوله : والصحيح في هذا أن (رابني) بمعنى شكّكني وأوجب عندي ريبة ، كما قال الآخر :

وَقَدْ رَابَنِي مِنْ دَلْوِيَ اضْطِرابُهَا

وأما (أراب) فإنه يأتي مُتَعَدّياً وغير مُتَعَدّ ، فمن عدّاه جعله بمعنى (راب) كقول خالد ، وأما غير المتعدي فمعناه : أتى بريبةٍ . (اللسان) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غلط وقد تقدم ذكره .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ ﴾ الآية ، حجة على المنافقين ، أي : ولو أرادوا الخروج بنيّاتهم لنظروا في ذلك واستعدوا له قبل كونه . والعُدَّة : ما يُعَدُّ للأمر ويُروَّى له من الأَشياءِ[١] .

وقرأ جمهور الناس : [عُدَّة] بِضَمّ العين وتاءِ تأْنيث ، وقرأ محمد بن عبد الملك بن مروان وابنه معاوية بن محمد : [عُدّه] بضمّ العين وهاءِ إضمار ، يريد : «عُدَّتُه» فحذف تاءَ التأْنيث لما أَضاف ، كما قال : «وإِقَامَ الصلاةِ» ، يريد : «وإقامة الصلاة» ، هذا قول الفراءِ ، وضعّفه أَبو الفتح وقال : إنما حذف تاءَ التأْنيث وجعل هاءَ الضمير عوضاً منها ، وقال أَبو حاتم : هو جمع (عُدّة) على (عُدّ) كبُرّة وبُرّ ودُرّة ودُرّ ، والوجه فيه عُدد ولكن لا يوافق خط المصحف . وقرأَ عاصم فيما روى عنه أَبان ، وزِرُّ بن حبيش : [عِدّه] بكسر العين وهاءِ إضمار ، وهو عندي اسم لما يُعَد كالذِّبْح والقِتْل[٢] ، لأَن العدو سُمّي قِتْلا إذ حقه أَن يقتل ، هذا في معتقد العرب حين سمته .

---

(١) من الرَّوِيّة في الأمر ، وهي النظر وعدم العجلة ، بمعنى التفكير فيه ، قال ابن الأثير : الرَّوِيّة : ما يُرَوِّي الإنسان في نفسه من القول والفعل ، أي يُزَوِّر ويفكر ، وأصلها الهمز ، يقال : روَّأْتُ في الأمر . (عن اللسان) .

(٢) الذِّبْح والقِتْل بكسر الذال والقاف هو ما يُعَدّ للذّبْح والقَتْل ، وفي التنزيل : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : بِكَبْش يُذْبح ، قال الأزهري : هو بمنزلة المذْبوح والذّبيح ، وهو بمنزلة الطِّحْن بمعنى المطحون ، والقِطْف بمعنى المقطوف ، وفي حديث الضحية (فدعَا بِذِبْح فذبحه) . (عن اللسان) .

وانبعاثهم : نفوذهم لهذه الغزوة ، والتَّثبيط : التكسيل وكسر العزم ، وقوله : [وَقِيلَ] يحتمل أَن يكون حكاية عن الله تعالى ، أَي : قال الله تبارك وتعالى في سابق قضائه : ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ، ويحتمل أَن يكون حكاية عنهم ، أَي : كانت هذه مقالة بعضهم لبعض ، إما لفظاً وإما معنى فحُكي في هذه الأَلفاظ التي تقتضي لهم مذمة إذ القاعدون النساءُ والأَطفال ، ويحتمل أَن يكون عبارة عن إذن محمد صلى الله عليه وسلم لهم في القعود ، أَي : لما كره الله خروجهم يسّر أَن قلت لهم : ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ، والقعود هنا عبارة عن التخلف والتراخي كما هو في قول الشاعر :

. . . . واقْعُدْ فإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي (١)

وليس للهيئة في هذا كله مدخل ، وكراهية الله انبعاثهم رفق بالمؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ﴾ الآية ... خبر بأَنهم لو خرجوا لكان خروجهم مضرّة ، وقوله : [إِلَّا خَبَالًا] استثناءٌ من غير الأَول ، وهذا قول من قدّر أَنه لم يكن في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم خبال فيزيد المنافقون فيه ، فكأَن المعنى : ما زادوكم قوة ولا شِدَّة لكن خبالا ، ويحتمل أَن يكون الاستثناءُ غير منقطع ، وذلك أَن عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك كان فيه منافقون كثير ولهُم لا محالة خبال ، فلو خرج هؤلاءِ لالْتَأَموا مع الخارجين

(١) البيت للحطيئة في قصيدة مشهورة قالها يهجو الزبرقان بن بدر ، وهو بتمامه :

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا واقْعُدْ فإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

أي المطعوم المكسُوّ . ومعناه يحمل قسوة في الهجاء علّق عليها النقاد .

فزاد الخبال . والخبال : الفساد في الأَشياءِ المؤتلفة الملتحمة كالمودات وبعض الأَجرام ، ومنه قول الشاعر :

يا بْنَي لُبَيْنَى لَسْتُمَا بِيَـــدٍ إِلَّا يَداً مخْبُولَةَ الْعضُد [1]

وقرأَ ابن أَبي عبلة : ﴿مازَادَكُمْ﴾ بغير واو . [2]

وقرأَ جمهور الناس : [وَلَأَوْضَعُوا] ومعناه : لأَسرعوا السّير ، و [خِلَالَكُمْ] معناه : فيما بينكم من هنا إلى هنا لسدّ الموضع الخلَّة بين الرجلين . والإيضاع : سرعة السَّير [3] ، وقال الزجاج : [خِلَالَكُمْ] معناه : فيما يخل بكم

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، وماذا يقول في قوله تعالى : ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ ٱلدِّيَارِ﴾ [4] ، وقرأَ مجاهد فيما حكى النقاش عنه : [ولَأَوْفَضُوا] ، وهو بمعنى الإسراع ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [5] ، وحُكي عن الزبير أَنه قرأَ : [ولَأَرْفَضُوا] ، قال أَبو الفتح : هذه من

---

(١) هذا البيت لأوس ، أنشده الزّجاج ليدلل على أن الخبال هو الفساد وذهاب الشيء ، ذكر ذلك في اللسان . والرواية فيه :

أبَنِي لُبَيْنَى لَسْتُمُ بيَـــــدٍ إلا يداً مَخْبُولَةَ العَضُـــدِ

(٢) والمعنى : ما زادكم خروجهم إلاّ خبالاً .

(٣) ومنه قول دُرَيْد بن الصمة :

يا لَيْتَني فيها جَـــذَعْ أخُبُّ فيها وَأضَـــعْ

وقول الآخر : أرانا مُوضِعينَ لأمْرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعَامِ وبالشَّرابِ

(٤) من الآية (٥) من سورة (الإسراء) .

(٥) من الآية (٤٣) من سورة (المعارج) .

«رَفَضَ البعير» إذا أسرع في مشيه رفْضاً ورفضاناً ، ومنه قول حسّان ابن ثابت :

بِزُجاجَةٍ رفَضَتْ بِما في قَعْرِهــا رفْض الْقَلُوصِ بِرَاكِبٍ مُسْتَعْجِلِ[1]

ووقعت «وَلَا أَوْضَعوا» بألف بعد «لا» في المصحف ، وكذلك وقعت في قوله تعالى : ﴿أَوْ لَاأَذْبَحَنَّهُ﴾[2] ، قيل : وذلك لخشونة هجاءِ الأَوَّلين[3]. قال الزجاج : وإنما وقعوا في ذلك لأَن الفتحة في العبرانية وكثير من الأَلسنة تكتب أَلفاً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن تمطل حركة اللام فيحدث ألف بين اللام والهمزة التي من «أوضع»[4] .

---

(١) قبل هذا البيت :

إنَّ الَّتِي ناوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَــا قُتِلَتْ قُتِلْتَ فهاتِهَا لمْ تُقْتَلِ
كِلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصِير فعاطِنِي بزُجَاجَةٍ أرْخَاهُمَا لِلْمفْصَلِ

والقَلُوص : الفَتِيَّةُ من الإبل بمنزلة الجارية الفتاة من النساء ، وقيل : هي الثَّنِيَّة ، وقيل : هي كل أُنثى من الإبل حين تركب ، وسميت قلوصاً لطول قوائمها وهي لم تَجَسَّمْ بَعْد .

(٢) من الآية (٢١) من سورة (النمل) .

(٣) الأولين : هم السابقون جمع أوّل . يريد أن هجاءهم لم يكن قد ناله التهذيب .

(٤) قال في «الكشاف» : «كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربي ، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفاً أخرى ، ومثل ذلك ﴿لا أذْبَحَنَّهُ﴾ ، » وقال في الألوسي : «كتب قوله تعالى : (وَلَا أوْضَعُوا) في الإمام بألفين الثانية منهما هي فتحة الهمزة ، والفتحة ترسم لها ألف كما ذكره الداني» . وكلام صاحب الكشاف فيه ما قاله الزجاج ، ورأي ابن عطية قريب من رأي الألوسي ، وهي كلها أقوال متقاربة .

وقوله تعالى : ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي : يطلبون لكم الفتنة ، وقوله : ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ﴾ قال سفيان بن عُيَيْنَة ، والحسن ، ومجاهد ، وابن زيد : معناه : جواسيس يستمعون الأَخبار وينقلونها إليهم ، ورجَّحه الطبري . وقال النقاش : بناءُ المبالغة يضعف هذا القول . وقال جمهور المفسرين : معناه : وفيكم مطيعون سامعون لهم . وقوله : ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ توعد لهم ولمن كان من المؤمنين على هذه الصفـــة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

في هذه الآية تحقير لهم ، وذلك أَنه أَخبر أَنهم قديماً سعوا على الإسلام فأَبطل الله سعيهم ، ومعنى قوله ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ما كان من حالهم من وقت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجوعهم عنه في أُحد وغيرها ، ومعنى ﴿وقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ دبروها ظهراً لبطن . ونظروا في نواحيها وأَقسامها ، وسعوا بكل حيلة . وقرأَ مسلمة بن

محارب : ﴿وَقَلَبُوا لك﴾ بالتخفيف في اللام ، و ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ : الإسلام ودعوته .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ٱئْذَنْ لِي﴾ نزلت في الجدِّ بن قيس ، وذكر أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أَمر بالغزو إلى بلاد الروم حرَّض الناس فقال للجدِّ بن قيس: (هل لك العامَ في جلاد بني الأَصفر؟) ، وقال له وللناس : (اغزوا تغنموا بنات الأَصفر) ، فقال له الجدُّ بن قيس : ائذن لي في التخلف ولا تفْتِنِّي بذكر بنات الأَصفر ، فقد علم قومي أَني لا أَتمالك عن النساء إذا رأَيتهن . وذكر ابن إسحق نحو هذا من القول الذي فيه فتور كثير وتخلُّف في الاعتذار[1] . وأَسند الطبري أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اغزوا تبوك تغنموا بنات الأَصفر) فقال الجَدُّ : ائذن لي ولا تَفْتِنَّا بالنساء ، وهذا منزع غير الأَول إذا نُظر ، وهو أَشبه بالنفاق والمحادّة[2] . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الجدّ قال : «ولكني أُعينك بمالي » ، وتأَول بعض الناس قوله : «وَلَا تَفْتِنِّي» أَي : لا تصعب علي حتى أَحتاج إلى مواقعة معصيتك ومخالفتك ، فسهِّل أَنت عليّ ودعني غير مُجَلّح[3] . وهذا تأْويل حسن واقف مع اللفظ ، لكن تَظَاهَرَ ما رُوي من ذكر بنات الأَصفر ، وذلك معترض في هذا التأْويل . وقرأَ عيسى بن عمر : ﴿وَلَا تُفْتِنِّي﴾

---

(١) أخرجه ابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله مع اختلاف يسير في الألفاظ ، (الدر المنثور) (والسيرة النبوية عن ابن إسحق) .

(٢) الحديث في تفسير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٣) من قولهم : جَلَّح في الأمر ركب رأسه فيه ، أو أقدم عليه ومضى فيه .

بضم التاء الأُولى ، قال أَبو حاتم : هي لغة بني تميم ، والأَصفر هو الروم بن عيصو بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وكان أَصفر اللون فيقال للروم : بنو الأَصفر ، ومن ذلك قول أَبي سفيان : «أَمِرَ أَمْرُ ابن أَبي كبشة ، إنه يخافه ملك بني الأَصفر» ، ومنه قول الشاعر :

وبنُو الأَصْفَرِ الكِرامُ ملوكُ الـــرُّو مِ لم يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكُورُ (١)

وذكر النقاش والمهدوي أَن الأَصفر رجلٌ من الحبشة وقع ببلاد الروم فتزوج وأَنْسل بنات لهُنَّ جمال . وهذا ضعيف . وقولهتعالى : ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أَي في الذي أَظهروا الفِرار منه بما تبيَّن لك وللمؤمنين من نفاقهم ، وصحَّ عندكم من كفرهم ، وفسد ما بينكم وبينهم . و [سَقَطُوا] عبارة مُنْبِئة عن تمكُّن وقوعهم ، ومنه : «عَلَى الخبير سَقَطْتَ» (٢) ، ثم قال : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وهذا توعد شديد لهم ، أَي : هي مآلهم ومصيرهم كيفما تقلبوا في الدنيا فإليها يرجعون ، فهي محيطة بهذا الوجه .

---

(١) البيت لعديّ بن زيد العباديّ .

(٢) قيل : إن هذا المثل لمالك بن جبير العامري أحد حكماء العرب ، وقد تمثل به الفرزدق للحسين بن علي رضي الله عنهما حين أقبل يريد العراق والفرزدق يريد الحجاز ، وذلك حين سأله الحسين بقوله : ما وراءك ؟ فأجابه قائلا : «على الخبير سقطتَ» ، قلوب الناس معك وألسنتهم مع بني أُمية والأمر ينزل من السماء . فقال الحسين رضي الله عنه : صدقتني . (مجمع الأمثال للميداني) ١–٦٤٨ .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ الآية . أخبر تعالى عن معتقدهم وما هم عليه ، والحسنة هنا بحسب الغزوة هي الغنيمة والظفر ، والمصيبة الهزم والخيبة ، واللفظ عام – بعد ذلك – في كل محبوب ومكروه . ومعنى قوله تعالى : ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي قد حزمنا نحن في تخلفنا ونظرنا لأنفسنا .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا﴾ الآية . أَمَر الله عزَّ وجلَّ نبيّه في هذه الآية أن يرد على المنافقين ويفسد عليهم فرحهم بأَن يعلمهم أَن الشيء الذي يعتقدونه مصيبة ليس كما اعتقدوه ، بل الجميع مما قد كتبه الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين ، فإمّا أن يكون ظفراً وسروراً في الدنيا وإما أَن يكون ذخراً للآخرة . وقرأَ طلحة بن مصرّف : «قلْ هلْ يُصيبنَا» ذكره أبو حاتم . وعند ابن جني : وقرأَ طلحة بن مصرف ، وأَعين قاضي الري : «قل لنْ يُصَيِّبنا» بشد الياءِ الثانية وكسرها ، كذا ذكره أَبو الفتح وشرح ذلك ، وهو وهم ، والله أَعلم . قال أَبو حاتم : قال عمرو بن شفيق : سمعت أَعين قاضي الريّ يقرأ : «قُلْ لَنْ يُصيبَنَّا» النون مشددة ، قال أَبو حاتم : ولا يجوز ذلك لأَن النون لا تدخل مع «لن» ، ولو كانت لطلحة بن مصرف لجازت لأَنها مع «هل» ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿هلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾[1] . وقوله : ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ يحتمل أَن يريد ما قضى وقدّر ، ويحتمل أَن يريد ما كتب الله في قرآننا وأَنزل علينا من أَنَّا إما أَن نظفر بعدونا وإما أَن نستشهد فندخل الجنة .

(١) من الآية (١٥) من سورة (الحج) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا الاحتمال يرجع إلى الأَول ، وقد ذكرهما الزجَّاج .

وقوله تعالى : ﴿وعلَى ٱللهِ فَلْيَتَوكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ معناه : مع سعيهم وجدهم إذ لا حولَ ولا قوة إلا بالله ، وهذا قول أَكثر العلماءِ ، وهو الصحيح ، والذي فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مدّة عمره ، ومنه مظاهرته بين دِرْعَين ، وتخبط الناس في معنى التوكل في الرزق ، فالأَظهر والأَصح أَن الرجل الذي يمكنه التَّحرف والحلال المحض الذي لا تدخله كراهية ينبغي له أَن يمتثل منه ما يصونه ويحمله مثل الاحتطاب ونحوه . وقد قرن الله تبارك وتعالى الرزق بالتَّسبّب ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِزْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطباً جَنِيًّا﴾[1] ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الطير : (تَغدو خِماصاً ...) الحديث[2] ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (قيّدها وتوكَّل)[3] ، وذهب بعض الناس إلى أَن الرجل القوي الجلد إذا بلغ من التوكل إلى أَن يدخل غاراً أَو بيتاً يُجْهل أَمرُه فيه ، ويبقى في ذكر الله متوكلا يقول : إن كان بقي لي رزق فسيأْتي الله به ، وإن كان رزقي قد تَمَّ

(١) من الآية (٢٥) من سورة (مريم) .

(٢) هذا جزءٌ من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم ، عن عمر رضي الله عنه ، وقد رمز له في « الجامع الصغير » بالصحة ، ولفظه كاملا : (لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير . تغدو خماصا وتروح بطانا) .

(٣) رواه ابن خزيمة ، والطبراني من حديث عمرو بن أُمية الضّمري بإسناد جيّد ، وأما الرواية المشهورة (اعْقِلها وتَوَكَّل) فقد أخرجها الترمذي عن أنس كما قال في الجامع الصغير حيث رمز لها بالضعف ، لكن رواها ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن أُمية الضمري بإسناد صحيح . (راجع شرح المناوي للجامع الصغير) .

متٌّ ـ إن ذلك حسنٌ بالغ عند قوم . وحدثني أَبي رضي الله عنه أَنه كان في الحرم رجل ملازم يُخرج من جيبه المرة بعد المرة بطاقة ينظر فيها ثم يصرفها ويبقى على حاله حتى مات في ذلك الموضع ، فقرأْت البطاقة فإذا فيها مكتوب : ﴿واْصْبِرْ لِحُكْمِ ربِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (١) ،

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الطريقة لا يراها جُلُّ أَهل العلم ، بل ينبغي أَن يسعى الرجل لقدر القوت سعياً جميلا لا يواقع فيه شبهة ، فإن تعذر عليه ذلك وخرج إلى حد الاضطرار فحينئذ إن تسامح في السؤال وأَكل الميتة وما أَمكنه من ذلك فهو له مباح ، وإن صبر واحتسب نفسه كان في أَعلى رتبة عند قوم . ومن الناس من يرى أَنَّ فرضاً عليه إبقاءُ رمقه . وأَمّا من يختار الإلقاءَ باليد ـ والسَّعْيُ ممكن ـ فما كان هذا قطُّ من خلق الرسول صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة ولا العلماءِ ، والله سبحانه الموفق للصواب ، ومِنْ حُجَج منْ يقول بالتوكل حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : (يدخل الجنة سبعون أَلفاً من أُمّتي بلا حساب ، وهم الذين لا يَرْقُون ولا يَسْتَرْقُونَ ولا يكتوون ولا يتطببون ، وعلى ربهم يتوكلون) (٢) ، وفي هذا الحديث أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) من الآية (٤٨) من سورة (الطور) .

(٢) حديث متفق عليه ، وقد رواه البخاري في كتاب الرقاق ، ورواه مسلم في كتاب الجنة وكتاب الإيمان ، وفي الرواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (عُرِضت عليّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرُّهَيْط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رُفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمّتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : انظر إلى الأفق الآخر فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي: هذه =

دعا لعُكَّاشة بن محصن[1] أن يكون منهم ، فقيل : ذلك لأَنه عرف منه معدٌّ أَنَّه لذلك ، وقال للآخر : سبقك بها عكاشة ، وبردت الدعوة ، فقيل : ذلك لأَنه كان منافقاً ، وقيل : بل عرف منه أنه لا يصلح لهذه الدرجة من التوكل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

فالمعنى في هذه الآية الردّ على المنافقين في معتقدهم في المؤمنين ، وإزالة ظنهم أَن المؤمنين تنزل بهم مصائب ، والإِعلام بأَنها حسنى كيف تصرفت .

= أُمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) ، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أُولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ما الذي تخوضون فيه) ؟ فأخبروه فقال : (هم الذين لا يَرْقُون ... الخ) .

(١) هو عكّاشة (بتشديد الكاف) بن محصن بن حرثان الأسدي ، من بني غنم ، صحابي من أُمراء السرايا ، يُعَدّ من أهل المدينة ، شهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقتل في حرب الردّة ببزاخة (بأرض نجد) ، قتله طلحة بن خويلد الأسدي سنة ١٢ هـ . (عن الإصابة ، والروض الأنف ، والأعلام) .

و [تَربَّصُونَ] معناه : تنتظرون ، والحُسنَيان : الشهادة والظَّفَر (١) ، وقرأ ابن محيصن : ﴿إِلَّا ٱحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ بوصل ألف [إحْدَى] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه لغة وليست بالقياس ، وهذا نحو قول الشاعر :

يا بالْمُغيرة ربَّ أَمْرٍ مُعْضِـــــلٍ (٢)

وقول الآخر :

إن لَمْ أُقَاتِلْ فَالْبِسِيني بُرْقُعـــــا (٣)

وقوله : ﴿بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يريد الموت بإحداث الأسف ، ويحتمل أن يكون توعداً بعذاب الآخرة ، وقوله : ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ يريد القتل . وقيل : ﴿بِعَذَابٍ مِن عِنْدِهِ﴾ يريد أنواع المصاعب والقوارع . وقوله : ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ وعيد وتهديد .

---

(١) في الحديث الشريف : (تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله لا يُخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخل الجنة أو يرجع إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة) وهو حديث طويل رواه مسلم ، وروى البخاري بعضه – عن أبي هريرة . (منهاج الصالحين) .

(٢) أعضله الأمر : غلَبه ، ويقال : أمْر عُضال ومُعْضل ، فأوله عُضال فإذا لَزِمَ فهو مُعْضل ، والشاهد في البيت هو وصل همزة «أبا» .

(٣) البُرْقُع «بضم الباء والقاف» ، والبُرْقَع «بضم الباء وفتح القاف» ، والبُرْقوع : معروف ، وهو للدوابّ ونساء الأعراب ، وفيه خَرْقان للْعينين ، قال توبة بن الحمير :

وكنْتُ إذا ما جئْتُ ليلَى تَبَرْقَعَتْ ... فقد رابني منْها الْغَداةَ سُفورهَـــا

والشاهد في البيت الذي أورده ابن عطية وصل الهمزة في «فالْبسيني» .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ سببها أَن الجدّ بن قيس حين قال : «ائذن لي ولا تَفْتِنِّي» قال : «إِني أُعينُكَ بمال» فنزلت هذه الآية فيه ، وهي عامة بعده . والطَّوْعُ والكَرْهُ يعمان كل إنفاق . وقرأ ابن وثاب ، والأَعمش : [أَوْ كُرْهاً] بضم الكاف .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويتصل هنا ذكر أَفعال الكافر إذا كانت بِرّاً كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة المظلوم ، هل ينتفع بها أَم لا ؟ فاختصار القول في ذلك أَن في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (إن ثواب الكافر على أَفعاله البرَّة هو في الطعمة يطعمها) ونحو ذلك ، فهذا مُقنع لا يحتاج معه إلى نظر ، وأَما أَن ينتفع بها في الآخرة فلا دليل ، ذلك أَن عائشة أُم المؤمنين قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، أَرأَيت عبد الله بن جُدْعان ، أَينفعه ما كان يطعم ويصنع من خير ؟ فقال : (لا ، إنه لم يقل يوماً : ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين) [١] . ودليل آخر في قول عمر رضي الله عنه لابنه : «ذاك

---

(١) الحديث في «صحيح مسلم» ، وعبد الله بن جدْعان (بضم الجيم وسكون الدال) التيمي القرشي ، أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية ، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، وكانت له جفنة يأكل منها الطعامَ القائمُ والراكبُ ، وهو الذي خاطبه أُمية بن أبي الصلت بأبيات منها :

أَأَذْكُرُ حاجتي أمْ قَدْ كَفَانِي حياؤك ؟ إنَّ شيمَتَكِ الْحَيَاءُ

العاصي بن وائل لا جزاه الله خيرا » ، وكان هذا القول بعد موت العاصي ، الحديث بطوله ، ودليل ثالث في حديث حكيم بن حزام على أحد التَّأْوِيلَيْن ، أَعني في قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَسلمتَ على ما سلف لك من خير) ، ولا حجة في أَمر أَبي طالب وكونه في ضحضاح من نار [١] لأَن ذلك إنما هو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبأَنه وجده في غمرة من النار فأَخرجه ، ولو فرضنا أن ذلك بأَعماله لم يحتج إلى شفاعة [٢] .

وأَما أَفعال الكافر القبيحة فإنها تزيد في عذابه ، وبذلك تفاضلهم في عذاب جهنم .

وقوله تعالى : ﴿أَنْفِقُوا﴾ أَمر في ضمنه جزاءٌ ، وهذا مستمر في كل أَمر معه جواب ، فالتقدير : «إن تنفقوا لن يتقبل منكم» ، وأَما إذا عُرّي الأَمر من جواب فليس يصبه تضمن الشرط .

---

(١) روى مسلم عن العباس قال : قلت : يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : (نعم ، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح) . والضحضاح في الأصل : ما رقّ من الماء على وجه الأرض ، ما يبلغ الكعبين ، فاستعاره للنار .

(٢) أما غير أبي طالب فقد أوضح التنزيل أمرهم بقوله : ﴿فَمَا تَنْفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ، وقال مخبراً عن الكافرين : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ، وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ . ولولا شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي طالب لكان كغيره ، ويتبين ذلك مما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال : (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه) ، ومن حديث العباس رضي الله عنه : (ولولا أنا لكان في الدَّرْك الأسفل من النار) . (ذكر ذلك القرطبي)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يحتمل أَن يكون معني الآية : وما منعهم الله أَن تقبل إِلَّا لأَجل أَنهم كفروا بالله ، فـ [أَنْ] الأُولى – على هذا – في موضع خفض نصبها الفعل حين زال الخافض ، و [أَنَّ] الثانية في موضع نصب مفعول من أَجله . ويحتمل أَن يكون المعنى : وما منعهم الله قبول نفقاتهم إِلَّا لأَجل كفرهم ، فالأُولى – على هذا – في موضع نصب . ويحتمل أَن يكون المعنى : وما منعهم قبولَ نفقاتهم إلا كفرُهم ، فالثانية في موضع رفع فاعلة .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم : ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُم نَفَقَاتُهُم﴾ ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، ونافع – فيما روي عنه – : ﴿أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُم نَفَقَاتُهُم﴾ بالياءِ ، وقرأَ الأَعرج بخلاف عنه : ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُم نَفَقَتُهُمْ﴾ بالتاءِ من فوق وإِفراد النفقة ، وقرأَ الأَعمش : ﴿أَنْ يُقْبَل مِنْهُم صدقَاتُهم﴾ ، وقرأَت فرقة ﴿أَنْ نَقْبَلَ مِنْهُم نَفقَتَهُم﴾ بالنون ونصب النفقة .

و [كُسَالَى] : جمع «كسْلان» . و «كسلان» إذا كانت مؤنثة «كَسْلَى» لا ينصرف بوجه ، وإن كانت مؤنثة «كسلانة» فهو ينصرف في النكرة .

ثم أخبر عنهم تبارك وتعالى أنهم لا ينفقون نفقة إلا على كراهية ، إذ لا يقصدون بها وجه الله ولا محبة المؤمنين ، فلم يبق إلا فقد المال وهو من مكارههم لا محالة .

وقوله تعالى : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُم﴾ الآية . حقَّر هذا اللفظ شأن المنافقين وعلَّل إعطاء الله لهم الأموال والأولاد بإرادته تعذيبهم بها ، واختلف في وجه التعذيب ، فقال قتادة : في الكلام تقديم وتأخير ، فالمعنى : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة . وقال الحسن : الوجه في التعذيب أنه بما ألزمهم فيها من أداء الزكاة والنفقة في سبيل الله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالضمير في قوله : [بها] عائد – في هذا القول – على الأموال فقط . وقال ابن زيد وغيره : التعذيب هو مصائب الدنيا ، ورزاياهم هي لهم عذاب إذ لا يؤجرون عليها ، وهذا القول وإن كان يستغرق قول الحسن فإن قول الحسن يتقوى تخصيصه بأن تعذيبهم بإلزام الشريعة أعظم من تعذيبهم بسائر الرزايا ، وذلك لاقتران الذلة والغلبة بأوامر الشريعة لهم .

وقوله : ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُم﴾ يحتمل أَن يريد : ويموتون على الكفر ، ويحتمل أَن يريد : وتزهق أَنفسهم من شدة التعذيب الذي ينالهم[١]. وقوله : ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال على التأْويل الأَول ، وليس يلزم ذلك على التأْويل الثاني .

وقوله تعالى : [وَيَحْلِفُونَ] الآية . أَخبر الله تعالى عن المنافقين أَنهم يحلفون أَنهم من المؤمنين في الدِّين والشريعة ، ثم أَخبر تعالى عنهم – على الجملة لا على التعيين – أَنهم ليسوا من المؤمنين ، وإنما هم يفزعون منهم فيظهرون الإيمان وهم يبطنون النفاق ، والفرق : الخوف ، والفَرُوقَةُ : الجبان[٢] ، وفي المثل : «فَرَقٌ خَيْرٌ مِنْ حُبَّيْن»[٣].

---

(١) قال القرطبي في هذه الآية : «نَصٌ في أن الله يريد أن يموتوا كافرين ، سبق بذلك القضاء» ، وأشار ابن عطية إلى هذا الرأي في الاحتمال الأول الذي ذكره ، وقال الرماني والزمخشري : «المعنى : إنما يريد الله أن يملي لهم ويستدرجهم ليعذبهم» ، ووضحه الزمخشري بقوله : «كأنه قيل : ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ملتهون بالتمتع عن النظر إلى العاقبة» . وأراد أبو حيان أن يدفع شبهة المعتزلة فوضح المعنى بقوله : «والذي يظهر من حيث عطف (وتَزْهَق) على (لِيُعَذِّب) أن المعنى : ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ونبّه على عذاب الآخرة بعلّته وهو زهوق أنفسهم على الكفر ، لأن من مات كافراً عُذّب في الآخرة» .

(٢) يقال : رجل فَرِقٌ وفَرُقٌ وفَرُوقٌ وفَرُوقَةٌ وفَرُّوقٌ وفَرُّوقةٌ : فزِعٌ شديد الفَزَع ، (اللسان) .

(٣) صيغة هذا المثل كما ذكره الميداني : «فَرَقاً أنْفَعَ مِن حُبٍّ» ، وأول من قاله الحجاجُ لغضبان بن القبعثَرى الشيباني ، وكان قد قال لأهل العراق حين خلفوا الحجاج بقيادة ابن الجارود وأهل البصرة : «يأهل العراق تعشّوا الجدي قبل أن يتغداكم» ، فلما قتل الحجاج ابن الجارود قبض على الغضبان وجماعة ، لكن عبد الملك بن مروان أمر بإخراجهم من السجن ، وطلب =

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩ ﴾

الْمَلْجَأُ : من لجأَ يَلْجأُ إذا أوى واعتصم . وقرأَ جمهور الناس : ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ بفتح الميم ، وقرأَ سعيد بن عبد الرحمن بن عوف : ﴿أَوْ مُغارَاتٍ﴾ بضم الميم ، وهي الغيران في أَعراض الجبال ، فَفَتْحُ الميم من : «غار الشيءُ» إذا دخل ، كما تقول : «غارت العين» إذا دخلت في الحَجاج[1] ، وضمُّ الميم من : «أَغار الشيءُ غيْرَه» إذا أَدخله ، فهذا وجه من اشتقاق اللفظة . وقيل : إن العرب تقول : «غار الرجلُ وأَغار» بمعنى واحد ، أَي دخل . قال الزجاج : إذا دخل الغور ، فيحتمل أَن تكون اللفظة أَيضاً من هذا .

= الحجاج الغضبان وقال له : إنك لسمين ، قال : من يكن ضيف الأمير يسمن ، فقال : أأنت قلت لأهل العراق : تعشوا الجدي قبل أن يتغدا كم ؟ قال : ما نفعت قائلها ولا ضرت من قيلت فيه ، فقال الحجاج : (أوفَرَقاً خير من حُبّ) فأرسلها مثلا يضرب في موضع قولهم : (رهبوت خير من رحموت) ، أي : لأن يفرق منك فرقاً خير من أن تموت . (مجمع الأمثال للميداني).

(١) الحِجاج بفتح الحاء وبكسرها : العظم المستدير حول العين ، وفي الحديث : (كانت الضبع وأولادها في حجاج عين رجل من العماليق). (النهاية في غريب الحديث – لابن الأثير) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصح في قراءة ضم الميم أن تكون من قولهم : «حبْل مُغَارٌ» أي مفتول ، ثم يستعار ذلك في الأمر المحكم المبرم فيجيءُ التأْويل على هذا : لو يجدون عُصْرَةً[١] أو أُموراً مرتبطة مشددة تعصمهم منكم .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ . وقرأَ جمهور الناس : [مُدَّخَلًا] أَصله مُفْتَعل ، وهو بناءُ تأْكيد ومبالغة ، ومعناه : السَّرب والنَّفَق[٢] في الأَرض . وبما ذكرناه في «الملجإ والمغارات والمدخل» فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما . وقال الزجاج : المدَّخل معناه : قومٌ يدخلونهم في جملتهم . وقرأَ مسلمة بن محارب ، والحسن ، وابن أَبي إِسحق ، وابن محيصن ، وابن كثير بخلاف عنه : [أَوْ مَدْخَلًا] فهذا من دَخَل ، وقرأَ قتادة ، وعيسى بن عمر ، والأَعمش : [أَوْ مُدَّخَّلًا] بتشديدهما[٣] ، وقرأَ أُبي بن كعب : [مُنْدخلا] بنون ، قال أَبو الفتح : هذا كقول الشاعر :

. . . . ولَا يَدِي في حَمِيتِ السَّمْنِ تَنْدخِلُ[٤]

---

(١) العُصْرَة : الملْجَأُ والمنجاة ، يقال : عَصَر بالشيء واعْتَصر به : لجأ إليه . (اللسان) .

(٢) السَّرَبُ بفتح السِّين المشددة والراءِ : حفير تحت الأرض ، وقيل : بيت تحت الأرض ، وهو أيضاً : جحر الثعلب والأسد والضبع والذئب . والنَّفق : مثله وزنا ومعنى . والجمع منهما أسراب وأنفاق .

(٣) يريد بتشديد الدال والخاء .

(٤) البيت للكميت ، وهو بتمامه :

لا خَطْوَتِي تَتَعاطَى غَيْرَ مَوْضِعِهَا ولا يَدِي في حَمِيتِ السَّمْنِ تَنْدَخِلُ

قال في اللسان : وليس بالفصيح . ورواية «البحر» و «الألوسي» مثل رواية ابن عطية : السَّمْن ، =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال أبو حاتم : قراءة أُبي بن كعب : [مُتَدَخَلًا] بتاءٍ مفتوحة ، وروي عن الأعمش ، وعيسى : [مُدْخَلًا] بضم الميم فهو من أَدْخل . وقرأَ الناس : [لَوَلَّوْا] ، وقرأَ جَدُّ أبي عبيدة بن قرمل[١] : [لَوالَوا] من الموالاة ، وأَنكرها سعيد بن مسلم وقال : أَظُنُّها : «لَوأَلُوا» بمعنى «لَجئُوا»[٢] . وقرأَ جمهور الناس : [يَجْمحُونَ] ، ومعناه : يسرعون مصمّمين غير مُنْثَنين ، ومنه قول مهلهل :

لَقَدْ جَمَحْتُ جماحاً في دِمائِهِمُ ... حَتَّى رأَيتُ ذَوي أَحسَابِهِم خَمَدوا[٣]

=والذي في «اللسان» و «التاج» : «في حَمِيتِ السَّكْن» بسكون الكاف ، اسم جمع لساكن ، مثل ركْب وراكب ، وصحْب وصاحب . والحَميتُ هو الزِّقُّ الذي نتف ما عليه من شعر ، وهو للسَّمْن .

(١) هكذا في جميع النسخ التي بأيدينا . ورواية «البحر» أوضح ، ولفظها : «ورَوَى ابن أبي عبيدة بن معاوية بن نَوْفَل، (بدلا من «قرمل») «عن أبيه عن جدّه وكانت له صُحْبَة» .

(٢) قال في اللسان : وَأَلَ إليه وألا وَوُءُولا وَوَئِيلا وواءَلَ مُوَاءَلَةً ووئالا : لَجأَ ، والمَوْئِل : المَلْجأُ .

(٣) الجُمُوح هو الإسرَاع الذي لا يردّه شيءٌ ، ومنه قولهم : «فرس جموح» وهو الذي لم يردّه اللجام ، ونقل في اللسان عن الأزهري أن هذا قد يكون عيباً في الفرس ، وهذا إذا كان من عادته ركوب الرأس . ويسمى جِمَاحاً ، وقد يكون مدحاً لفرس بمعنى السرعة والنشاط ومصدره الجمُوح ، ومنه قول امرئ القيس :

جَمُوحاً مَرُوحاً وإحْضَارُهَا ... كَمَعْمَعَةِ السَّعَفِ المُوقَدِ

لكن بيت المهلهل لا ينطبق عليه هذا الكلام ، فهو يصور سرعته التي لا تنثني في إسالة دمائهم حتى قضى عليهم، والبيت في رواية «البحرالمحيط» : حتى رأيْت ذوي أجْسَامِهِم جمدو .

وقرأ أنس بن مالك : [يجْمِزُونَ] ومعناه : يهربون ، ومنه قولهم في حديث الرَّجم : (فَلَمَّا أَذْلَقَتْهُ الحِجَارَةُ جَمَزَ) [١] .

وقوله تعالى : ﴿ومِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُك﴾ الآية . الضمير في قوله : [وَمِنْهُمْ] عائد على المنافقين ، وأسند الطبري إلى أبي سعيد الخدري أنه قال : جاء ابن ذي الخُوَيْصِرَة التميمي[٢] ورسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً فقال : «اعدل يا محمد» الحديث المشهور بطوله ، وفيه : قال أبو سعيد : فنزلت في ذلك ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ﴾[٣] . وروى داود بن أبي عاصم أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتي بصدقة فقسمها ووراءه رجل من الأنصار فقال : «ما هذا بالعدل» فنزلت الآية [٤] .

---

(١) جاء ذلك في حديث ماعزٍ بن مالك رضي الله عنه ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال له : (لعلَّك قبّلت ، أو غمزت أو نظرت ...) . فقال : لا يا رسول الله ، فأمر برجْمه ، فلما أذْلَقَتْهُ الحجارة جَمَزَ وَفَرَّ» ، ومعنى أذْلَقَتْه : بلغت منه الجَهْدَ حتَّى قَلِقَ ، ومعنى جَمَزَ : أسْرَعَ هارباً من القتل .

(٢) اسمه حُرْقُوص بن زهير ، وفي القرطبي والدر المنثور وتفسير ابن كثير أنه هو ذو الخُوَيْصِرة وليس ابنه ، وأنه أصل الخوارج .

(٣) هذا حديث طويل ، أخرجه البخاري ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه . وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ويلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل؟) فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ، ائذن لي فيه فأضرب عنقه ، فقال صلى الله عليه وسلم : (دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم) . الخ . (الدر المنثور ، وابن كثير ، والشوكاني)

(٤) أخرجه سنيد ، وابن جرير . (الدر المنثور)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه نزعة منافق ، وكذلك روي من غير طريق أن الآية نزلت بسبب كلام المنافقين إذْ لَمْ يعطوا بحسب شطط آمالهم .

و [يَلْمِزُكَ] معناه : يعيبك ويأخذ منك في الغيبة ، ومنه قول الشاعر :

إذَا لَقِيتُكَ تُبْدِي لي مُكَاشَرةً وإنْ أَغِيبُ فأَنت الْهامِزُ اللَّمِزُ (١)

ومنه قول رؤبة :

. . . . في ظِلِّ عَصْرَي باطِلِي ولَمْزي (٢)

والهمز أيضاً في نحو ذلك ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾(٣) ، وقيل لبعض العرب : أتهمز الفأرة ؟ فقال : إنها تَهْمزها الهرَّة ، قال أبو علي : فجعل الأكل همزاً ، وهذه استعارة كما استعار

---

(١) رواه في اللسان ولم ينسبه ، ولفظه فيه :

إذَا لَقِيتُكَ عَنْ شَحْط تُكَاشِرُني وَإنْ تَغَيَّبْتُ كنتَ الهامِزَ اللُّمَزُ

وفي بعض النسخ : فأنت الهامزُ اللُّمَزَهْ . والمكاشرة : الابتسام في وجه من تلقاه ، تبتسم في وجهه والقلب يكرهه ، روي عن أبي الدرداء « إنا لنكْشِرُ في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتَقْليهم » أي تكرههم . والهمز واللمز هو اغتياب الناس والغض منهم .

(٢) هما بيتان من مشطور الرَّجز ، قالهما رؤبة في أرجوزة له ص ٦٤ من ديوانه (طبعة ليبسك سنة ١٩٠٣) ، يقول فيهما :

قَارَبْتُ بَيْنَ عَنَقِي وجَمْزِي في ظِلِّ عَصْرَى باطِلِي ولَمْزِي

والعَنَق (بفتح العين والنون) : ضرب من سير الإبل والدابة ، وهو سير مسبطر ، قاله في اللسان ، ومعناه : سير ممتد ، والجَمْز : مصدر جَمَزَ الإنسان والبعير والدابة جَمْزاً ، وهو عدْوٌ دون الحُضْر الشديد وفوق العَنَق ، ومما روي في العَنَق قول الراجز :

يا ناقُ سيري عَنَقاً فسيحَا إلى سُلَيْمانَ فَنَسْتَريحَا

(٣) الآية (١) من سورة (الهُمَزَة) .

حسّان بن ثابت الغَرَث في قوله :

. . . . وتُصْبِــحُ غَرْثَى من لُحوم الْغَوَافِلِ[١]

تركيباً على استعارة الأَكل في الغيبة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولم يجعل الأَعرابي الهمزَ الأَكل ، وإنما أَراد ضربها إياها بالناب والظفر . وقرأَ جمهور الناس : [يلْمِزُكَ] بكسر الميم ، وقرأَ ابن كثير فيما روى عنه حماد بن سلمة [يلمُزك] بضم الميم ، وهي قراءَة أَهل مكة وقراءَة الحسن ، وأَبي رجاءٍ ، وغيرهم . وقرأَ الأَعمش : [يُلَمِّزُكَ][٢] وروى أَيضاً حمّاد بن سلمة عن ابن كثير : [يُلامِزُك] ، وهي مفاعلة من واحد لأَنه فعل لم يقع من النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رضُوا مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية . وصف للحال التي ينبغي أَن يكون عليها المستقيمون . يقول تعالى : «ولوْ أَن هؤلاءِ المنافقين رضوا قسمة ٱلله الرزق لهم وما أَعطاهم على يدي رسوله ، ورجوا أَنفسهم فضل ٱلله ورسوله ، وأَقروا بالرغبة إلى ٱلله ، لكان خيراً لهم وأَفضل مما هم فيه» . وحذف الجواب من الآية لدلالة ظاهر الكلام عليه ، وذلك من فصيح الكلام وإيجازه .

(١) هذا عجز بيت قاله حسّان في أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، والبيت بتمامه :

حَصَانٌ رزانٌ ما تُزَنّ بِريبَــــةٍ وتُصْبِح غَرْثَى من لُحُوم الغَوَافِــل

والغَرَثُ : أيْسَر الجوع ، وقيل شدته ، وقيل : هو الجوع عامة ، وفي حديث علي رضي الله عنه : «أبيت مبطاناً وحولي غَرْثَى» ؟ وحسّان رضي الله عنه يصور امتناع عائشة رضي الله عنها عن الخوض في أعْراض الغافلات في صورة الجائعة التي امتنعت عن أكل اللحوم .

(٢) بضم الياء وتشديد الميم المكسورة . (راجع فتح القدير للشوكاني) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

[إِنَّمَا] في هذه الآية حاصرة تقتضي وقوف الصدقات على الثمانية الأَصناف ، وإنما اختلف في صورة القسمة ـ فقال مالك وغيره : ذلك على قدر اجتهاد الإمام وبحسب أَهل الحاجة ، وقال الشافعي رحمه الله ، هي ثمانية أَقسام على ثمانية أَصناف لا يخل بواحد منها إلا أَن المؤلفة انقطعـوا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويقول صاحب هذا القول : إنه لا يجزي المتصدق والقاسم من كل صنف أَقل من ثلاثة .

وأَما الفقير والمسكين ـ فقال الأَصمعي ، وغيره : الفقير أَبلغ فاقة ، وقال غيرهم : المسكين أَبلغ فاقة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا طريق إلى هذا الاختلاف ولا إلى الترجيح إلا النظر في شواهد القرآن ، والنظر في كلام العرب وأَشعارها ، فمن حجة الأَولين قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾[1]

---

(١) من الآية (٧٩) من سورة (الكهف) .

واعترض هذا الشاهد بوجوه منها : أن يكون سمَّاهم مساكين بالإضافة إلى الغاصب وإن كانوا أغنياءَ على جهة الشفعة ، كما تقول في جماعة : «تظلم مساكين لا حيلة لهم» ، وربما كانوا مياسير . ومنها أنه قرئ [لِمسَّاكِينَ] بشد السين بمعنى : دبّاغين يعملون المسوك [١] ، قاله النقاش وغيره . ومنها أن تكون إضافتها إليهم ليست بإضافة مِلْك ، بل لما كانوا عاملين بها ، فهي كما تقول : سرج الفرس ، وباب الدار .

ومن حجة الآخرين قول الراعي :

أَمَّا الفقيرُ الذي كانَتْ حَلُوبَتُهُ وفْقَ الْعيالِ فلم يُتْرَكْ له سبدُ [٢]

وقد اعترض هذا الشاهد بأَنه إنما سمّاه فقيراً بعد أن صار لا حلوبة له ، وإنما ذكر الحلوبة بأَنها كانت ، وهذا اعتراض يردّه معنى القصيدة ومقصد الشاعر بأَنه إنما يصف سعاية أَتت على مال الحي بأَجمعه فقال : أَما الفقير فاستؤصل ماله فكيف بالغني مع هذه الحالة ؟ وذهب من يقول إن المسكين أَبلغ فاقة إلى أنه مشتق من السكون ، وأَن الفقير مشتق من فقار الظهر كأَنه أُصيب فقاره . وذهب من يقول إن الفقير أَبلغ فاقة إلى أَنه مشتق من فقرت البئر إذا نزعت جميع ما فيها ، وأَن المسكين من السكن .

---

(١) المُسُوك : جمع مَسْك بفتح الميم وسكون السّين وهو الجلد .

(٢) قال الراعي ذلك يمدح عبد الملك بن مروان ويشكو إليه سُعَاتَه : والحَلُوبة : الناقة التي تحلب ، ويقال : حلوب ولكن الهاء أكثر لأنها بمعنى مفعولة ، والسَّبَد محرّكة : الوبَر ، وقيل : الشعر ، ومن أقوالهم : «مَالَه سبَدٌ ولا لَبَدٌ» ، أي ليس له ذُو وبَر ولا صوف متلبّد ، كناية عن الإبل والغنم . ومعنى «وَفْقَ العيال» أنّ حَلُوبته لها لبن قدر كفايتهم ولا يبقى منه شيءٌ بعدهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومع هذا الاختلاف فإِنهما صنفان يعمهما الإِقلال والفاقة ، فينبغي أَن نبحث عن الوجه الذي من أَجله جعلهما الله اثنين والمعنى فيهما واحد ، وقد اضطرب الناس في هذا ، فقال الضحاك بن مزاحم : الفقراءُ هم من المهاجرين ، والمساكين من لم يهاجر ، وقال النخعي نحوه ، قال سفيان : لا يعطى فقراءُ الأَعراب منها شيئاً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والمِسْكين : السائل يعطى في المدينة وغيرها ، وهذا القول هو حكاية الحال وقت نزول الآية . وأَما منذ زالت الهجرة فاستوى الناس ، وتعطى الزكاة لكل متصف بفقر ، وقال عكرمة : الفقراءُ من المسلمين ، والمساكين من أَهل الذمة ، ولا تقولوا لفقراءِ المسلمين : مساكين ، وقال الشافعي في كتاب ابن المنذر : الفقير : من لا مال له ولا حرفة سائلا كان أَو متعففاً ، والمسكين : الذي له حرفة أَو مال ولكن لا يغنيه ذلك سائلا كان أَو غير سائل ، وقال قتادة بن دعامة : الفقير : الزَّمِن[1] المحتاج ، والمسكين : الصحيح المحتاج ، وقال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والزهري ، وابن زيد ، وجابر بن زيد ، ومحمد بن مسلمة : المساكين : الذين يسعون ويسأَلون ، والفقراءُ هم الذين يتصاونون ، وهذا القول الأَخير – إذا لُخِّص وحُرِّر – أَحسن ما يقال في هذا .

---

(١) يقال : رجلٌ زَمِنٌ أي مُبْتَلًى بَيِّن الزَّمانة وهي العاهة . والجمع : زَمِنون . ويقال : رجل زَمِينٌ ، والجمع : زَمْنَى .

وتحريره أَن الفقير هو الذي لا مال له إلا أَنه لم يذل ولا بذل وجهه ، وذلك إما لتعفف مفرط وإما لِبُلْغَةٍ تكون له كالحلوبة وما أَشبهها ، والمسكين هو الذي يقترن بفقره تذلل وخضوع وسؤال ، فهذه هي المسكنة ، فعلى هذا كلُّ مسكين فقير وليس كل فقير مسكيناً ، ويُقوّي هذا أَن الله تعالى قد وصف بني إسرائيل بالمسكنة وقرنها بالذلَّة مع غناهم ، وإذا تأَملت ما قلناه بان أَنهما صنفان موجودان في المسلمين ، ويُقوي هذا قوله تبارك وتعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾(١) ، وقيل لأَعرابي : أَفقير أَنت ؟ فقال : إني والله مسكين ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف الذي تردُّه اللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين هو الذي لا يجد غنيً يغنيه ، ولا يُفْطن له فَيُتَصَدَّق عليه ، اقرؤُوا إن شئتم ﴿لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحافاً﴾(٢) ، فدل هذا الحديث على أَن المسكين في اللغة هو الطوّاف ، وجرى تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث على المتصاون مَجْرى تقديم الفقراءِ في الآية لمعنى الاهتمام ، إذ هم بحيث إن لم يُتَهَمّم بهم هلكوا ، والمسكين يُلِحُّ ويُذكِّر بنفسه .

وأَما العامل فهو الرجل الذي يستنيبه الإمام في السعي على الناس وجمع صدقاتهم ، وكل من يصرف من عون لا يستغني عنه فهو من

---

(١) من الآية (٢٧٣) من سورة (البقرة) .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ، وفيه (تردُّه اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان) ، ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره . وقوله تعالى : ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ من الآية (٢٧٣) من سورة (البقرة) .

العاملين لأنه يحشر الناس على الساعي[١]، وقال الضحاك : للعاملين ثمن ما عملوا على قسمة القرآن ، وقال الجمهور : لهم قدر تعبهم ومؤنته ، قاله مالك ، والشافعي في كتاب ابن المنذر ، فإن تجاوز ذلك ثمن الصدقة فاخْتُلف – فقيل : يتم لهم ذلك من سائر الأنصباء ، وقيل : بل يتم لهم ذلك من خُمس الغنيمة . واخْتُلف إذا عمل في الصدقات هاشمي – فقيل : يعطى منها عُمالته[٢] ، وقيل : بل يعطاها من الخُمس ، ولا يجوز للعامل قبول الهدية والمصانعة ممن يسعى عليه ، وإن فعل ذلك رُدّ في بيت المال كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بابن اللُّتْبية[٣] حين استعمله على الصدقة فقال : «هذا لكم وهذا أُهدي إلي» ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (هلَّا قعدتَ في بيت أبيك وأمك حتى تعلم ما يُهدى لك) ؟ ، وأخذ الجميع منه[٤] .

---

(١) كل من يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة وجبايتها يسمون السعاة وجباة الصدقة ويقال للواحد : الساعي وجابي الصدقة ، قال الشاعر :

إن السُّعاةَ عَصَوْكَ حينَ بَعَثْتَهم ... لَمْ يَفْعَلُوا مِمَّا أَمَرْتَ فَتِيــلا

(٢) قال الأزهري وحكاه في اللسان : «العمالة بالضم : رزق العامل الذي جُعل له على ما قُلّد من عمل» ، والكسر لغة . قاله في المصباح . وفي القاموس أنها مثلثة ، ولكن في اللسان أن العَمَالة بالفتح تقال للناقة إذا كانت فارهة مثل : اليَعْمَلة .

(٣) اختلف في ضبطه ، فقيل : بضم اللام المشددة وسكون التاء ، وحكي فتحها ، وقيل : بفتح اللام والمثناة ، واسمه عبد الله ، وكان من بني تولب ، وهم حيٌّ من الأزد ، وقيل : اللُّتْبية : اسم أمّه .

(٤) روى البخاري عن أبي حُمَيْد السّاعدي قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأسْد على صدقات بني سُلَيْم يُدعى ابن اللُّتْبية ، فلما جاء حاسبه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وتـأَمل عِمالة السَّاعي هل يـأْخذها قبل العمل أَو بعده ؟ وهل هي إجارة أَو هي جعل ؟ وهل العمل معلوم أَو هو يُتَتَبع وإنما يعرف قدره بعد الفراغ ؟

وأَما المؤلفة قلوبهم فكانوا صِنْفين : مسلمين وكافرين مُساتِرين[١]، قال يحيي بن كثير : كان منهم أَبو سفيان بن حرب بن أُمية ، والحارث ابن هشام ، وصفوان بن أُميَّة ، وسُهَيل بن عمرو ، وحكيم بن حزام ، وأَبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعُيَيْنة ، والأَقرع[٢] ، ومالك بن عوف ، والعباس بن مرداس ، والعلاءُ بن جارية الثقفي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَكثر هؤلاءِ من الطلقاءِ[٣] الذين ظاهر أَمرهم يومَ الفتح الكفرُ ، ثم بقوا مُظْهرين الإسلام حتى وثقه الاستئلاف في أَكثرهم ، واستئلافُهم إنما كان لِتُجْلَب إلى الإسلام منفعة أَو تُدْفع عنه مضَرَّة . وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، والحسن ، والشعبي ، وجماعة من أَهل العلم : انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره ، وهذا مشهور مذهب مالك رحمه الله . قال عبد الوهاب : إن احتيج إليهم في بعض الأَوقات أُعطوا من الصدقة .

---

(١) المُسَاترة كالمُداجنة ، والمعنى فيهما : حسن المخالطة بحسب الظاهر .

(٢) هما : عُيَيْنَةُ بن حِصْنْ ، والأَقْرَعُ بن حابِس .

(٣) هم الذين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : (اذهبوا فأَنْتُم الطُّلَقاءُ) . وفي حديث حُنَيْن : (خَرَجَ ومعه الطُّلَقاءُ) قال في اللسان : هم الذين خلّى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم فلم يسترقهم ، والواحد : طليق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقول عمر رضي الله عنه - عندي - إنما هو لمُعيَّنين، فإنه قال لأبي سفيان حين أراد أخْذ عطائه القديم . «إنما تأْخذ كرجل من المسلمين ، فإن الله قد أغنى عنك وعن ضربائك»[١] ، يريد : في الاستئلاف ، وأما أن ينكر عمر الاستئلاف جملةً وفي ثغور الإسلام فبعيد . وقال كثير من أهل العلم : المؤلفة قلوبهم موجودون إلى يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإذا تأملت الثغور وجدت فيها الحاجة إلى الاستئلاف . وقال الزهري : المؤَلَّفة : من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يريد : لتبسط نفسه ويحبب دين الإسلام إليه .

وأمّا الرقاب فقال ابن عباس ، والحسن ، ومالك ، وغيرهم : هو ابتداءُ العِتق وعون المُكَاتب بما يأْتي على حريته ، واخْتُلِف هل يعان بها المُكَاتَب في أثناء نجومه[٢] بالمنع والإباحة ، واخْتُلِف على القول بإباحة ذلك إن عجز ، فقيل : يُرَدّ ذلك من عند السّيّد ،

---

(١) ضريب الشيء : مثله وشكله ، والضُّرَبَاء هم الأمثال والنُّظَرَاء .

(٢) تنجيم الدَّيْن : هو أن يُقَدّر عطاؤه في أوقاتٍ معلومة متتابعة ، مشاهرةً أو مساناة ، ومنه تنجيم المُكاتَب ونجوم الكتابة ، وأصله أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت حلول ديونها وغيرها فتقول : إذا طلع النجم حلّ عليك مالي ، أي الثّريا ، وكذلك باقي المنازل ، فلما جاء الإسلام جعل الله تعالى الأهلة مواقيت للحج والصوم ومحِل الديون ، وسمّوها نجوماً اعتباراً بالرسم القديم الذي عرفوه . (اللسان - نجم)

وقيل : يمضي لأنه كان يوم دفعه بوجه مترتب . قال الشافعي : معنى ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ : في المُكَاتَبين ، ولا يبتدأُ منها عتق عبد ، وقاله اللَّيْث ، وإبراهيم النَّخَعي ، وابن جُبَيْر ، وذلك أَن هذه الأَصناف إنما تُعْطَى إما لمنفعة المسلمين أَو لحاجة في أنفسها ، والعبد ليس له واحدة من هاتين العِلَّتين ، والمُكَاتَب قد صار من ذي الحاجة . وقال الزهري : سهم الرقاب نصفان ، نصف للمُكَاتَبين ونصف يعتق منه رقابٌ مسلمون مِمَّن صلَّى ، ويفدى منه أُسارى المسلمين . ومَنَع ذلك غيرُه [١] .

وأَمَّا الغارم فهو رجل يركبه ديْنٌ في غير معصية ولا سفَه ، قال العلماءُ : فهذا يُؤَدَّى عنه دينه وإن كانت له عروض تُقيم رَمَقه وتكفي عياله ، وكذلك الرجل يتحمل بحمالة في دياتٍ أَو إصلاح بين القبائل ، ونحو هذا ، وهو أَحد الخمسة الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تَحِلُّ الصَّدقة لغني إلا لخمسة ، لِعامِل عليها ، أَو غازٍ في سبيل الله ، أَو رجل تحمل بحمالة ، أَو من أُهديت له ، أَوْ من اشتراها بماله) [٢]

(١) قوله تعالى : ﴿وفي الرِّقابِ﴾ معناه : وفي فكّ الرقاب ، وعلى هذ االتقدير يعطى ما حَصَل به فك الرقاب من ابتداء عِتْق يشترى منه العبد فيُعتق ، أو تخليص مُكاتَب أو أسير . قاله في « البحر » ، وهذا هو رأي ابن عباس ، والحسن ، ومالك.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، وأبو داود ، وابن ماجة ، وغيرهم — عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد سقط المؤلفة من هذا الحديث ، ولا يؤدى من الصدقة ديْن ميّت ، ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله ، وإنما الغارم مَنْ عليه ديْن يسجن فيه ، وفيه قيل في مذهبنا وغيره : يُؤَدّى دَيْن الميّت من الصدقات ، قاله أبو ثور .

وأما في سبيل الله فهو المجاهد ، يجوز أن يأْخذ من الصدقة لينفقها في غزوه وإن كان غنيّاً ، قال ابن حبيب : ولا يُعْطَى منها الحاج إلا أن يكون فقيراً فيعطى لفقره ، وقال ابن عباس ، وابن عمر ، وأحمد ، وإسحق : يعطى منها الحاج وإن كان غنياً ، والحج سبيل الله ، ولا يعطى منها في بناءِ مسجد ولا قنطرة ولا شراءِ مصحف ونحو هذا .

وأما ابن السبيل فهو الرجل في الغربة والسفر يُعْدِم ، فإنه يعطى من الزكاة وإن كان غنياً في بلده ، وسمّي المسافر ابن سبيل لملازمته السبيل ، كما يقال للطائر : «ابن ماءٍ» لملازمته له ، ومنه عندي قولهم : «ابن جلا» ، وقد قيل فيه غير هذا ، ومنه قولهم : «بنو الحرب وبنو المجد» (١) .

ولا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة ، قال ابن الماجشون ، ومطرف ، وأَصْبَغ ، وابن حبيب : ولا من التطوع ، ولا يعطى مواليهم لأن مولى القوم منهم . وقال ابن القاسم : : يُعطى بنو هاشم من صدقة

---

(١) كما قال الشاعر :

أنا ابْنُ الْحَرْب رَبَّتْني وَلِيــداً إلى أنْ شِبْتُ واكْتَهَلَتْ لِداَتي

التطوع ويعطى مواليهم من الصدقتين ، ومنْ سأَل الصدقة وقال إنه فقير ؟ فقالت فرقة : يعطى دون أَن يكلف بيّنة على فقره ، بخلاف حقوق الآدميين يُدَّعى معها الفقر فإنه يُكَلَّف البَيِّنة لأَنها حقوق الناس يؤخذ لها بالأَحوط ، وأَيضاً فالناس إذا تعلقت بهم حقوق لآدميين محمولون على الغنى حتى يثبت العدم ، ويظهر ذلك من قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾[١] ، أَي إِنْ وَقَعَ فَيُعْطِي هذا أَن الأَصل الغنى[٢] ، فإن وقع ذو عسرة فنظرة . وقالت فرقة : الرجل الصحيح الذي لا يعلم فقره لا يُعطى إلا أَن يعلم فقره . وأَمَّا إن ادّعى أَنه غارم أَو مُكَاتَب أَو ابن سبيل أَو في سبيل الله أَو نحو ذلك مما لم يُعلم منه فلا يُعْطَى إلا ببيّنة قولا واحداً . وقد قيل في الغارم[٣] : تباع عروضه وجميع ما يملك ثم يعطى بالفقر . ويُعْطي الرجل قرابَته الفقراء ، وهم أَحق من غيرهم ، فإن كان قريبه غائباً في موضع تقصر إليه الصلاة فجاره الفقير أَولى ، وإن كان في غيبة لا تقصر إليه الصلاة فقيل : هو أَولى من الجار الفقير ، وقيل : الجار أَولى ، ويُعطي الرجل قرابَته الذين لا تلزمه نفقتهم ، وتعطي المرأَة زوجَها ، وقال بعض الناس : مالم ينفق ذلك عليها ، ويعطي الرجل زوجته إذا كانت من الغارمين ، واختلف في ولاءِ الذي يُعْتَقُ من الصدقة ـ فقال مالك : ولاؤُه لجماعة المسلمين ، وقال أَبو عبيد : ولاؤُه للمُعْتِق ،

---

(١) من الآية (٢٨٠) من سورة (البقرة) .

(٢) معنى هذه العبارة : أيْ إن حَصَل العُسْر فإن هذا التعبير يعطي بأن الأصل هو الغنى وأن الفقر أمر طارئ .

(٣) في بعض النسخ : وقد قيل في المفلس .

وقال عبيد الله بن الحسن : يجعل ماله في بيت الصدقات ، وقال الحسن ، وأحمد ، وإسحق : ويعتق من ماله رقاب . وإذا كان لرجل على مُعْسرٍ دَيْنٌ ، فقيل : يتركه له ويقطع ذلك من صدقته ، وقيل : لا يجوز ذلك جملة ، وقيل : إن كان ممن لو رفعه للحاكم أمكن أن يؤديه جاز ذلك ، وإلا لم يجز لأنه قد توفي (١).

وأما السبيل فهو الذي قدمنا ذكره ، يُعْطَى الرجل الغازي وإن كان غنياً ، وقال أصحاب الرأي : لا يُعطى الغازي في سبيل الله إلا أن يكون منقطعاً به . قال ابن المنذر : وهذا خلاف ظاهر القرآن وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما القرآن فقوله تعالى : ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ، وأما الحديث فقوله : (إلَّا لخمسة ، لعامل عليها ، أو غاز في سبيل الله) . وأما صورة التفريق ــ فقال مالك وغيره : على قدر الحاجة ونظر الإمام ، يضعها في أيِّ صنف رأى ، وكذلك المتصدِّق ، قاله حذيفة بن اليمان ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم ، وأبو العالية . قال الطبري : وقال بعض المتأخرين : إذا قسم المتصدق قسم في ستة أصناف ، لأنه ليس ثَمَّ عامل ، ولأن المؤلفة قد انقطعوا ، فإن قسم الإمام ففي سبعة أصناف . وقال الشافعي ، وعكرمة ، والزهري : هي ثمانية أقسام لثمانية أصناف لا يخل بواحد منها ، واحتج الشافعي ،

---

(١) في بعض النسخ : لأنه قد تَوِيَ ، ومعناها : هلك . قال في الصحاح : التَّوَى : هلاك المال ، ونقل ذلك في اللسان عن الصحاح ثم قال : التَّوَى : ذهابُ مال لا يُرْجَى . تَوِيَ المالُ بالكسر يَتْوَى تَوًى : ذهب فلم يرج . وواضح أن التعبير بقوله (تَوِيَ) هو الصحيح ، والله أعلم .

بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي سأَله : (إن الله تعالى لم يرض في الصدقات بقسم نبي ولا غيره حتى قسمها بنفسه فجعلها ثمانية أَقسام لثمانية أَصناف ، فإن كنت واحداً منها أَعطيتك) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والحديث في مصنف أَبي داود . وقال أَبو ثور : إذا قسمها الإمام لم يخل بصنف منها ، وإن أَعطى الرجلُ صدقَتَه صنفاً دون صنف أَجزأَه ذلك . وقال النخعي : إذا كان المال كثيراً قَسَّم على الأَصناف كلها ، وإذا كان قليلا أعطاه صنفاً واحداً . وقالت فرقة من العلماء : من له خمسون درهماً فلا يعطى من الزكاة ، وقال الحسن ، وأَبو عبيد : لا يعطى من له أُوقية وهي أَربعون درهماً ، قال الحسن : وهو غني . وقال الشافعي : قد يكون الرجل الذي لا قدر له غنياً بالدرهم مع سعْيه وتحيله ، وقد يكون الرجل له القدر والعيال ضعيف النفس والحيلة فلا تغنيه آلاف . وقال أَبو حنيفة : لا يأْخذ الصدقة من له مائتا درهم ، ومن كان له أَقل فلا بأْس أَن يأْخذ ، قال سفيان الثوري : لا يُدفع إلى أَحد من الزكاة أَكثر من خمسين درهماً إلا أَن يكون غارماً ، وقال أَصحاب الرأْي : إن أُعطي أَلفاً وهو محتاج أَجزأَ ذلك . وقال أَبو ثور : يعطى من الصدقة حتى يغنى ويزول عنه اسم المسكنة ، ولا بأْس أَن يعطى الفقير الأَلف وأَكثر من ذلك . وقال ابن المنذر : أَجمع أَكثر من يُحفظ عنه من أَهل العلم أَن لِمَنْ له دار وخادم لا يستغني

عنهما أن يأْخذ من الزكاة ، وللمعطي أن يعطيه . وقال مالك : إن لم يكن في ثمن الدار أو الخادم فضلة عمن يحتاج إليه منهما جاز له الأخذ ، وإلا لم يجز . وأما الرجل يعطي الآخر يظنه فقيراً فإذا هو غني ، فإنه إن كان تعود ذلك أخذها منه ، فإن فاتت نُظر ، فإن كان الآخذ غنياً وأخذها مع علمه بأنها لا تحل له ضمنها على كل وجه ، وإن كان لم يُغرّ بل اعتقد أنها تجوز له ، أو لم يتحقق مقصدَ المعطي نُظر ، فإن كان لبِسها أو أكلها ضمنها ، وإن كانت تلفت لم يضمن . واخْتُلف في إجزائها عن المتصدق ـ فقال الحسن ، وأبو عبيدة : تجزيه ، وقال الثوري ، وغيره : لا تجزيه . وأهل بلد الصدقة أحق بها إلا أن تفضل فضلة فتنقل إلى غيرها بحسب نَظَرِ الإمام ، قال ابن حبيب في « الواضحة » : أما المؤلفة فانقطع سهمهم ، وأما سبيل الله فلا بأس أن يعطي الإمام الغزاة إذا قلَّ الفيْءُ في بيت المال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الشرط فيه نظر ، قال ابن حبيب : وينبغي للإمام أن يأْمر السعاة بتفريقها بالمواضع التي جُبيت منها ، ولا يحمل منها شيءٌ إلى الإمام إلا أن يرى ذلك لحاجة أو فاقة نزلت بقوم . قاله مالك . ومن له مزرعة أو شيءٌ في ثمنه إذا باعه ما يغنيه لم يجز له أخذ الصدقة . وهذه جُمْلة من فقه الآية كافية على شرطنا في الإيجاز ، والله الموفق برحمته (١) .

---

(١) قال الزمخشري : « فإن قلتَ : لم عدل عن (اللام) إلى (في) في الأربعة الأخيرة ؛ قلتُ : للايذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن (في) للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظِنّة لها ومصبا » ، ثم ذكر ما في كل نوع من سمات تجعله أهلا لهذا التفصيل .

وقوله تعالى : ﴿فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي مُوجَبَة مُحَدَّدة ، وهو مأْخوذ من الفرض في الشيء بمعنى الحز والقطع لثبوت ذلك ودوامه شبه ما يفرض من الأَحكام . ونصب [فَرِيضَةً] على المصدر [1] ، ثم وصف نفسه تبارك وتعالى بصفتين مناسبتين لحكم هذه الآية لأَنه صدر عن علم منه بخَلْقه ، وحكمة منه في القسمة بينهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

الضمير في قوله تعالى : [وَمِنْهُمْ] عائد على المنافقين ، و [يُؤْذُونَ] لفظ يعم جميع ما كانوا يفعلونه ويقولونه في جهة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأَذى ، وخص – بعد ذلك – مِنْ قولهم : ﴿هُو أُذُنٌ﴾ ،

(١) قيل : هي في معنى المصدر المؤكد ؛ لأن قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ معناه : فَرْضٌ من الله الصدقات لهم . وقال الكرماني ، وأبو البقاء : [فَرِيضَةً] حال من الضمير في [الفُقَرَاءِ] ؛ أي مفروضة . وذُكر عن سيبويه أنها مصدر والتقدير : فرض الله الصدقات فريضة . وهذا هو الرأي الذي ذكره ابن عطية .

وروي أن قائل هذه اللفظة هو نبتل بن الحارث وكان من مَرَدَة المنافقين ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ سرَّه أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث)[١] ، وكان ثائر الرأس ، منتفش الشعر ، أحمر العينين ، أَسْفَع الخدين ، مشوَّها . ورُوي عن الحسن البصري ، ومجاهد أنهما تأوّلا أنهم أرادوا بقولهم : ﴿هُو أُذُنٌ﴾ أَنَّه يسمع منا معاذيرنا وتنصّلنا ويقبله، أي : فنحن لا نبالي عن أذاه[٢] ، ولا الوقوع فيه إذ هو سمّاع لكل ما يقال من اعتذار ونحوه ، فهذا تنَقُّص بقلة الحزامة والانخداع[٣] ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة معه أنهم أرادوا بقولهم : ﴿هُو أُذُنٌ﴾ أَنَّه يسمع كل ما ينقل إليه عنا ويصغي إليه ويقبله ، فهذا تشكُّك منه ووصف بأَنه تسوغ عنده الأَباطيل والنَّمائم .

ومعنى [أُذُنٌ] : سمّاع ، ويسمى الرجل السّماع لكل قول أُذُنا إذْ كثر منه استعمال الأُذن ، فهذه تسمية الشيء بالشيء إذا كان منه بسبب ، كما يقال للرَّبيئَة : عينٌ[٤] ، وكما يقال للسمينة من الإبل

(١) لفظ الحديث في القرطبي «من أراد» ، والسُّفْعَةُ : سوادٌ مشربٌ بحمرة ، ويقال للرجل : أسفع .

(٢) أي : لا يَهُمّنا ولا يكترِثُنا أن نكف عن أذاه ، والعبارة قلقة حتى لو فهمناها على معنى البعد عن الشيء نتيجة لكرهه .

(٣) يقال : حَزُم حَزَامة كضَخُم ضَخامة ، فالحزامة مصدر . ومنه قولهم : «ربّما كان من الحَزَامة أن تجعل أنفك في الحِزَامة» . والحِزامة بكسر الحاء حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام . (التاج) .

(٤) الرَّبيئة : الطليعة ، وإنما أنثوه لأن الطليعة يقال لها : العينُ ، إذ بعينه ينظر ، والعين مؤنثة . وقيل للربيئة عين لأنه يرعى أمور قومه ويحرسهم . وجمع الربيئة : الرّبايا . (اللسان) .

التي قد بزل نابها : نابٌ [١]، وقيل : معنى الكلام : ذو أُذن ، أي : ذو سماع ، وقيل : إن قوله تعالى : [أُذُنٌ] مشتق من قولهم : «أَذِنَ للشَّيْءِ» إذا استمع ، كما قال الشاعر وهو عديٌّ بن زيد :

أَيُّها الْقَلْبُ تَعَـلَّلْ بدَدَنْ ... إنَّ هَمِّي في سَمَاعٍ وَأَذَنْ [٢]

وفي التنزيل : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت﴾ [٣] ، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : (ما أَذِن الله لشيءٍ كإِذْنه لنبي يتغنى بالقرآن) [٤] ، ومن هذا قول الشاعر :

في سَمَاعٍ يـأْذَنُ الشَّيْخُ لَهُ ... وحَدِيثٍ مثْلَ ماذِيٍّ مُشَار [٥]

---

(١) النابُ في الأصل هي السِّن التي خلف الرباعية ، وفيها التأنيث والتذكير . والنابُ : الناقة السمينة ، سمّوها بذلك حين طال نابها وعَظُم ، مؤنثة ، وهي مما سمّى فيه الكل باسم الجزء ، ومعنى «بَزَل نابها» : انشق وانفطر ، ويكون ذلك حين تبلغ التاسعة من عمرها .

(٢) الدَّدَنُ : اللهو ، وفيه لغات كثيرة أشهرها (دَدٌ) مثل (يَد) و (دداً) مثل (قفاً وعصاً) ، و (دَدَنٌ) مثل حَزَن . وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : (ما أنا من دَدٍ ولا الدَّدُ منّي) ، وفي رواية (ما أنا من دَدًا ولا دَدًا مني) ، قال ابن الأثير : الدّدُ : اللهو واللعب ، وهي محذوفة اللام ، وقد استعملت مُتَمَّمة على ضربين : دداً كنَدًى ودَدنٌ كبَدَنٍ . والأذَن : الاستماع ، يقال : أذِنْتُ للشيء آذَن له أذَناً إذا استمعت له . (عن اللسان)

(٣) الآية (٥) من سورة (الانشقاق) .

(٤) أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي — عن أبي هريرة ، ولفظه كما رواه في الجامع الصغير : (ما أذن الله لشيءٍ ما أذِن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به) قال أبو عبيد : «يعني : ما استمع الله لشيءٍ كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن ، أي يتلوه يجهر به» .

(٥) البيت لعديّ بن زيد ، ومعنى «يأذن الشيخ له» : يستمع إليه معجبا ، والماذِيّ : العَسَل الأبيض الرقيق ، والمشار : المجتنى . وقبل هذا البيت يقول عَدِيّ :

ومَلاهٍ قَدْ تَلَهَّيْتُ بهـا ... وقصرتُ اليَوْمَ في بيْتِ عـذار =

ومنه قول الآخر :

صُمٌّ إذا سَمِعوا خَيْراً ذُكِرْتُ بهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدهُمْ أَذِنُوا[1]

وقرأ نافع : [أُذْن] بسكون الذال فيهما ، وقرأ الباقون : [أُذُن] بضم الذال فيهما ، وكلهم قرأ بالإضافة إلى [خَيْر] إلا ما روي عن عاصم ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، ومجاهد ، وعيسى - بخلاف - ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ﴾ برفع [خَيْر] وتنوين [أُذُن] ، وهذا يجري مع تأويل الحسن الذي ذكرناه ، أي : من يقبل معاذيركم خير لكم ، ورُويت هذه القراءة عن عاصم ، ومعنى ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ على الإضافة ، أي سماع خير وحق .

و ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ معناه : يصدق بالله ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل : معناه : ويصدق المؤمنين ، واللام زائدة كما هي في قوله سبحانه : ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾[2] ، وقال المبرد : هي متعلقة بمصدر مقدر من الفعل كأنه قال : وإيمانه للمؤمنين ، أي تصديقه ، ويقال : «آمنت لك» بمعنى صدقتك ، ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾[3] .

= ومثل هذا البيت قول عمرو بن الأهيم :

فَلَمَّا أَنْ تَسَايَرْنَا قَلِيــلا أَذِنَّ إلى الْحَدِيث فَهُنَّ صورُ

(١) البيت لقَعْنَب بن أمِّ صاحب ، وقبله يقول :

إنْ يَسْمَعُوا ريبَةً طاروا بِهَا فَرَحاً مِنِّي ، وما سَمِعوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

(٢) من قوله تعالى في الآية (٧٢) من سورة (النمل) : ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ .

(٣) من الآية (١٧) من سورة (يوسف) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعندي أن هذه التي معها اللام في ضمنها باءٌ ، فالمعنى : ويصدق للمؤمنين بما يُخبرونه به ، وكذلك: وما أنت بمؤمن لنا بما نقوله لك . والله المستعان .

وقرأ جميع السبعة إلا حمزة : [وَرَحمةٌ] بالرفع عطفاً على [أُذُن] ، وقرأ حمزة وحده : [وَرَحمةٍ] بالخفض عطفاً على [خَيْرٍ] ، وهي قراءة أُبي بن كعب ، وعبد الله ، والأعمش ، وخصص الرحمة للذين آمنوا إذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا به ، ثم أوجب تبارك وتعالى للذين يؤذون رسول الله العذاب الأليم وحتم عليهم به .

وقوله تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ﴾ الآية . ظاهر هذه الآية أن المراد بها جميع المنافقين الذين يحلفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بأنهم منهم في الدِّين ، وأنهم معهم في كل أمر وكل حزب ، وهم في ذلك يبطنون النفاق ويتربصون الدوائر . وهذا قول جماعة من أهل التأويل . وقد روت فرقة أنها نزلت بسبب رجل من المنافقين قال : «إن كان ما يقول محمد حقاً فأنا شرّ من الحمر» ، فبلغ قوله رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه ووقف على قوله ووبخه ، فحلف مجتهداً أنه ما فعل ، فنزلت الآية في ذلك [1]. وقوله : [واللهُ] . مذهب سيبويه أنهما جملتان حذفت الأُولى لدلالة الثانية عليها ، والتقدير عنده : والله أحق أن يرضوه ، ورسوله أحق أن يرضوه ،

---

(١) أخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي مثله ، وسمَّى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار ، (الدر المنثور) ، وفي القرطبي أن جماعة من المنافقين اجتمعوا ، فيهم الجُلاسُ بن سُوَيْد، ووديعة بن ثابت ، وفيهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس .

وهذا كقول الشاعر :

نحنُ بِمَا عِنْدنَا وأَنْتَ بِمَا عِنْـ ـدكَ راضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِف[1]

ومذهب المبرد أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره : والله أحق أن يرضوه ورسوله . قال : وكانوا يكرهون أن يجمع الرسول مع الله في ضمير ، حكاه النقاش عنه ، وليس هذا بشيء . وفي مصنف أبي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى) فجمع في ضمير ، وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر : (بئس الخطيب أنت) إنما ذلك لأنه وقف على (ومن يعصهما) فأدخل العاصي في الرشد[2] . وقيل : الضمير في [يُرْضُوهُ] عائد على المذكور كما قال رؤبة :

فيها خُطوطٌ مِن سَـوادٍ وبَلَقْ كأنَّه في الجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَق[3]

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا في سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الآية (٣٤) من هذه السورة . وقد اعترض أبوحيان في «البحر» على هذا الرأي وقال : « فقوله : مذهب سيبويه أنهما جملتان حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها إن كان الضمير في (أنهما) عائداً على كل واحدة من الجملتين فكيف تقول : حذفت الأولى ولم تحذف الأولى وإنما حذف خبرها ؟ وإن كان الضمير عائداً على الخبر وهو ﴿ أحَقُّ أنْ يُرْضُوهُ ﴾ فلا يكون جملة إلا باعتقاد كون ﴿ أنْ يُرْضُوهُ ﴾ مبتدأ ، و (أحقُّ) المتقدم خبره ، لكن لا يتعين هذا القول إذ يجوز أن يكون الخبر مفرداً بأن يكون التقدير : « أحق بأن يرضوه » ، وعلى التقدير الأول يكون التقدير : « والله إرضاؤه أحق » . وللعلماء في إفراد الضمير في قوله تعالى : (يُرْضُوهُ) آراء كثيرة ذكر منها ابن عطية ثلاثة ، ومن هذه الآراء أن الإفراد جاء لتعظيم الله سبحانه ، أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله ، أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة ، فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد .

(٢) أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على الخطيب لأنه فهم منه اعتقاد التسوية حين وقف على (يعصهما) فنَبَّهه على خلاف معتقده .

(٣) البَهَق : بياض دون البرص ، أو هو بياض يعتري الجسد بخلاف لونه وليس من البرص . والشاهد في البيت عود الضمير في قوله (كأنه) ، أي : كأن المذكور .

وقوله : ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي : على قولهم ودعواهم .

وقوله : ﴿أَلَمْ يعْلَمُوا﴾ الآية . قوله : [أَلَمْ] تقرير ووعيد ، وفي مصحف أُبي بن كعب ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو وعيد لهم . وقرأ الأعرج ، والحسن : ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ بالتاء ، و [يُحَادِد] معناه : يخالف ويشاق ، وهو أن يعطي هذا حدّه لهذا وهذا حدّه لهذا ، وقال الزجاج : هو أن يكون هذا في حدّ وهذا في حدّ .

وقوله : [فَأَنَّ] مذهب سيبويه أنها بدلٌ من الأُولى ، وهذا معترض بأَن الشيءَ لا يبدل منه حتى يستوفى ، والأُولى في هذا الموضع لم يأْت خبرها بَعْدُ إذ لم يتم جواب الشرط ، وتلك الجملة هي الخبر ، وأيضاً فإن الفاءَ تمانع البدل ، وأيضاً فهي في معنى آخر غير الأَول فيقلق البدل ، وإذا تُلطِّف للبدل فهو بدل الاشتمال ، وقال غير سيبويه : هي مجردة لتأْكيد الأُولى ، وقالت فرقة من النحاة : هي في موضع خبر ابتداءٍ تقديره : «فواجب أَنَّ له» ، وقيل : المعنى : «فلَه أَن له» ، وقالت فرقة : هي ابتداءٌ والخبر مضمر تقديره : «فأَن له نار جهنم واجب» ، وهذا مردود لأَن الابتداءَ بـ (أَنَّ) لا يجوز مع إِضمار الخبر ، قاله المبرد ، وحُكي عن أَبي علي الفارسي قول يقرب معناه من معنى القول الثالث من هذه التي ذكرنا لا أَقف الآن على لفظه . وجميع القراءِ على فتح [أَنَّ] الثانية ، وحكى الطبري عن بعض نحويي البصرة أَنه اختار في قراءَتها كسر الأَلف ، وذكر أَبو عمرو الداني أَنها قراءَة

ابن أبي عبلة ، ووجهه في العربية قوي لأن الفاء تقتضي القطع والاستئناف ؛ ولأنه يصلح في موضعها الاسم ويصلح الفعل ، وإذا كانت كذلك وجب كسرها[١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قوله تعالى : [يَحْذَرُ] خبر عن حال قلوبهم ، وحذرهم إنما هو أن تتلى سورة ، ومعتقدهم – هلْ تنزل أم لا – ليس بنصّ في الآية لكنه ظاهر ، فإن حمل على مقتضى نفاقهم واعتقادهم أن ذلك ليس من عند الله فوجه بيّن ، وإن قيل : إنهم يعتقدون نزول ذلك من عند الله وهم ينافقون مع ذلك فهذا كفر عناد . وقال الزجاج وبعضُ من

(١) أجاز الخليل وسيبويه كسر همزة (فَإِنَّ) ، قال سيبويه : وهو جيّد ، وأنشد لابن مقبـــل :

وعلْمي بأسدام المياه فلم تَـــزَلْ   قلائِصُ تَخْدي في طريقٍ طلائِـحُ
وأنِّي إذا مَلّت ركابي مُنَاخَهَـــا   فإنّي عَلى حَظِّي من الأمر جامِـحُ

والأسدام : المياه المتغيرة لقلة الوارد ، وتخدي : تُسرع ، والطلائح: المعيية لطول السفر ، والجامح : الماضي على وجهه ، ومعنى « ملّت ركابي مُنَاخَهَا » : توالى سفرها وإناختها فيه وارتحالها ، يقول : لا يكسرني طول السفر ولكني أمضي قدماً لما أرجوه من الحظ في أمري .

ذهب إلى التحرز من هذا الاحتمال : معنى [يَحْذَرُ] : الأمر وإن كان لفظه لفظ الخبر ، كأنه يقول : لِيَحْذَر .

وقرأ أبو عمرو وجماعة معه : [أَنْ تَنْزِل] ساكنة النون خفيفة الزاي ، وقرأ بفتح النون مشددة الزاي الحسنُ ، والأعرج ، وعاصم ، والأعمش ، وعيسى . و [أَنْ] من قوله : [أَنْ تُنَزَّل] مذهب سيبويه أن [يَحْذَر] عامل فيها فهي مفعولة ، وقال غيره : (حَذِر) إنما هي من هيئات النفس التي لا تتعدى ، مثل (فَزِع) ، وإنما التقدير : «يحذر المنافقون من أن تنزل عليهم سورة» (١) .

وقوله تعالى [اَسْتَهْزِئُوا] لفظه الأمر ومعناه التهديد ، ثم ابتدأ الإخبار عن أنه يخرج لهم إلى حيّز الوجود ما يحذرونه ، وفعل ذلك تبارك وتعالى في سورة براءة فهي تسمى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين. وقال الطبري : كان المنافقون إذا عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا شيئاً من أمره قالوا : «لعلَّ الله لا يفشي سِرّنا» ، فنزلت الآية في ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يقتضي كفر العناد الذي قلناه .

وقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم﴾ الآية . نزلت ـ على ما ذكر جماعة من المفسرين ـ في وديعة بن ثابت ، وذلك أنه مع قوم من المنافقين كانوا يسيرون في غزوة تبوك ، فقال بعضهم لبعض : هذا يريد أن

(١) هذا رأي المبرد ، وكثير من العلماء لا يرون ذلك ، ويقولون : إن (خاف) من هيئة النفس ومع ذلك تتعدى ، ومثلها (خشي) . راجع «البحر» و «حاشية الجمل» .

يفتح قصور الشام ويأْخذ حصون بني الأَصفر ، هيهات هيهات . فوقَفَهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال لهم : قلْتم كذا وكذا ، فقالوا : «إنما كنا نخوض ونلعب» ، يريدون : كنا غير مُجدّين. وذكر ابن إسحق أَن قوماً منهم تقدموا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : كأَنكم والله غداً في الحبال أَسرى لبني الأَصفر ، إلى نحو هذا من القول ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أَدرك القوم فقد احترقوا ، وأَخبرهم بما قالوا) ، ونزلت الآية [1] . وروي أَن وديعة ابن ثابت المذكور قال في جماعة من المنافقين : ما رأَيت كقرائنا هؤلاءِ، لا أَرغب بطوناً ولا أَكثر كذباً ولا أَجبن عند اللقاءِ ، فعنَّفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه المقالة فقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب ، ثم أَمره بتقريرهم : ﴿أَبِاللهِ وآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [2] ، وفي ضمن هذا التقرير وعيد ، وذكر الطبري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَنه قال: رأَيت قائل هذه المقالة وديعةَ متعلقاً بِحَقَب [3] ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يماشيها تنكبه وهو يقول : «إنما كنا نخوض ونلعب» ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ

(١) الحديث مروي من عدة طرق ، والألفاظ تختلف باختلاف الرواة . فقد أخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة . وهذه الرواية هي التي ذكرها ابن عطية أولا ، ثم ذكر رواية ابن إسحق ، ومعنى قوله (احترقُوا) : هلكوا . (الدر المنثور ، وفتح القدير ، والسيرة النبوية لابن هشام) ، وليس في الرواية نصٌّ على من خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . (الدر المنثور ، وفتح القدير) .

(٣) الحَقَب (بوزن سَبَب) : حبل يشد على بطن البعير سوى الحزام الذي يشد فيه الرحْل . والرواية في (فتح القدير) : «قال عبد الله : فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحجارة تنكبه» .

وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[١] ؟ وذكر النقاش أن هذا المتعلق كان عبد الله بن أُبي بن سلول ، وذلك خطأٌ لأنه لم يشهد تبوك .

وقوله تعالى : [لَا تَعْتَذِرُوا] الآية . المعنى : قل لهم يا محمد : «لا تعتذروا» على جهة التوبيخ ، كأنه قال : لا تفعلوا مالا ينفع ، ثم حكم عليهم بالكفر فقال : قل لهم : ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بعْدَ إيمَانِكُمْ﴾ الذي زعمتموه ونطقتم به . وقوله : ﴿عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ يريد — فيما ذكر المفسرون — رجلاً واحداً ، قيل اسمه مخشّن بن حُمَيِّر ، قاله ابن إسحق ، وقال ابن هشام ، ومقاتل : مخشيّ ، وقال خليفة ابن خياط في تاريخه : مُخاشن بن حُمَيّر ، وذكر ابن عبد البر : مُخاشن الحميريّ ، وذكر جميعهم أنه استشهد باليمامة ، وكان قد تاب وتسمّى عبد الرحمن ، فدعا الله أن يستشهد ويجهل أمره فكان ذلك باليمامة ، ولم يوجد جسده ، وذكر أيضاً ابنُ عبد البرّ : مخشّى بن حُمَيْر بضم الحاء وفتح الميم وسكون الياء ، ولم يتقن القصة . وكان مخشّى مع المنافقين الذين قالوا : «إنما كنا نخوض و نلعب» ؛ فقيل : كان منافقاً ثم تاب توبة صحيحة ، وقيل : كان مسلماً مخلصاً إلا أنه سمع كلام المنافقين فضحك لهم ولم ينكر عليهم فعفا الله عنه في كلا الوجهين ، ثم أوجب العذاب لباقي المنافقين الذين قالوا ما تقدم .

وقرأ جميع السبعة سوى عاصم : ﴿إنْ يُعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ﴾ بالياء ﴿تُعذَّبْ﴾ بالتاء[٢] ، وقرأ الجحدري : [إنْ يَعْفُ] بالياء المفتوحة

---

(١) هذا نص رواية ابن جرير للحديث السابق تخريجه في الهامش رقم (٢) في الصفحة السابقة . وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا — ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره .

(٢) قال أبو حيان في «البحر» : «ولقيني شيخنا الأديب أبو الحكم مالك بن المرحل =

على تقدير : إن يعْف الله ، [يُعَذِّب] الله ، [طَائِفَةً] بالنصب . وقرأ عاصم ، وزيد بن ثابت ، وأبو عبد الرحمن : [إنْ نَعْفُ] بالنون [نُعَذِّب] بنون الجميع أيضاً ، وقرأ مجاهد : [إنْ تُعْفَ] بالتاءِ المضمومة على تقدير : إن تُعْف هذه الذنوب [تُعَذَّب] بالتاءِ أيضاً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

هذا ابتداءُ إخبار عنهم وحُكْمٌ من الله تعالى بما تضمنته الآية . فقوله سبحانه : ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ يريد : في الحكم والمنزلة من الكفر ، وهذا نحو قولهم : «الأُذنان من الرأس» يريدون : في حكم المسح ،

= المالقي بغرناطة فسألني : قراءة من تقرأ اليوم على الشيخ أبي جعفر الطباع ؟ فقلت قراءة عاصم ، فقال :

لعاصم قراءةٌ لِغَيْرِها مخالفة إن نَعْفُ عن طائفة منكم نعذب طائفة

وإلا فمعلوم أنهما من الرأس ، ولما تقدم من قبل : ﴿وَمَاهُمْ مِنْكُمْ﴾[١] حَسُن هذا الإخبار.

وقوله : ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ يريد : بالكفر وعبادة غير الله ، وسائر ذلك من الآية لأن المنافقين الذين نزلت هذه الآيات فيهم لم يكونوا أهل قدرة ولا أفعال ظاهرة وذلك بسبب ظهور الإسلام وكلمة الله عزَّ وجلَّ . والقَبْضُ هو عن الصدقة وفعل الخير ، وقوله تعالى : ﴿نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي : تركوه حين تركوا نبيَّه وشِرْعته فتركهم حين لم يهدهم ولا كفاهم عذاب النار ، وإنما يُعبّر بالنسيان عن الترك مبالغة إذْ أبلغ وجوه التَّرك الوجه الذي يقترن به نسيان ، وعلى هذا يجيءُ ﴿وَلَا تَنْسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[٢] ، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيا﴾[٣] ، ثم حكم عليهم عزَّ وجلَّ بالفسق وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار . وكان قتادة يقول : [فَنَسِيَهُمْ] أي : من الخير ولم ينسهم من الشَّر .

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ الآية . لما قيّد الوعد بالتصريح بالشَّر صحَّ ذلك وحَسُن وإن كانت آية وعيد محْضٍ ، والكفار في هذه الآية : المُعْلِنون ، وقوله ﴿هِيَ حَسْبُهُم﴾ أي كافيتهم وكافية جُرمهم وكفرهم نكالا وجزاءً ، فلو تمنى أحد لهم عذاباً لكان ذلك

(١) تقدم ذلك في الآية (٥٦) من هذه السورة في جملة الحديث عن المنافقين .
(٢) من الآية (٢٣٧) من سورة (البقرة) .
(٣) من الآية (٧٧) من سورة (القصص) .

عنده حسْباً لهم . ﴿ولَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ معناه : أَبعدهم عن رحمته ، و ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ معناه : مؤبد لا نقلة له .

وقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية . أَمر الله نبيه أَن يخاطب بها المنافقين فيقول لهم : كالذين من قَبْلكم ، والمعنى : أَنتم كالذين ، أَو مثلكم مثل الذين من قبْلكم ، وقال الزجاج : المعنى : وعداً كما وعد الذين من قبلكم ، فهو متعلق بـ [وَعَدَ] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا قلق ، ثم قال : كانوا أَشد منكم وأَعظم فعصوا فأُهلكوا ، فأَنتم أَحرى بالإِهلاك لمعصيتكم وضعفكم .

والخَلَاق : الحظ من القدر والدين وجميع حال المرءِ ، وخلاقُ المرءِ : الشيءُ الذي هو به خليق ، والمعنى : عجلوا حظهم في دنياهم وتركوا باب الآخرة فاتبعتموهم أَنتم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَورد الطبري في تفسير هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم : (لتتبعن سَنَن من قبلكم شبْراً بِشِبْر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)[1] ، وما شاكل هذا الحديث مما يقتضي اتباع أُمة محمد صلى الله عليه وسلم لسائر الأُمم ، وهو معنى لا يليق بالآية

(١) أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري ، وفي تفسير ابن كثير أن ابن جُرَيج أخرجه عن أبي هريرة — وتمامه : (قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب ؟ قال : فمن ؟) . وهكذا رواه أبو معشر عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره .

جدا ، إذ هي مخاطبة لمنافقين كفار أعمالهم حابطة ، والحديث مخاطبة لموحّدين يتبعون سنن من مضى في أفعال دنياوية لا تخرج عن الدين .

وقوله تعالى : ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي : خلطتم كالذي خلطوا ، وهو مستعار من الخوض في المائعات ، ولا يستعمل إلا في الباطل لأن التصرف في الحقائق إنما هو على ترتيب ونظام ، وأُمورُ الباطل إنما هي خوض ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (ربَّ متخوّض في مال الله له النار يوم القيامة) (١) .

ثم قال تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُم فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ فيحتمل أن يراد بـ [أُولَـٰئِكَ] القوم الذين وصفهم بالشدة وكثرة الأَموال والاستمتاع بالخلاق ، والمعنى : وأنتم أَيضاً يعتريكم بإعراضكم عن الحق ، ويحتمل أن يريد بـ [أُولَـٰئِكَ] المنافقين المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويكون الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك خروج من خطاب إلى خطاب غير الأَول . وحبِطَ العمل وما جرى مجراه يَحْبط حَبَطاً إذا بطل بعد التعب ، وحبط البطن حَبَطاً بفتح الباءِ ، وهو داءٌ في البطن ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّ مما يُنْبِت الربيع ما يقتل حبَطاً أَو يُلِمّ) (٢) . وقوله : في ﴿ٱلدُّنْيا﴾ معناه ـ إذا كان في المنافقين ـ: ما يُصيبهم في الدنيا من مقت

---

(١) أخرجه البخاري في باب ﴿فَإِنَّ للهِ خُمُسَه وللرَّسُول﴾ ، ولفظه فيه : (إن رجالا يتَخَوَّضُونَ في مال الله بغير حق ، فلهم النار يوم القيامة) .

(٢) سبق الاستشهاد به عند تفسير الآية (١٧) من هذه السورة وهي قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ .

المؤمنين وفساد أعمالهم وفي الآخرة بألا تنفع ولا يقع عليها جزاءٌ ، ويُقَوّي أن الإشارة بـ [أُولَئِكَ] إلى المنافقين قوله تعالى في الآية المستقبلة : ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ فتأمله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

يقول عزَّ وجلَّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم : ألم يأْتِ هؤلاء المنافقين خبرُ الأُمم السابقة التي عصت الله بتكذيب رسله فأهلكها ؟ وعاد وثمود قبيلتان . وقوم إبراهيم : نمرود وأصحابه وتباع دولته . وأصحاب مدين : قوم شعيب ، والمؤتفكات : أهل القرى الأربعة ، وقيل : السبعة الذين بُعث إليهم لوط صلى الله عليه وسلم ، ومعنى المؤتفكات : المنصرفات والمنقلبات . أفكت فائتفكت لأنه جعل أعاليها أسافلها ،

وقد جاءت في القرآن الكريم مفردة تدل على الجمع ، ومن هذه اللفظة قول عمران بن حطان :

بِمَنْطِقٍ مُسْتَبِينٍ غَيْرِ مُلْتَبِسٍ بِهِ اللِّسَانُ وأَنِّي غيْرُ مُؤْتَفِك

أي : غير منقلب منصرف مضطرب ، ومنه يقال للريح : مؤتفكة لِتَصَرُّفِهَا ، ومنه : ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [(١)]، والإِفْك : صرف القول من الحق إلى الكذب . والضمير في قوله : ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ عائد على هذه الأُمم المذكورة ، وقيل : على المؤتفكات خاصة ، وجعل لهم رسلاً وإنما كان نبيُّهم واحداً لأَنه كان يرسل إلى كل قرية رسولًا داعياً ، فهم رسل رسول الله ، ذكره الطبري ، والتأْويل الأَول في عود الضمير على جميع الأُمم أَبْيَن . وقوله : [بِالْبَيِّنَاتِ] يريد : بالمعجزات ، وهي بيِّنة في نفسها بالإِضافة إلى الحق لا بالإِضافة إلى المكذبين بها .

ولما فرغ من ذكر المنافقين بالأَشياءِ التي ينبغي أَن تصرف عن النفاق وتنهي عنه عقَّب ذلك بذكر المؤمنين بالأَشياءِ التي تُرغِّب في الإِيمان وتُنَشِّط إليه تلطُّفاً منه تبارك وتعالى بعباده لا ربّ غيره ، وذكرت هنا الولاية إذْ لا ولاية بين المنافقين ، ولا شفاعة لهم ، ولا يدعو بعضهم لبعض، وكأَن المراد هنا الولاية في الله خاصة . وقوله : [بِالْمَعْرُوفِ] يريد : بعبادة الله وتوحيده وكل ما اتبع ذلك ، وقوله : [عَنِ ٱلْمُنْكَرِ] يريد عبادة الأَوثان وكل ما اتبع ذلك . وذكر الطبري عن أَبي العالية

(١) من قوله تعالى في الآية (٤) من سورة (المنافقون) : ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ .

أنه قال : كل ما ذكر الله في القرآن من الأَمر بالمعروف فهو دعاءٌ من الشِّرك إلى الإسلام ، وكل ما ذكر من النهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الأَوثان والشياطين . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ﴾ هي الصلوات الخمس .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وبحسب هذا تكون الزكاة المفروضة ، والمدح عندي بالنوافل أَبلغ ، إذْ من يُقيم النوافل أَحرى بإقامة الفرض . وقوله : ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ جامع للمندوبات ، والسين في قوله : ﴿سَيَرْحَمُهُمُ﴾ مدخل في الوعد مهلة لتكون النفوس تنعم برجائه . وفضله تعالى زعيم بالإنجاز .

وقوله تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية . وعْدُه في هذه الآية صريح نص في الخير ، وقوله : ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إما من تحت أَشجارها ، وإما من تحت عِلِّيّاتها ، وإما من تحت مجالسها بالإضافة إلى هذا ، كما تقول في دارين متجاورتين ومتساويتي المكان : هذه تحت هذه . وذكر الطبري في قوله تعالى : ﴿ومساكِنَ طَيِّبَةً﴾ عن الحسن أَنه قال : سأَلت عنها عمران بن الحصين وأَبا هريرة فقالا : على الخبير سَقَطْتَ ، سأَلنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (قَصْر في الجنة من اللؤلؤ ، فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء ، في كل دارٍ سبعون بيتاً من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً)[1] ، ونحو هذا مما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن الحسن . وتتمة الحديث التي تركها ابن عطية وكأنه يشك في نسبتها إلى الصادق الأمين ، (على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، =

يشبه هذه الألفاظ أو يقرب منها فاختصرتها طلباً للإيجاز . وأما قوله : ﴿في جنَّاتِ عدْنٍ﴾ فمعناه : في جنات إقامةٍ وثبوت ، يقال : عَدَنَ الشيءُ في المكان إذا أَقام به وثبت ، ومنه المعدن ، أَي موضع ثبوت الشيء ، ومنه قول الأَعشى :

وَإِنْ يَسْتَضِيفُوا إلى حِلْمِهِ يُضافوا إلى راجحٍ قدْ عَدَنْ(١)

هذا الكلام اللغوي . وقال كعب الأَحبار : جنات عدن هي بالفارسية : جنات الكروم والأَعناب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَظن هذا وهماً اختلط بالفردوس . وقال الضحاك : جنات عدن هي : مدينة الجنة وعُظْمها ، فيها الأَنبياءُ والعلماءُ والشهداءُ وأَئمة العدل والناس حولهم بعد والجنات حولها ، وقال ابن مسعود : عدن هي

= على كل فراش امرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، في كل مائدة سبعون لوناً من كل طعام ، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة ، فيُعطى المؤمن من القوة في كل غداة ما يأتي على ذلك كله . — (عن الدر المنثور ، وفتح القدير) . وقد علَّق أبو حيان على هذه التتمة بقوله : «وقد ذكر في آخر هذا الحديث أشياء ، وإن صح النقل عن الرسول وجب المصير إليه» .

(١) رواه الطبري بالتاء في الكلمتين (تستضيفوا — تضافوا) ، وبلفظ (حُكْمه) بدلا من (حِلْمِه) . والبيت من نُونيَّة الأعشى قيس أبي بصير ، وروايته في الديوان تختلف عن هذه الرواية ولفظها :

وإنْ يُسْتَضافوا إلى حُكْمِـــه يُضَافُوا إلى هـــادنٍ قَدْ رَزَنْ

ويستضيفوا : يَلْجئوا ، والراجح : الهادئ الساكن ، وعَدَنَ بالمكان يَعْدِنُ : أقام فيه وثبت ، والهادِنُ في رواية الديوان : الساكن وهو بمعنى الراجح ، ورزن : ثبت واستقر ، والقصيدة في مدح قيس بن معد يكرب الكِنْدي ، وهي ثلاثة وثمانون بيتاً .

بُطْنان الجنة وسرّتها [١] ، وقال عطاءٌ : عدن : نهرٌ في الجنة جناته على حافته ، وقال الحسن : عدن : قصر في الجنة لا يدخله إلا نبي أَو صِدِّيق أَو شهيد أَو حكم عدل ، ومدّ بها صوته .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والآية تأْبى هذا التخصيص إذ قد وعد الله بها جميع المؤمنين .

وأَما قوله : ﴿ورِضْوانٌ مِن ٱللهِ أَكْبر﴾ فروي فيه أَن الله عزَّ وجلَّ يقول لعباده إذا استقروا في الجنة : (هل رضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى يا ربنا ؟ فيقول : إني سأُعطيكم أَفضل من هذا كله ، رضواني ، أَرضى عليكم فلا أَسخط عليكم أَبداً) . الحديث [٢] . وقوله : [أَكْبَر] يريد : أَكبر من كل ما تقدم ، ومعنى الآية والحديث متفق . وقال الحسن بن أَبي الحسن : وصل إلى قلوبهم برضوان الله من اللذة والسرور ما هو أَلَذُّ عندهم وأَقَرّ لأَعينهم من كل شيءٍ أَصابوه من لذة الجنة.

---

(١) بُطْنان الجنة (بضم الباء) : وَسَطُهَا ، وفي الحديث : (ينادي منادٍ من بُطْنانِ العرش) أي من وسطه ، وقيل : من أصله ، (عن اللسان) .

(٢) أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد . ولفظه الذي نقله في (الدر المنثور) : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله يقول لأهل الجنة ، يأهل الجنة ، فيقولون : لبيك يا ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أُعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : يا رب وأي شيءٍ أفضل من ذلك ؟ قال : أُحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويظهر أن قوله تعالى : ﴿ورِضْوانٌ مِن ٱللهِ أَكْبر﴾ إشارة إلى منازل المقربين الشاربين من تَسْنيم[1] الذين يرون كما يرى النجم الغائر في الأُفق ، وجميع من في الجنة راض والمنازل مختلفة ، وفضل الله تبارك وتعالى متسع . والفوز : النجاة والخلاص ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[2] ، والمقربون هم في الفوز العظيم ، والعبارة عندي عن حالهم بسرور وكمال أجود من العبارة عنها بلذة ، واللّذة أيضاً مستعملة في هذا .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

قوله : [جاهِدْ] مأْخوذ من بلوغ الجهد ، وهي مقصود بها المكافحة والمخالفة ، وتتنوع بحسب المجاهد ، فجهاد الكافر المُعْلِن بالسيف ،

(١) التَّسْنيم : قالوا : هو ماءٌ في الجنة ، وسمّي بذلك لأنه يجري فوق الغرف والقصور .

(٢) من الآية (١٨٥) من سورة (آل عمران) .

وجهاد المنافق المتستِّر باللسان والتعنيف والاكفهرار في وجهه ونحو ذلك . ألا ترى أن من ألفاظ الشرع قوله صلى الله عليه وسلم : (والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله) [(١)] ، فجهاد النفس إنما هو مصابرتها باتباع الحق وترك الشهوات ، فهذا الذي يليق بمعنى هذه الآية ، لكنا نجلب أقوال المفسرين نصًّا لتكون معرضة للنظر ، قال الزجاج (وهو متعلق في ذلك بألفاظ ابن مسعود) : أُمر في هذه الآية بجهاد الكفار والمنافقين بالسيف ، وأُبيح له فيها قتل المنافقين ، قال ابن مسعود : إنْ قدر وإلَّا فباللسان ، وإلا فبالقلب والاكفهرار في الوجه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقتل لا يكون إلا مع التَّجْليح[(٢)]، ومن جلَّح خرج عن رتبة النفاق . وقال ابن عباس : المعنى : جاهد المنافقين باللسان ، وقال الحسن ابن أبي الحسن : المعنى : جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، قال : وأكثر ما كانت الحدود يومئذ تصيب المنافقين .

---

(١) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه عن فضالة بن عبيد ، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة . (الجامع الصغير) . وفي مسند الإمام أحمد (٦ـ٢٠ ، ٢٢) أن عمرو بن مالك الجنبي أخبر أنه سمع فضالة بن عبيد يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من مات على مرتبة من هذه المراتب بعث عليها يوم القيامة) ، وبهذا الإسناد عن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر) ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (المجاهد من جاهد نفسه لله ، أو قال : في الله عزَّ وجلَّ) .

(٢) التَّجليح : المكاشفة والمجاهرة بالعداوة ، والمجالح : المكابر . (اللسان) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ووجه ترك النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين بالمدينة أنهم لم يكونوا مُجلِّحين ، بل كان كل مغموص عليه إذا وقف ادعى الإسلام ، فكان في تركهم إبقاءٌ وحيطة للإسلام ، ومخافة أن تنفر العرب إذا سمعت أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقتل من يظهر الإسلام ، وقد أوعبت هذا المعنى في صدر سورة البقرة ، ومذهب الطبري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرفهم ويسترهم .

وأما قوله تعالى : ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فلفظة عامة تتصرف في الأفعال والأقوال واللحظات ، ومنه قوله تعالى : ﴿ولَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ (١) ، ومنه قول النسوة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنت أفظُّ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ؛ ومعنى الغِلَظ : خشونة الجانب ، فهي ضدُّ قوله تعالى : ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) ،

(١) من الآية (١٥٩) من سورة (آل عمران) .

(٢) روى البخاري ومسلم هذا الحديث في باب «مناقب عمر رضي الله عنه» قالا : «استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عاليةً أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (عجبت من هؤلاء اللاتي كنّ عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب) ، فقال عمر رضي الله عنه : أنت أحق أن يَهَبْنَ يا رسول الله ، ثم قال عمر : يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تَهَبْنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقلن : نعم ! أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إيها يابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك) .

(٣) الآية (٢١٥) من سورة (الشعراء) . وهي أيضاً ضد : ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ .

ثم خيرت الآية المؤمنين عليهم في عقب الأمر بإخباره أنهم في جهنم[١]، والمعنى : هم أهل لجميع ما أُمرت أن تفعل بهم . والمأْوى : حيث يأْوي الإنسان ويستقر .

وقوله تعالى : ﴿يحْلِفُونَ بِاللهِ مَاقَالُوا﴾ الآية . هذه الآية نزلت في الْجُلَاس بن سويد بن الصامت ، وذلك لأَنه كان يأْتي من قباء ومعه ابن امرأته عُمَيْر بن سعد – فيما قال ابن إسحق – وقال عُرْوَة : اسمُه مصعب ، وقال غيره : وهما على حماريْن ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمّى قوماً ممن اتَّهمهم بالنفاق وقال : (إنهم رجس) ، فقال الجُلَاسُ لِلَّذي كان يسير معه : والله ما هؤلاءِ الذين سمّى محمد إلا كبراؤُنا وسادتنا ، ولئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شرٌّ من حُمُرِنا هذه ، فقال له ربيبه أَو الرجل الآخر : والله إنه لحق ، وإنك لشَرٌّ من حمارك ، ثم خشي الرجل أَن يلحقه في دينه درك فخرج وأَخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصة ، فأَرسل النبي عليه الصلاة والسلام في أَثر الجُلاس فقرَّره فحلف بالله ما قال ، فنزلت هذه الآية[٢].

---

(١) في العبارة شيءٌ من القلق وقد يستقيم بقوله : « والمعنى : هم أهل لجميع ما أُمرت أن تفعل بهم » ، وذلك أنه أمر بالجهاد وأمر بالغلظة . فقال ابن عباس رضي الله عنهما : « أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم » ، وقال الضحاك : « جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهرتهم » . وهذا يوضح ما ذكره ابن عطية من التخيير بين الجهاد بالسيف والغلظة بالكلام فهم أهل لجميع ذلك .

(٢) أخرجه ابن إسحق ، وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك ، وأخرج مثله ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عروة .

والإشارة بكلمة الكفر إلى قوله : «إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحُمُر» لأن التكذيب في قوة هذا الكلام . قال مجاهد : وكان الجُلاس لما قال له صاحبه : «إني سأُخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولك هذا» همَّ بقتله ثم لم يفعل عجزاً عن ذلك ، فإلى هذا هي الإشارة بقوله : ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ . وقال قتادة بن دعامة : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبي بن سلول ، وذلك أن سنان بن وبرة الأَنصاري والجهجاه الغِفَاري كسع أحدهما رجل الآخر في غزوة المريسيع ، فتثاورا ، فصاح جهجاه بالأَنصار وصاح سنان بالمهاجرين فثار الناس فهدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأَمر ، فقال عبد الله ابن أُبي بن سلول : ما أَرى هؤلاء إلا قد تداعوا علينا ، ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأُول : سمِّن كَلْبكَ يأْكلك ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأَعزُّ منها الأَذل ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفه فحلف أَنه لم يقل ذلك ، فنزلت الآية مكذبة له(١) ، والإشارة بكلمة الكفر إلى تمثيله : سَمِّنْ كلبك يأْكلك ، قال قتادة : والإشارة بـ [همُّوا] إلى قوله : «لئن رجعنا إلى المدينة» . وقال الحسن : همّ المنافقون من إظهار الشرك ومكابرة النبي صلى الله عليه وسلم بما لم ينالوا ، وقال تبارك وتعالى : ﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ولم يقل : «بعد إيمانهم» لأَن ذلك لم يتجاوز أَلسنتهم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ معناه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنفذ لعبد الله بن أُبي بن سلول دية كانت

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه . (الدر المنثور — وفتح القدير) .

قد تعطلت له ، ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر ألفاً ، وقيل : بل كانت للجُلَاس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بحسب الخلاف المتقدم فيمن نزلت الآية من أولها ، وتقدم اختلاف القراء في [نَقَمُوا] في سورة الأعراف ، وقرأها أبو حيْوَة وابن أبي عبلة بكسر القاف ، وهي لغة ، وقوله : ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ من غير الأول ، كما قال النابغة :

وَلَا عيْبَ فيهمْ غيْر أَنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَائِبِ (١)

فكأن الكلام : وما نقموا إلا ما حقه أن يشكر .

وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ وهمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ : إنها نزلت في قوم من قريش أرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا لا يناسب الآية . وقالت فرقة : إن الجُلاس هو الذي همَّ بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يشبه الآية إلا أنه غير قوي السَّند ، وحكى الزجاج أن اثني عشر من المنافقين همّوا بذلك فأطلع الله عليهم ، وذِكْرُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في إغنائهم من حيث كثُرت أموالهم من الغنائم ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم سبب في ذلك ، وعلى هذا الحدّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الفُلول جمع فلّ وهو الثَّلْم في السيف . والقراع والمقارعة : المضاربة بالسيوف في الحرب . وهذا البيت من تأكيد المدح بما يشبه الذّم ، والمعنى في الآية الكريمة : «وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء» ، ومن نفس الباب قول الشاعر :

ما نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إلا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إنْ غَضِبوا

للأنصار : (كُنتم عالة فأغناكم الله بي)(١) . ثم فتح عزَّ وجلَّ لهم باب التوبة رفقاً بهم ولطفاً في قوله : ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾ ، وروي أن الجُلاس تاب من النفاق فقال : «إن الله قد ترك لي باب التوبة» ، فاعترف وأخلص وحسنت توبته . والعذاب الأليم اللاحق بهم في الدنيا هو المقت والخوف والهجنة عند المؤمنين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

هذه الآية نزلت في ثعلبة بن خاطب الأنصاري ، وقال الحسن : وفي معتب بن قشير معه ، واختصار ما ذكره الطبري وغيره من أمره

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، وفي البخاري (كتاب المغازي) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لمّا أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً ، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال : (يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي ؟ وعالةً فأغناكم الله بي ؟) كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أَمَنّ ، قال : ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : (لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا . ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وشِعْباً لسلكت وادي الأنصار وشِعْبها ، الأنصار شعار والناس دثار ، إنكم ستلقون بعدي أَثَرَةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض) .

أنه جاءَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ادع الله أَن يجعل لي مالًا فإنني لو كنت ذا مال لقضيت حقوقه وفعلت فيه الخير ، فراده رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : (قليلٌ تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه) ، فعاود فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (ألا تريد أَن تكون مثل رسول الله ، لو دعوت أَن تسير الجبال معي ذهباً لسارت؟) ، فأَعاد عليه حتى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فتنحى عنها ، وكثرت غنمه فكان لا يصلي إلا الجمعة ، ثم كثرت حتى تنحى بعيداً ونجم نفاقه ، ونزل خلال ذلك فرض الزكاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث مصدقين بكتابه في أَخذ زكاة الغنم ، فلما بلغوا ثعلبة وقرأَ الكتاب قال : هذه أُخت الجزية ، ثم قال لهم : دعوني حتى أَرى رأْيي ، فلما أَتوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأَخبروه قال : (ويْح ثعلبة) ثلاثاً ، ونزلت الآية فيه ، وحضر القصة قريب لثعلبة فخرج إليه فقال : أَدرك أَمرك فقد نزل فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أَتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرغب أن يؤدي زكاته فأَعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : (إن الله أَمرني أَلا آخذ زكاتك) ، فبقي كذلك حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ورد ثعلبة على أَبي بكر ، ثم على عمر ، ثم على عثمان يرغب إلى كل واحد منهم أن يأْخذ منه الزكاة ، فكلهم

رد ذلك وأباه اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبقي ثعلبة كذلك حتى هلك في مدة عثمان .(١)

وفي قوله تعالى : [فَأَعْقَبَهُمْ] نص المعاقبة على الذنب بما هو أشد منه ، وقوله : ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ يقتضي موافاتهم على النفاق ؛ ولذلك لم يقبل الخلفاءُ رضي الله عنهم رجوع ثعلبة لشهادة القرآن عليه بالموافاة ، ولولا الاحتمال في أنه نفاق معصية لوجب قتله .

وقرأ الأعمش : [لَنَصَّـدَّقَنَّ] بالنون الثقيلة مثل الجماعة ، [ولَنَكُونَنْ] خفيفة النون .

والضمير الذي في قوله : [فَأَعْقَبهُم] يعود على الله عزَّ وجلَّ ، ويحتمل أن يعود على البخل المضمّن في الآية ، ويضعف ذلك الضمير في [يلْقَوْنه] ، وقوله : ﴿نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يحتمل أن يكون نفاق كفر ويكون تقرير ثعلبة بعد هذا النص والإبقاءُ عليه لمكان إظهاره الإسلام وتعلقه بما فيه احتمال ، ويحتمل أن يكون قوله : [نِفَاقاً] يريد به نفاق معصية وقلة استقامة فيكون تقريره صحيحاً ، ويكون ترك في أول الزكاة عقاباً له ونكالا ، وهذا نحو ما رُوي أن عاملًا كتب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنَّ فلاناً يمنع الزكاة ، فكتب إليه أنْ دعْهُ واجعل عقوبته ألا يؤدي الزكاة مع المسلمين ، يريد : لما يلحقه من المقت في ذلك .

(١) أخرجه الحسن بن سفيان ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والعسكري في الأمثال ، والطبراني ، وابن منده ، والباوردي ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، وابن عساكر عن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه . (الدر المنثور — وفتح القدير) .

وقرأَ الحسن ، والأَعرج ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، ونافع ، وسائرهم : [يكْذِبُونَ] خفيفة ، وقرأَ أَبو رجاءٍ : [يُكَذِّبُون] مشددة .

وذكر الطبري في هذه الآية ما يناسبها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاثٌ منْ كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، إذا وعد أَخلف ، وإذا حدّث كذب ، وإذا اؤْتمنَ خَان) (١) ، وفي حديث آخر : (وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) ونحو هذا من الأَحاديث . ويظهر من مذهب البخاري وغيره منأهل العلم أَن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة . ورُوي أَن عمرو بن العاص لما احتضر قال : «زوجوا فلاناً فإني قد وعدته ، لا أَلقى الله بثلث النفاق» ، وهذا ظاهر كلام الحسن بن أَبي الحسن ، وقال عطاء بن أَبي رباح : «قد فعل هذه الخلال إخوة يوسف ولم يكونوا منافقين ، بل كانوا أَنبياءَ» ، وهذه الأَحاديث إنما هي في المنافقين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، الذين شهد الله عليهم ، وهذه الخصال في سائر الأُمة معاصٍ لا نفاق ، وذكر الطبري أَن الحسن رجع إلى هذا .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . وفي آخره : «وتلا هذه الآية ﴿وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى آخر الآية . وأخرج البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان) ، (الدر المنثور) و (تفسير ابن كثير) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا محالة أَنها كانت مع التوحيد والإِيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم معاصٍ ، ولكنها من قبيل النفاق اللغوي ، وذكر الطبري عن فرقة أَنها قالت : كان العهد الذي عاهد الله عليه هؤلاءِ المنافقون شيئاً نَوَوْهُ في أَنفسهم ولم يتكلموا به .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا فيه نظر [١] .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ الآية . لفظ تعلق به من قال في الآية المتقدمة : إن العهد كان من المنافقين بالنِّيَّة لا بالقول . وقرأَ الجمهور : [يَعْلَمُوا] بالياءِ من تحت ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن ، والحسن : [أَلَمْ تَعْلَموا] بالتاءِ من فوق ، وهذه الآية تناسب حالهم ، وذلك أَنها تضمنت إحاطة علم الله بهم وحضْره لهم ، وفيها توبيخهم على ما كانوا عليه من التحدث في نفوسهم من الاجتماع على ثلب الإِسلام ، وراحة بعضهم

---

(١) للعلماء في هذه القضية رأيان وهي قضية « العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرءُ ولا يفتقر إلى غيره فيه » ، قال بعضهم : يلزمه منه ما يلتزمه بقصده وإن لم يلفظ به ، قال ابن العربيّ : والدليل على صحة ما ذهبنا إليه ما رواه أشهب عن مالك وقد سُئل : إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه فقال : يلزمه ، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه . وقال الشافعي ، وأبو حنيفة : لا يلزم أحداً حكمٌ إلا بعد أن يلفظ به ، والحجة ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله تجاوز لأمتي عمَّا حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به) . ورواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . والعمل على هذا عند أهل العلم ، فإن الرجل إذا حدث نفسه بالطلاق لم يكن شيئاً حتى يتكلم به ، قال أبو عمر : « ومن اعتقد بقلبه الطلاق ولم ينطق به لسانه فليس بشيء ، وهذا هو الأشهر عن مالك » . راجع تفسير القرطبي .

مع بعض في جهة النبي صلى الله عليه وسلم وشرعه ، فهي تعم المنافقين أجمع . وقائل المقالة المذكورة ذهب إلى أنها تختص بالفرقة التي عاهدت .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ردّ على الضمائر في قوله : [يكذبُونَ] ، وقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ ، وقوله : ﴿سِرَّهُمْ ونَجْوَاهُمْ﴾ . و [يَلْمِزُونَ] معناه : ينالون بألسنتهم . وقرأ السبعة : [يَلْمِزُونَ] بكسر الميم ، وقرأ الحسن ، وأبو رجاءٍ ، ويعقوب ، وابن كثير – فيما رُوي عنه – [يلْمُزون] بضم الميم . و [ٱلْمُطَّوِّعينَ] لفظة عموم في كل متصدق ، والمراد به الخصوص فيمن تصدق بكثير ، دلَّ على ذلك قوله عطفاً على [المطَّوِّعينَ] : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يجِدُونَ﴾ ، ولو كان «الذين لا يجدون» قد دخلوا في «المطوّعين» لما ساغ عطف الشيءِ على نفسه ، وهذا قول أبي علي الفارسي في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[1] فإنه قال : المراد بالملائكة من عدا هذين ،

---

(١) من الآية (٩٨) من سورة (البقرة) .

وكذلك قال في قوله تعالى : ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[١] ، وفي هذا كله نظر ، لأن التكرار لقصد التشريف يسوّغ هذا مع تجوز العرب في كلامها . وأصل «المطّوّعين» المتَطَوّعين ، فأُبدلت التاءُ طاءً وأُدغم . وأما المتصدق بكثير الذي كان سبباً للآية فأكثر الروايات أنه عبد الرحمن بن عوف ، تصدق بأربعة آلاف وأمسك مثلها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أنفقت)[٢] . وقيل هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصدق بنصف ماله ، وقيل : عاصم بن عديّ ، تصدق بمائة وسْق ، وأما المتصدق بقليل فهو أبو عقيل حبْجَاب الأراشي ، تصدق بصاع من تمر وقال : يا رسول الله ، جررت البارحة بالحرير وأخذت صاعين تركت أحدهما لعيالي وأتيت بالآخر صدقة ، فقال المنافقون : الله غني عن صدقة هذا ، وقال بعضهم : إن الله غني عن صاع أبي عقيل[٣]. وقيل : إن الذي

(١) من الآية (٦٨) من سورة (الرحمن) .

(٢) أخرج البزار ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً ، فجاء عبد الرحمن فقال : يا رسول الله عندي أربعة آلاف ، ألْفان أقرضهما ربي ، وألْفان لعيالي ، فقال : بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت . وجاء رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، إني بتّ أجر الحرير فأصبت صاعين من تمر ، فصاعاً أقرضه ربي وصاعاً لعيالي ، فلمزه المنافقون ، قالوا : والله ما أعطى ابن عوف الذي أعطى إلا رياءً ، وقالوا : أو لم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ، فأنزل الله ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ المطَّوِّعِينَ﴾ الآية . وأخرج مثله البخاري ، ومسلم ، وابن المنذر ، وغيرهم عن ابن مسعود ، ولم يذكر فيه اسم المتصدق بكثير ، وذكر فيه أن المتصدق بقليل هو أبو عقيل ، وأنه تصدق بنصف صاع . (الدر المنثور) و (فتح القدير) .

(٣) أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبغوي في معجمه ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة عن أبي عقيل قال : بتّ أجر الحرير على ظهري =

لَمَزَ في القليل أَبو خيثمة . قاله كعب بن مالك صاحب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتصدق عبد الرحمن بن عوف بأَربعة آلاف ، وقيل : بأَربعمائة أُوقية من فضة ، وقيل : أَقل من هذا ، فقال المنافقون : ما هذا إلا رياءٌ فنزلت الآية في هذا كله .

وقوله تعالى : ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ معناه : يستهزئون ويستخِفُّون ، وهو معطوف على [يلْمِزُونَ] ، واعترض ذلك بأَن المعطوف على الصلة فهو من الصلة ، وقد دخل بين هذا المعطوف والمعطوف عليه قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يجِدُونَ﴾ ، وهذا لا يلزم ، لأَن قوله : [وَٱلَّذِينَ] معمول للذي عمل في [ٱلْمُطَّوِّعِينَ] فهو بمنزلة قوله : «جاءني الذي ضرب زيداً وعمراً فقتلهما» . وقوله : ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ تسمية العقوبة باسم الذنب ، وهي عبارة عما حلَّ بهم من المقت والذل في نفوسهم ، وقوله : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معناه : مؤلم ، وهي آية وعيد محض .

وقرأ جمهور الناس : [جُهْدهُمْ] بضم الجيم ، وقرأ الأَعرج وجماعة معه : [جَهْدهُمْ] بالفتح ، وقيل : هما بمعنى واحد ، قاله أبو عبيدة ، وقيل : هما لمعنيين ، الضمّ في المال والفتح في تعب الجسم ، ونحوه عن الشعبي [١] .

= على صاعين من تمر ، فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به ، وجئت بالآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتقرب به إلى ربي ، فأخبرته بالذي كان فقال : انثره في المسجد . فسخر القوم وقالوا : لقد كان الله غنياً عن صاع هذا المسكين ، فأنزل الله : ﴿الَّذينَ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآيتين . (الدر المنثور) .

(١) وقيل : الجَهد بالفتح : المشقة ، والجُهد بالضم : الطاقة .

وقوله : ﴿ٱلَّذِينَ يلْمِزُونَ﴾ يصح أَن يكون خبر ابتداءٍ تقديره : هم الذين ، ويصح أَن يكون ابتداءً وخبره [سخِرَ] ، وفي [سخِر] معنى الدعاءِ عليهم ، ويحتمل أَن يكون خبراً مجرداً عن الدعاءِ ، ويحتمل أَن يكون [ٱلَّذِينَ] صفة جارية على ما قبْلُ كما ذكرتُ أَول الترجمة .

وقوله تعالى : ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُم أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يحتمل معنيين ، أَحدهما أَن يكون لفظ أَمر ومعناه الشرط بمعنى : إن استغفرت أَو لم تستغفر لن يغفر الله لهم ، فيكون مثل قوله تعالى : ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾(١) ، وبمنزلة قول الشاعر :

أَسِيئِــي بنا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا ولَا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ(٢)

وإلى هذا المعنى ذهب الطبري وغيره في معنى الآية ، والمعنى الثاني الذي يحتمله اللفظ أَن يكون تخييراً ، كأَنه قال له : إن شِئْتَ فاستغفر ، وإن شئتَ لا تستغفر ، ثم أَعلمه أَنه لا يغفر لهم وإن استغفر سبعين مرة ، وهذا هو الصحيح لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبْيينه ذلك ، وذلك أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعه بعد نزول هذه الآية يستغفر لهم فقال : يا رسول الله ، أَتستغفر للمشركين وقد أَعلمك الله أَنه لا يغفر لهم ، فقال له (يا عمر إن الله قد خيرني فاخترت ،

(١) من الآية (٥٣) من سورة (التوبة) .
(٢) البيت لكُثَيِّر عزّة ، وفي بعض النسخ : « « لنا » بدلا من « بنا » ، ورواه في (اللسان) لا ملولةٌ باللام، ومَقْـلِيَّة: مكروهة ، وتقَلَّت : فعلت ما تستحق من أَجله الكره والبغض . قال في اللسان : الجوهريُّ : تَقَلّى أي تبغّض ، قال كثير : « أَسيئي بنا ... » البيت ، ثم قال : « خاطبها ثم غابت » . يعني انتقل من الخطاب إلى الغيبة .

ولو علمت أني إذا زدت على السبعين يغفر لهم لزدت) [١] ، ونحو هذا من مقاولة عمر في وقت إرادة النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة على عبد الله بن أُبي بن سلول ، وظاهر صلاته عليه أن كفره لم يكن يقيناً عنده ؛ ومحال أن يصلي على كافر ، ولكنه راعى ظواهره من الإقرار ، ووكل سريرته إلى الله عزَّ وجلَّ ، وعلى هذا كان ستر المنافقين من أَجل عدم التعيين بالكفر . وفي هذه الأَلفاظ التي لرسول الله صلى الله عليه وسلم رفض إلزام دليل الخطاب ، وذلك أن دليل الخطاب يقتضي أَن الزيادة على السبعين يُغفر معها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ولو علمتُ) فجعل ذلك مما لا يعْلَمه ومما ينبغي أن يُتَعلَّم ويطلب علمه من الله عزَّ وجل ، ففي هذا حجة عظيمة للقول برفض دليل الخطاب ، وإذا ترتب – كما قلنا – التخيير في هذه الآية صح أَن ذلك التخيير هو الذي نُسخ بقوله تعالى في سورة المنافقين : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ

---

(١) أخرج أحمد ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، والنحاس ، وابن حبان ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت عمر يقول : لما توفي عبد الله بن أبي دُعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف قلت : أعَلَى عدوّ الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا أُعَدّدُ أيامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم ، حتى إذا أكثرتُ قال : يا عمر أخّر عنّي ، إني قد خيرت ، قد قيل لي : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ ، فلو أعلم أني إن زدتُ على السبعين غُفِرَ له لزدتُ عليها ، ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبتُ لي وبجرْأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، والله ورسوله أعلم . فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِه﴾ ، فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعده حتى قبضه الله عزَّ وجلَّ (الدر المنثور) .

لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لن يغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾(١) ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القول بدليل الخطاب ، منها قوله : «إن المدرك للتشهد وحده لا تلزمه أحكام الإمام لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة)(٢) ، فاقتضى دليل الخطاب أن من لم يدرك ركعة فليس بمدرك ، وله مسائل تقتضي رفض دليل الخطاب ، منها قول النبي صلى الله عليه وسلم : (وفي سائمة الغنم الزكاة)(٣) ، فدليل الخطاب أن لا زكاة في غير السائمة ، ومالك يرى الزكاة في غير السائمة ، ومنها أن الله عزّ وجلّ يقول في الصيد : ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً﴾(٤) ، فقال مالك : حكم المخطئ والمتعمد سواءٌ ، ودليل الخطاب يقتضي غير هذا ، وأما تمثيله بالسبعين دون غيرها من الأعداد فلأنه عدد كثيراً ما يجيءُ غاية ومقنعاً في الكثرة ، ألا ترى إلى القوم الذين اختارهم موسى ، وإلى أصحاب العقبة . وقد قال بعض اللغويين : إن التصريف الذي يكون من السين والباء والعين فهو شديد الأمْر ، ومن ذلك السَّبعة فإنها عدد مقنع ، هي في السموات وفي الأرض وفي خلق الإنسان وفي رزقه وفي أعضائه التي بها يطيع الله وبها يعصيه ، وبها ترتيب أبواب جهنم فيما ذكر بعض الناس ، وهي(٥) : عيناه وأُذناه ولسانه وبطنه

---

(١) الآية رقم (٦) من سورة (المنافقون) .

(٢) أخرجه الشيخان ، وأصحاب السنن الأربعة — عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه مالك في « الموطأ » ، ولفظه فيه : (وفي سائمة الغنم إذا بلغت أربعين إلى عشرين ومائة — شاة) .

(٤) من الآية (٩٥) من سورة (المائدة) .

(٥) الضمير عائد على الأعضاء التي يطيع العبد بها ربّه ويعصيه .

وفرجه ويداه ورجلاه ، وفي سهام الميسر وفي الأَقاليم وغير ذلك ، ومن ذلك السَّبُعُ والعبوس والعنبس ونحو هذا من القول . (١)

وقوله : [ذَٰلِكَ] إشارة إلى امتناع الغفران ، وقوله : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَاسِقِينَ﴾ إما من حيث هم فاسقون ، وإما أَنه لفظ عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي على كفره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

هذه آية تتضمن وصف حالهم على جهة التوبيخ لهم وفي ضمنها وعيد ، وقوله : [ٱلۡمُخَلَّفُونَ] لفظ يقتضي تحقيرهم وأَنهم الذين

(١) قال الزمخشري في التعليل لتمثيل بالسبعين : « والسَّبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير ، قال عليّ رضي الله تعالى عنه :

لأصبّحن العاص وابنَ الْعـــاصي سبْعينَ أَلْفاً عــاقدي النَّـــواصي

وقال الأزهري : « السبعون هنا جمع السَّبعة المستعملة للكثرة لا السَّبعة التي فوق الستَّة » .

أَبعدهم الله من رضاه ، وهذا أَمكن في هذا من أن يقال : «المتخلفون» ، ولم يفرح إلا منافق ، فخرج من ذلك الثلاثة وأَصحاب العُذْر (١) ، ومَقْعَد : مصدر بمعنى القعود ، ومثله :

مَن كانَ مسْروراً بمقتل مالِكٍ . . . . (٢)

وقوله : [خِلافَ] معناه : بعْد ، وأَنشد أَبو عبيدة في ذلك :

عقَبَ الرَّبيعُ خِلافَهُمْ فَكَأَنَّما نَشَطَ الشَّوَاطِبُ بينَهُنَّ حَصيرَا (٣)

يريد : بعدهم ، ومنه قول الشاعر :

فَقُلْ لِلَّذي يَبْقَى خلافَ الَّذي مضَى تَأَهَّبْ لأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ (٤)

وقال الطبري : هو مصدر خَالَفَ يُخَالِفُ .

(١) يريد الثلاثة الذين قال الله فيهم في الآية (١١٨) من هذه السورة : ﴿وَعَلَى الثَّلاثَة الَّذينَ خُلِّفُوا﴾ ، وسيأتي الحديث عنهم .

(٢) هذا صدر بيت ، وهو بتمامه :

مَنْ كَانَ مَسْروراً بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلْيَأتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ

وقد سبق أن استشهد المؤلف بهذا البيت وبيت آخر بعده عند تفسير قوله تعالى في الآية (٧٢) من سورة (آل عمران) : ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمِنُوا بالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ .

(٣) البيت في (اللسان) ، وقد نسبه للحارث بن خالد المخزومي ، وذكر أن ابن بَرِّي أنشده للتدليل على أن [خِلافَ] في الآية بمعنى (بَعْد) . والشَّوَاطِبُ من النساء : اللواتي يشقُقْنَ الخوص ، ويَقْشُرْنَ العُسُب ليتَّخذْنَ منه الحُصْر ثم يُلقينها إلى المنَقِّيات ، والمنقِّية هي التي تأخذ كل شيء على العسيب بِسِكِّينها حتى تتركه رقيقاً صالحاً لعمل الحصْر منه .

(٤) هذا ثاني بيتين ، وأولهما :

تَمَنَّى أُنَاسٌ أنْ أمُوتَ وإنْ أمُتْ فَتِلْكَ طريقٌ لَسْتُ فيها بأوْحَدِ

وقد ذكره في اللسان غير منسوب ، والرواية فيها (تَهَيَّا) بدلا من (تَأَهَّبْ) ، وفي «البحر» (وكَأَنْ) بدلا من (فكأن) . ومثل هذا البيت والذي قبله قول مُزاحم العُقَيْلي :

وَقَدْ يفْرُطُ الجهْلُ الفَتَى ثُمَّ يَرْعَوي خِلافَ الصِّبَا لِلْجَاهِلينَ حُلُومُ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فعلى هذا هو مفعول له ، والمعنى : فرح المخلفون بمقعدهم لخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو مصدر ، ونصبه في القول الأول كأنه على الظرف . وكراهيتهم لما ذُكر هي شحٌّ إذ لا يؤمنون بالثواب في سبيل الله ، فهم يضِنُّون بالدنيا . وقولهم : ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ كان لأن غزوة تبوك كانت في وقت شدة الحر وطيب الثمار والظلال ، قاله ابن عباس ، وكعب بن مالك ، والناس ، فأُقيمت عليهم الحجة بأن قيل لهم : فإذا كنتم تجزعون من حرّ القيظ فنار جهنم التي هي أشدّ أحْرى أن تجزعوا منها لو فهمتم ، وقرأ ابن عباس ، وأبو حيوة : [خلْف] ، وذكرها يعقوب ولم ينسبها ، وقرئ : [خُلْفَ] بضم الخاء ، ويقوي قول الطبري «إن لفظة الخلاف هي مصدر من خالَفَ» ما تظاهرت به الروايات من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالنَّفْر فعصوا وخالفوا وقعدوا مستأْذنين ، وقال محمد بن كعب : قال : «لا تَنْفروا في الحرّ» رجلٌ من بني سلمة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رجل : يا رسول الله ، الحرّ شديد فلا تنفر في الحرّ . قال النقاش : وفي قراءة عبد الله : [يعلمون] بدل [يَفْقَهُونَ] .

وقال ابن عباس ، وأبو رزين ، والربيع بن خيثم ، وقتادة ، وابن زيد : قوله : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ إشارة إلى مُدّة العُمْر في الدنيا ، وقوله : ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ إشارة إلى تأْبيد الخلود في النار ، فجاء

بلفظ الأَمر ومعناه الخبر عن حالهم ، ويحتمل أَن يكون صفة حالهم ، أَي : هم لماهم عليه من الخطر مع الله وسوءِ الحال بحيث ينبغي أَن يكون ضحكهم قليلا وبكاؤُهم من أَجل ذلك كثيراً ، وهذا يقتضي أَن يكون وقت الضحك والبكاءِ في الدنيا على نحو قوله صلى الله عليه وسلم لأُمته : (لو تعلمون ما أَعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلا)(١) ، وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال هذا الكلام أَوحى الله إليه : «يا محمد لا تقنط عبادي».

وقوله : [جَزَاءً] متعلق بالمعنى الذي تقديره : وليبكوا كثيراً إذ هم مُعذَّبون جزاءً، وقوله : [يَكْسِبُونَ] نصّ في أَن التكسّب هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ الآية . (رجع) يستوي مُجاوزه وغير مجاوزه ، وقوله تعالى : [إنْ] مبينة أَن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم بمستقبلات أَمره من أَجل وسواه(٢) . وأَيضاً فيحتمل أَن يموتوا هم قبل رجوعه . وأَمْرُ الله عزَّ وجلَّ لنبيه صلى الله عليه وسلم بأَن يقول لهم : ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ﴾ هو عقوبة لهم ، وإظهارٌ لدناءَة منزلتهم وسوءِ حالهم . وهذا هو المقصود في قصة ثعلبة ابن حاطب التي تقدمت في الامتناع من أَخذ صدقته ، ولا خِزْي

---

(١) أخرجه البخاري ، والترمذي ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٢) جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً من الرُّسُلِ ومَا أدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ ، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ .

أَعظم من أَن يكون إِنسان قد رفضه الشرع وردّه كالجمل الأَجرب . وقوله : ﴿إِلَى طَائِفَةٍ﴾ يقتضي عندي أَن المراد رؤُوسهم والمتبوعون ، وعليها وقع التشديد بأَنها لا تخرج ولا تقاتل عدواً ، وكرر معنى قتال العدو لأَنه عُظم الجهاد وموضع بارقة السيوف التي تحتها الجنة ، ولولا تخصيص الطائفة لكان الكلام : « فإِن رجعك الله إِليهم » . ويشبه أَن تكون هذه الطائفة قد حُتم عليها بالموافاة على النفاق ، وعُيّنوا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإِلّا فكيف يترتب أَلا يصلي على موتاهم إِن لم يعينهم الله . وقوله : ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ نصّ في موافاتهم ، ومما يؤيد هذا ما روي أَن النبي صلى الله عليه وسلم عيّنهم لحذيفة بن اليمان ، وكانت الصحابة إِذا رأَوا حذيفة تأَخر عن الصلاة على جنازة رجل تأَخروا هم عنها . وروي عن حذيفة أَنه قال يوماً : بقي من المنافقين كذا وكذا ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أَنشدك الله أَنا منهم ؟ فقال : لا ، ووالله لا أَمّنت منها أَحداً بعدك .

وقرأَ جمهور الناس : [معي] بسكون الياءِ في الموضعين ، وقرأَ عاصم – فيما قال الفضل – : [معِيَ] بحركة الياءِ في الموضعين ، وقوله : [أَوَّلَ] هو بالإِضافة إِلى وقت الاستئذان .

والخالفون : جميع من تخلف من نساءٍ وصبيان وأَهل عذر ، غلب المذكر فجمع بالياءِ والنون وإِن كان ثمَّ نساءٌ ، وهو جمع خالف . وقال قتادة : الخالفون : النساءُ ، وهذا مردود ، وقال ابن عباس رضي الله

عنهما : هم الرجال ، وقال الطبري : يحتمل قوله : ﴿مَعَ ٱلْخَالِفِينَ﴾ أَن يريد : مع الفاسدين ، فيكون ذلك مأْخوذاً من : خَلَفَ الشيءُ إذا فسد ، ومنه : خُلوف فم الصائم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا تأْويل مقحم ، والأَول أَفصح وأَجرى على اللفظة . وقرأَ مالك بن دينار ، وعكرمة : ﴿مَعَ الْخَلِفينَ﴾ وهو مقصور من « الخالفين » ، كما قال : « عرِداً وبرِداً » يريد : عارِداً وبارِداً [١] ، وكما قال الآخر :

مِثْلُ النَّقا لَبَّدُهُ برْدُ الظِّلَل [٢]

يريد : الظلال .

---

(١) يشير بهذا إلى أبيات سبق أن تكلم عليها عند تفسير قوله تعالى في الآية (١٤٥) من سورة (آل عمران) : ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ . وهذه هي الأبيات :

أصْبَحَ قَلْبي صَرِدا
لا يَشْتَهِي أنْ يَرِدَا
إلا عَرِداً عَرِدَا
وَصِلِّيَاناً بَرِدَا
وَعَنْكَثاً مُلتَبِدَا

يريد : عارداً وبارداً فحذف للضرورة ، والعرادة : شجرة صلبة العود ، وجمعها : عَرادٌ ، وعرادٌ عرِد على المبالغة .

(٢) النَّقا : القطعة من الرمل تنقاد محدودبة ، وفي الحديث : (خلق الله آدم من نقا ضَرِيَّة) ، أي من رملها (وضَرِيَّة موضع معروف) ، وحكى يعقوب في تثنيته نَقَيَان ونَقَوَان ، والجمع نِقْيان وأنْقاءٌ ، وهذه نقَاةٌ من الرمل . ويقال : لَبَدَ بالمكان : أقام به ولزق ، فكأن برد الظلال ألصق تراب الرمل بالأرض وثبته عليها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أُبي بن سلول وصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه . روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تقدم ليصلي عليه جاءَ جبريل عليه السلام ، فجذبه بثوبه وتلا عليه هذه الآية ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصلِّ عليه[1]. وتظاهرت الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى عليه ، وأن الآية نزلت بعد ذلك ، وفي كتاب الجنائز من البخاري من حديث جابر قال : (أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن أُبي بعد ما أُدخل حفرته فأَمر به فأُخرج ووضعه على ركبته

---

(١) أخرجه أبو يَعْلى ، وابن جرير ، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه . (الدر المنثور).

ونفس عليه من ريقه وألبسه قميصه)[١]، وروي في ذلك أن عبد الله ابن أُبي بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه ورغب إليه أَن يستغفر له وأَن يصلي عليه . ورُوي أَن ابنه عبد الله بن عبد الله جاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت أَبيه فرغب في ذلك وفي أَن يكسوه قميصه الذي يلي بدنه ، ففعل ، فلما جاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه قام إليه عمر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، أَتصلي عليه وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم ؟ وجعل يعدد أَفعال عبد الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَخِّر عنِّي يا عمر فإني خُيِّرت ، ولو أَعلم أَني إن زدت على السبعين غفر له لزدت)[٢]، وفي حديث آخر : (إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً ، وإني لأَرجو أَن يسلم بفعلي هذا أَلف رجل من قومي) ، كذا في بعض الروايات ، يريد : من منافقي العرب ، والصحيح أَنه قال : (رجال من قومه) ، فسكت عمر ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله ، ثم نزلت هذه الآية بعد ذلك ، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الحديث في البخاري في كتاب الجنائز باب « هل يخرج الميت من القبر واللّحد لعلّة » — وتتمة الحديث كما جاء في البخاري : (فالله أعلم ، وكان كسا عباساً قميصاً ، قال سفيان : وقال أبو هريرة : وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصان ، فقال له ابن عبد الله : يا رسول الله ، أَلْبِسْ أبي قميصك الذي يلي جلدك ، قال سفيان : فيروون أن النبي صلى الله عليه وسلم أَلْبَسَ عبد الله قميصه مكافأَةً لما صنع) . وسفيان هو راوي الحديث عن عمرو عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم .

(٢) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر رضي الله عنهما . (الدر المنثور — وفتح القدير) .

وسلم لموضع إظهاره الإيمان ، ومحالٌ أن يصلي عليه وهو يتحقق كفره ، وبَعْد هذا ـ والله أعلم ـ عُيِّن له من لا يصلي عليه ، ووقع في معاني أبي إسحق وفي بعض كتب التفسير : فأسلم وتاب بهذه الفعلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبةِ من عبد الله ألفُ رجل من الخزرج .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، قاله من لم يعرف عِدّة الأنصار .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ الآية . تقدم تفسير مثل هذه الآية(١) . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أُمته إذ هو ـبإجماعـ ممن لا تفتنه زخارف الدنيا . ويحتمل أن يكون معنى الآية : «ولا تعجبك أيها الإنسان» ، والمراد الجنس ، ووجه تكريرها تأْكيد هذا المعنى وإيضاحه ، لأن الناس كان يفتنون بصلاح حال المنافقين في دنياهم .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ الآية . العامل في [إذا] [ٱسْتَـْٔذَنَكَ] ؛ والسورة المشار إليها هي براءة فيما قال بعضهم ، ويحتمل أن تكون إلى كل سورة فيها الأمر بالإيمان والجهاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسورة القرآن أُجْمع على ترك همزها في الاستعمال ، واخْتُلف هل أصلها الهمز أم لا ؟ فقيل : أصلها الهمز ، فهي من أسْأَر

(١) وهي الآية (٥٥) من هذه السورة .

إذا بقيت له قطعة من الشيء ، فالسورة : قطعة من القرآن ، وقيل : أَصلها أَلَّا تُهمز فهي كسورة البناء ، وهي ما نبني منه شيئاً بعد شيءٍ ، فهي الرتبة بعد الرتبة ، ومن هذا قول النابغة :

أَلَمْ تَر أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سورةً ترى كلَّ ملْكٍ دونَها يتَذَبْذَبُ ؟

وقد مضي هذا كله مستوعباً في صدر هذا الكتاب .

و [أَنْ] في قوله : ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ يحتمل أَن تكون مفسرة بمعنى أَي ، فهي – على هذا – لا موضع لها ، ويحتمل أَن يكون التقدير : بأَنْ ، فهي في موضع نصب(١) . و [الطَّوْل] في هذه الآية : المالُ ، قاله ابن عباس ، وابن إسحق ، وغيرهما . والإِشارة بهذه الآية إلى الجَدِّ بن قيس ، وعبد الله بن أُبيّ ، ومعتب بن قشير ، ونظرائهم . والقاعدون : الزَّمْني وأَهل العذر في الجملة ومن تُرك لضبط المدينة لأَن ذلك عذر .

وقوله تعالى : ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ الآية . تقريع وإظهار شنعة كما يقال على وجه التَّعْيير : رضيتَ يا فلان كذا ؟ و [ٱلْخَوَالِف] : النساءُ ، جمع خالفة ، هذا قول جمهور المفسرين ، وقال أَبو جعفر النحاس : يقال للرجل الذي لا خير فيه : خالفةٌ ، فهذا جمعه بحسب اللفظ ، والمراد أَخسّة الناس وأَخلافهم . وقال النضر

(١) إذا كانت بمعنى (أي) فهي تفسيرية لأن قبلها شرط ، وإذا كان التقدير (بأنْ) فهي مصدرية .

ابن شميل في كتاب النقاش : الخوالف : من لا خير فيه ، وقالت فرقة : الخوالف جمع خالف فهو جارٍ مجرى فوارس ونواكس وهوالك . و [طُبع] في هذه الآية مستعار ، ولما كان الطبع على الصوان والكتاب مانعاً منه وحافظاً عليه شُبّه القلب الذي غشيه الكفر والضلال حتى منع الإيمان والهدى منه بالصوان المطبوع عليه ، ومن هذا استعارة الغفل والكنان للقلب ، و [لَا يَفْقَهُونَ] معناه : لا يفهمون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

الأَكثر في (لكن) أَن تجيء بعد نفي ، وهو هنا في المعنى ، وذلك أَن الآية السالفة معناها أَن المنافقين لم يجاهدوا فحَسُن بعدها : ﴿لَكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا﴾ . والخيرات جمع خَيْرةٍ ، وهو المستحسن من كل شيءٍ ، وكثر استعماله في النساءِ ، فمن ذلك قوله عزَّ وجلَّ : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾[1] ، ومن ذلك قول الشاعر ،

(١) الآية (٧٠) من سورة (الرَّحْمَن) .

أنشده الطبري :

ولقَدْ طَعَنْتُ مجَامِـعَ الرَّبَلَاتِ رَبَلَاتِ هِنْدٍ خَيْرَةِ الملِكَاتِ [١]

و [الْمُفْلِحُونَ] : الذين أَدركوا بغيتهم من الجنة ، والفلاح يأْتي بمعنى إدراك البغية كقول لبيد :

أَفْلِـحْ بما شِئْت فقدْ يُبْلَغُ بالضَّعْـ ـفِ وقدْ يُخْـدعُ الأَريبُ [٢]

وقد يأْتي بمعنى البقاءِ كقول الشاعر :

لكلِّ همٍّ من الْهُمـوم سَعَهْ والمُسْيُ والصُّبْحُ لافلاح معه [٣]

أَي : لا بقـاءَ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وبلوغ البُغية يعم لفظة الفلاح حيث وقعتْ فتأَمله .

---

(١) البيت أنشده أيضاً أبو عبيدة ، وهو لرجل من بني عديّ تيم جاهليّ ، قال الأخفش في قوله تعالى : ﴿فيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ : «إنه لما وُصِفَ به وقيل : «فلان خير» أشبه الصفات فأدخلوا فيه الهاء للمؤنث ، ولم يريدوا به أفعل ، (كما في البيت) ، فإن أردت معنى التفضيل قلت : «فلانةُ خَيْرُ الناس» ولم تقل خيرة ، «وفلان خير الناس» ولم تقل أخير . والرَّبَلات : جمع رَبْلَة بتسكين الباء وبتحريكها ، قال الأصمعي : والتحريك أفصح ، وهي ما حول الضّرع والحياء من باطن الفخذ ، وخيْرة بسكون الخاء هي الفاضلة من كل شيء . وقيل : هي الكريمة النسب ، الشريفة الحسب ، الحسنة الوجه ، الحسنة الخُلُق ، الكثيرة المال .

(٢) نسب صاحب (اللسان) البيت لعبيد ، ورواه «بالنَّوْك» بدلا من «بالضَّعْفِ» وأشارَ إلى رواية الضعف ، والمعنى : عش بما شئت من عقل وحمق فقد يرزق الأحمق ويُحرم العاقل . وقد سبق الاستشهاد بالبيت في غير هذا الموضع من الكتاب .

(٣) البيت للأضبط بن قُرَيْع السَّعْدي ، والمعنى : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاءٌ . هذا وقد سبق لابن عطية أن استشهد بهذا البيت في مواضع أخرى من تفسيره .

و [أَعدَّ][١] معناه : يسَّر وهيأَ ، وقوله : [مِنْ تحْتِها] يريد : من تحت مبانيها وأَعاليها ، و [الْفَوْزُ] حصول الإنسان على أَمله وظفره ببغيته ، ومن ذلك فوزُ سِهام الأَيسار[٢] .

وقوله تعالى : ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ﴾ الآية . اختلف المتأَولون في هؤلاءِ الذين جاءُوا ـ هل كانوا مؤمنين أَو كافرين؟ فقال ابن عباس وقوم معه منهم مجاهد : كانوا مؤمنين وكانت أَعذارهم صادقة ، وقرأَ : ﴿وجاءَ المُعْذرونَ﴾ بسكون العيْن ، وهي قراءَة الضحاك ، وحميد الأَعرج ، وأَبي صالح ، وعيسى بن هلال . وقرأَ بعض قائلي هذه المقالة [المُعَذِّرونَ] بشد الذال ، قالوا : وأَصله «المعتذرون» فقلبت التاءُ ذالًا وأُدغمت ، ويحتمل «المعتذرون» في هذا القول معْنيين ، أَحدهما : المعتذرون بأَعذار حق ، والآخر أَن يكون : الذين قد بلغوا عذرهم من الاجتهاد في طلب الغزو معك فلم يقدروا ، فيكون مثل قول لبيد :

. . . . ومنْ يبْكِ حوْلًا كامِلاً فقد اعْتَذَر[٣]

(١) قال بعض المفسرين: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ...﴾ الآية. تفسير لكلمة (الخَيْرَاتِ) إذ هي لفظ مبهم . وقيل : إن المراد بالخيرات هنا الحور العين بدليل الآية الكريمة : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ ، أخرجه القرطبي في تفسيره عن الحسن . وقيل : المراد بها الغنائم من الأموال والذراري ، ولكن ابن عطية اختار أقرب الأقوال ارتباطاً باللغة .

(٢) ذلك أنهم كانوا يتساهمون على الميسر فكلما خرج قِدْحُ رجل قيل : قد فاز فوزاً .

(٣) هذا عجز البيت ، وهو بتمامه :

إلى الحَوْلِ ثمَّ اسْمُ السَّلام عليكمَا   ومن يَبْكِ حَوْلا كاملا فَقَد اعْتَذَر

أي فعل ما في طاقته واستحق أن يقبل عذره ، ولبيد في البيت يطلب إلى ابنتيه أن يبكيا عليه عاماً واحداً ، وبهذا يقبل عذرهما في عدم البكاء بعده .

وقال قتادة وفرقة معه : بل الذين جاءُوا كفرة ، وقولهم وعذرهم كذب ، وكل هذه الفرقة قرأَ : [المُعَذِّرون] بشد الذال ، فمنهم من قال : أَصله المعتذرون ، نقلت حركة التاءِ إلى العين وأُدغمت التاءُ في الذال ، والمعنى : معتذرون بكذب . ومنهم من قال : هو من التعذير ، أَي الذين يعذرون الغزو ويدفعون في وجه الشرع ، فالآية إلى آخرها – في هذا القول – إنما وصفت صنفاً واحداً في الكفر ينقسم إلى أَعرابي وحضري ، وعلى القول الأَول وصفت صنفين مؤمناً وكافراً . قال أَبو حاتم : وقال بعضهم : سأَلت مسلمة فقال : «المعّذّرون» بشد العين والذال ، قال أَبو حاتم : أَراد : المعتذرين ، والتاءُ لا تدغم في العين لبعد المخارج ، وهي غلط منه أَو عليه . قال أَبو عمرو : وقرأَ سعيد بن جبير : [المعْتَذرون] بزيادة تاءٍ ، وقرأَ الحسن – بخلاف عنه – وأَبو عمرو ، ونافع ، والناس : [كَذَبوا] بتخفيف الذال ، وقرأَ الحسن – وهو المشهور عنه – وأُبيّ بن كعب ، ونوح ، وإسماعيل : [كَذَّبوا] بتشديد الذال ، والمعنى : لم يصدقوه تعالى ولا رسوله وردّوا عليه أَمره ، ثم توعّد – في آخر الآية – الكافرين بعذاب أَليم ، فيحتمل أَن يريد في الدنيا بالقتل والأَسر ، ويحتمل أَن يريد في الآخرة بالنار .

وقوله : [مِنْهُمْ] يريد أَن المعَذِّرين كانوا مؤمنين ، ويرجحه بعض الترجيح فتأَمله[1] ، وضعف الطبري قول من قال إن «المعَذِّرين»

---

(١) يميل أكثر المفسرين إلى أن المعتذرين كانوا مؤمنين ، وهو رأي ابن عباس رضي الله عنهما ، لأن التقسيم يقتضي ذلك ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وقَعَدَ الّذينَ كذَبوا اللهَ

من التعذير وأنحى عليه . والقول منصوصٌ ووجْهُهُ بيّن والله المعين . وقال ابن إسحق : المعذِّرون نفر من بني غفار ، منهم خفاف بن إيماء بن رحْضة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يقتضي أنهم مؤمنون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ليس على أهل الأعذار الصحيحة من ضعف أبدان أو مرض أو زمانة أو عدم نفقة ـ إثْمٌ . والحرجُ : الإثْم [١] . وقوله :

وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾؟ فلو كان الجميع كفاراً لم يكن لوصف الذين قعدوا بالكذب اختصاص ، وكان التركيب الصحيح : « سيصيبهم عذاب أليم » .

(١) هذه الآية أصل في سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شيء سقط عنه ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال ، وسقوط التكليف يكون إلى بدل هو فعلٌ تارة ، أو غُرْمٌ تارة أخرى ، ونظيرها قوله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا ﴾ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ . ومثل هذه الآيات ما رواه البخاري ، والإمام أحمد ، وأبو الشيخ ، ...

﴿إِذَا نَصَحُوا﴾ يريد : بنيّاتهم وأقوالهم سرًّا وجهرًّا . وقرأ أبو حيوة : ﴿نَصحُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بغير لام وبنصب الهاء من المكتوبة[1] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ الآية . في لائمة تُناط بهم أو تذنيب أو عقوبة . ثم أكد الرجاءَ بقوله : ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : «والله لِأَهل الإساءَة غفور رحيم» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا على جهة التفسير أشبه منه على جهة التلاوة لخلافه المصحف .

واختلف فيمن المراد بقوله سبحانه : ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ . فقالت فرقة : نزلت في بني مُقَرِّن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبنو مُقَرِّن ستة إخوة صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس في الصحابة ستة إخوة غيرهم ، وقيل : كانوا سبعة[2] .

= وابن مردويه ، وغيرهم — عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قفل من غزوة تبوك فأشرف على المدينة قال : (لقد تركتم بالمدينة رجالا ما سرتم في مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم فيه) : قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : (حَبَسَهم العذر) ، فلا حرج على من حبسه العذر ، وفضل الله كبير ، ورحمته وسعت كل شيء .

(١) يريد : لفظ الجلالة .

(٢) في (القاموس) — مادة قرن — «عبد الله — وعبد الرحمن ، وعقيل ، ومعقل ، والنعمان ، وسويد ، وسنان أولاد مُقَرّن «كمحدّث صحابيون» .

وقيل : نزلت في عبد الله بن مُغَفّل المزني ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ﴾ الآية . اختلف فيمن نزلت هذه الآية . فقيل : نزلت في عِرْباضِ بن سارية ، وقيل : نزلت في عبد الله بن مُغَفَّل ، وقيل : في عائذ بن عمرو ، وقيل : في أَبي موسى الأَشعري ورهطه ، وقيل : في بني مُقَرِّن ، وعلى هذا جمهور المفسرين ، وقيل : نزلت في سبعة نفر من بطون شتى ، فهم البكَّاؤُون ، وهم سالم بن عُمَير من بني عمرو بن عوف ، وحَرَمِيّ بن عمرو من بني واقف ، وأَبو ليلى عبدُ الرحمن بن كعب من بني مازن ابن النجار ، وسليمان بن صخر من بني المَلَّي ، وأَبو رُعَيْلة عبد الرحمن ابن زيد من بني حارثة ، وهو الذي تصدق بعرضه فقبل الله منه ، وعمرو بن غَنَمَةَ من بني سلمة ، وعائذ بن عمرو المُزَنِيّ ، وقيل : عبد الله ابن عمرو المزني ، قال هذا كله محمد بن كعب القرظي . وقال مجاهد : البكَّاؤُون هم بنو بكر من مزينة .

ومعنى قوله : [لِتَحْمِلَهُم] أَي على ظهر يُركب ويُحمل عليه الأَثاث ، وقال بعض الناس : إنما استحملوه النعال ، ذكره النقاش عن الحسن ابن صالح ، وهذا بعيد شاذ .

والعامل في [إذا] يحتمل أَن يكون : [قُلْتَ] ويكون قوله : [تَوَلَّوْا] مقطوعاً ، ويحتمل أَن يكون العامل : [تَوَلَّوْا] ويكون تقدير الكلام :

فقلت ، أو يكون قوله : ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ بمنزلة : وجدوك في هذه الحال . وفي الكلام اختصار وإيجاز ولابُدّ، يدل ظاهر الكلام على ما اختصر منه . وقال الجرجاني في «النظم» له : إن قوله [قلْتَ] في حكم المعطوف تقديره : وقلت . و [حَزَناً] نصب على المصدر ، وقرأ معقل بن هارون : [لِنَحْمِلَهُمْ] بنون الجماعة .

انتهى الْجزءُ السادس بعون الله وتوفيقه والحمد لله رب العالمين . ويليه الجزءُ السابع ويبدأُ بقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾

فهـــرست الآيات

بقية تفسير ســـورة الأعراف

الآية	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (إن هؤلاء متبّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) إلى آخر الآية ١٤١	٦٢
قوله عزّ وجلّ : (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) إلى قوله تعالى : (فإن استقر مكانه فسوف تراني)	٦٤
قوله عزّ وجلّ : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) إلى خر الآية ١٤٥	٦٩
قوله عزّ وجلّ : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) إلى آخر الآية ١٤٧	٧٨
قوله عزّ وجلّ : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلا جسداً له خوار) إلى آخر الآية ١٤٩	٨١
قوله عزّ وجلّ : (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً) إلى آخر الآية ١٥٠	٨٦
قوله عزّ وجلّ : (قال رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) إلى آخر الآية ١٥٣	٩٠
قوله عزّ وجلّ : (ولما سكت عن موسى الغضب) إلى آخر الآية ١٥٥	٩٢
قوله عزّ وجلّ : (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة) إلى آخر الآية ١٥٦ ...	٩٦
قوله عزّ وجلّ : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) إلى آخر الآية ١٥٧	٩٩
قوله عزّ وجلّ : (قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) إلى قوله تعالى : (وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً)	١٠٧
قوله عزّ وجلّ : (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه) إلى آخر الآية ١٦٠	١١١
قوله عزّ وجلّ : (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم) إلى آخر الآية ١٦٣	١١١
قوله عزّ وجلّ : (وإذ قالت أُمّة منهم لم تعظون قوماً الله مُهلكهم أو مُعذبهم عذاباً شديداً) إلى آخر الآية ١٦٦	١١٦
قوله عزّ وجلّ : (وإذ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيـــامة من يسومهم ســـوء العذاب) إلى آخر الآية ١٦٨	١٢٣

الآية	رقم الصفحة

الآية | رقم الصفحة

الآية — رقم الصفحة

رقم الإيداع ١٠ بدار الكتب القطرية
لسنة ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م

مؤسسة دار العلوم

